

دراسة في الاصول الاجتماعية للدراما

جورج تومسن

ترجمة د. صالح جواد الكاظم

مراجعة يوسف عبد المسيح ثروت

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

إسخيلوس وأثينا

دراسة في الأصول الإجتماعية للدراما

جورج تومسن

ترجمة
د. صالح جواد كاظم

مراجعة
يوسف عبد المسيح ثروت

AESCHYLUS
AND
ATHENS

A Study In The Social Origins
Of Drama

George Thomson

عن هذا الكتاب

ما كتب عن المسرح اليوناني القديم كثير ، وما كتب عـن السياسة وجذورها الاجتماعية في اليونان القديمة كثير ايضا . الا أن ما كتب عن هذا المسرح منظورا اليه من تلك السياسة وجذورها قليل ان لم يكـن نادرا . والكتاب الذي بين يدي القارىء العربي نمط من هذا الجمـع والربط الفريدين بين استيعاب النصوص المسرحيـة وفهم أصولهـا السياسية ــ الاجتماعية . فمؤلفه ، الاستاذ جورج تومسن ، كان أستاذ اليونانية في عدد من الجامعات البريطانية وعضو شرف في اتحاد الكتاب اليونانيين . وقد كتب عددا من الكتب عن اليونانية وآدابها . ومن هذه: (أوزان الشعر الغنائـي اليوناني) ، (اللغة اليونانية) ، (إيجا ما قبـل التاريخ) ، و(الفلاسفة الأوائل) . كما ترجم عنهـا عددا آخر أهمهـا (اوريستيه) اسخيلوس . والى ذلك ، كان المؤلف احد كبار المثقفين الذين أسهموا في العمل السياسي المنظم من اجل الحرية والاشتراكية منـذ الثلاثينات .

وبالرغم من ان الكتاب ، كما يشير الى ذلك القسم الاول مـن

عنوانه . يعالج أعمال اسخيلوس وعصره بصورة خاصة ، الا انه يتناول ايضا الأسس الاجتماعية التي قامت عليها الدراما اليونانية بصورة عامة. وقد اختار المؤلف اسخيلوس مدارا لكتابه لانـــه رأى فيه ــ بحق ــ نموذج كاتب ومفكر ثوري أسهم في تغيير مجريات عصره • الا أن اثر اسخيلوس يتجاوز عصره ليبلغ عصرنا ويجد مكانه فيه ، رغم ما استجد بعده من روائع في الفكر الانساني •

ان أهمية ترجمة هذا الكتاب تكمن ليس في مجرد اغناء المكتبـــة العربية بمثل هذه الدراسة الاصيلة للفكر السياسي اليوناني القديم عبر مسرح اليونان القديمة ، بل في امكان اتخاذها دليلا يستضاء به في أية دراسة لمادة مماثلة • وقد حظي الكتاب بمكانة مرموقـــة بين المعنيين بالفكر والمسرح اليونانيين داخل موطن المؤلف وخارجه ، اذ نشر أولا في عام ١٩٤١ ، وأعيد نشره في عام ١٩٤٥ ثم في عام ١٩٦٦ • وتجري الآن اعادة طبعه للمرة الرابعة • والترجمة الحالية هي عن طبعة العام الاخير • وقد حذفت ترجمة اربعة رسوم بيانية لم أجد في حذفها ما يؤثر فـــي الفصول الواردة فيها •

ص• ج• ا•
تموز ــ ١٩٧٥

مقدمة الطبعة الثالثة

وضعت هذا الكتاب اعتقادا بأنه بدراسة اسخيلوس تأريخياً ـ أي، بمعالجة الشاعر بوصفه صنع وصانع عصره معا ، على حد تعبير شيللي ـ يمكن دفع مسرحياته الى تجديد حيويتها وجذب جمهور اليها اوسع . وقد ترجم الكتاب الى سبع لغات ، واستخدم كتابـــا مقررا لتدريب الممثلين في عدة أقطار . ولذلك آمل ان يكون قد أسهم في انقـــاذ الشاعر من الطرق التقليدية التي تسود شراحه المتخصصين . ولا بد من التذكر دائما بأن الدراما الاسخيلوسية ألفت ليس للصفوف المدرسية بل للمسرح ، وليس للمسرح الاوربي المعاصر بل لمسرح اثينـــا القديمة ، بوصفه جزءاً من مهرجان قومي كبير . وخير ما يمكن العثور عليه مـــن مقدمة لها هو ليس في الكتب اطلاقا ، بل بالتوجه الى اليونان ومشاهدة المسرحيات مؤداة باللغة اليونانية الحديثة في المسارح القديمة، التيجددت لهذا الغرض، أمام جمهور يتراوح عدده بين خمسة آلاف وخمسةوعشرين

الف مشاهد . والعديد منهم فلاحون قطعوا مسافات طويلة عبر الجبال.

ان هذه الطبعة مصممة للقاريء العادي ، ولذلك فقد حذفت منها الهوامش والملاحق .

برمنغهام ، ١٩٦٦ .

جورج تومسن

مقـــدمة

كانت التراجيديا اليونانية احدى الوظائف المتميزة للديموقراطيــة الاثينية . وقد تكيفت في شكلها ومضمونها ، وفي نموها واضمحلالها، بتطور البنية الاجتماعية التي كانت تنتسب اليها .

وفي حوض بحر ايجه ، المقسم الى جزر ووديان لا تحصى ، كان تمركز السلطة السياسية صعبا ، وقد جنحت الوحدات السياسية الــى البقاء مستقلة ذاتيا . واذ كان التوسع الخارجي بذلك مقيدا ، فقد كان تطورها الداخلي بالقياس الى ذلك واسعـــا . وفي دولة المدينـــة الديموقراطية ، بلغ المجتمع القديم ذروته على نطاق كان بالضرورة ضيقا. وكانت هذه الدول قد تقدمت بدرجة بالغة من السرعة بحيث حملت معها تقاليد كثيرة من الماضي، وسهّل استقلالها الذاتي بقاء أشكال بديلة لذات الاحداث، حيث هيأت مواد غزيرة للمقارنة والتحليل . والى جانب هذا، لم يفت المواطنين المفكرين أن يدركوا ، بالرغم من انهم كانوا محاطين بشعوب بدائية ، بأن أسلافهم انفسهم كانوا قد عاشوا يوما كما كـــان

يعيش هؤلاء البرابرة الآن • ثم ، اخيرا، دفع نجاح الحركة الديموقراطية ممثليها نحو البحث في أصولها ، بينما علمتهم المعارضة الشديدة التي جابهتها بأن يعتبروا التناقض ، سواء بين الانسان والانسان او بين الانسان والطبيعة . قوة دفع للتقدم الانساني • وكانت النتيجة وجهة نظر في التطور عقلانية وديناميكية في آن واحد •

كان اسخيلوس ديموقراطياً قاتل كما كتب • وكان انتصار الديموقراطية على الاعداء الداخليين والخارجيين المتحالفين ضدها مصدر الالهام لفنه • وكان مواطنا بارزا من اكثر المجتمعات تقدما في اليونان• كما كان . بوصفه فردا من طبقة النبلاء الاتيكية القديمة ، وريث التقاليد المحلية التي كانت تمتد جذورها من مجتمع القبيلة البدائية منذ زمن سحيق • وكان السؤال الاساس الذي شغله طوال حياته هو : كيف تطور المجتمع القبلي المتجسد في هذه التقاليد الى دولة المدينة الديموقراطية التي كان قد ساعد هو على اقامتها ؟ انه سؤال لا بد أن يعنينا نحن ايضا ، كما انه في ذات الوقت على جانب كبير من الاهمية في فهم الحضارة الاوربية لمنح فنه اهمية تاريخية ثابتة •

ان وجهة النظر اليونانية في الحياة لم تكن ، كما تطرح أحيانا ، التعبير عن صفات موروثة في اليونانيين بحد ذاتهم ، وانما كانت الاستجابة الغنية والمتنوعة التي أبداها شعب غير متجانس تجاه نمو المجتمع اليوناني نفسه المعقد والمستمر ، كما حددته الظروف الخاصة لبيئته المادية والتاريخية • واستخدام الناس اوقات فراغهم ، وآراؤهم في العالم المادي ، وفي الحق والباطل ، وفنهم وفلسفتهم ودينهم ، تتفاوت وتتطور وفقا للتباينات والتطورات في علاقاتهم الاجتماعية التي تتقرر بدورها في النهاية بأسلوبهم في تأمين بقائهم المادي • وهذا لا يعني أن ننفي ان واقعا موضوعيا يتواجد هناك ، او ان بعض الناس قد كوّنوا فكرة عنه أصح مما كوّن الآخرون ، بل ان كل فكرة عنه هي

نسبية بقدر ما تنطلق من افتراضات واعية او غير واعية يحددها مركز الانسان ذاته في العالم الذي يتأمله ٠

والى ذلك الحد ، اذن ، لم تكن وجهة النظر اليونانية في الحياة وحدها نسبية ، وانما كذلك وجهة نظرنا في وجهة النظر اليونانية ٠ ولا يمكن ان تكون وجهة نظرنا موضوعية كليا ، أما الحيدة التي يدعيها بعض الباحثين المختصين العصريين فهي وَهم ٠ الا ان وجهة نظرنا ستكون بالمقارنة موضوعية تقريبا ، عندما ندرك مفاهيمنا المسبقة ونحللها ٠ وعلينا ان نصبح واعين أفكارنا الاعتباطية من اجل تصحيحها ٠ ومؤرخ الماضي هو مواطن الحاضر ٠ وأولئك الذين هم ، بوصفهم مواطنين ، يمقتون التغيرات الاجتماعية المعاصرة او لا يكترثون بها ، يبحثون عن شيء ثابت وقيِّم تماما في حضارة اليونان القديمة ، يعكس ويقوي في آن واحد موقفهم المنطوي على الاذعان ٠ اما الآخرون، الذين لا يمكنهم الاذعان ، فهم يدرسون تاريخ اليونان باعتباره عملية تغير مستمر ، ستساهم ، اذا امكن حملها على الكشف عن القوانين التي تستند اليها ، على ان يفهموا ، وبذلك ان يوجهوا ، القوى التي تسهم في تغيير المجتمع القائم ٠ ولأمثال هؤلاء ، ستكون دراسة اسخيلوس ، الذي كان شاعرا ثوريا ، ملائمة على نحو خاص ، كما ستكون المفاهيم المسبقة التي يتناولونه بها ، وهي مماثلة لمفاهيمه ، ميزة ايجابية ٠

من المعروف ان اليونانيين ، شأنهم في ذلك شأن الشعوب المتمدنة الاخرى ، كانوا قد انتظموا في فترة من الزمن في قبائل ٠ أما الطبيعة الدقيقة لمؤسساتهم القبلية فهي مسألة تكون ازاءها الادلة الداخلية بحد ذاتها على درجة من النقص بحيث لا تحلها ٠ ومع ذلك ، فمن اجل فهم سليم لدولة المدينة ، من الضروري التثبت ليس من ماهيتها هي وما اخذت تكون عليه ، وانما ايضا مما توقفت أن تكون ٠ وعلى ذلك يجب ان تدرس الادلة الداخلية في ضوء ما هو معروف عن المؤسسات القبلية

بصورة عامة . وكان هذا المبدأ قد طبق على أوائل التاريخ اليونانـــي وبنتائج هامة من جانب مورغان في القرن التاسع عشر ، ومـــن جانب بعض سابقيه . من أمثال ميلر وفيرغسن، في القرن الثامن عشر ، ولكن، بالرغم من جميع المواد التي تكدست منذ ذلك الوقت ، فقد أهملت حتى الآن من جانب المؤرخين المحدثين ، ولاسيما في هذا القطر ، حتى ان معظمهم لا يعرف حتى النتائج التي سبق الحصول عليها .

وبتصنيف القبائل الباقية في الاوقات الحديثة وفقا لأسلوبها السائد في انتاج الطعام ، أُثبتت بعض العلاقات المتبادلة الهامـــة بين الحضارة المادية والمؤسسات الاجتماعية . ومن المسكن ، مع تحفظات معينة ، تطبيق هذه النتائج على معضلات علم الآثار . وفي بعض أقسام الآثار اليونانية انجزت فعلا بحوث هامة وفقا لهـــذه الاسس مـــن جانب هاريسن ، و رِجوَي ، وكوك وآخرين ، الا ان استخدامهم الادلة الانثروبولوجية كان متنطما بشكل لا يفي بالغرض ، ومرد ذلك بصورة رئيسة اهمالهم مورغان . وهذا يفسر ، وان كان ذلك دون تبرير ، النظرة الشكوكية الجديدة تجاه صحة طريقتهم . وهكذا يلاحظ بيكارد ــ كمبردج ، وهو يكتب عن أصل التراجيديا ، الذي هو احدى المعضلات التي سيجري بحثها في هذا الكتاب ، قائلا : «ان جميع الحجج التي يمكن استخلاصها من الغابات الاسترالية ، وأفريقيا الوسطى ، والمناطق النائية الاخرى ، لا تستطيع ان تثبت شيئا عن التراجيديا اليونانية في حالة عدم وجود جميع الادلة من اليونان نفسها» . واعتماد المكانيكة هذا في التحليل يذهب الى حد بعيد ليفسر السبب في ان مشكلة اصل التراجيديا اليونانية لا تزال غير محلولة . وهناك الكثير من الادلة في اليونان نفسها أمام الاعين التي دُرِّبت على تشخيصها .

ان الدراسة المقارنة للتطور الاجتماعي تتعقد بعاملين ، يسهمان معا في التطور غير المتكافيء . ففي المقام الاول ، أعيق نمو العديد مـــن

الجماعات البدائية بمصاعب موطنها الاقتصادية • فقد عجزت قبائل الصيادين من الطور الادنى في استراليا المعاصرة عن التقدم الى ما بعد أسلوب الانتاج الذي جرى تجاوزه في اوربا في ختام العصر الحجري• ولكن بالرغم من ان تطورها الاقتصادي قد اوقف ، الا ان مؤسساتها الاجتماعية لم تبق راكدة وانما استمرت في التطور ، ولكن ليس الا في اتجاهات يحددها ذلك الاسلوب من الانتاج • وبالتالي ، فمن السابق لأوانه التحاجج دون تحليل آخر من التنظيم الاجتماعي لاستراليا المعاصرة الى تنظيم أوربا العصر الحجري ، الا ان من الخطأ بالمثل نفي امكان تنسيق المجموعتين من المعطيات •

وفي المقام الثاني ، أخضعت الشعوب الاكثر تأخرا باستمرار للتأثير الحضاري للشعوب الاكثر تقدما ، وكانت النتيجة هي ان تطورها قد جرى تسريعه او حرفه او اعاقته • وفي حالات متطرفة ، أبيدت الشعوب ذاتها • وهذا عامل مُعقّد ، يحتاج الى تحليل • ولكن يجب التذكر بأنه لما كانت وظيفة جميع المؤسسات الاجتماعية ، اجنبية كانت أم محلية ، هي سد حاجةٍ ما ، فان اصل هذا العرف او ذاك لا يفسّر بالقول بأنه قد استعير من الخارج • وكما لاحظ فرغسن ، «ان الامم تستعير فقط ما تكون تقريبا في وضع لاختراعه بنفسها » •

ان مراحل التطور المتعاقبة التي كان اليونانيون القدامى قد مروا بها متشعبة ، ليس في مخلّفاتها المادية فحسب ، بل في لغتها ايضا • وقد سبق أن بلغت دراسة أسرة اللغات الهندية ــ الاوربية المقارنة نقطة يمكن عندها استخلاص استنتاجات عامة معينة تتعلق بحضارة الناس الذين كانوا يتحدثون باللغة الأم • وعندما تكون هذه الدراسة قد نُسّقت مع دراسة المجموعات الاخرى من اللغات ، فسيرفع علم دراسة اللغات التاريخية الى مستوى جديد من الكفاءة • وحتى في الوقت الحاضر ، يمكن ، في حقل محدود جدا كاليونانية ، أن يأتي التطبيق المنسق

لدراسة اللغات التاريخية والانثروبولوجيا الاجتماعية بنتائج جديدة وهامة .

لقد قيل في بعض الاحيان ، ولاسيما في السنوات الاخيرة ، ان امكانات بحوث آخرى في الدراسات الكلاسيكية محدودة . وأنا أعتقد بأنها غير محدودة في هذا كما هي غير محدودة في اي فرع آخر من العلوم . تاريخيا كان ام ماديا . ولكن اذا اردنا استغلالها ، ترتب علينا آن نحرر أنفسنا من الطرق التقليدية ، التي أدت دورها جيدا في الماضي ولكنها مستهلكة في الوقت الحاضر . ويجب ان يُدرس فن اسخيلوس، كما تدرس كل الفنون ، بوصفه تتاج تطور اجتماعي ، ولهذا الغرض ينبغي تحطيم روتينية البحث الكلاسيكي ، والحواجز بين البحث الكلاسيكي والفروع الاخرى للعلوم الاجتماعية . وهذه مهمة تنطوي على شيء من الصعوبة على أولئك الذين ترعرعوا في التقاليد القديمة ، ولكن لا بد من توليها . اننا نعيش في مرحلة تحلل حضاري واجتماعي ، ولكن امكانية اندماج جديد آخذة بالظهور فعلا من هذا التحلل . وبتوجيه دراستنا لاسخيلوس نحو هذا الهدف ، نستطيع ان نأمل بأن ننجز ، كما أنجز هو ، انسجاما حقيقيا بين النظرية والتطبيق ، بين الشعر والحياة .

مراجع

Pickard-Cambridge, A. W. Dithyramb and Comedy. Oxford, 1927.
Ferguson, A. Essay on the History of Civil Society. Basel, 1789.

القسم الأول

المجتمع القبلي

- ٢ -

الطوطمية

تنسبت قبائل الأزمان الحديثة المتبقية الى الاصناف التاليـة بسبب أسلوبها السائد في انتاج الطعام : صيادو الطور الادنى (جَمْع الطعام والصيد) ، صيادو الطور الاعلى (الصيد وصيد السمك) ، الرعويـة (طوران) ، الزراعية (ثلاثة أطوار) • ويتميز طور الصيد الاعلى من طور الصيد الادنى باستخدام القوس اضافة الى الرمح • وفي الطور الرعوي الثاني ، تستكمل تربية المواشي بالزراعة • ومن بين الاطوار الزراعية الثلاثة ، يتميز الطور الاول بزراعة الحدائق ، والثاني بزراعة الحقول ، وفي الثالث تستكمل زراعة الحقول بتربية المواشي • ويمثل الاخـير مرحلة في تطور القبيلة يكون فيها تركيبها الاجتماعي والسياسي في حالة انحلال فعلا •

ان هذا التصنيف هو ، طبعا ، تجريدي • ذلك ان الاصناف ليست مغلقة بوجه بعضها الآخر • وهكذا ، يستبقى جمع الطعام بين صيادي الطور الاعلى والصيد في كامل الطورين الرعوي والزراعي ، ولكن باهمية متضائلة في كل حالة من الحالات • كما انها لا تؤلف تعاقبا حدثيًا دقيقا • فتربية الماشية والزراعة قد سبقهما الصيد بصورة عامة ، وهذا بدوره سبقه جمع الطعام • الا ان العلاقة بين تربية الماشية والزراعة متغيرة . حيث انها تتحدد الى درجة كبيرة بعوامل جغرافية • وبعض أجزاء العالم غنية بالحيوانات التي يمكن تدجينها ، والاخرى غنية بالنباتات التي يمكن زرعها • والاخرى ، ، ايضا ، غنية بكليهما ، وفي هذه الاجزاء كان ممكنا الجمع بين أسلوبي الانتاج منذ البداية على شكل زراعة مختلطة •

ان الدين المميز للمجتمع القبلي في اكثر مراحله بدائية هو الطوطمية • وكل عشيرة تتألف منها القبيلة مرتبطة بشيء طبيعي ما ، يسمى «طوطم» ها • ويعتبر أفراد العشيرة انفسهم مشابهين لنوع طوطمهم ومنحدرين منه • وهم ممنوعون من اكله ، ويؤدون مراسيم تقليدية تستهدف زيادة أعداده • ولا يجوز لافراد الطوطم نفسه التزاوج فيما بينهم •

وتستمر الطوطمية في التواجد على اكمل وجه بين قبائل الصيد من الطور الادنى في استراليا ، كما توجد بأشكال متحللة تقريبا بين القبائل الاكثر تقدما في امريكا وميلانيزيا وأفريقيا والهند وأنحاء اخرى من آسيا ، وتوجد بين الشعوب الهندية ــ الاوربية والسامية والصينية تقاليد ومؤسسات متعددة نسبت الى أصل طوطمي • وجميع هذه الشعوب منتظمة ، او قد انتظمت ، في قبائل ، وعلى ذلك فان وجهة النظر القائلة انها هي ايضا كانت طوطمية سابقا ستتعزز الى درجة كبيرة اذا امكنت البرهنة على ان الطوطمية صفة للنظام القبلي موروثة•

وفي دراسة هذا الموضوع ، فان الدلائل التي تقدمها استراليا ذات أهمية رئيسية ، حيث انها تقدم المراتب الاجتماعية الاكثر بدائية التي لنا معرفة بها مباشرة • ولكن حتى في استراليا ، وكما سنرى ، ليس الشكل الذي بقيت به الطوطمية هو شكلها الاصلي • واذا استطعنا من تحليل للشكل الحالي للطوطمية الاسترالية أن نستنتج شكلها الاصلي ، وأن نربط كليهما بعملية تغير اقتصادي واجتماعي متكاملة ، فقد تعتبر النتيجة اقترابا من تاريخ الطوطمية ، ليس في استراليا فحسب ، بل في انحاء أخرى من العالم ايضا •

ان الاكثرية الكبيرة من الطواطم الاسترالية هي انواع من النباتات والحيوانات يمكن اكلها • والبقية هي في معظمها أشياء طبيعية ، كالصخور والنجوم ، او عمليات طبيعية ، كالمطر والريح • وهذه الطواطم غير العضوية ثانوية ، حيث انها مشكلة عن طريق المماثلة بعد ان تطور النظام الطوطمي تطورا كاملا • وفي سعينا وراء معرفة اصل النظام ، علينا ان نركز على النباتات والحيوانات ، وان حقيقة ان معظم هذه هي مما يمكن اكله ، تبيح لنا ان نفترض ان اصل هذا النظام يرتبط بتجهيز المواد الغذائية •

وتؤدي الطقوس لزيادة نوع الطوطم في بداية فصل الالقاح في بقعة معينة ، تسمى «مركز الطوطم» ، على أرضية صيد العشيرة التي ينتسب اليها الطوطم • ويقع مركز الطوطم عادة في مكان إلقاح فعلي للنوع المعني • وقد أثبت هذه المسألة مراقبون في الفترة الاخيرة ، الا ان أهميتها لم تُقَدَّر • واذا تساءلنا عما جلب أسلاف عشيرة الوَلَّب (*) الى البقعة التي تجري فيها الآن طقوس لزيادة هذا الحيوان ، فلا يمكن ان يكون الجواب الا أنهم جاؤوا الى هناك ليأكلوا

* : الولّب : كنغر صغير يألف الغابات في استراليا •

هذه الحيوانات •

وفي الوقت الحاضر ، يُحرَّم على أفراد العشيرة ان يأكلوا نوع طوطمهم ، وان لم يكن محرما عليهم بالضرورة قتله • الا ان لهذه القاعدة استثناءات هامة • ففي بعض القبائل الوسطى ، وفي أداء طقس التكاثر، ليس رئيس العشيرة مأذونا فحسب بل هو ملزم بأن يأكل قليلا من النوع • وكما يبيِّن هو ، عليه «أن يُدخل الطوطم في باطنه» لكي يؤدي سحره • أما أن هذا الخرق الشعائري للتحريم مأخوذ عن الممارسة العامة في الازمان السابقة فتبرهن عليه التقاليد القبلية ، التي يمثل فيها أسلاف العشيرة وهم يعيشون عادة او على وجه التحديد على نوع طوطمهم • وتبين هذه التقاليد ان انواعا معينة ، وهي أبعد ما تكون محرّمة . كانت سابقا المصدر الرئيسي لتجهيز المواد الغذائية • وهي تشير الى وقت كان قد فرض فيه مستوى التقنية الواطيء جدا قيودا قاسية على البحث عن الطعام ، الامر الذي أدى الى غذاء محدود • وقد كان أصل العشيرة الطوطمية مجموعة من جامعي المواد الغذائية اجتُذبت الى بقعة تكاثر انواع معينة من الحيوان او النبات ، اصبحت مصدر طعامها • وقد بقي ان نرى كيف تحول هذا الامر الى نقيضه •

ان طقوس التكاثر مصممة لتمثيل نمو الطوطم او جمعه على نحو درامي ، اذا كان نباتا ، او اذا كان حيوانا ، لتمثيل عاداته المميزة ، وإيماءاته وصيحاته ، وفي بعض الحالات فعل صيده وقتله • ومن المحتمل ان الوظيفة الاصلية لهذه الفعاليات كانت تدربا على سلوك الحيوان ، الذي كان من الواجب دراسة عاداته قبل التمكن من صيده• وفي مرحلة تالية ، وبسبب تحسينات في التقنية ، حلت مكان هذه الوظيفة وظيفة التدرب السحري ، حيث كان أفراد العشيرة ، بمحاكاتهم سلفا العملية الناجحة الخاصة بالبحث عن الطعام ، يثيرون في أنفسهم الطاقة الجماعية والمنسقة اللازمة للمهمة الفعلية • ويقوم السحر البدائي

على الفكرة القائلة انك بخلقك الوَهم بأنك تسيطر على الواقع ، تستطيع السيطرة عليه فعلا • انه أسلوب وهمي مكمل لنواقص الاسلوب الواقعي • وبسبب مستوى الانتاج الواطيء ، لا يزال الفرد واعيا على نحو غير كامل موضوعية العالم الخارجي ، وبالتالي يبدو آداء الشعائر الاولية وكأنه سبب النجاح في المهمة الفعلية • الا ان السحر في ذات الوقت ، بوصفه دليلا للعمل ، يجسد الحقيقة الثمينة وهي ان العالم الخارجي يمكن في الواقع أن يُغيَّر بموقف الانسان تجاهه • والصيادون الذين حفزت طاقاتهم ونظمتها الطقوس القائمة على المحاكاة هم فعلا صيادون أفضل مما كانوا عليه من قبل •

ولكل فرد من العشيرة حس قوي بالارتباط بل حتى بالتوحد مع نوع طوطمه • والناس الذين عاشوا على الكناغر ، مزدهرين حيثما ازدهرت ، ومتضورين جوعا حيثما تضورت ، ومُشَخصينها دراميا للسيطرة عليها ، كانوا في الواقع لحما من لحمها ودما من دمها ، وقد عبروا عن هذه العلاقة المميزة بالقول بأنهم كانوا هم كناغر • وبالتالي ، فعندما عرضت السلطة التي مارسها كبار أفرادهم على شكل عبادة الاسلاف ، فقد عُبد الاسلاف على شكل كناغر •

وعلى ذلك يمكن الاستنتاج بأن المرحلة الاولى في تطور الطوطمية كانت انقسام الجماعة البدائية ، التي توزعت من اجل الظفر بالوصول الى المصادر الرئيسية للمواد الغذائية • وطالما كانت الجماعات الجديدة التي شكلت على هذا النحو تفقد اتصالها ببعضها الآخر ، فقد كان التغير كميا فقط ــ جماعتان بدلا من واحدة • ولكن هذا التغير أصبح، في مرحلة معينة ، مشابهة لتحول بايولوجي ، تغيرا نوعيا • وبدلا من الاستمرار في الحصول على طعامها بصورة مستقلة بمجرد الاستيلاء عليه ، اصبحت مندمجة بوصفها مجمعا لعشائر يعتمد بعضها على بعض، وتنتج كل واحدة للاخريات • وقد تم الحفاظ على مبدأ التعاون هذا ،

الذي يقوم عليه كامل هيكل المجتمع القبلي ، عن طريق تحريم أكل نوع الطوطم • وقد اصبحت كل وحدة عشيرة طوطمية ؛ كانت وظيفتها انتاج كمية من نوعها الخاص بها للعشائر الاخرى • اما كيـــف انجز تبادل المنتجات هذا فسوف نبحثه فيما بعد •

وإذ تحسن أسلوب الانتاج وأصبحت مصادر جديدة للطعام متوافرة، فقد اختفت هذه القيود الاولية • وبهذه الطريقـــة ، فقد حوّلت الطوطمية . بعد ان فقدت أساسها الاقتصادي ، الى نظام سحري ــ ديني صرف . يحمل اقرارا لتركيب المجتمع القائم • وإذ لم يعد صيد الكناغر أسلوبا متخصصا ، فقد اصبحت وظيفة الرجال ــ الكناغر بالنسبة لنوع طوطمهم سحرية صرفة ــ وذلك بأداء الشعائر التقليدية لجعل الكناغر تتكاثر وتتضاعف لمنفعة العشائر الاخرى • وفي ذات الوقت ، فقد جرى تكييف الشعائر ذاتها وتطويرها • فمن كونها تمثيلات لأنشطـــة نوع الطوطم بحد ذاته ، اصبحت احتفالات بذكريات أحداث في حياة أسلاف العشيرة . وهي لمّا تزل مُدركة بشكلها الطوطمي ، وبذلك عملت على تعزيز القانون الاجتماعي بنقلها الى الشباب التاريخ التقليدي للعشيرة • وبمزيد من انحلال العشيرة ، بوصفها وحدة اقتصادية ، فقـــد اختفت حتى هذه الوظيفة • وكل ما تبقى هو شعور بالقرابة يوحي به النسب المشترك ، وعبادة سلفيّة مميزة ، وممارسة الزواج من الأباعد ، وحظر شكلي صرف على أكل نوع معين من الحيوان او النبات • وهذه هي الصفات المميزة للعشيرة في المراحل الاكثر تقدما للمجتمـــع القبلي ، وبالامكان تعقبها جميعا في مدوّنات اليونان القديمة •

لقد تحددت عضوية العشيرة بالنسب • وكان الانثروبولوجيـــون الاولون يعتقدون بأن النسب كان يُقتفى أثره عن طريق الأم قبـــل أن يُقتفى عن طريق الأب • وقد رفض هذا الرأي معظم الخبراء الموثوق بهم المعاصرين ، وان لم يكن كلهم • وأنا أعتقد أن ذلك صحيح •

ان العديد من الامثلة من القبائل الحديثة تشير الى الانتقال من النسب الأمي الى النسب الابوي ، ولكن أيا منها لا يشير اطلاقا الى العملية المعاكسة • وهذا يخلق بنفسه افتراضا مؤداه ان النسب الأول هو الاقدم • ويسود النسب من الأم قليلا في أطوار الصيد ، ولكنه ينخفض في الاطوار العليا ، حيث يكون سريعا جدا في الطور الرعوي وبطيئا في الطور الزراعي • وهذا يوحي بأن أسلوب اعتبار النسب يرتبط بأسلوب الانتاج •

ويتسم كل من أساليب الانتاج هذه بتقسيم عمل مميز بين الجنسين• ففي مرحلة ما قبل الصيد لم يوجد انتاج ، وانما مجرد استحواذ على البذور والفواكه والحيوانات الصغيرة ، ولذا لم يكن ممكنا ان يوجد تقسيم عمل اطلاقا • ولكن باختراع الرمح أصبح الصيد مهمة الرجال ، بينما واصلت النساء مهمة جمع الطعام • وتقسيم العمل هذا عام" بين قبائل الصيد ، ولا ريب في ان سكون الامهات النسبي قد فرض ذلك بادىء الامر • وقد أدى الصيد الى تدجين الحيوانات ، وعلى ذلك تكون عادة" تربية الماشية عمل الرجال • ومن جهة أخرى ، فان مهمة جمع الطعام ، التي ، كما رأينا ، احتفظت بها النساء ، أدت الى زرع البذور في المناطق المحيطة بالمستوطنة القبلية ، وعلى ذلك تكون زراعة الحدائق عمل النساء بصورة عامة تقريبا • وأخيرا ، فعندما أخلت زراعة الحدائق مكانها لزراعة الحقول والمعزق للمحراث الذي تجره الماشية ، فقد تحول عمل الزراعة الى الرجال • وتتطابق مظاهر الجهد الدائمة التحول هذه بين الجنسين مع الانتقال التدريجي من النسب الأمي الى النسب الابوي • وقد بدأت العملية بالصيد ــ وهذا ما يفسر الانتشار الواسع نسبيا للنسب الأبوي بين القبائل الحديثة التي اوقف تقدمها في تلك المرحلة ــ وقد توسع بحلول تربية المواشي ، الا انه أصيب بتوقف مؤقت في المرحلة الاولى من الزراعة •

ويزداد بين قبائل الصيد الاسترالية ، حيث يكون أسلوبا النسب متوازنين على حد سواء تقريبا ، انتشار النسب الأبوي بشكل يتناسب وتعقد النظام المحكم للزواج من الاباعد الخاص بتلك القارة — وهو نظام نما في بعض المناطق في السنوات التي يتذكرها الاحياء • ولما كانت الاشكال البسيطة اكثر بدائية من المعقدة ، فيبدو انه يستنتج من ذلك ان النسب من الأم اكثر بدائية من النسب من الاب • وتؤشر الادلة الاخرى في الاتجاه نفسه • وهكذا : ففي قبيلتين منفصلتين انفصالا واسعا يتفق أن لدينا معلومات كاملة عنهما بشكل استثنائي ، نجد انظمة مفصلة تتطلب من الرجال المتزوجين ان يسلموا كامل صيدهم او الجزء الافضل منه الى آباء زوجاتهم • وتوجد تنظيمات مماثلة في مالينيزيا ، وهي تشير الى حالة مجتمع توجه فيه الرجال الى العيش مع العشيرة التي كانت زوجاتهن ينتسبن اليها — وهي عشيرة أميَّة تركزت في النساء •

ويوجد عند قبيلة استرالية أخرى ، هي قبيلة (يوكويومبل) ، اعتقاد مؤداه ان الرجال كانوا سابقا يأخذون معهم زوجاتهم وأطفالهم عندما يتوجهون للصيد ، ولكنهم كانوا في وقت لاحق يتركون الاطفال بإمرة امرأة عجوز • ويتفق هذا الاعتقاد مع ما قلناه قبل قليل عن التقسيم الجنسي للعمل الذي جاء نتيجة تطور الصيد • وحين شكلت المستوطنة المؤقتة الاولى ، تطلب عدم تنقل النساء وغياب الرجال الطويل ان تكون بإمرتهن • وكانت العشيرة متمركزة في النساء ، وكان الاطفال ينتسبون الى العشيرة التي ولدوا فيها •

لقد ذهبتُ الى أن تطور القبيلة ، او مجموعة العشائر الآخذة بنظام الزواج من الأباعد ، من الجماعة المتنقلة البدائية ، التي كانت تأخذ طبعا بنظام الزواج اللحمي ، قد حدده الارتقاء من مجرد الاستحواذ الى الانتاج التعاوني ، وأن الاعتماد الاقتصادي المتبادل بين العشائر في النظام الجديد قد ضمنه تحريم نوع الطوطم ، الذي ألزم كل عشيرة بأن

تسلم الى الاخريات حصة من الطعام الذي كانت تحصل عليه في أرضية صيدها هي • وقد بقي ان ننظر في السبب الذي أدى الى أن تكـون العشائر أباعدية الزواج • ولماذا لم تستمر في التكاثر داخليا كالجماعة المتنقلة الأم ؟ للاجابة عن هذا السؤال علينا ان نكرر بإيجاز رأينا • فلقد رأينا مبررا للاعتقاد بأن كل عشيرة كانت تقتات اصلا على طعام خاص ، وبأن الرجال عاشوا مع العشيرة التي تزوجوا فيها ، وكانـــوا ملزمين بتسليم منتجاتهم الى أفراد تلك العشيرة • وهكذا ، ساعدت ممارســة الحصول على أزواج من عشائر أخرى كلا منها على توسيع طعامهـــــا بالتمكن من الحصول على أطعمة لم تكن تنتجها هي نفسها • لقد كانت الوظيفة الاولية للزواج من الاباعد هي توزيع الاطعمة •

ان القبيلة كائن حي متعدد الخلايا تطور من القبيلة المتنقلة البدائية على اساس تقسيم للعمل تكيّف بمستوى الانتاج الواطيء ، وتحقيـــق بقاعدة الزواج من الاباعد والتحريم الطوطمي ، وأكمله السحر التشبيهي، وعرض آيديولوجياً في شكل عبادة للاسلاف حيوانية الهيأة •

لقد كان حجر الاساس لهذا النظام هو التعاون • وطالما كانت الجهود المنسقة لكامل الجماعة ضرورية للحفاظ عليها بمستوى مجـرد البقاء ، فقد كان من المستحيل ان تعيش قلة على عمل العديد ، وكان انعـــدام المساواة الاجتماعية الوحيد هو المكانة التي يحصل عليها عن طريـــق الجدارة الشخصية • وصحيح ان مركزا امتيازيا كان يتمتـــع به اكبر الاعضاء سنا منذ مرحلة مبكرة ، ممن كانوا ، كما يقول المثل اليوناني، ضعفاء في العمل ، حكماء في الرأي ، الا ان هذه الامتيازات كانت متوقفة على اجماع الرأي• وقد كانت هذه الجماعات البدائية ديموقراطية الى درجة لم يكن عليها المجتمع اليوناني اطلاقا •

وبين قبائل الصيد من الطور الادنى ، لا تزال مؤسسة الطوطمية ، بالرغم من انها تحولت بعيدا عن اصلها في الاسلوب الفعلي للانتاج ،

نظاما متماسكا من الممارسات والمعتقدات المحددة والثابتة كما هـو تركيب القبائل ذاتها . وقد نمت مع القبيلة ، وهي تنحط معها . وعندما ينحل تركيب القبيلة ، بسبب تغيرات سياسية سنعالجها فيما بعد ، تتهاوى الفكرة القائلة ان الناس والحيوانات أقرباء ، وتنحل الطقوس القائمة على المحاكاة : مع صرخاتها الجنونية ، وحركاتها التهتكية ، والايقـاع الاستغراقي ، الى كثرة من الانشطة الملازمة ، تظهر منها فنون الشعـر والموسيقى والرقص .

ان عبادة الاسلاف التي تتسم بها المراحل الاولى من المجتمع القبلي هي في الوقت نفسه تعبير عن السلطة التي يمارسها الزعماء القبليـون وتأكيد لها . وهي سحرية اكثر منها دينية . فما من صلوات توجه الى الطوطم ، وانما أوامر فقط . ويقوم العبّاد بمجرد فرض ارادتهم عليه عن طريق القوة الاجبارية للأداء الشعائري ، ويتطابق مبدأ الاجبار هذا مع وضع مجتمع لا تزال فيه الجماعة فوق كل فرد من أفراده وفوقهـم جميعا . وقد تطورت أشكال العبادة الاكثر تقدما استجابة لنشوء طبقة حاكمة ـ السحرة والكهنة والرؤساء القبليين والملـوك الوراثيين . ويخدم الان بالصلوات والكفارات ، وهو يتخذ شكل انسان ، ويصبح إلهاً . والإله للجماعة بصورة عامة هو ما الرئيس او الملـك لرعاياه . وتنشأ فكرة الألوهية من واقع الملكية . وتبدو سلطة الملك مستمدة من الله ، وتُقبل سلطته على انها ارادة الله . وهكذا ، يتعزز الواقع بالفكرة التي نمت منه . وكل منهما يؤثر في الآخر .

وحيث توسّع العشيرة المالكة حكمها ، فان الآلهة الطواطم للعشائر التابعة يجري ضمها وتذويبها في إلهها الطوطم الخاص بها ، الذي يصبح بذلك إله القبيلة ، او رابطة القبائل ، او ـ اخيرا ـ الدولة . ومع ذلك لا يزال هذا الإله الجديد يحمل سمات أصله . وهو لا يزال يعتبر ذا شكل جسدي ، او قابلا للتجسيد ، في شكله الحيواني ، او يرافقـه

الحيوان بوصفه خادمه التقليدي ، او تخترع خرافات يوصف فيها سلف العشيرة بأنه ابن حيوان العشيرة او ابن امرأة ضاجعت إله العشيرة في شكله الحيواني • ولا تزال الرمزية الدينية تتخللها آثار تذكّر بأصل الربوبية الحيواني •

وبتطور الحراثة ، تتخذ السماء ، باعتبارها مصدر الامطار ، والارض ، بوصفها وعاء البذور ، أهمية جديدة وشاملة ، حيث تضمان المصالح المشتركة لمنطقة كاملة من القبائل ، ولكن حتى آلهة السماء وإلاهات الارض الجدد الذين يظهرون في هذه الظروف يدلون عادة على بعض سمات اصل سابق لاضفاء صفات بشرية على غير الانسان • فالإله (زيوس) اليوناني هو سليل إله السماء الهندي ــ الاوربي ، ولربما كان إلهاً أُضفيت عليه صفات بشرية قبل ان تدخل اليونان الشعوب الناطقة باليونانية • ومع ذلك ، تشير بعض صفاته المميزة الى ارتباط بدائي جدا، ولربما كان اصيلا ، بشجرة البلوط • واضافة الى هذا ، فبسبب اندماج الحضارات الذي حققته الهجرات والاتحادات والغزوات وحروب الفتح، غالبا ما حدث ان استعار الإله عناصر طوطمية من المراتب الاكثر بدائية التي كان قد دفع الى الاتصال بها ، وذلك حتى بعد ان اصبح إلهاً خلعت عليه صفاته بشرية • وهكذا ، فان لـ (زيوس) اليوناني مجموعة منوعة من الاصول • وهو في نظر الفاتحين الأكيّين إله سماء مع كل الصفات المميزة لملك رعوي أبوي ، الا انه في نظر قبائل (اركاديا) الجبلية المتأخرة هو (زيوس ليكايوس) ، وطوطمي على نحو مؤكد تقريبا ، وفي نظر سكان (بريسوس) في (كريت) ، الذين كانوا يحرّمون لحم الخنزيرة ، فقد كانت خنزيرة هي التي ولدته •

وإذن ، فمن سوء الطالع ان معظم الباحثين الاختصاصيين ، في دراستهم مسألة الآثار الطوطمية في الديانة اليونانية ، قد قصروا انتباههم على الارتباطات الحيوانية للآلهة • ان آلهة الباتنيون (المعبد) اليوناني

هم جميعا حصيلة عملية طويلة ومعقدة منطوية على انصهار القبائل في شعوب ، واخضاع شعب على يد شعب آخر ، وانتشار وتجمع تشكيلة مجهولة من الحضارات • وفي هذه الاحوال ، فان التساؤل ، كما فعل البعض ، عما اذا كان هذا الإله او ذاك يونانيا او سابقا على العصر اليوناني ، اي طوطميا او غير طوطمي ، هو توجيه سؤال ليس له معنى • وان اوضح الادلة على الطوطمية يكمن في اتجاه آخر •

لقد كانت (كريوسا) ، أم (آيون) ، تنتسب الى عشيرة (الايريخثيين) • وحين تركت طفلها في العراء فقد زينته بقلادة من ذهب مصوغة بشكل يحمل شبه أفعيين ، وهي بعملها هذا كانت تسير على عرف عشيرتها التقليدي • ومن الممارسات الشائعة بين القبائل البدائية تمييز الاطفال بالندوب او الوشم او الاصباغ او الحلي التي تمثل طوطم العشيرة • وفي هذا المثال ، فسّر العرف بأنه تكريم لذكرى (ايريخثيوس) لأبيه • وقد ذكر أن (ايريخثيوس) كان رجلا له ذيل أفعى• ويستفاد مما جاء في احدى الاساطير ان (ايريخثيوس) قد حرسه عند ولادته زوجان من الافاعي ، بينما تذكر أسطورة اخرى انه هو نفسه ولد على شكل افعى • وبكلمة اخرى ، كان شعار (الايريخثيين) أفعى ، وكان سلف عشيرتهم رجلا أفعى • وكانت الافعى طوطم العشيرة • وكان من العشائر الافاعي الاخرى عشيرة السبارطيين من (طيبة) ، التي نشأت من التنين الذي ذبحه (قدموس) • وكان يوجد على ضريح (ايبامينونداس) درع مزخرف بصورة تنين يرمز الى انتسابه الى تلك العشيرة • وكانت عشيرة (الايتيوباوتيِّين) تدعي انها من سلالة (باوتيس) راعي الثيران ، وقد تولت كهانة (ديبوليا) ، المشهورة بذبحها الثيران في جو من الطقوس ، والذي هو من الواضح مأخوذ عن الولائم العامة لعشيرة طوطمية • وكانت عشيرة أتيكية اخرى هي (اليونيبون) ، التي تولت كهانة (دايانايسيس ميلبومينوس) ، ترجع في نسبها عبر (هيبيسيبلي) الى

(دايانايسيس) ، إله الخمر • وقد جاء في احدى أساطيرها انه عندما كانت (هيبيسيبلي) على وشك الاعدام ، فقد انقذها ظهور ابنائها المفاجيء . الذين أثبتوا هويتهم بالكشف عن شعار عشيرتهم الذي كان كرمة ذهبية • وأخيرا كانت عشيرة (الآيوكسيين) من (ليسيا) ، المنحدرة من (ثيسيس) ، يحرم عليها حرق الهليون ، الذي كانت تعبده تكريما لذكرى جدتهم العليا ، (بيريجون) ، التي كانت قد لجأت الى مَزهر هليون عندما كان يطاردها (ثيسيس) • ولربما كان المثل الاخير اكثر الامثلة بروزا • وقد بقي تحريم نوع الطوطم ، ولا يزال النوع يعبد في شكله الطوطمي •

وفي المجتمع الرعوي ، تستخدم المواشي بصورة رئيسية لحليبها وليس للحمها ، ولذلك فان لحوم الحيوانات الداجنة ، ولاسيما الأنثى منها ، محرمة بصورة عامة • وهكذا اكتسب التحريم الطوطمي وظيفة اقتصادية جديدة • وفي الوقت ذاته ، فان طقوس التكاثر في فترة الصيد حولت الى مناسبة لتناول الطعام بصورة مشتركة حيث يلتئم شمل أفراد العشيرة من وقت الى آخر ، مع أرواح موتاهم ، تحت رئاسة زعيمهم ، ويتقاسمون على نحو سري مقدس لحما من قطعانهم المقدسة• وهنا نجد أصل (ديبيوليا) وكذلك أعياد ولائم (الاكيين) التي يصفها (هوميروس) • ويمتّع (نسطور) قومه بلحوم الثيران التي نحرها قرابين للإله العشيري (بوسيدون) • وبعد عدة قرون ، يعود ذبح القرابين الطوطمي للظهور مرة اخرى في طقوس الاخويات الاورفيوسية التي كان الناس الذين أذلّهم وكبتَهم الصراع الطبقي يقتاتون فيها على وهم مساواة مفقودة ، وذلك بأكلهم لحم الثور (دايانايسيس) وشربهم دمه •

لقد رأينا ان من وظائف الطقوس الطوطمية كان نقل تقاليد العشيرة الى الجيل الناشيء • وعاما بعد عام ، كان أولئك الذين أدركوا سن البلوغ يجري ادخالهم الى حياة البالغين بطقوس خاصة تستهدف تلقينهم

القانون الاجتماعي . كما كان معبرا عنه في المحرمات الجنسية والغذائية، وغرس شعور فيهم بقدسية الاعراف القبلية ، كما يشرحها الاشخاص الاكبر سنا . وقد جرى التعبير عن مغزى هذا التحول الحاسم ــ الذي كان جسديا وذهنيا واجتماعيا في آن واحد ــ في الفكرة التي تقوم عليها كل هذه الطقوس وهي ان الطفل حين يصبح رجلا او امرأة كان يولَد مرة اخرى .

وكان يلي التلقين الزواج . ومن المحتمل ان تكون القيود الوحيدة على تزاوج الجنسين في أقدم فترات المجتمع القبلي هي القيود التي فرضتها قاعدة الزواج من الاباعد . ومن المحتمل ايضا ان الاتصال الجنسي في مرحلة جمع الطعام كان مقصورا على الفصول الانتاجية من السنة . وقد توسعت اهمية هذه الزيجات السنوية بموقف الآباء الذاتي، الذين رأوا فيها السبب الفعال للعملية الفصلية التي كانت جزءاً منها ــ حيث كانت تؤدى بوصفها أدوارا تمثيلية من طقوس تستهدف زيادة خصب الطبيعة . وفي مرحلة لاحقة ، عندما اصبحت علاقات الجنسين أحادية ، استمرت هذه الوظيفة السحرية في الاتصال الطقسي او الزواج المقدس بين زوجين مختارين .

ان الماشية تتناول طعامها وتتكاثر بنفسها طالما كانت لها مراع ، الا ان عمل الحراثة والبذر والحصاد بطيء ومتعب ومشكوك فيه بالمقارنة مع تربية الماشية . انه يتطلب صبرا وبعد نظر وايمانا . وعلى ذلك ، يتسم المجتمع الزراعي بتطور السحر الواسع . ويبقى تركيب العشيرة قائما بوصفه نموذجا لتكوين جمعيات سرية، تنبثق عنها كهانات منظمة وبالتالي ملك ــ إله له وظيفة خاصة هي ان يزيد عن طريق السحر التمثيلي التعاقب السنوي من فصل البذار الى الحصاد . ويبدأ منصبه بأن يكون سنويا، ثم يُكرّس بطقس تتويج ، مستند الى طقوس التلقين ، يرمز الى انه مولود مرة اخرى ، وانه لم يبق انسانا ، بل هو إله . وفي سلسلة من

أدوار طقسية ، يضاجع كاهنة ، ويحدد التربة لتوزيعها بين العشائر ، ويقلب الطبقة الاولى من التربة بسعزقه المقدس ، ويقطع السنبلة الاولى من القسح بمنجله المقدس ، وأخيرا ، وفي الحصاد ، يقضى عليه بالموت ، ليستبدل في السنة الجديدة بوارث له حيوية سليمة . وقد فهم هـذا النظام المعقد من السحر الزراعي على انه يعني ان خصب التربة وازدهار الناس كانا يعتمدان على قوة الملك الجسدية ، ولكنه ، موضوعيا ، كان المظهر السحري للدرجة العالية من السيطرة المركزة التي لولاها لكانت الزراعة المنظمة مستحيلة . وهذا هو جانبه الايجابي ، الا ان له ايضا جانبا سلبيا ، اذ ان السحر ، الذي بدأ بوصفه عونا للاسلوب الواقعي، اخذ يصبح الان عقبة .

ان طقوس الملك ــ الإله يمكن تتبع اصلها بوضوح في مصر القديمة وبابل ، والى حد ما كذلك في اليونان ــ ومثال ذلك في الزواج المقدس والحراثة الطقسية في (ايليوسيس) . ومن المحتمل اذن ان تكون بعض الانظمة الملكية قبل العهد (الآلي) ، كنظام كيكرويس الاتيكي ، من هذا النمط الزراعي والهرمي .

ان هذه المسائل سنستأنف بحثها بعد ان تتناول بالدرس على نحو اكثر دقة المؤسسات القبلية لليونان القديمة والاسباب التي أدت الـــى انهيارها .

مراجع

Hobhouse, L.T, Wheeler, G.C., and Ginsberg, T. Material Culture and Social Institutions of the Simpler Peoples. London , 1930 .

Spencer, B. and Gillen, F.H. The Arunta. London, 1927.

Briffault, R. The Mothers. London, 1927.

Frazer, J.G. The Golden Bough, 10 vol S. London, 1923 - 27.

- ٢ -

الزواج الاباعدي

ان اللغات الهندية ـ الاوربية مشتقة من لغة شعب كان يحتل جزءاً معينا من السهل الاوراسي بين بحر البلطيق وبحر قزوين في الجزء الاخير من الالف الثالث قبل الميلاد • وقد حدد على نحو مؤقت تاريخ اول ظهور القبائل الناطقة باليونانية في حوض بحر ايجه في حوالي عام ١٨٠٠ قبل الميلاد • وفي نهاية الالف الثالث ، انقسم الشعب الاصلي ، حيث هاجر جنوبا وشرقا وغربا ، وانقسمت اللغة الاصلية الى لغات فرعية ، حيث تنحدر منها اللغات الهندية ـ الاوربية التي بقيت فعلا على قيد الحياة او حفظت في مدونات مكتوبة •

ان محاولات تشخيص الناس الاصليين عن طريق أدلة البقايا الآثارية هي حاليا على درجة مفرطة من الحدسية بحيث لا يمكن الاعتماد عليها ، الا ان بامكاننا ان نستخلص استنتاجات معينة عن حضارتهم من تحليل

مقارن للمعطيات اللغوية • ويوحي هذا الدليل ان الاقوام الهندية ــ الاوربية كانت عند تفرقها شعبا رعويا بصورة رئيسية مع شيء مـــن المعرفة بالزراعة ، وأنها كانت منظمة في عشائر وربما ايضا في مستوطنات قروية تحت شكل ما من الزعامة او الملكية ، وان النسب كان يحسب من جهة الذكور ، وان النساء كن يذهبن للعيش مع العشيرة التي يتزوجن فيها • وهكذا يمكننا ، ونحن نتحدث معتمدين التصنيف الذي تبنيناه في الفصل الاخير ، أن ننسبها الى الطور الرعوي الثاني • كما نلقـــي ضوءاً آخر على تاريخها الاجتماعي بدراسة تعابير القرابة الخاصة بها •

ان تعابير القرابة في جميع اللغات البدائية في جميع انحاء العالـــم تستعمل بطريقة غريبة علينا جدا • فعندما أتحدث عن ابي ، اشير الى الرجل الذي أنجبني • ولكن عندما يتحدث قبلي" بدائي عن ابيه ، فهو قد يشير الى شقيق ابيه • ولا يميز تعبيره بين الاثنين • وبالنسبة لنا ، تتضمن كلمة اب علاقة فيزيولوجية تحددها الأبوة ، اما في القبيلـــة البدائية فهي تشير الى علاقة اجتماعية جماعية • وهكذا بالنسبة للكلمات الاخرى وهذا هو ما يسمى بالنظام التصنيفي • وتختلف تفاصيل هـــذا النظام بين مختلف الشعوب ، ولكنه يعتمد في كل مكان على ذات المبدأ، الذي يمكن شرحه باختصار على النحو التالي :

ان كلمة «أب» تنطبق ليس على الاب الفعلي فقط ، وانما ايضا على اشقاء الاب ، وعلى ابناء أشقاء الجد ، وعلى ابناء ابناء شقيق اب الجد، وهلم جرا • وتنطبق كلمة «أم» على الأم الفعلية ، وعلى شقيقات الام ، وعلى بنات شقيقات الجدة ، وهلم جرا • وتنطبق كلمتا «اخ» و«اخت» على ابناء جميع الذين يسمون «آباء» و«أمهات» •

ومن جهة أخرى ، بينما يكون اخوة ابي «آبائي» ، يشار الى اخوة أمي بكلمة مختلفة ، يمكن ان تترجم بكلمة «خال» • والكلمة ذاتهـــا تطبق على ابناء أخوة أم ابي ، وهلم جرا • وبالمثل ، بينما تكون أخوات

امي «أمهاتي» ، فان أخوات ابي هنّ «عماتي» ، وتنطبق الكلمة نفسها على بنات أخوات اب أمي ، وهلم جرا •

ان ابناء اخوة ابي وأبناء آخوات أمي هم «اخوتي» و«اخواتي» ، الا ان ابناء أخوات ابي واخوة امي يشار اليهم بكلمات هي في اكثر أنماط النظام بدائية متطابقة مع الكلمات المعبرة عن «اخ الزوج او الزوجة او زوج الاخت» و«الزوجة» ، اذا كنت رجلا ، او عن «الزوج» و«اخت الزوج او الزوجة او زوجة الاخ» ، اذا كنت امرأة • وفي رسم بياني معين ، تترجم هذه الكلمات الى «ابن او بنت عم او خال او عمة او خالة» من ذكر وانثى • وبالمثل ، اذا كنت رجلا ، فان ابناء اخي هم «ابنائي» و«بناتي» ، الا ان ابناء شقيقتي هم «ابناء اخي او أختي» و«بنات اخي او اختي» • وبالعكس ، اذا كنت امرأة ، فان ابناء اخي هم «ابناء اخي او اختي» و«بنات اخي او اختي» ، بينما يكون ابناء اختي «ابنائـي» و«بناتي» • وأخيرا ، يُرمز الى اب زوجي او زوجتي بذات الكلمة التي تطلق على اخ امي ، والى أم زوجي او زوجتي بذات الكلمة التي تطلق على أخت ابي •

ومن الواضح ان هذه المصطلحات يستهدف منها التعبير عن العلاقات المميزة لمجتمع منقسم الى مجموعتين أباعدية الزواج ومختلطة الزواج • فأبي واخوته وأخواته ينتسبون الى المجموعة أ ، بينما تنتسب أمي واخوتها وأخواتها الى المجموعة ب • واخوة ابي متزوجون من أخوات امي ، بينما اخوات ابي متزوجات من اخوة امي • وبالانحدار من جهة الاب ، انا أنتسب الى المجموعة أ ، اما من جهة الام ، فأنا أنتسب الى المجموعة ب • وفي اية من الحالتين ، وفي جيلي انا ، يكون أفراد مجموعتي هم «اخوتي» و«أخواتي» ، بينما يكون أفراد المجموعة الاخرى هم «ابناء او بنات عمي او خالي او عمتي او خالتي» من ذكور واناث • والجيل الذي هو بعد جيلي مقسم بنفس الطريقة بين «ابنائي»

و«بناتي» من جهة ، و«ابناء اخي او أختي» و«بنات اخي او اختي» من جهه اخرى • وأخيرا . يُرمز الى اب زوجتي او زوجي بذات التعبير الذي يرمز به الى اخ آمي لانه هو اخ امي ، اما ام زوجتي او زوجي فيرمز اليها بذات التعبير الذي يرمز به الى اخت ابي لانها هي اخت ابي • وفي العديد من انحاء العالم لا يزال الزواج المعبر عنه بهذه المصطلحات قائما • وفي الانحاء التي لا يتواجد فيها ، يثبت وجوده السابق بقاء المصطلحات المصممة للتعبير عنه •

ان التعليل نفسه يكفي لتفسير المبدأ التصنيفي ذاته • ويطلق الرجل على اخوات زوجته ذات التعبير الذي يطلقه على زوجته ، وتطلق الزوجة على اخوة زوجها ذات التعبير الذي تطلقه عليه • وأخواتها لسن زوجاته، كما ليس اخوته أزواجها • ومع ذلك فهو يسمي اخواتها «زوجات» ، وهي تسمي اخوته «ازواجا» • ولا تتفق هذه التسمية مع الواقع • وعلى ذلك ، فقد استنتج (مورغان) ، الذي اكتشف النظام التصنيفي ، ان هذه التسمية هي اثر من ظرف سابق كانت تنطبق فيه مع الواقع – اي مجتمع كان اخوة كل مجموعة ، في كل جيل ، يتزوجون جماعيا من أخوات المجموعة الاخرى • وعلى هذا الافتراض ، يشرح كامل النظام نفسه • فاذا كان كل اخ هو زوج لكل اخت ، فان ذرية هذا الزواج الجماعي ستكون ابناء الجميع : اي ان كل رجل سيكون بالنسبة للاطفال بمثابة الاب . بينما ستكون كل امرأة بالنسبة للاطفال بمثابة الأم • وجدير بالملاحظة انه في مثل هذه الظروف لا تعبر المصطلحات عن القرابة بحد ذاتها بل عن العلاقات الاجتماعية كما يحددها الزواج •

ان نظرية مورغان عن النظام التصنيفي حظيت مبدئيا بقبول (هووِت) و(ريفرز) و(جيلين) ، الا انها ترفض حاليا من معظم الاختصاصيين الثقاة في اوربا الغربية وأمريكا • وقد اعاد التأكيد عليها انثروبولوجيو الاتحاد السوفياتي ، الذين ذهبوا الى انه قد تم التخلي عنها في الاماكن الاخرى

ليس الا لان مضامينها متناقضة مع الموقف البرجوازي من المجتمع المعاصر • ويتذكر قراء (مورغان) ان استدلاله دفعه الى توقع نادر للثورة الاشتراكية •

ان معارضة (مورغان) في هذه المسألة تعززت بالافتراض ، الذي مر دون جدل بالرغم من بعض ملاحظاته هو ، بانه لا يوجد أثر للنظام التصنيفي في مجموعة اللغات الهندية ــ الاوربية • وإذ يخلو هذا الافتراض من اي اثر من الصواب ، فان المصطلحات الهندية ــ الاوربية، بما فيها بعض الشواذ المعروفة التي لم تحل حتى الان ، تُفسر تفسيرا كاملا ومتماسكا على اساس الافتراض بأنها مشتقة من النظام التصنيفي• وهذا الاستنتاج ذو أهمية كبيرة بالنسبة للتاريخ الحضاري للشعوب الناطقة باللغات الهندية ــ الاوربية ، لانها تبين ان مؤسساتها القبلية كان لها ذات الطابع الذي كان لفروع الجنس البشري الاخرى •

لقد ذهبنا في الفصل الاخير الى ان المرحلة الاولى في تطور القبيلة كانت انقسام القبيلة المترحلة البدائية الى وحدتين اباعديتين • وهذه هي المرحلة المنعكسة في النظام التصنيفي • اما المراحل التالية فقد تفاوتت في مختلف انحاء العالم • ففي انحاء من ميلانيزيا والهند وأمريكا ، تتألف القبيلة من بطون متعددة جدا ، ويتألف البطن الواحد من عشائر متعددة جدا • وكما بيّن (مورغان) ، فان البطن ، في شمال امريكا على الاقل ، هو مجموعة من العشائر المتبادلة العلائق تكونت بانقسام عشيرة اصلية واحدة • وفي الوقت الحاضر ، فان الوحدة الاباعدية هي العشيرة ، الا ان هناك مبررا للاعتقاد بأنها كانت البطن سابقا •

لقد كان النظام القبلي الهندي ــ الاوربي ينتسب الى النمط نفسه• فما بين اليونانيين تمثل القبيلة والبطن والعشيرة بـ (Phlé) و (Phratria) و (Génos) ، وما بين الرومان بـ (Tribus) و (Curia) و (Gens) • وكان الاغريق الدوريانيون منقسمين الى

ثلاث قبائل . اما الآيونيون فقد كانوا منقسمين الى اربع • ولم تثبت بعد على وجه الدقة الانقسامات الفرعية للقبائل الدوريانية ، الا ان كلا من القبائل الآيونية كان يتألف من عدد من البطون كبير جدا ، وكان كل بطن يتألف من عشائر متعددة جدا • والى جانب هذا ، يبدو ان البطن بين اليونانيين . كما هو بين الهنود في شمال امريكا ، كان في الاصل اباعديا • ويكمن الدليل على هذا الاستنتاج في الاستعمال اليونانـــي الخاص للعبارة الهندية ــ الاوربية البدائية الخاصة بمعنى الاخ •

لقد كانت كلمة (Bhratèr) اليونانية المشتقة من كلمة (Bhrātèr) الهندية ــ الاوربية ، التي ولدت في اللغات الاخرى العبارة الخاصـــة بـ «أخ» ، تحمل ليس معنى اخ بل معنى عضو مماثل من البطن • وفي اثينا . كان الصبي يقبل رسميا ، عند بلوغه سن الرشد ، في بطن ابيه في عيد (آباتوريا) . الذي يعني عيد الرجال «من ذات الآباء» • وبأي معنى كان الـ (Phzàteres) «اخوة» وأبناء «ذات الآباء» ؟ فـــي سبارطة، حيث كان الصبيان ينظمـــون في جمعيات خيرية تدعــــى (Agélai) ، كانت عبارة (Kàsios) ، التي هي محرفة عـــن عبـــارة (Kàsis) ، اي اخ ، تطلق على جميع الاخوة وأبناء العم او الخال او العمة او الخالة في الـ (agêla) نفسها • واستخدمت عبارة محرفة عن ذات الكلمة ، وهي (Kàses) ، في سبارطة للتعبير عن رجل «من نفس جيله»• وكان الـ (Phràteres) الآيونيون والـ (Kâsioi) الدورانيون هم اصلا في كل جيل ابناء الاب نفسه ، وأبناء اخوة الاب ، وأبناء ابناء اخ الجد ، وهكذا • وكانوا اخوة بالمعنى التصنيفي • وكان الجزء الاكبر من هذا الاستنتاج قد توصل اليه (كريتشمير) ، مستندا في ذلك الى الادلة الداخلية وحدها دون اشارة الى النظام التصنيفي •

لقد كان البطن اليوناني يستند الى النسب الابوي • وهكذا كان

ايضا . كما لاحظنا قبل قليل ، مجتمع الشعب الهندي ــ الاوربي عند تفرقه • والى هذا ، كان المجتمع المثالي لجبـل (اوليمبس) الهوميري ، الذي وضع ، كما سنرى في وقت لاحق ، على غرار العالم الواقعي ، مجتمعا ابويا على نحو قوي • الا ان لهذه الصورة جانبا آخر علينا ان نأخذ الان بدراسته •

كان سكان (ليسيا) ، في الفترة التاريخية ، لا يزالون يتبعون خط الأم في كل من التوارث والنسب • وتنعكس صفة المجتمع (الليسي) هذه في قصة (بيليروفين) ، الذي هاجر من (آغروس) الى (ليسيـا) ، حيث تزوج كريمة الملك وورث في ذات الوقت حصة في المملكة • وهـذا الشكل من التوارث ، الذي يجري فيه التمتع بالامتيازات الملكية بموجب حق الزواج ، شائع بشكل ملحوظ في السلالات اليونانية • وهكـذا يروى لنا ان (تيمينوس) ، احد زعماء الدوريانيين الغزاة ، اعلن عن نيته لترك مملكته الى (ديغوتنيس) . الذي كان قد تزوج ابنته (هيرنيثو) • ثم قتل بعد ذلك على يد ابنائه هو ، الا ان السكان أصروا على اعطاء المملكة الى (ديفوتنيس) • وتجسد هذه القصة بوضوح تناقضا بين الارث من جهة الام والارث من جهة الاب • ومما له مغزى مماثل أسطورة الصيد (الكاليدوني) • فعندما سلم (ميليغر) الخنزيـر البري الى (آتالاتنا) ، اخذه اخوة أمه منها على اساس انه اذا تنازل عنه فهو يعود اليهم «بموجب حق الولادة» • وكان (ميليغر) ينتسب الى عشيرة أمه ، التي أصرت على ان تبقى بينها الغنيمة التي كان قد حصل عليها • ثم يروي لنا بصراحة في قصة أتيكية ان النساء كنّ قد تمتعن ، قبل عهد الملك (كيكرويس)، بحقوق متساوية مع الرجال ، وأنه لم يكن هناك زواج ، وان الاطفال كانوا يسمون باسم الام •

لقد كانت لسكان (ليسيا) صلات تقليدية مع شعوب (كريت) ما قبل العهد الدورياني • وواضح من البقايا الآثارية لجزيرة (كريت) في العهد

(المينويّ) و(ميسينيا) ان نساء هذه الفترة كن يتمتعن بمركز اجتماعي يفوق كثيرا مركزهن في اليونان التاريخية • واضافة الى هذا . فقد كان اللاهوت (المينويّ) يختلف اختلافا عميقا عن اللاهوت (الهوميري)• وذلك ان آلهة (هومر) هم مصورون في أشكال بشرية بصورة كلية ، اما الآلهة (المينويون) فهم على هيئة حيوانات بشكل رئيسي • ويحكم (اولمبس) (مقر الآلهة ـ المترجم) الهوميري (زيوس) و(هيرا) ، الزوجان الأحاديا الزواج ، حيث يكون الذكر هو الشريك المهيمن • وكانت العبادة الرئيسية في المجتمع (المينوي) هي عبادة إلهة أم ، مع شريك ذكر تابع ، هو ابنها او زوجها او كلاهما • ولهذه الاسباب ، فان من المتفق عليه بصورة عامة ان مؤسسات المجتمع (المينوي) كانت ، الى حد لم يعين بعد على وجه الدقة ، مؤسسات أميّة •

ان هذا التعارض بين التقليد (الهوميري) والواقع الذي كان يكمن وراءه يلفت النظر الى درجة كبيرة ، وهو ليس الوحيد • ولأسباب ستتبين في فصل لاحق . فان أمثال مؤسسات المجتمع البدائي الاساسية كالقبيلة والعشيرة واللقانة . التي يمكن اقتفاء آثارها بشكل واضح في اليونان قبل وبعد (هوميروس) معا ، نادرا ما تذكر فيالقصائد الهوميرية• وعلى ذلك ، فحين يواجهنا (هوميروس) بـ (زيوس) و(هيرا) كزوج وزوجة . يجدر بنا ان نتذكر ملاحظة (هيرودوتس) بأن (هوميروس) و(هيسياد) هما اللذان وضعا دراسة اصل الآلهة وتحدرهم • وكما بيّن (كوك) ، فان وجهة النظر الهوميرية تجاه (زيوس) و(هيرا) هي اعادة تركيب لأسطورتين سابقتين كان فيهما هذان الشريكان بلا صلة بينهما اطلاقا • وفي الاولى ، كان الزوجان (هيرا) و(هرقل) ، حيث كانت الإلهة الشريك المهيمن • وفي الاخرى ، كان الزوجان (زيوس) و(دايوني) ، حيث كان الإله الشريك المهيمن • والزوجان الأولان هما مينيويان ، اما الآخران فهما من اصل هندي ـ اوربي • و(زيوس) و(دايوني) هما

يونانيان اسما ، وبالامكان رد عبادتهما المشتركة الى (دودونا) ، المنطقة التي كانت ، على ما يذكره (ارسطو) ، موطن (الهيليين) الاصلي • وقد جرى التعبير عن اندماج الشعوب الناجم عن الهجرة الهندية ــ الاوربية بزواج الإله الاب المهاجر من الالاهة الام المحلية ، حيث سجلت الهيمنة المعطاة للاول انحطاط مركز النساء •

ولا نكران ، بطبيعة الحال ، ان تفسير المعطيات الاسطورية غالبا ما يكون غير قاطع ، الا ان الحالة الراهنة لا تعتمد ، لحسن الطالع ، على الاساطير وحدها • وانما هي مدعمة بأدلة دقيقة وقوية بشكل خاص ، أدلة لا تبقي الاستنتاج الرئيسي محل شك •

ان الكلمة الهندية ــ الاوربية (Bhrātèr) (Brother) ، اي اخ، قد بقيت بذلك المعنى في جميع اللغات المشتقة باستثناء اليونانية والحتية • وبالمثل ، فان كلمة (Suesōr) (Sister) ، اي أخت ، قد بقيت في جميع هذه اللغات باستثناء اليونانية والالبانية الحديثة • والمعروف عن هذه اللغات الثلاث جميعا انها تأثرت تأثيرا عميقا بلغة الحديث غير الهندية ــ الاوربية ــ حيث تأثرت اللغة الحتية باللغة السومرية ، والالبانية بالتركية ، واليونانية باللغات غير اليونانية في حوض بحر إيجه • والكلمتان اليونانيتان المحرفتان عن الكلمتين الهنديتين ــ الاوربيتين (Phrater) و (Suesōr) هما (bhrater) (éor) • وكما رأينا ، تستعمل الكلمة الاولى ، للتعبير عن عضو مماثل من البطن ، اما الثانية فهي ليست باقية الا في تفسير أورده هيسيخيوس • والكلمتان اليونانيتان لأخ وأخت هما (Adelphós) و (Adelphé) وعلى وجه الدقة (Phràter àdelphos) و (éoràdelphos) اي اخ او أخت «من الرحم نفسه» ، مقابل (Phràter - éor) اي اخ او اخت «من الاب نفسه» • وفي اليونانية الهوميرية ، نجد ايضا

الكلمتين (Kasignetos) و (Kasignéte) تستخدمان بطريقة تشير الى انهما كذلك كانتا تحملان اصلا معنى القرابة او العلاقة عن طريق الام. وهذا الدليل ، الذي جمعه (كريتيشمير) ، دليل قاطع . فبعد دخـــول الشعوب الناطقة باليونانية حوض بحر ايجه ، تبنت النسب من الام . وقد عُبِّر عن الاهمية الجديدة لكلمتي (Phràter) و (éor) باستخدام النعوت الوصفية ، التي حلت مكانهما في خاتمة المطاف . الا ان هـــذه الشعوب احتفظت بالتنظيم الابوي للبطن ، وبهذا الصدد فقد بقيت كلمة (phràter) . ولم يكن للنساء اي تنظيم مقابل للبطن ، وبالتالي فقد اختفت كلمة (éor) . والمعطيات اللغوية تُفسَّر بشكل كامل على هذا الافتراض ، وهي تكون غامضة او غير مفهومة اذا فسرت على اي افتراض آخر .

ان بعض علماء الآثار ، في الوقت الذي يقرون فيه بهذا التمييز بين الشعوب الهندية ـ الاوربية وشعوب حوض بحر ايجه من غير الهندية ـ الاوربية ، قد اتجهوا الى الافتراض بأن اهمية هذا التمييز كانت عرقية بصورة رئيسية . وهذا سوء فهم. وذلك ان المؤسسات الابوية للشعوب الهندية ـ الاوربية البدائية تُفسر بأسلوب انتاجها ، الذي كان فـــي الغالب رعويا . وقد سبق التنويه بأن المجتمع الرعوي يتميز بجنـــوح ملحوظ نحو النسب من جهة الاب . ويضاف الى ذلك ، فسنجد فـــي مرحلة لاحقة من بحثنا مبررا للاعتقاد بأن المجتمع الهندي ـ الاوربـــي كان حتى في مرحلة أسبق مجتمعا أبويا . وبهذا الشكل ايضا ، ليس التدهور التالي في حقوق الام في اليونان مسألة عنصرية ، وانما يعود للتاريخ المشترك للسكان بأجمعهم .

ومما يميز قبائل الصيد ان الرجل الصياد لا يستحوذ على صيده ،

وانما يعود به الى موطنه لتوزيعه • وطالما كان أسلوب الصيد منخفضا جدا بحيث لا يسمح للانتاج الشخصي ، فقد كان الاستهلاك ، بالاضافة الى الانتاج ، جماعيا بالضرورة • ولكن عندمـا بدأ الناس يصطادون بصورة منفردة . فقد نشأ تناقض بين آسلوب الانتاج ، الذي كان الان فرديا ، وآسلوب الاستهلاك ، الذي كان لا يزال جماعيا • وفـي هذا التناقض كان يكمن اصل الملكية الخاصة • وبالمثل ، فان الرجل اتجـه الى الادعاء بما كان قد حصل عليه بيديه هو لنفسه وأقربائه المباشرين ، وفي هذا الادعاء يكمن اصل العائلة الفردية • الا ان وقتا طويلا مر قبل ان تصبح هذه الاتجاهات الممزّقة على درجة من القوة كافية لتمـزق التركيب الظاهري للمجتمع • فقد كان تأثيرها الاول توسيع التعاون بين العشيرة ، الذي جرى بسطه في كل اتجاه ، مغطيا كامل ميدان الحياة الاجتماعية • وكانت العشيرة مرتبطة بالعشيرة بنظام مفصل من الخدمات المتبادلة ، التي نشأ عنها روح من التنافس البنّاء ، حيث كان كل منها يتنافس مع الأخريات من اجل المكانة • وكان الرجل الذي حصل علـى فائض من الصيد او الغنائم يعلن عن نجاحه بدعوة عشيرة اخرى الى تناول الطعام مع عشيرته • وكانت هذه الدعوة تحديا ايضا ، لانها كانت تفرض على العشيرة التي قبلتها التزاما أخلاقيا بردّها ، وبفائدة اذا كان ذلـك ممكنا • وكان عدم القيام بذلك يعني فقدان المكانة • وفي مرحلـة لاحقة ، اذا لم يُرَدّ هذا الالتزام بالمثل ، فقد يُستبدل بشكل معين من خدمات العمل • ولم تعد العشائر متساوية • وقد حُوِّل التعاون الى تنافس •

وفي انحاء من شمال اميركا ، تطورت هذه الاتجاهات الى النظام المعروف بـ «البوتلاج» او مهرجان توزيع الهدايا • ويمكن اقتفاء آثارها بشكل واضح في التقاليد الصينية ، وبشكل اضعف في تبادل الهدايـا الذي هو صفة مميزة للقصائد الهوميرية • وعندمـا تبادل (غلوكس)

الدروع مع (دايوميدس) والذهب بالبرونز، فليس بمستطاع (هوميروس) الا ان يشرح ذلك بالقول بأن (غلوكس) قد فقد رأسه • الا ان الارجح ان (غلوكس) كان يتوقع عوضا من قبيل ما وعد به (مينتس) (تيلماخوس) بعد ان أهداه شيئا بالغ القيمة يورث من جيل الى آخر • ومن اليسير ان نرى كيف يمكن ان تتطور هذه المبادلات السخية الى مقايضة •

لقد استمد نمو التملك الخاص دافعا قويــــا من تدجين الماشية • فالصيد قابل للتلف والارض لا يمكن نقلها ، الا ان الثروة ، التي هي على شكل ماشية ، متينة وسهلة السرقة او التبادل • والقبائل الرعوية ، وهي رحالة بالضرورة ، سريعة في زيادة ثروتها عن طريق غارات الماشية والحروب • ولما كانت الحرب ، التي نمت من الصيد ، يشنها الرجال، فقد عززت الاتجاه ، الذي كان طبيعيا في المجتمع الرعوي ، نحــــو تكديس الثروة في ايديهم • ولما كانت هذه القبائل العنيفة دائمة التنقل، فهي تسلب المناطق واحدة بعد اخرى • ويجري قتل الاسرى الذكور ، اما النساء فيسقن كالعبيد ، حيث تقاس مهارتهن في النول باعتبارهن ماشية • الا ان الحرب تتطلب وحدة القيادة ، وبالتالي تطور هـــــذه القبائل نمطا من النظام الملكي هو بصورة اساسية ليس سحريا بــــل عسكريا • وتعويضا عن قيادتهم الناجحة ، يتسلم الملوك حصة الاسد من الغنائم • وهكذا تشجع الثروة المكدسة مظاهر اللامساواة الاجتماعية التي تهز كامل شريحة المجتمع القبلي ، بدءاً من القمة • وسندرس تفاصيل هذه العملية في الفصل التالي • اما الآن ، فنحن نعنى بتأثيرها في قواعد الارث •

لقد كانت القبائل اليهودية التي استقرت اخيرا في ارض كنعــــان ناسا رعويين لهم هذا الطابع • وكما بيَّن (روبرتسن سميث) ، ربما كانت السلالة السامية تتخذ في الاصل نظام الانتساب الى الام • ولكن اليهود حين اتجهوا الى الزراعة كانوا فعلا أبويين بشدة • وقد حولت الملكية

بأجمعها . المنقولة منها والعقارية ، في خط الذكور • وكانت الارض غير قابلة للتحويل ، اما البضائع المكتسبة فقد كانت توزع بين الابناء • ولكن ماذا كان يحدث لو ان رجلا لم يكن له ابناء ؟ اننا نقرأ في (سفر العدد) (الاصحاح ٢٧ . الآية ٨) : «أيّما رجل مات وليس له ابن تنقلون ملكه الى ابنته» • وكان هذا يعني ان حق الانتفاع كان ينتقل الى الرجل الذي تزوجته . والذي سيكون ، بطبيعة الحال ، منتسبا الى عشيرة اخرى • وعلى ذلك ، شرّع النص (الاصحاح ٣٦ ، الآية ٨) : «وكل بنت تملك إرثا في اية قبيلة من بني اسرائيل تكون زوجة لواحد من قبيلة ابيها، ذلك ان كل واحد من ابناء اسرائيل له ان يتمتع بإرث آبائه» • والكلمة المترجمة في النص الانكليزي بـ «عائلة» تعني . على وجه الدقة، عشيرة • وكانت الوارثة تجبر على الزواج من عشيرتها هي • وقد جرت التضحية بمبدأ الزواج الاباعدي ، الذي يعتمد عليه تركيب النظام القبلي ، ومعه حرية المرأة . من اجل مصالح الملكية الخاصة •

وفي اليونان ، كانت هذه العملية ابطأ تطورا ، والسبب ، كما رأينا ، هو ان الاتجاه نحو حق الام كان قد غُيِّر مؤقتا ، الا ان من المحتمل على الاقل ان يكون انهيار الزواج الاباعدي قد بدأ بين العوائل الحاكمة قبل الفتح الدورياني • ومن الصفات المميزة الملحوظة لسلاسل الانساب ما قبل العهد الدورياني هو العدد الكبير للحالات التي يتزوج فيها رجل ابنة اخيه او اخ ابيه • ولكن لما كانت هذه السلاسل عرضة للشك ، فمن الافضل الا يُعتمد عليها • وتقدم ادلة اوضح على التأثيرات الانفجارية للثروة الجديدة المأخوذة من نهب اليونان المينوية تقاليد الفترة ذاتها المتعلقة بالقتل داخل العشيرة •

ان المجتمع القبلي يعترف بجريمتين رئيسيتين ــ غِشيان المحارم والعرافة • وغشيان المحارم هو خرق لقواعد الزواج الاباعدي ، اما العِرافة فهي اساءة استخدام السحر لاغراض شخصية ،

حيث كـــان السحر مصمما لخدمـــة الجماعة • والقتل غـــير العَمد شائـــع بين العشائر ، ولكنـــه ليس جريمة ـ اي انـــه لا يعاقب عليه من جانب المجتمع بصورة عامة ، وانما تجري تسويته مـــن جانب العشائر التي ينتسب اليها الاشخاص المعنيون • اما طريقة تسويته فهي مسألة على شيء من الاهمية •

عندما يكون رجل ما قد قتل ، فلا بد من ان يثأر له اصحابه من رجال العشيرة • وهذا الالتزام فوري ومطلق • وهو قائم بغض النظر عن ظروف القضية • وتتوجه العشيرة التي كان المجنى عليه ينتسب اليها بطلب تعويض الى العشيرة التي ينتسب اليها الجاني • فاذا منح تعويض مناسب ، تكون القضية منتهية • اما اذا لم يمنح هذا التعويض ، يقوم رجال عشيرة المجنى عليه بمطاردة الجاني وقتله ، او ، اذا لم يستطيعوا قتله ، قتلوا فردا آخر من عشيرته • وفي الحالة الاخيرة ، تكون الان العشيرة الاخرى أمام ذات الالتزام ، وهكذا ينشأ عداء وراثي قـــد يستمر أجيالا •

ان هذه القوانين يمكن دراستها تفصيلا بين قبائل طور الصيد الاعلى والقبائل الزراعية في شمال اميركا ، كما يمكن تتبع آثارها بين القبائل الجرمانية البدائية وبين اليونانيين • وفي القانون اليوناني ، تعنـــي الكلمتان المستعملتان لـ «مقاضاة» و«دفاع» على وجه الدقة ان يطارد وأن يهرب ، وحتى في الفترة التاريخية . كانت المقاضاة عن القتل متروكة لمبادرة أقرباء المجنى عليه • وفي القصائد الهوميرية ، يكون للقاتـــل بديلان : دفع التعويض او مغادرة البلاد • ويعطى التعويض بأشيـــاء منقولة ، بالرغم من ان الدلائل الميثولوجية توحي بأن التعويض كـــان يتخذ في أزمان سابقة شكل خدمات عمل •

ولكن ماذا كان يحدث عندما يقتل رجل صنواً من رجال عشيرته ؟ لقد كان التعويض مستحيلا طالما كانت العشيرة قائمة على التملـــك

الجماعي ، الا ان احد الاسباب الرئيسية للجريمة كـــان غائبا في ذات الوقت ، وعليه فقد كان القتل داخل العشيرة نادرا جدا . الا انه اصبح شائعا في اليونان اثناء الفترة التي تتناولها الان . وبين الالمان فـــي الفترة الأخيرة من الامبراطورية الرومانية . وقد ورطت العوائل الحاكمة نفسها ، بعد ان اغتنت بحروب الاخضاع ، في صراعات وراثـــات ومواريث مهلكة .

وقد كانت العشيرة تدين بتضامنها الى حقيقة ان الفرد ، طالما كان أسلوب الانتاج متأخرا الى درجة لا تسمح له بأن يكون مكتفيا ذاتيا ، لم يستطع التواجد الا بصفة عضو من جماعة تعاونية . وعلـى امتداد تاريخ المجتمع القبلي ، تكون القرابة العشائرية هي اكثر الروابـــط قدسية . والرعب الذي يثيره القتل بين العشيرة يصفه وصفا جيـــدا (غرونبيغ) وهو يتحدث عن الاسكندينافيين القدامى . فبعد ان يشرح ان القتل بين العشائر «ليس جريمة ضد الحياة نفسها ، بل يجب ألا يعتبر حتى اي شيء غير طبيعي» ، يمضي قائلا :

ومن جهة اخرى ، فمنذ اللحظة التي ندخل فيها العشيرة ، تنهض قدسية الحياة في حرمة مطلقة ، مع حكمها على اراقة الدماء بأنها تدنيس للمقدسات وعمى وانتحار . ويأتـي رد الفعل مفاجئا وواضحا كما يأتي حين يُمس عصب بإبرة .

وبين الاسكندينافيين القدامى ، كان الرجل الذي يقتل صنواً من رجال العشيرة يلعن ويطرد من العشيرة . وكان يصبح طريد العدالة . وما لم يجر تبنيه في عشيرة أخرى ، كما كان يحدث احيانا ، فهو لا يعود يتواجد فردا من المجتمع . وإذ تقطع صلته بالعشيرة ، التي كان يملك فيها وحدها وجوده ، يصبح مجنونا ويموت جوعا . وهكذا كان الامر في اليونان . فقد كان الرجل الذي قتل صنواً من رجال عشيرته يطارد الى خارج الجماعة ، تلاحقه لعنات ابناء جلدته ، او ، كما كانوا

يعبرون عنه . الارواح المنتقمة للمجنى عليه ، اي (الايرينيات) او (الأرّاي) . التي كانت تدفعه الى الجنون وتمص دمه الى ان يكون مجرد كومة عظام •

وقد تصوّرت (الايرينيات) على هيئة حيّات • وفي اليونان ، كما في غيرها ، اصبحت الحية رمزا معمما لارواح الموتى — ولا ريب في ان السبب هو ان الحية تنزع جلدها وبذلك تبدو انها تجدد حياتها • وفي أسطورة (اوديبوس) . كما يتناولها الشعراء الاتيكيون ، تجسد (الايرينة) اللعنة التي يرثها من (لايوس) ابنه وأبناء ابنه • وفي قصائد الشاعر (بندار) . يدمّر ابناء (اوديبوس) على يد (الارينية) عقابا لقتل والدهم • وكانت هذه هي الرواية الدوريانية ، وقد سجلها على هذا النحو (هيرودوتس) • وفي (الاوديسا) ، على اية حال ، كانت (الارينة) التي اضطهدت (اوديبوس) هي (ارينة) أمه • وفي اساطير اخرى ، وظيفة (الارينات) هي الثأر من قاتل احد الاقارب في خط الاناث • وهكذا . استحضرتهن (آلثيه) ضد ولدها (ميليغر) الذي قتل اخاها ، واضطهدن (الكمايون) لقتل أمه (اريفيلي) ، و(اوريستيس) لقتله (كلايتيمنيسترا) • وقد كانت (الايرينات) الارواح السلفية لجماعة كانت تقتفي نسبها عبر الأم . ويعكس بروزهن في مأثورات العصر (الميسيني) هذه ، الصراعات بين السلالات الحاكمة التي عجّل بوقوعها في الطبقة الحاكمة لمجتمع يأخذ بنسب الام نمو الثروة السريع •

ان كلمة (erinys) ربما لم تكن هندية — اوربية ، وهناك مؤشرات اخرى تشير الى انها ذات اصل ايجيّ • وفي القصائد الهوميرية، وكذلك في أسطورة (أيليوسس) الصوفية ، تظهر (الارينيات) كمعاقبات على الحنث باليمين • وتفترض جريمة الحنث باليمين سلفا المحاكمة عن طريق القسم ، التي تمثل ، كما بيّن (داياميند) ، مرحلة متقدمة في تطور القانون • وهي لا تظهر الا بعد ان تكون المصالح النامية للملكية

والتجارة قد حثت على نشر قانون مدون ــ كما في القانون الحِثّي مثلا، وحتى هناك فهي لا تستخدم الا في حالة عدم وجود أدلــة مستقلة • والآن ، وفي قانون مدينة (غورتينه) الكريتية ، تفرض المحاكمة بالقسم بشكل اوسع مما تفرض في اي قانون آخر قبل تطور ما يعرّفه (داياميند) بالقانون الناضج • والى جانب هذا ، ففي المأثورات اليونانية عـُـزي انشاء هذه المحاكمة الى المشرّع الكريتي (رادامانثيس) • ولا توجـد صعوبة في الافتراض بأن النظام القانوني لجزيرة (كريت) المينوية ، الذي ترك انطباعا عميقا على ذاكرة اليونانيين الشعبية ، كان قد تقدم الى هذه المرحلة • الى ان التطور العالي للقانون في (غورتينه) ، التي لم تكــن مدينة تجارية كبيرة ، شذوذ ظاهر يتطلب تفسيرا • ويبدو ان التفسير هو ان الحضارة المينوية قد امتـُصت جزئيا من جانب فاتحي (كريت) الناطقين باليونانية •

وعلى ذلك يمكن الاستنتاج بأن المهاجرين الهنود ــ الاوربيين الى حوض بحر ايجه اقتبسوا عبادة (الارينيات) عندما تبنوا النسب من الام• وفي الوقت نفسه ، وكما سنرى في الفصل القادم ، فهم لم يكونوا بلا أرواح سلفية خاصة بهم •

مراجع

1 — Morgan, L.H. Ancient Society. New York, 1877.

2 — Kretschmer, P. Einleitung zur Geschichte der griechischen Sprache. Gôttingen, 1896.

3 — Gronbech, V. The Culture of the Teutons. Oxford, 1931.

4 — Harrison, J.E. Prolegomena to the Study of Greek Religion. 3. ed. Cambridge, 1922.

5 — .... Themis. Cambridge, 1912.

6 — Diamond, A.S. Primitive Law. 2 ed. London, 1935.

- ٣ -

الملكية

عندما يحسب رئيس العشيرة الهوميري ممتلكاتـــه ، فهو يحصي أمتعته المنزلية وعبيده ومواشيه ، الا انه لا يذكر المراعي التي ترعى عليها ماشيته • ومن المشكوك فيه على الاقل ان يعتبر حتى الارض التي يحرثها أرضا له ، باستثناء ما اذا كانت هبة من قومه • وأما أن عددا كبيرا من القراء المعاصرين لم يقدر هذه الحقيقة ، فمرده تأثير بيئة اصبحت فيهـا الملكية الخاصة تعتبر حقا بدهيا لا يمكن تحديه • ومع ذلك ، وحتى في انكلترا ، لم يمض الا قرن وبضعة أعوام منذ ان طرد الفلاحون ، بقوانين التسييج ، من آخر الحقول العامة • وفي العصور الوسطى ، وقبل اعمال التسييج الاولى ، لم تكن توجد ملكية خاصة للاراضي كما نفهمها نحن •

ويذهب (نيلسن) الى ان التشبيهات الهومرية تعود الى المرتبـــة

الاخيرة من تطور القصائد • وفي احدى هذه القصائد ، يوصف رجلان وفي أيديهما مقاييس ، وهما يقسمان قطعة من ارض محروثة مشتركة • وقد بذل المعلقون المحدثون جهدا كبيرا للتوفيق بين هـذا المقطع وبين تصوراتهم المسبقة ، بتفسيره بأنه يعني بأن شقيقين يقسمان ارض ابيهما • الا ان الرجلين لا يوصفان بأنهما شقيقان ، ولو كانت الارض ملك ابيهما لما وصفت بأنها مشتركة • والتفسير الطبيعي للكلمات هو ان الارض يجري تقسيمها لغرض استغلالها وليس امتلاكها • وهذا يتفق مع احدى الصفات الثابتة لامتلاك الارض البدائي في انحاء اخرى من اوربـا وغيرها • وباستثناء (رجواي) الملحـوظ ، لم يدرك الباحثـون الاختصاصيون المحدثون ان الادلة الهوميرية على هذا الموضوع لا يمكن ان تفهم إلا في ضوء تحليل مقارن لامتلاك الاراضي في المجتمع البدائي بصورة عامة • وهذه هي احدى المهمات العاجلة التي تنتظر اهتمام علماء الآثار • وعلى اية حال ، فهي على جانب من التعقيد البالغ بحيث تتعذر محاولتها هنا • الا ان هناك أسلوب معالجة بديلا • واذا صح ان افكار الناس عن العالم تتكيف في النهاية بعلاقاتهم الاقتصادية ، فلا بد ان يكون ممكنا اكتشاف شيء ما عن هذه العلاقات بدراسة الافكار التي تنعكس فيها •

ان إلاهات الاقدار الثلاث ــ Moirai باليونانية ، و (Parcea) باللاتينية ، و Nornen بالالمانية ــ لا زلن جزءاً من الرصيد المشترك للمأثورات الادبية الاوربية • انهن الإلاهات اللواتي يجلسن ويغزلـن خيوط المصير الانساني ، حيث يحددن لكل انسان عند ولادته الاحداث الرئيسية في حياته ، ولاسيما أخيرها جميعا ــ اي موته • وسيكرس هذا الفصل لتحليل هذا المفهوم •

ان المعنى الأساس لكلمة (Moira) هو حصة او نصيب • وكما

لاحظ الشماس (ديكون) في تعليقه على الشاعر اليونانــي (هيسيود) ، فــان الــ (Moirai) (إلاهـــات القدر) هن «توزيعـــات» او «تقسيمات» • ومع كلمة (Moira) ترتبط كلمة أخرى هي (Làchos) ومعناها نصيب يجري اعطاؤه او تسلمه بعملية القاء القرعـــة • وكانت احدى الإلاهات تحمل اسم (لاخيسيس) ، اي إلاهة النصيب • وبهذا المعنى ، فان (Làchos) مرادفة لكلمة (Klêros) ، التي تستعمل بصورة عامة بمعنى مساحة او قطعة ارض ، حيث كانت تعني اصلا قطعة من خشب تستخدم لسحب القرعة •

وكانت عشيرة (الجيفيرايين) الأتيكية تنحدر من فرع من سلالـــة (قدموس) التي كانت قد استقرت في (بويوتيا) ، حيث «خصـــص لها نصيبها في تاناغرا» • أما مسألة ما اذا كانت هذه العبارة مقصودة حرفيا فذلك ما لا نستطيع قوله ، الا اننا نعرف انه كان من تقاليد القبائـــل الوافدة في اماكن اخرى القاء القرعة على الاراضي المحتلة • وجديـــر بالتذكر هنا كيف احتلت قبائل بني اسرائيل (ارض الميعاد) :

تحدث الى ابناء اسرائيل وقل لهم ، عندما تجتازون الاردن الى ارض كنعان ، فعليكم ان تطردوا جميع السكان مـــن الارض التي امامكم ••• وعليكم ان تجردوا السكان مـــن الارض وأن تسكنوا فيهـــا ، لانني قد اعطيتكـــم الارض لتملكوها • وعليكم ان تقسموا الارض بالقرعة من اجـــل ميراثها بين عائلاتكم • وللاكثر عليكم ان تعطوا اكثر الميراث، وللاقل عليكم ان تعطوا أقل الميراث : على ان يكون ميراث كل رجل في المكان الذي يقع فيه نصيبـــه ، وسترثون انتم حسب قبائل آبائكم (سفر العدد ، الاصحاح ٣٣ ، الآيـــات

٥١ ـ ٥٤) ٠

وقال يشوع الى ابناء اسرائيل ، كم ستبقون متوانين عن الذهاب لامتلاك الارض التي كان الرب إله آبائكم قـــد اعطاها لكم ؟ اختاروا من بينكم ثلاثة رجال من كل قبيلة : وسأرسلهم انا ، وهـــم سينهضون ويسيرون في الارض ، ويخططونها وفقا لميراثهم ، وسيأتون مرة اخـرى اليّ ٠٠٠ وعليكم اذن أن تقسموا الارض الى سبعة أقسام ، وأن تأتوا بالتقسيم الي هنا ، حيث القي بالقرعة لكم هنا قبالة الرب إلهنا (يشوع ، الاصحاح ١٨ ، الآيات ٣ ــ ٦) ٠

كان يجب تقسيم الارض بالقرعة بين القبائل ، وكان يجب توزيـع ارض كل قبيلة الى اجزاء أصغر عن طريق القرعة بين «العوائـــل» او العشائر ٠

وفي قصيدة إله اوليمبيا السابع ، يروي الشاعر (بندار) كيف قسمت جزيرة (رودس) الى ثلاثة أقسام على يد ابناء (هيليوس) ٠ اما أن هذه الاقسام الثلاثة تنطابق مع القبائل الوافدة الثلاث فهو واضح من الرواية الهوميرية للمأثورة ذاتها ٠ ولا يُذكر بشكل صريح ان هذه قد وزعت عن طريق القرعة ، الا ان ذلك يمكن استنتاجه من أسطورة اصل الجزيرة، التي يرويها (بندار) في القصيدة ذاتها ٠ فعندما ألقت آلهة اوليمبيــــا بالقرعة لاقتسام العالم المفتوح حديثا ، كان (هيليوس) غائبا ، ولذا لم تترك له حصته من الارض ٠ وقد جرى تصحيح هذا الاغفال بـــأن خصصت له جزيرة (رودس) ، التي كانت آنئذ تحت البحر ، والتي سبق ان لمحها وهي ترتفع الى سطح الماء ٠ وقد جرى تصديق هذا الترتيب بنداء الى الإلاهة (لاخيسيس) ٠

ان الاسطورة نفسها تروى في (الالياذة) ، وان كان هذا دون اشارة الى (هيليوس) و(رودس) • فقد قسم ابناء (كرونوس) العالم الى ثلاثة أجزاء اقترعوا عليها ، وقد حـُذّر (زيوس) من جانب (بوسيدن) بـأن يبقى ضمن جزئه او حصته • وبالمثل ، يخبرنا (هيسيود) أن الإلاهة (هيكاتي) تسلست من (زيوس) حصة من البر والبحر ، محتفظة بذلك الى الابد بالنصيب المخصص لها زمن التقسيم الاصلي او الـ (dasmòs)

وتدعم أدلة الاسطورة بمأثورات تاريخية • فبعد فتح (بيلوبونيس)، قسم القادة الدوريانيون البلاد الى ثلاثة أقسام اقترعوا عليها • ومن المحتمل اذن ان حصة (تاناغرا) قد خصصت لذرية (قدموس) بذات الطريقة •

وفي (الاوديسا) ، عندما قاد الملك (نوسيثوس) الفاسيين الى موطنهم الجديد ، فقد «قسم الاراضي الصالحة للحرث» • ويـُستفاد مما ذكره (هيرودتس) ، دعا سكان (كيرينيه) مستوطنين من اليونان للمشاركة في «اعادة تقسيم الارض» • وبعد فترة من الزمن ، أعيد تقسيم ارض (كيرينيه) من جانب مـُحكـّم من (اركاديا) ، حيث قسم الارض الى ثلاث حصص والسكان الى ثلاث قبائل • وكانت هذه القبائل وحدات مصطنعة خـُلقت لغرض تقسيم الارض • وحتى بعد ان انهار اساس النظام القبلي القائم على القرابة ، فقد بقي هذا النظام يبدو الاساس الضروري لأي شكل من أشكال المجتمع المنظم • وهكذا ، فعندما طلب فلاحو (اتيكا) المطرودون من اراضيهم في عهد (صولون) اعادة توزيع الارض ، كان طلبهم لجوءاً الى عرف قبلي قديم • وبالمثل ، فقد كان نظام الـ (كليروخيا) الأثيني ، الذي كانت تقسم فيه الارض المفتوحة بين المستوطنين من أثينا ، قد ميز استمرار المفهوم القبلي لاستيطان الاراضي، في ظروف جديدة •

وبالاضافة الى تقسيم الاراضي الصالحة للحرث ؛ قام الملك (نوسيثوس) بـ «تشييد المعابد» . والى جانب توزيع الاراضي بين القبائل . احتجز محكّم (كيرينيه) قطعا معينة من الاراضي للملك بوصفه كاهن الجماعة الاكبر . كما خصص الاثينيون قطعا محتجزة مماثلة للكهنة في مستوطنتهم (ليسبوس) . وكانت هذه الاراضي المفردة ؛ او الـ (teméne) . ملكيات «مخصصة» لاستعمال الكهنة والزعماء القبليين والملوك .

وتشير الادلة الهوميرية بوضوح الى انه بينما كانت السلطة او الامتياز هبة الملك ، كانت الارض هبة الناس ، الذين كانوا يمنحون قادتهم ؛ مقابل خدماتهم العسكرية ، ملكيات من الاراضي تختلف عن غيرها من حيث انها لم تكن تخصص بالقرعة للقبيلة او العشيرة ، وانما بهبة خاصة الى فرد من الافراد . وهكذا ، فقد كوفيء (بيليروفون) بامتيازات ملكية من ملك (ليسيا) ؛ بينما منحه الناس قطعة من أجود الاراضي الصالحة للزراعة . وقد حذّر (إينييس) من جانب (أخيل) ، الذي كان قد خرج لمقاتلته ؛ بأنه حتى اذا انتصر ، فليس بوسعه ان يأمل في الحصول على امتيازات ملكية من (برايام) ، الذي كان له اولاده ليقدم هذه الامتيازات اليهم ، ولا على قطعة ارض من السكان . وبهذا الشكل ايضا ، حاول حكماء (ايتيوليا) (والمفروض انهم كانوا زعماء العشائر) ان يغروا (ميلغير) بأن يقاتل عنهم باعطائه قطعة من أخصب الاراضي في البلاد . ولم يكن ممكنا للاستحواذ على الاراضي ان يقطع شوطا بعيدا في مجتمع كان ممكنا فيه ان تمنح اكثر أقسامه خصوبة الى فرد بموافقة عامة . وتمثل قطعة الارض الهوميرية اصل الملكية الخاصة في الارض المتطورة ضمن نظام قبلي جماعي .

وكانت الغنائم توزع بالطريقة نفسها .وكما يصف الشاعر (بندار)

جزيرة (رودس) ، المخصصة لـ (هيليوس) ، بأنها حصتـــه او امتيازه (Làchos) او (Géras) ؛ فكذلك تـستعمل الكلمات نفسها ـ (Tisué) أو (Làchos) , (Géras) او (Timé) ـ لحصـة كل محارب من الاسلاب • وتسمى عملية التوزيع ، كما كانت تسمى من قبل . (Dasmòs) • وكما كان الملك يتسلـــم (Témenos) .كانت «تخصص» له ، فقد كان يتسلم كذلك في توزيع الغنائم «هبة مختارة» محتجزة من الحصة العامة • وهنا ، ايضا ، يبدو ان السلطة النهائية قد أودعت في الناس • «كيف يستطيع الاكيون ان يعطوك امتيازا ؟»، هكذا يصيح (أخيل) بـ (أغاممنون) ، الذي طلب بديلا عن (كرايسييز) • «ان الأسلاب التي اخذناها سبق ان وزعت ، ولن يكون عدلا بالنسبة للناس جمعها مرة اخرى» • ومع ذلك ، يبدو ان الملك كان في وضع يمكّنه من تخصيص حصص اخرى لتوابعه ، وكان يتّهم احيانا بالاحتفاظ لنفسه بأكثر من حصته • وقد اخذ يطالب الآن بما يصفه بحق له وهو ما كان في الواقع هبة من شعبه • ويبدو الغموض نفسه بصدد منصب الملك ذاته • فما ان كان يخصص لعائلة معينة ، حتى كان يجنح الى ان يكون وراثيا ، لان القيادة العسكرية مهنة اختصاصية ، ولكنها كانت مع ذلك لا تزال تخضع لمصادقة الشعب • وقد كان (تيليماخوس) يأمل ان يرث مملكة ابيه ، الا ان كل ما ادعى به كحق كان إرث ملكيته الشخصية • وعندما اغتال ابناء (تيمينوس) أباهم من اجل حصر الملكية في العائلة ، أعادها الشعب الى (ديفونتيس) •

وفي عام (٤٨٤) ق•م ، اقترح سكان أثينا توزيع الفائض من مناجم الفضة بين جميع المواطنين ، الا ان (ثيميستوكلس) أقنعهم بتكريسه لبناء اسطول بدلا من ذلك • وكان التوزيع الجماعي المميز للمجتمع القبلي قد أصبح متناقضا مع مصالح الدولة • وهو حدث موضّح بهــــذا

الصدد ، لأنه يبين كيف تمسك عامة الناس بإصرار بمفهوم الملكيـــة البدائــي .

وكما كان الحال مع الارض والغنائم ، فقد كان مع الطعام . ويقول المؤرخ (بلوتارخ) ان كل شيء يُرتَّب بشكل محترم وحر عندما كانت وجبات الطعام في الازمنةالقديمة تقدم من جانب (المويرا) او (لاخيسيس) وفقا لمبدأ المساواة . ودعما لما يذهب اليه ، يشير الى ان الكلمة القديمة لمعنى وجبة كانت تعني بالضبط حصة او جزءاً . وتعليله لاصل الكلمة صحيح : ذلك ان كلمة (dais) هي من ذات اشتقاق كلمة (dasmós) . وكانت حصص اللحم توزع بشكل متساوٍ وتوزع اصلا بالقرعة . الا ان ظَهْر الذبيحة ، الذي كان الجزء الافضل ، كان يُحتجز لرئيس القبيلة الذي كان يتصدر الوجبة . وعندما دعا (مينيلوس) ضيوفه الى الجلوس الى مائدة في (سبارطة)، ناولهم ظهر الذبيحة الذي كان الخدم قد وضعوه امامه . وقد ابدى راعي الخنازير (يوميوس) ذات المجاملة للملك المتنكر (اوديسيوس) ــ حيث كانت تلك لمسة درامية ، لانه اعطى سيده الجزء الافضل دون ان يعرف هويته .

ويمضي (بلوتارخ) ملاحظا ان المساواة في الوجبات قد دمــرت بمرور الوقت نتيجة لنمو الترف (وكان حريا به ان يقود نمو الملكية) ، ولكنها استمرت في التوزيع العام للحم في تقديم القرابين للدولـــة . وكانت قرابين الدولة هذه ، التي كانت تنفق عليها مبالغ ضخمة في ظل الديموقراطية الاثينية ، تخدم حاجة اقتصادية ، لانها زودت الطبقـــات الدنيا بفرصتها الوحيدة لاكل اللحم المشوي . ويُظهر المبدأ الذي كانت تقوم عليه ــ وهو ان المواطنين كانوا يجتمعون ليتشاركوا الطعام مع إلههم ــ انها كانت مأخوذة عن الاعياد الجماعية للقبيلة البدائية .

وأخيرا ، فان الظروف التي تمتع بموجبها الملك أو رئيس القبيلة بكل

هذه الامتيازات مذكورة في مقطع شهير من (الالياذة) : «لماذا وهبنا سكان ليسيا اعلى الامتيازات ـ أهي أبهة المكان والتصدر في الطعام والشراب ؟ انهم يعتبروننا آلهة ، وقد منحونا اراضي خاصة من الاراضي الصالحة للزراعة الغنية . واذن ينبغي ان نكون الاوائل في القتال ، ذلك ان الناس قد يقولون ان ملوكنا هؤلاء ، الذين يقتاتون بقطعاننا السمينة ويعبون صفوة نبيذنا ، يستطيعون القتال» . لقد كانت الامتيازات الملكية هدية الشعب الممنوحة اعترافا بخدماتهم العسكرية .

وبعد الثورة الديموقراطية ، اصبح استخدام القرعة عنصرا مكملا في ادارة الدولة الاثينية . والكتاب اليونانيون مجمعون على اعتبارها صفة مميزة للدستور الديموقراطي . وعليه يمكن اضافتها الى تلك العناصر الاخرى في الديموقراطية القديمة التي سبق ان رددناها الى اصل قبلي . والحقيقة هي ان الديموقراطية القديمة كانت في جوهرها اعادة تأكيد من عامة الناس لمساواتهم المفقودة .

ان جميع الكلمات الاستدلالية التي كنا تتأملها ـ Moira damos, láchos, Klêros ـ تعود للظهور في مصطلحات القوانين اليونانية الخاصة بالإرث . فالملكية التي يرثها رجل من والده هي قطعة ارضه : (Klêros) ، او بلغة الشعر حصته : (Moira) وفي اوقات سابقة ، كان الاب يقسم ملكيته بين ابنائه قبل ان يموت . ونحن نعلم من مقطع من (الاوديسا) ان طريقة توزيعه هذه (dasmós) كانت تنفذ عن طريق القرعة . وفي القانون (الاتيكي) ، كانت الملكية يرثها الابناء ، فاذا لم يوجد هؤلاء ورثتها البنات ، واذا لم تكن له ذرية ورثها الاخوة ، واذا لم يكن له اي قريب مباشر ورثه ابناء قبيلته . وكذلك تحدد قواعد أولوية مماثلة في قانون (غورتينه) وفي القانون العبري . وكما ذكر (مورغان) ، ما علينا الا ان نقلب ترتيب المسألة لنرى

ان هذه القواعد تتطابق مع التقييد التدريجي لحق الإرث من دائـــرة العشيرة الى العائلة الفردية ، وبذلك تسجل الانتقال من الملكية الجماعية الى الملكية الخاصة . وحتى في أثينا الديموقراطية ، لم يكن هذا الانتقال قد اكتمل . ولم يُعترف بحق تحويل الملكية عن طريق الوصية ، الذي هو احد مميزات القانون الناضج، الا في حالة عدم وجود اولاد شرعيين. وهكذا كان حق مطالبة الابن بملكية ابيه آخر أثر لذلك الزمن الذي كانت فيه جميع الملكيات تملكها العشيرة بصورة جماعية . وكان الانتقال قد اخذ بالسير على نحو مكتوم بحيث كانت التنظيمات التي تحكم التصرف بالملكية الخاصة لا تزال يعبر عنها بعبارات تجد اساسها فـــي المشاعية البدائية .

وعلى هذا يمكن الاستنتاج بأن فكرة الـ (Moira) ، في تطبيقها على الطعام والغنائم والارض ، تعكس توزيع الثروة عبر المراحل المتوالية الثلاث في تطور النظام القبلي . وكان أقدمها توزيع الطعام ، الــــذي يرجع في عهده الى فترة الصيد . ثم جاء بعد ذلك توزيع الاملاك غـــير المنقولة والمنقولات غير الحية المستولى عليها بالحرب ، الذي كـــــان تطورا للصيد ، و ، اخيرا ، توزيع الاراضي لاغراض الزراعة .

لقد كان استخدام القرعة ، بطبيعة الحال ، ضمانا للمساواة . وكانت السلع توزع بأعدل ما يمكن ، ومن ثم كانت الحصص توزع بعملية كانت عادلة ، لانها كانت تكمن خارج السيطرة البشرية . وللسبب ذاته فقد اعتبرت سحرية ، اي كلجوء الى الـ (Moirai) او ارواح القسمة، التي كانت تحدد حصة كل انسان . وبنمو الملكية الخاصة ، اصبـــــح استخدام القرعةمقيدا على نحو متزايد، وجرى تغيير مفهوم الا (Moirai) الشائع وفقا لذلك . لقد اصبحن الإلاهات اللواتي يقرن لكل رجل نصيبه في الحياة .

والى جانب توزيعات الثروة هذه ، فقد استخدمت كلمة (moira) لتوزيعات الوظائف . وهنا نجد مرة اخرى آثار نظام اجتماعي ، كان قد تلاشى من العالم الواقعي ، تنعكس في عالم (اوليمبس) المثالي .

لقد كتب (زيوس) الى الآلهة ، قبل ان يعلن الحرب على (الجبابرة)، قائلا انه اذا انتصر فلن يحترم فحسب امتيازات الذين كانت لهم فعلا امتيازات ، بل سيمنح اخرى لاولئك الذين لا يملكون منها شيئا في الوقت الحاضر . وكانت النتيجة هي انه دعي عند انتهاء الحرب الى تولي السلطة العليا . وقد اصبح (زيوس) ملكا مقابل خدماته العسكرية . وبعد ان اصبح ملكا ، خصص للآلهة امتيازاتهم او وظائفهم المتعددة . وكان امتياز (هيفايستس) النار ، وحصة (اطلس) المخصصة ان يمسك السماء ، ونصيب الحوريات العناية بالمخلوقات البشرية في سن الرجولة المبكرة . وخصصت لـ (ابولو) الموسيقى والرقص ، بينما كان العويل امتياز (هاديس) . وفي ذات مرة قبض على (افروديت) ، التي كان نصيبها او امتيازها المغازلة ، وهي تعمل على النول ، ثم احتجت الإلاهة (اثينا) لدى (زيوس) قائلة انها لما كانت قد سرقت قطعة ارضها ، فلن تمارس مهنتها التي كانت قد تسلمتها من إلاهات القدر . وعند (اسخيلوس) ، تتهم (الايرينيات) أبولو بسرقته منهن الارض التي منحتها لهن إلاهات القدر في ميلادهن . وعوقب (اسكيلبيوس) لذات السبب اذ كان ، في محاولته بعث الموتى ، قد تجاوز على نصيب (هاديس) .

لقد كان التقسيم الوحيد للعمل في اولى مراحل المجتمع القبلي جنسيا . الا ان المهن الاختصاصية جنحت ، بتطور تربية الماشية والحراثة والحرف اليدوية ، الى ان تصبح وراثية في عشائر معينة . وفي اليونان القديمة نجد العديد من هذه العشائر الحرفية : فمن (الهوميريين) رواة القصائد الملحمية ، ومن (الاسكليبيين) الاطباء ، ومن

(الايامبين) و(البرانخيين) و(الكروتنيين) العرافون ، ومـن (اليونيين) عازفو القيثار ، ومن (كيرايكس) و(ثيوكيرايكس) الرسل او السفراء • وفي سبارطة ، كان جميع الرسل ينتسبون الى عشـيرة (التالثيبيين) • وكما يلاحظ (هيرودتس) ، كانت وظيفة الرسل امتياز العشيرة • ويوجد العديد من العشائر الاخرى التي تحمل اسماؤهـا مغزى مهنيـا : فـ (البويمينيون) هم (الرعاة) ، و(الاجيروتوموييون) هم (قاطعو خشب الحور) . و(البوزيجيـون) هم (شدادو الثيران الـى الانيار) ، و(الفريوريخييون) هم (حفارو الآبار) ، و(الديداليون) و(الكروبييون) هم (النحاتون) ، و(الهيفاستييـون) و(الايثلييون) و(اليوبيريـون) و(البيليكس) هم (صانعو الدروع والحدادون) •

ويعلن مؤرخ معاصر ، وهو يبحث في العشائر الحرفية (الاتيكية) ، بأن هذه العشائر لا بد انها كانت نقابات صناع • وإذ يرى ان من غـير المحتمل ان تكون هذه النقابات قد وجدت في (أتيكا) البدائية ؛ فهـو يستنتج بأن «هذه الاسماء كانت اختيارات خيالية» • ولا ريب في ان العديد كانت نقابات ، اي روابط مهنية كان يتم الانتماء اليها بشكل معين من الاختيار • ولكن النقابة ، كما بين (غرونبيغ) ، منحدرة من العشيرة• ونقابة القرون الوسطى هي مجرد شكل من أشكال العشيرة المهنيـة متقدم • والفرق التركيبي الوحيد بينهما هو أن عضوية النقابة لا تتحدد بالمولد ، باستثناء مقدار ما يصبح الابن مؤهلا للاختيار بإتباعه مهنة ابيه، وحتى العشيرة البدائية تقبل بصورة عامة الغرباء عن طريـق التبني • وحيث ان العشيرة المهنية هي صفة واسعة الانتشار للمراحل العليا من المجتمع القبلي ، فليس هناك من صعوبة في افتراض انها تواجدت في اتيكا البدائية • وحتى اذا لم تتواجد ، فقد تواجدت هناك على الاقل العشائر البدائية التي تطورت منها بالتالي العشائر المهنية • ولو كان هذا

المؤرخ قد أولى تاريخ المجتمع البدائي اي اهتمام لما احتاج الى اللجوء الى مبتكرات الخيال •

لقد كانت عشيرة (الأسكليبيين) تدعي الانحدار من (اسكيليبوس)، إله الاطباء ، و(الايامبيين) من (ابولو) ، اله الانبياء ، و(كيرايكس) من (هرمز) ، إله الرسل ، و(التالثيبيين) و(ثيوكيرايكس) من الرسول (تالثيبيس) ، و(الايداليين) من (دايدولس) ، النحات ، و(البوزيجبيين) من (بوزيجيس) ، الذي يقال انه اول رجل شد الماشية الى المحراث • وفي جميع هذه الحالات ؛ تتفق مهنة العشيرة مع الوظيفة التقليدية للإله الذي تسمى بإسمه القبيلة او البطل الذي تدعي الانحدار منه •

وهنا ايضا ، حل ارتباك لا ينتهي ، على يد مؤرخين محدثين بسبب جهلم تركيب العشيرة البدائية • ومن بين العشائر التي ذكرناها قبل قليل ؛ كان البعض منها ، على وجه التأكيد ــ مثال ذلك (الهوميريون) و(الاسكليبيون) والاخريات ، على وجه الاحتمال ، نقابات في الفترة التاريخية • وبقدر ما يتعلق الامر بأصولها ، فليست تلك النقطة ، كما رأينا ، بمهمة ، ولكنها ليست مثبتة بحقيقة ان سلفها الاول أسطوري • ويعرّف (ويد ــ غريي) العشيرة الاثينية بأنها «جماعة من الاثينيين تربطها سلسلة سلف مشتركة خيالية ، وهي خيالية لان السلف المزعوم أسطوري دائما» • وهذا مجرد استنتاج لا يستخلص من الفرضية التي أقيم عليها• وحقيقة ان سلف العشيرة الاول أسطوري لا تدحض ادعاءها بنسب مشترك • واذا فعلت ذلك ، فسيكون النسب المشترك المميز للعشائر الطوطمية في جميع أرجاء العالم خيالا ، والسبب هو ان السلف الاول في هذه الحالات ليس انسانا اطلاقا • وسيكون من الايسر تبرير هذه الاخطاء الشائعة في الفهم لو لم تكن طبيعة العشيرة الفعلية ، في اليونان وغيرها ، قد شرحها (مورغان) قبل تسعين عاما •

ان الطبيب (اسكيليبوس) هو تصوير أسطوري للطبيب البشري • وقد جرت صياغة (ابولو) و(هرمز) على صورة انبياء حقيقيين ورسل حقيقيين • ولو كان (تاليثيبيس) شخصا تاريخيا ، وهو امر مشكوك فيه ، لانتمى الى العشيرة التي تسمت بالتالي باسمه • وليس البطل (بوزيجيس) اكثر من تجسيد لوظيفة عشيرة (البوزيجيين) التقليدية • ويستفاد مما ذكره (هيرودتس) ان (هومير) و(هيسيود) هما اللذان «اعطيا الآلهة ألقابهم ، وميزا امتيازاتهم وحرفهم ، وحددا شكلهم» • ولربما كان بعض هذه النعوت أقدم مما يسمح به (هيرودتس) ، الا ان نقطته الاساسية صحيحة ، فهي كانت نعوتا مشتقة وليست بدائية • وكانت القبائل الغازية قد اجتاحت حوض بحر ايجه ، وهكذا فتح ابناء (كرونوس) العالم • وكانت القبائل الغازية قد قسمت الارض بالقرعة ؛ وهكذا قسم ابناء (كرونوس) العالم • وكان ملوك هذه القبائل يدينون بسلطانهم لخدماتهم العسكرية ، وهكذا كان شأن ملك (اولمبس) • وسنواصل هذه النظائر في الفصل التالي • وعلى هذا الشكل ايضا ، فان تقسيم العمل بين الآلهة ، كما يظهر في القصائد الهوميرية ، هو مجرد انعكاس لتقسيم العمل الذي تحقق في العالم الفعلي عن طريق النظام البدائي للحرف العشائرية ، وهو نظام كانت تحدد فيه مهنة الرجل في حياته من جانب العشيرة التي ولد فيها •

ان هذا يوصلنا الى السؤال الهام : كيف اصبحت إلاهات القسمة غازلات : (كلوثو) و(اتروبوس) و(لاخيسيس) ؟

ان (كلوثو) ، التي هي غازلة مجسدة ، هي اكبر الثلاث سنا ، لان (هوميروس) ، في الوقت الذي يتحدث فيه عن الإلهات بشكل جمعي بوصفهن (كلوثوات) ، لا يذكر الاثنتين الاخريين اطلاقا • وتظهر (أتروبوس) في ادب لاحق بوصفها (إلاهة المجزّات المقيتة التي تشق او

تفتح الحياة الرقيقة الغزل) ــ وهي صورة تستند ، على ما يبدو ، الــى عملية قطع النسيج عن النول ◆ «لقد لففتُ حياتي كما يفعل الحائك : وسيقطعني عن النول» ◆ ولكن هذه الفكرة لا يعثر عليهــــا في الادب اليوناني الاول، كما لا تنطابق مع معنى الكلمة كما يفسرها اليونانيون ــ من لا يمكن ارجاعها ، لا يمكن فك غزلة خيطها ◆ وحتى هذا التفسير الذي يمكن رده الى (اسخيلوس) ، لا يمكن التوفيق بسهولة بينه وبين عمليات الغزل او النسج ◆ وليس من الصعب على الغزّالة ان تفك مــا غزلت ، كما ليس صعبا على الحائكة ان تحل ما نسجت ◆ و(بينيلوبا) هي مثل قائم على النقيض ◆ فمن الممكن اذن ان يكون هذا التفسير قائما على تعليل غير صحيح لاصل الكلمة ◆ والكلمة مستندة الى فكرة الارجاع (trépo) ــ وليس من شك في ذلك ◆ الا ان البادئة (prefix) قد لا تكون حاملة لمعنى الحرمان وانما مؤكدة ◆ وفي تلك الحالة ، تكون (Atropos) مجرد تهجية مختلفة لكلمة (àtraktos) ، بتبــادل الحرف (P) والحرف (K) ــ وليست هي«من لا يمكن ارجاعها»، وانما هو المُرجع او المدوِّر ــ تجسيدا للمغزل ◆

ثم تبقى (لاخيسيس) ، إلاهة النصيب ◆ ويوحي مكانها الى جانب (كلوثو) و(اتروبوس) انها هي الاخرى لا بد ان حملت اصلا معنى ما ذا صلة بفن الغزل ــ اما تحصيص الصوف غير المغزول بين الغزّالين او ، ما يقرب من الشيء ذاته ، كمية الصوف المطلوبة لملء المغزل ◆

فكيف اذن اصبحت هذه (الكلوثوات) او الإلاهات غازلات المصير؟ ان الجواب لا بد ان يُستقصى في النماذج الاولية البشرية ◆ وعلينا ان نلاحظ ايضا ــ والمأثورة تصر على هذه النقطة ــ ان مصير انسان مــا تغزله الإلاهات وقت ولادته ◆ وبماذا كانت نساء العشيرة منهمكــات عند ولادة طفل ما ؟ وعن هذا السؤال يبدو انه يوجد جواب واحـــد

فقط • لقد كن يصنعن ملابسه •

ان وظيفة الملابس هي ، بطبيعة الحال : حماية الجسد • الا ان هذه الوظيفة بين الشعوب البدائية تتلبّس بصورة عامة بقشرة من العادات والمعتقدات السحرية المستندة الى الفكرة القائلة ان صلة وثيقة توجد بين ملابس الرجل وحياته • والفكرة ذاتها تقوم عليها عادة تزيين الجسد بالتشطيب والوشم والتلوين واستعمال الحلي الممكن نزعها •

وفي اليونان القديمة ، كان المولود الجديد يلف بأحزمة تقميط ويحلى بتمائم او تعويذات كالقلائد والخواتم • وكانت هذه الاشياء تعرف بصورة جمعية بـ (gnopsmata) ، او العلامات ، لانها كانت متميزة بشكل يكفي لتشخيص الطفل • وحين كان يجري التخلي عن طفل غير مرغوب فيه ويترك في العراء ، كانت تترك معه علاماته • وكان هذا يتم حتى عندما كان أبواه ، وهما أبعد ما يكونان عن الامل في احتمال بقائه ، مصممين على وجوب هلاكه • وهكذا ، حين سلم الطفل (سيرس) الى احد الرعاة مع تعليمات بأن يتركه فريسة لضواري التلال ، فقد ألبس ثيابا زاهية من الكتان المطرز وحليا ذهبية • وحين استبدله الراعي بطفله المولود ميتا ، فقد نقل هذه العلامات من الاول الى الآخر • وعلى ذلك ، لا يمكن ان تكون ، بصورة عامة ، عادة ترك العلامات في العراء قد حث عليها الامل في استرجاعها في وقت لاحق ، بالرغم من ان ذلك ربما كان دافعا ثانويا • ويوحي عدم قتل الطفل فحسب ، بل تركه ليموت ، وترك ملابسه معه ، بأن التخلي كان في وقت ما ممارسة طقسية مستندة جزئيا الى الاعتقاد بأن حياة الطفل كانت مرتبطة بملابسه ، التي كانت تحمل علامات اصله •

ان كلمة (وَسم) العربية تعني علامة موسومة على الجِمال • ويستفاد مما ذكره (روبرتسن سميث) ، انها كانت في الاصل علامة

طوطمية موضوعة لا على الجمال وحدها ، وانما على اصحابها . ويضاف الى هذا ، كما يذكر (سميث) ، ان الكلمة ذاتها هي من اصل الكلمة (ism) ، التي هي الكلمة العربية لـ (إسم) . والآن ، نجد المعادلة نفسها في اللغات الهندية ــ الاوربية . فالكلمتان اللاتينيتان (Nota) و (Nomen) ، والكلمتان اليونانيتان (Onotàzo) و (Onòma) مشتقة من ذات الجذر . وقد تردد بعض الباحثين في التسليم بهذه المعادلة ، لان مغزاها ليس واضحا على نحو مباشر . الا ان القياس في اللغات السامية يجعل ذلك واضحا . فالعلامة والاسم هما شيء واحد ، وكلاهما يمثلان ، الاولى بشكل منقوش والثاني بشكل ملفوظ ، طوطم العشيرة المجسّد في حامل العلامة او الاسم . وهذا يفسر السبب في ان الاسم في المجتمع البدائي محوط ، بصورة عامة ، بالمحرمات .

هل هناك اية ادلة على ان العلامات كانت طوطمية ؟ لقد كان لعشيرة (السيارتيين) الساكنة في (طيبة) شعاران ــ الحية والرمح . وقد قيل ان جسد كل فرد من هذه العشيرة كان معلّما برمح منذ الولادة . ولكن لما كانت علامات الولادة غير وراثية ، فقد ذكر ، على نحو معقول ، ان الرمح كان خطرا طوطميا . الا ان أوضح مثل هو القلادة الافعى التي تركت مع الطفل (آيون) . وكما لاحظنا في الفصل الاول ، كانت الحية طوطم العشيرة .

وفي ثلاثية (أوريستيه) ، يبرهن (اوريستيس) لأخته على هويته بابرازه لها ثوبا كانت قد حاكته له عندما كان طفلا ــ وكما يلاحظ المعلق ، ربما كان ذلك أحزمة تقميط ــ وفيه تصاميم حيوانات . وكانت هذه التصاميم شكلا متكررا تقليديا في الحلي المعدنية وأحزمة التقميط المطرزة التي كان يكسى بها الاطفال . وتوجد عدة أمثلة في كوميديات (ميناندر) . وهكذا فان (سيريسكوس) يتفحص علامات لقيط ويقول :

«هذا هو خاتم من حديد مطلي بالذهب ، وعلى الفص" منقوش ــ أهو ثور أم ماعز ؟» • ثم ايضا : «دوريس ، اذهبي واحضري العلبة مع المطرزات فيها ــ انت تعرفينها ، انها التي اعطيتها لك لتحتفظي بها ••• أليس هذا ماعزا او ثورا او بهيمة من هذا النوع ؟••• هذا هو الثوب الذي وجدوني به وأنا طفل» • ومن الواضح ان تصاميم الحيوانات هذه على العلامات مأخوذة عن عرف سابق هو تمييز الطفل بطوطم عشيرته •

لقد كان مغزى الشعار الطوطمي ينطوي على جانبين • فقد كان يعني ان الطفل الذي كان يحمله هو اعادة تجسيد لسلف العشيرة، وانه قد ورث بموجب حق الولادة الواجبات والامتيازات التقليدية للعشيرة • وعلى ذلك ، فقد كانت الإلاهات ، بوصفهن تصويرات أسطورية للنساء اللواتي كن يحكن احزمة التقميط المطرزة بطوطم العشيرة ، يمثلن سلطان العرف السلفي الذي كان يحدد منذ الولادة الجزء المقسوم للشخص في حياة القبيلة • ويمكن ان يضاف الى ذلك انه في بعض انحاء اليونان ، حيث تكون نسبة وفيات الاطفال عالية ، لا يزال باقيا (او انه كان قائما في القرن الماضي) الاعتقاد بأن حياة الطفل المولود حديثا يمكن ان تنقذها نساء غير متزوجات يجتمعن في البيت قبيل ولادته ويحكن كساء كاملا له في يوم واحد •

ان العلاقة بين الإلاهات وطوطم العشيرة يثبتها نهج آخر من التحليل• فقد كانت الروح الحارسة لكل من الاورفيوسيين والفيثاغوريين هي الروح المخصصة لكل رجل عند ولادته والتي كانت تحدد كل مسائل حياته الحاسمة • وهذه هي وظيفة الـ (Ka) المصرية ، والـ (Nagual) الامريكية الشمالية ــ وهي جميعا طواطم فردية تطورت عن طوطم العشيرة الجماعي ، الذي تمتزج معه في العديد من الحالات • والى جانب هذه الروح الحارسة الشخصية ، نجد ايضا آثار روح حارسة

وراثية ، روح (اسخيلوس) الحارسة ، او روح العشـــيرة الحارسة • وأكثر من ذلك ، تترابط باستمرار الكلمتان (الروح الحارسة) و(النصيب) بشكل يشير الى ان معناهما واحد من الناحية الاساسية • والعبـــارة اليونانية التي تقابل «يجرب حظه» هي «يتثبت من نصيبه» ، او ، بدلا من ذلك ، «يضع روحه الحارسة على المحك» • ويقول (ايميدوكاليس) ان هناك نوعين من الارواح الحارسة او إلاهات النصيب اللواتي يدشنّ حياة المرء عند الولادة • وتتذمر (إفيجينيا) في الوقت نفسه من الروح الشريرة التي جاءت بها من الرحم والإلاهات اللواتي ولّدن أمها طفلة بائسة جدا • اما ان أهمية الروح هذه اساسية فيثبتها اشتقاقها اللفظي • فكلمة (dàimon) (الروح الحارسة) شقيقـــة لكلمة (dais) (وجبة) ولكلمة (dasmós) (قسمة) ــ انها (المتقسّـــم) او الروح السلفية التي تحدد حصة كل انسان •

ان وظائف الإلاهات لم تكن مقصورة على الولادة • فقد كـــن مرتبطات ايضا بالولادة الثانية او الانبعاث ، وبالزواج ، وبالموت • وفي أثينا ، عندما كان يعود الرجل الى بيته بعد ان قيل بأنه ميت وبعد ان ندبه اقرباؤه ، كان يعاد قبوله الى الجماعة بطقس مؤلف من ميـــلاد تشبيهي ، وكان يوصف بأنه (deuteróptmos) ، اي بأنه قد تسلم (pótmos) ثانيا ــ حيث ان كلمة مرادفة لكلمـــة (Pótmos) (moira) بمعنى الشيء الذي «يصبح من نصيبه» • وفي الاسطورة، كانت الإلاهات هن اللواتي حضرن ليلة زفاف (زيوس) و(هيرا) • وفي الطقوس الدينية ، كانت العروس اليونانية تقدم خصلة من شعرها الى الإلاهة (آرتيميس) وإلاهات القسمة • ويقول الخطيب الاثينـــي (أتيفون) عن ليلة الزفاف ان «هذه الليلـــة تدشّن (Pótmos) جديدا و (daimon) جديدا» • و ، اخيرا تظهر عبارة Moira

thanatou (حصة الموت) ، المتطابقة مع العبارتين (moira biotoio) و (moira gamou) (حصة الحياة ، حصة الزواج) ، ان الانسان كانت له حصته في الموت كما في الحياة . وسيصبح كل هذا واضحا عندما تكون قد توافرت لنا فرصة دراسة الترابط في الفكر البدائي الخاص بالآراء المتعلقة بالولادة والتبني واللقانة والزواج والموت .

لقد ذهبتُ الى ان الإلاهات نشأن كرمز للوظائف الاقتصادية والاجتماعية المميزة للقبيلة البدائية ـ تقاسم الطعام ، وتقاسم الغنائم ، وتقاسم الارض ، وتقسيم العمل بين العشائر . وقد تم الحفاظ على هذه الوظائف تحت اشراف الزعماء القبليين : مفسري العرف السلفي المعترف بهم . وعلى ذلك ، اذا كانت الإلاهات يعبرن عن سلطان العرف السلفي ، يصبح امرا له علاقة بموضوعنا ان نبحث في السبب وراء تصورهن على شكل انثوي .

ان من بين الحجج التي طرحها (روبرتسن سميث) دعما لادعائه بأن الشعوب السامية كانت اصلا تتبع خط النسب من الأم هي ان الوحدات القبلية في اللغات السامية تُعامَل بوصفها انثوية . وهو يقول : «اذا كانت رابطة الدم الفعالة قد احتسبت عن طريق الاب ، وذلك في الوقت الذي كان استخدام الجنس (من حيث التذكير والتأنيث في اللغة) آخذا فيه بالتشكل والبروز ، فمما لا يصدق حقا ان تكون الوحدة القبلية قد أمكن تجسيدها بوصفها أم السلالة . وينطبق الرأي نفسه على اليونان . فالنسط الاعتيادي لاسم العشيرة يستند الى الاصل — ida — الذي هو اطالة للاحقة الحرفية – id — بلاحقة حرفية اخرى هي (a) وكلتا اللاحقتان مؤنثتان . وفي اللهجات المحلية لشمال غرب اليونان ، كانت اسماء العشيرة من هذا النمط تُصرَّف فعلا باعتبارها مؤنثة .

وهكذا . كان اسم العشيرة اليونانية التقليدي ، الذي كان يطلق في الازمان التاريخية على الرجال حصرا ، مقصورا في الاصل على النساء.

وللقبيلة التي يكون فيها مبدأ القرابة من الأم عاملا بصورة نامة الميزات التالية : الاطفال ينتسبون الى عشيرة الام . وعندما يكبرون ، يتزوج الرجال نساء من عشائر اخرى ويذهبون للعيش مع العشيرة التي يتزوجون فيها . وتبقى النساء في عشيرتهن . وعلى ذلك ، يُقتفى نسب العشيرة عبر النساء وتدار شؤونها من قبل النساء . فإذن ، اذا كانت الإلاهات يمثلن سلطان العرف القبلي كما هو مودع في زعماء العشيرة، واذا كان هؤلاء الزعماء من النساء ، امكننا القول بأن الإلاهات كن اصلا مجرد ارواح العشيرة السلفية .

وكما رأينا ، هكذا كانت (الايرينيات) . فهل كانت الإلاهات و(الايرينيات) متماثلات في الاصل ؟ انا لا اعتقد بذلك . وصحيح انهن تشاركن في الكثير من الامور . فكل من المجموعتين كانت من الاناث، كما كانت كل منهما تعبد حصرا من جانب الجنس الانثوي . واذا كانت (الارينيات) ، كما ذهبنا ، من اصل ايجي ، فان جنسهن تشرحه المؤسسات الأمية ليونان ما قبل العهد الهيليني . ومن جهة اخرى ، فان اسم الـ (Moirai) (الإلاهات) هو هندي ـ اوربي . ومع ذلك ، وكما رأينا في الفصل السابق ، كان المهاجرون من اصل هندي ـ اوربي الى اليونان يأخذون بالنسب من جهة الاب . وبالامكان حل هذا التناقض الظاهري على اساس الافتراض بأن اصل الإلاهات يكمن في حضارة الشعوب الهندية ـ الاوربية البدائية قبل تفرقها . وتدعم هذا الافتراض بعض الادلة المستقلة .

فأولا ، يوجد تشابه مدهش بين الإلاهات اليونانيات وإلاهات القدر الجرمانيات (Nornz) . فقد كانت هؤلاء مرتبطات ايضا بالولادة

والزواج والموت • وكنّ ايضا ، غازلات المصير • وما كان ممكنا ان يأخذ الالمان هذا المفهوم عن اليونانيين على نحو مباشر • كما ليس راجحا انهم اخذوه عن طريق اللاتينية ، لان مفهوم (Parex) الروماني كغازلات كان مجرد استعارة ادبية من اليونانية ، وكان مقصورا بذلك على الطبقات المتعلمة • واذا كانت الـ (Parex) ، كغازلات ، قد مارسن اي تأثير في الفكر الشائع ، فلا بد ان تتوقع العثور على آثاره في عبادات (الإلاهات الامهات) الغاليّة والجرمانية الواسعة الانتشار • ومع ذلك ، وبالرغم من ان الادلة كثيرة ، فلا توجد الا حالة واحدة تتوحد فيها هؤلاء المعبودات مع الـ (Parex) ، ولا يتصوّرن في اي منها بصورة غازلات • وتتطلب إلاهات القدر الجرمانيات استقصاء اعمق مما حظين به حتى الان • ولكن ، مع هذا التحفظ ، يمكن القول بأن صلاتهن بإلاهات القسمة اليونانيات لا بد ان تكون بسبب اصل هندي — أوربي مشترك •

وثانيا ، يبين مغزى الموريات او إلاهات القسمة بالنسبة لتقاسم الطعام ان جذور الفكرة كانت تكمن في فترة الصيد — وهي مرحلة خلفها المجتمع الهندي — الاوربي بعيدا وراءه عند تشتته • ثم ، كما رأينا في الفصل الاول ، ان احدى سمات هذه المرحلة المميزة هي وقوع النسب من جهة الأم على نطاق واسع نسبيا • ويظهر اذن اننا نملك في فكرة إلاهات القسمة احد اقدم تقاليد الشعوب الهندية — الاوربية •

وعلى النقيض من (الايرينيات) ، ليس لإلاهات القسمة اية مظاهر صلة حيوانية • وهذا ينجم بشكل طبيعي ايضا عن الفرضية التي طرحتها انا • فقد ابقت (الايرينيات) ، بوصفهن أرواحا سلفية لمجتمع يأخذ بالنسب من الام ، على صلتهن بالاسلاف الاناث • ولكن عندما تبنى الشعب الناطق باللغات الهندية — الاوربية النسب الابوي قبل

تفرقه ، توقفت الإلاهات عن تمثيل الاسلاف ، الذين كانوا الآن رجالا ، وبذلك ، فقد قطعن عن أصلهم الطوطمي •

ومع ذلك ، فبالرغم من ان اصولهن كانت متميزة ، فان وظائفهن مترابطة ترابطا وثيقا • ويقول (اسخيلوس) ان العالم كانت تحكمه في البداية «المويرات الثلاثية والايرينيات اللواتي لا ينسين» • وكانت نساء طيبة يجأرن بالشكوى من «المويرات ، واهبات الشر وظل اوديبوس ، الايرينيات السوداوات» • وحين ندم (أغاممنون) لسلبه (اخيل) حصته او نصيبه ، فقد عزا خطأه الى خبث (زيوس) و(المويرات) و(الايرينيات) • وفي الفترة التالية للعصر الهوميري ، غالبا ما تستبدل بهذا الصدد (المويرا) بـ (دايكي) او العدل • وهكذا ، عندما رفض اغاممنون ومينيلوس دفن جثة آجاكس ، ذلك الدفن الذي هو حصة الميت ، يتفوه قريب الرجل الميت بلعنة عليهما يستثير فيها زيوس والايرينيات ودايكا ، «التي تحققها» • والصفة (تيليسفوروس) ، التي تطلق هنا على دايكا ، كانت ايضا صفة تقليدية لإلاهات القسمة • وفي (الاوريستيه) ، يشجب الوالدان ، اللذان صرعهما صغارهما ، اسم دايكا وعروش الايرينيات • وأخيرا ، يقول (هيراكليتوس) اذا تجاوزت الشمس حدودها ، فسوف تكتشفها الايرينيات ، وزيرات دايكا • وفي فصل لاحق ، سنرى ان هذه «الحدود» هي في الحقيقة «أنصبة» ، حيث ان فكرة الـ «ميترون» او الحدود هي تطور للـ «مويرا» في ما قبل العهد الهوميري •

ان هذه المقاطع توضح بجلاء اولا بأن الوظيفة المنسوبة في الشعر الاتيكي الى دايكي كانت تعود سابقا الى المويرا ، وثانيا بأن كلتيهما منسوبتان وظيفيا الى الايرينيات • ويبدو ان طبيعة العلاقة بينهما هي انه بينما تكون المويرا او دايكا مساء اليها بخرق الحصص المقررة او الحدود المفروضة على السلوك البشري ، فان معاقبة المسيء تتحقق عن

طريق الايرينيات • فالمويرات يقررن ما سيكون ؛ وتضمن الايرينيات تنفيذ القرارات • وهذا التعاون الاسطوري بين المويرات والايرينيات ينطبق مع اتحاد الحضارات الذي تقوم عليه الحضارة اليونانية ، كما ان السلطة العليا التي تتمتع بها المويرات تعكس هيمنة العنصر الهندي ـ الاوربي فيها •

وقد قرن أغاممنون ، في شرحه خطأه ، المويرات والايرينيات باسم زيوس • وماذا كانت علاقة زيوس بالمويرات ؟ يستفاد مما يذكره اسخيلوس ان زيوس حين اصبح ملكا لاول مرة فقد كان بلا قوة او سلطان ليتجاهل سلطة المويرات • وفي القصائد الهوميرية ، تكون علاقة زيوس بالمويرات هي ذات العلاقة الغامضة التي كان عليها الملك تجاه شعبه • وحين يكون (ساربيدون) على وشك الموت ، يُغرى زيوس بانقاذه بشدة ، الامر الذي يوحي بأنه يستطيع ذلك لو شاء ، الا انه يتوقف عن ذلك عندما تحذره (هيرا) بغضب بأنه اذا خرق اوامر (المصير)، فسيحاول الالهة الآخرون ان يفعلوا ذات الشيء • ومن جهة اخرى ، تعني تلك العبارات المقبولة من أمثال (مويراثيون) و(ايبيكلوساتتو ثيوي) ان سلطان المويرات آخذ بالتضاؤل فعلا ازاء سلطة الالهة الآخذة بالتزايد ، ويتكشف اخضاعهن في فترة تالية في عنوان العبادة (مويراجيتيس) ، اي «زعيم المويرات» الذي ولده زيوس في اوليمبيا وأبولو في دلفي • لقد انتصر الآلهة الجدد • وقد استبدلت القبيلة بالدولة •

وبعد ان شرحنا جنس المويرات ، فليست أمامنا اية صعوبة في فهم السبب في ان وظيفتهن كان يرمز اليها بالمغزل • فقد كان الغزل مهمة النساء • وهكذا كانت الزراعة قبل تطور حراثة الحقول • وتتكشف اهمية او مغزى المويرا بهذا الصدد بوضوح عندما نقارنه بعنصر آخر في

الفكر اليوناني استمد أصله من عمل الرجال .

ففي المجتمع الرعوي . كان الرجال يرعون الماشية . وكانت النساء يغزلن الاصواف التي يجلبها الرجال . وتشكل فكرة المرعى اساس كلمة بزت اهميتها في خاتمة المطاف اهمية المويرا — انها كلمة (نوموس) . وكانت هذه ايضا تعني نصيبا او حصة ، ولكن بينما اطلقت (مويرا) بصورة رئيسية على الارض المحروثة ، فقد كانت (نوموس) مقتصرة على المرعى . والآن ، فقد كانت الملكية الخاصة بطبيعة الحال ابطأ تطورا في الارض غير المحروثة منها في الارض المحروثة الى حد كبير . وبعد فترة طويلة من انقسام مويرا العشيرة الى ملكيات عائلية ، بقيت المراعي مشتركة ، حيث كان ينظم استخدامها بحقوق عرفية . وبهذا الشكل ، اكتسبت كلمة (نوموس) معنى استخدام مشترك او عرف معترف به ، وهكذا رسخ العرف في مرحلة اكثر تأخرا كما لو كان ذلك بفعل القانون . وهكذا تمتد جذور الموريا والنوموس في علاقات المجتمع القبلي الاقتصادية . ولكن بينما تكون الاهمية البدائية للمويرا هي فعلا في حالة انحلال في بداية المرحلة التاريخية ، فان فكرة النوموس لا تصل النضج الا بعد فترة طويلة في دولة المدينة الديموقراطية . ويتطابق انحلال المويرا ونهوض النوموس مع الانتقال من القبيلة الآخذة بالنسب الأمي الى الدولة الآخذة بالنسب الابوي .

اننا لم ننته بعد من فكرة المويرا . فهي بعد ان تضمر جذورها الاولى في البنية الاجتماعية تنشر جذورا جديدة ، تجدد عن طريقها حيويتها بتكييف نفسها مع اساليب التفكير الجديدة التي تحركها البنية الدائمة التغير التي تقتات بها . وهكذا فان الاستمرارية التي تقوم عليها تحولاتها المتتالية انما هي استمرارية المجتمع نفسه .

مراجع

ChadwicK, H.M. The Heroic Age. Cambridge, 1912.

Nilsson, H.M. Homer and Mycenae. London, 1933.

Wade - Grey, H.T. Eupatridae, Archons and Areopagus. Classical Quarterly, Vol. 25.

Robertson Smith, W. Religion of the Semites. 3 ed. London, 1921 .

.... Kinship and Marriage in Early Arabia. 2 ed. London, 1903 .

القسم الثاني

مِن القبيلة إلى الدولة

- ٤ -

النظام الملكيّ

ربما كان أوائل المسوطنين في جزيرة (كريت) من اصل شمالي افريقي ، وينتسبون الى ذات السلالة التي كان ينتسب اليها السكان البدائيون للوجه البحري من مصر • وقد انضم اليهم في مرحلة مبكرة مهاجرون من قبرص وآسيا الصغرى • وكان تطورهم الاجتماعي والحضاري تحفزه باستمرار اتصالاتهم بدول مصر والشرق المتقدمة • وبحلول منتصف الالف الثاني قبل الميلاد ، كانوا قد انشأوا دولة ثيوقراطية تجارية على درجة عالية من التنظيم تركزت في مدينة (كنوسوس) • وقد شعت الاتصالات التجارية لجزيرة كريت المينيوية على جميع أقسام البحر الابيض المتوسط ، وكانت علاقاتها مع (ليسيا) وجزر (سيكليديز) وأجزاء من البر اليوناني وثيقة على وجه الخصوص• وتوحي اساطير (آرغوس) و(تيكا) ان هذه المناطق كانت قد حكمت في

وقت من الاوقات من (كنوسوس) او انها اخضعت للجزية على الاقل • وكل هذا يفترض مسبقا السيطرة على البحر ومنظمة دولتية متقدمة • وهذه بالضبط هي سمات العصر المينيوي التي تركت آثارها بأعمق شكل في التقاليد اليونانية • ويذكر (ثيوسايديس) قوة (مينوس) البحرية كحقيقة تاريخية ، وقد بقيت سمعته كمشرّع قائمة في المأثورة الصوفية، التي جعلت منه قاضي الاموات الاعلى الذي كان يخصص لكل نفس حصتها في الحياة الابدية •

ان هذه الدرجة العالية من التنظيم الاجتماعي لم تستنسخ خارج جزيرة كريت نفسها • فقد كانت مدن البر اليوناني ـ (اورخومينوس) ، (طيبة) ، (آرغوس) ، (تايرينس) و(ميسينيا) ـ صغيرة نسبيا وحصونا عسكرية معزولة ، كانت جدرانها الضخمة تطل على السهول المحيطة بها بنظرات متجهمة مملوءة بالوعيد • وبعد فترة وجيزة من منتصف الالف الثاني دمرت مدينة (كنوسوس) ، وانتقل مركز القوة الى (ميسينيا) ، التي مارست سلالتها الحاكمة هيمنة غير محددة على جيرانها • وقد قامت قوة هذه السلالات بصورة رئيسية على الفتح والسلب • وكانت هناك حرب طويلة بين (ميسينيا) و(طيبة) • وكانت هذه فترة اضطراب اجتماعي واسع ، تتوجت في هجمات بحرية ، قامت بها عصابات نهب وغزو امتدت الى حدود مصر ، وفي حصار طروادة • وقد أنهيت بغزو القبائل الدوريانية (١٠٠٠ ق•م) ، التي نهبت النهّابين وأقامت سلالات حاكمة جديدة في (ثيسالي) و(بيليبونيز) و(كريت) نفسها • وبعد الفتح الدورياني ، حلت ظروف اكثر استقرارا ، وكان غنى المدنية المينوية قد استُهلك •

ان اصل هذه السلالات التي وجدت قبل العهد الدورياني غير مؤكد • الا ان المحتمل ان العديد منها كان يتحدث باليونانية • ويوحي

توزيع اللهجات المحلية في اليونان التاريخية ان لغة الحديث اليونانية كانت قد نقلت الى حوض بحر ايجه في ثلاث حركات متعاقبة ٠ فقد حملت الحركة الاولى اللهجة الاتيكية والآيونية الأم الى (بويوتيا) و(تيكا) وبيليوبينيز الشمالية ٠ وهذه هي الفترة التي بلغ فيها نفوذ جزيرة كريت السياسي ذروته ــ وهي حقيقة تنعكس بتشرب اليونانية بعنصر اجنبي كبير ومهم ، بما في ذلك كلمتا «أخ» و«ملك» ٠ أما الحركة الثانية ، التي ارتبطت بسقوط (كنوسوس) (١٤٥٠ ق٠م) ، فقد حملت اللهجة اليوليكية والاركادية الأم الى (ثيسالي) و(بيليوبينيز) وكريت ورودس وقبرص ٠ ومن المحتمل جدا أن تكون هذه لغة حديث الامراء الأكيين الموصوفين في القصائد الهوميرية ٠ وكانت الحركة الثالثة هي انتشار الدوريكية ، التي صبغت اللهجات الأكيَّة في جميع انحاء (بيليوبينيز) ، باستثناء الهضاب الأركادية ، وامتدت في الخارج حتى بلغت كريت ورودس والساحل الليسي ٠ وفي ذات الوقت ، فقد نقلت اليوليكية ومختلف اللهجات المحلية ، التي اندمجت اخيرا في اللهجة المعروفة لدينا بالآيونية ، عبر بحر ايجه الى السواحل الشمالية والوسطى من آسيا الصغرى على أيدي جماعات هاربة من الفتح الدورياني ٠

ان العملية ذاتها تنعكس ، وان كان ذلك بدقة أقل بطبيعة الحال ، في تاريخ الدين ٠ فعبادة (الارض) في (دودانا) و(دلفي) ، وعبادة (ديميتير) في (ايلوسيس) وفي (آرغوس) و(اركاديا) ، وعبادة (أثينا) في (بويوتيا) و(اتيكا) و(سبارطه) ، وعبادة (هيرا) في (آرغوس) و(اركاديا) و(ايليس) ــ كل هذه العبادات كانت قبل العهد الهيليني ٠ ففي (دودانا) ، انضم الى الاهة (الارض) في وقت مبكر الإله (زيوس)، وفي (دلفي) استبدلت بالإله (ابولو) ، الذي جلب الى (دلفي) من كريت، ومن كريت الى أناتوليا ٠ وقد شكَّك (بوسيدون) في هيمنة الإلاهة

(اثينا) في اتيكا . و(هيرا) في (آرغوس) و(ديسيتير) في (أركاديا) • وفي (اوليمبيا) اخلت (هيرا) مكانهـــا لـ (زيوس) • ولما كان اسم (زيوس) هنديا ـ اوربيا على وجه التأكيد ، ولما كان معظم السلالات الاكيـّة يدعي الانحدار منه ، فمن الراجح ان هذه السلالات كانت أداة في نشر عبادته في انحاء (بيليبونيز) وفي الخارج الى جزيرة كريت •

لقد اصبحت العملية ، التي بدأت بتغلغل سلمي ، عنيفة على نحو متزايد وأصبحت الفترة الاكيـّة محفوفة بالكوارث • فقد كان هــؤلاء الغزاة الشماليون : الذين أخفوا اصلهم الغامـــض تحت اسم (زيوس) الملكي ، قد نهبوا كنوز (ميسينيا) و(سبارطه) وكريت المينوية ، الغنية • ومن المؤكد ان تنظيمهم القبلي حين دخلوا حوض بحر ايجه كان أبعد ما يكون عن البدائية ، الا ان عوامل الانحلال كانت حتى ذلك الوقت تعمل ببطء من الداخل • والآن ، وفي تضارب الفتوحات ، فقد عجـّل التوسع المتراكم للتناقض بين التركيب القديم للمجتمع ومحتواه المتغير بوقوع اضطراب عنيف نشأ عنه ، بعد الفتح الدورياني ، تركيب جديد مختلف• وأخذ المجتمع من الآن فصاعدا ينقسم على نفسه بين أولئك الذين كانوا ينتجون الثروات والذين كانوا يتمتعون بها • وهذا التناقض الداخلـــي هو الذي مكـّن من قيام التقدم التقني والحضاري الواسع الذي ميـّز الانتقال من البربرية الى المدنية ، وذلك عن طريق مضاعفة أوجه تقسيم العمل • الا ان هذا التضاد لم يكن راكدا ـ بل كان صراعا زاد على نحو واسع ومستمر من كل سرعة التحول الاجتماعي ـ • وليس الزمن الفاصل بين الفتوحات الأكيـّة وأوربا المعاصرة الا جزءاً ضئيل الشأن من عصور لا تحصى مرت منذ ظهور تلك القبائل الغازية من القبيلة المترحلـــة البدائيـــة •

لقد أعيد تركيب صورة تنظيم الأكيـّين الاجتماعي من البقايا الاثرية

بمساعدة القصائد الهوميرية • فالملك يعيش في قصر على ربوة صخرية معينة ، تحوطه مساكن أتباعه • والعلاقة بين الملك والتابع هي من النوع الذي نجده في ظروف مماثلة بين الالمان البدائيين بعد ألفي عام • ففي مكافأة خدماته العسكرية ، يملك التابع حكم جزء معين من الارض المفتوحة ، وهو ، بالمقابل ، يحمل السلاح في سبيل الملك اذا دعي الى ذلك • وهكذا كانت علاقة (بيليروفون) بملك (ليسيا)، وعلاقة (فينيكس) بأب (اخيل) • ونحن تتذكر كيف جَهِد (أديسيوس) ، دون طائل ، للتهرب من الخدمة العسكرية • ومن حق التابع أن يُستشار في شؤون السياسة وأن يتناول الطعام على المائدة الملكية • ويوجد العديد من مجالس الشورى هذه في (الالياذة) • وفي (الاوديسا) ، تكمن جريمة الاشخاص الذين يتقدمون بشكاوى في اساءتهم امتيازا معترفا به • وأخيرا ، كان كل تابع بمثابة ملك في علاقته برعاياه هو • فقد كان (اوديسيوس) تابعا لتابع (أغاممنون) ، ولكنه كان ملكا بالنسبة لأمراء (إيثاكا) •

ان الصفة الثورية لهذه العلاقة هي انها شخصية ، مستقلة عن منصب الملك ، وبالتالي مناهضة للقبلية • وقد سبق بحث التناقض الناجم وسط الزعماء الحاكمين بين الولاءات الشخصية والقبلية • ويفسر هذا صفة بارزة من صفات القصائد الهوميرية • ونحن نعرف من بيت واحد من (الالياذة) بأن الجيش الأكّي ، كجيوش اثينا واسبارطة بعد عدة قرون ، كان منظما على اساس قبلي • الا ان هذه الحقيقة مذكورة عرضاً ، ولا تذكر مرة اخرى اطلاقا • ولا يعني هذا السكوت بصدد موضوع المؤسسات القبلية بأنها كانت قد توقفت عن التواجد ، وإنما يعني بأن القصائد كانت تنتمي الى تقليد طبقة حاكمة كانت تستخف غريزيا بالولاءات التي كانت قد تحدتها • وقد استمر ترتيب الجنود العاديين

بطنا بعد بطن ، الا ان التابع كان يعقب سيده •

ان هذا التمييز بين الـ (estholoi) ـ الاغنياء والمسلحين جيدا والشجعان و«الجيدين جدا» ـ وبين الـ (Kakoi) ، الذين كانوا يسيرون وراء قادتهم فقط ، لم يصبح بعد جامدا جدا كما أصبح عليه في خاتمة المطاف ، لأن قوة الزعماء تستند الى الثروة التي تتخذ شكل سلب ، وليس بعد الى الارض • ومثل هذه الثروة يمكن ان تضيع بذات السهولة التي تكسب بها • ومع ذلك فهي شيء معترف به مسبقا• وعندما كان (ثيرسيتيس) على درجة كافية من الجرأة ليرفع صوته ضد الحرب ، فقد جلده (اوديسيوس) • وقد أعطى محدث النعمة درسا مفيدا • وأعلن (اخيل) انه يفضل ان يكون قناً بين الاحياء على ان يكون ملكا بين الاموات • وفي ذات الوقت ، وكما نعلم ذلك من (هيسيود)، فقد حصّن القن نفسه ضد مظالم هذا العالم بالامل في ان يعاقب عليها في العالم القادم • ان المجتمع منقسم على نفسه • ومظهره لم يعد موحدا •

ان خصائص هؤلاء الامراء الاكيّين ـ تنظيمهم الاجتماعي ، مثلهم العليا الشخصية ، موقفهم تجاه عامة الناس ـ تنعكس جميعا في القصص التي يرويها لهم شعراؤهم عن آلهتهم •

ان منزل (زيوس) يقع على ذرى (اوليمبس) المغطاة بالغيوم • وفي البداية ، كان (زيوس) ، بوصفه جامع الغيوم وباعث الرعود ، قد عاش وحيدا، أما الآلهة الاخرون فقد كانوا يعيشون في اماكن أخرى ـ (هيرا) في (آرغوس) ، و(افروديت) في (بافوس) ، و(أثينا) في (بيت ايريكثيوس) ـ الا انهم قد تجمعوا الآن في مدينة إلهية واحدة ـ حيث يعيش (زيوس) في القصر المركزي ، والآخرون في الشقق المجاورة التي بناها لهم (هيفيستوس) ـ وهيمنة (زيوس) معترف بها ، وان كانت في

التطبيق تتعرض للتحدي في معظم الاحيان • وهو يستدعي مرؤوسيه لحضور مجالس شورى تبحث فيها شؤون الجنس البشري ، ويستضيفهم لتناول اللحوم والخمور وسماع الموسيقى • وهؤلاء الآلهة أنانيون ، عديمو الضمائر ، انفعاليون ، متحسسون تحسسا عميقا بجميع مبهجات الاحاسيس • وهم لا يختلفون عن عبّادهم الا بشيء واحد ــ انهم لا يسكن ان يموتوا ابدا ــ وهم يشعرون بغيرة شديدة من هذا الامتياز • وعلى الفانين ألا يطمحوا الى ما هو فوق حالهم الفاني ، وإلا دُمروا بالصواعق • وكما هي علاقة عامة الناس بزعمائهم ، فكذلك هي علاقة الزعماء بآلهتهم • وقد عبّر هؤلاء الاكيّون عن شعورهم بالقيود على سيطرتهم على القوى الطبيعية بتجسيدهم هذه القوى كصنف من كائنات فَوطبيعية كانت تسيطر عليهم بذات الطريقة التي كانوا يسيطرون هم بها على صنف رعاياهم • وكان (اوليمبس) الاكي مرآة الواقع الاجتماعي الاسطورية •

وجدير بالتذكر أن سلطة الزعماء ، في قبيلة الصيد ، كانت قد صوّرت على انها عبادة جدٍ اعلى ، وان إلها كان يعبد في هيئة ملك في وقت لاحق ، وذلك عندما تركزت السلطة بين يدي زعيم او ملك • وقد عمل تطور المجتمع البشري الأبعد على نشوء تعقد متزايد في علاقات القوى الآلهية التي كان يعتقد انها تحكمه • فقد اخضع بعض الآلهة الى آلهة آخرين : وشنّت الحرب بين القبائل والشعوب مرة اخرى في السماء • وكانت مجموعة الشعارات الطوطمية التي كوّنت شعار الفراعنة الملكي رمزا متبلورا لدمج واخضاع قبائل مستقلة اصلا ، حيث أدى ذلك الى توحيد المملكة • وكانت العلاقات الدائمة التغير بين مدن دجلة والفرات المتنافسة منعكسة في هيكل الآلهة البابلي المركّب وغير المستقر • وعلى النحو ذاته ، تعيد هيمنة (زيوس) على الاولمبيين العنيفين صورة تنظيم اليونان الاكيّة تحت السيطرة المفككة التي

مارستها عائلة (اتريوس) المالكة •

ان الاسطورة ابتدعت من الطقوس • وينبغي ان تفهم الكلمة الاخيرة بمعنى واسع . ذلك ان كل شيء في المجتمع البدائي مقدس ، وما من شيء دنيوي او دنس، وكل فعل ــ الاكل . الشرب ، الحرب، القتال ــ له طريقته الخاصة . وهي مقدسة بحكم كونها مفروضة • وفي اغنيـــة ورقصة الطقوس التشيلية . ينسحب كل مغنٍ او راقص ، تحت التأثير المنوِّم الذي يحدثه الايقاع . من وعي الواقع . الذي كان خاصا به ، شخصيا . الى عالم الخيال غير الواعي، الذي كان مشتركا بين الجميع، جماعيا • ومن ذلك العالم الداخلي ، كانوا يعودون محملين بقوة جديدة للعمل • والشعر والرقص ، اللذان تطورا من الطقوس التمثيلية ، هما كلام وإيماءات مرفوعان الى مستوى سحري من الكثافة • وقد كانـــا لفترة طويلة من الزمن متلازمين ، وذلـــك بسبب اصلهما ووظيفتهمـــا المشتركين • ولم يبدأ انفصال الشعر عن الرقص ، والاسطورة عـــن الطقس ، الا بنشوء طبقة حاكمة كانت ثقافتها منفصلة عن عمل الانتاج • وفي اليونان ، كما كان الحال بين الالمان البدائيين ، كانت هذه الطبقة ارستوقراطية عسكرية حكمت بموجب حق الفتح . وكان انتاجها الاول في كلتا الحالتين فن الشعر الملحمي • وبعد انتهاء المعركة ، كـــان المحاربون ، المتعبون ، والقانعون رغم ذلك ، ينســـون إعياءهم حيث كانوا يُصغون الى قصة شعرية بسيطة ، ينشدها احدهم او قوّال بعد ذلك ، وذلك على شرف انتصارهم • ولم تكن وظيفة هـــذه القصص الشعرية الاعداد للعمل ، كما كانت عليه وظيفة الشعر الكورسي ، وإنما الاسترخاء بعد العمل ، ولذلك فقد كانت أقل توترا ، وأقل تركـــزا وقدسية • وأكثر من هذا ، لم تكن موضوعاتها تقاليـــد العشيرة او القبيلة الجماعية ، وإنما مآثر اشخاص • ولذلك ، كان أسلوبها اكثـــر تحررا من التقليد ، اي اكثر انفتاحا على طرق الاداء الجديدة •

وتكمن وراء القصيدة الملحمية اليونانية عادة الانشاد الجماعي ، كما نشاهدها بين بعض القبائل الامريكية الشمالية • وكانت المرحلة الحاسمة في تطور القصيدة الملحمية نشوء السلالات العسكرية ، التي زودت فن الغناء بموضوعات جديدة وأسلوب جديد • وكانت الموضوعات الجديدة هي حروب الفتح ، اما الاسلوب الجديد فقد كان القصة الشعرية البسيطة التي كان ينشدها قوّال مدرب في الولائم التي كان الملك يستضيف فيها توابعه • ومن هذه الناحية ، يمكن اقتفاء أثر تطور الفن في مدونات مكتوبة • وكما بيّن (جادويك) في دراسته الرائعة للموضوع ، يقدم تاريخ القصيدتين الملحميتين اليونانية والتيوتونية عددا من السمات المشتركة ، التي تمكننا من ربط كلتيهما ببيئتهما الاجتماعية •

لقد كانت موضوعات القصص الشعرية التيوتونية معاصرة اصلا • والقوّال يغني اليوم انتصار الامس • ونتيجة لتدريب القو-ال ، فقد اصبح الشكل العروضي للقصة الشعرية لغة له ثانية . كان طلقا فيها كما في الحديث الاعتيادي • وقوّال البلاط هو تابع للملك ، يوطد سلطته بتخليد ذكرى منجزاته •

ان القصائد الهوميرية لا تنتسب الى هذه المرحلة ، ولكنها تشير الى انها كانت اساسا لها • ونحن نسمع القليل عن اداء الغناء والشعر في (الالياذة) ، لان موضوعها القتال الفعلي • الا ان (أخيل) يؤاسي نفسه، بمناسبة واحدة ، وهو في حالة تبطّل ، بغناء «أمجاد الرجال» التي لا بد ان تغني مآثرهم في المعارك • وتنتهي المأدبة الاولمبية في الكتاب الاول بأغان ورقصات من (أبولو) و(الموزيّات) • وفي (الأوديسا) ، يغني (فيميوس) عودة الاكيين ، ويغني (ديمودوكس) حصان طروادة ، ونحن نُخبر بصراحة بأن الموضوعات المعاصرة هي الاكثر شيوعا • وكذلك نسمع عن قوّال في (ميسينيا) ، كان (أغاممنون) قد عهد اليه بالوصاية

على ملكته — ومن الواضح انه كان تابعا ذا مركز مرموق •

وتنتسب القصائد الهوميرية ذاتهـا الى المرحلة الثانية • وقـد استسلمت الملكيات الاكية الى الغزاة الدوريانيين ، وفرّت العوائـل الموسرة في (ثيسالي) و(بلبيونيز) الى آسيا الصغرى ، حاملة معها تقاليدها الثقافية • وهناك وجدت مسالك جديدة . مؤلف بعضها من السكـان المحليين والآخر من اللاجئين الذين يتحشـدون الان عبر بحر ايجه • وهذه المستوطنات الجديدة هي دول زراعية صغيرة ، ليس فيها الملك الا مالك الارض الرئيسي • وفـي هذه الاحوال ، لم يعد المغنون يغنون انتصارات معاصرة . لانه لا توجد اية انتصارات تغنى ، ولذلك فهـم يعودون الى تقاليد الماضي المعطاة قيما مثالية •

ان هذه البيئة ، وحيث بدأ أفول النظام الملكي فعلا ، هي التي كان الشعر الملحمي اليوناني قد نضج فيها • ويمكن الافتراض بأن القصص الشعرية التي كان هؤلاء المهاجرون قد حملوها معهم كانت فعـلا ذات مكانة فنية عالية • أما الآن فقد أبلغت درجة الكمال • والعامل الرئيسي الذي تقوم عليه المرحلة الاخيرة في تطور (الالياذة) و(الأوديسا) هي هذه الفترة الهادئة من التركيز على عدد من الموضوعات الفنية والتي سبق ان عالجها بشكل جيد الحرفيون الذين كان وراءهم تقليد يمتد الى عـدة قرون ، تكوّن تحت تأثير الحضارة (المينيوية) ، ذلك التقليد الذي أعادوا صياغته على نحو اكثر جرأة لانه كان قد اجتث مـن بلده الاصلي • وتركيب هذه القصائد الرائع أخّاذ الى درجة انه طرح كدليل على أن مؤلفها واحد • الا انه لا يوجد اي مبرر لعدم إحداث ذات الاثـر عبر عدد من القرون في ظروف النقل الشفوي • ولربما لا يزال المرء يرى بين الفلاحين قصص بطولات او حكايات شعبية متكاملة فنيا — ليس بسبب انها عمل فنان واع — وإنما لانها ، في مجرى القرون ، قد اعطيت شكلا محددا وصقلت على نحو متدرج بنوع من التآكل الطبيعي ، الذي أزال

الزوائد وصاغ وحدة نهائية بدرجات بطيئة . ثم ان شعراء (الهوميريين) الوراثيين كانوا فنانين واعين ، مثقفين ومشذبين ، وقد أكملوا مادة التقاليد بغرسهم فيها نظرتهم الشخصية الخاصة .

وبالطريقة ذاتها ، تنشأ الحدة التراجيدية التي تتخيل بها قصة (الالياذة) عن الظروف التاريخية التي كانت قد تطورت فيها القصيدة . وكانت السلالات الاكيَّة قد نشأت وانهارت فيما كان يجري نظمها . وكان شعراء (سسيرنه) و(كايوس) المتطورون هؤلاء ، بعيدين جدا عن كبار اللصوص شبه البرابرة الذين كتبوا عنهم . وكانت النتيجة توترا ديناميكيا بين انفسهم ومادتهم . وقد امتصوا مادتهم بدرجة من العمق بحيث يبدو معها هذا التوتر شيئا داخليا في أبطال القصة . وهكذا يقول (سباريدون) لتابعه : «لو كان مكتوبا علينا ان نعيش الى الابد كالآلهة وألا نكبر او نموت ، لما كنت ارسلك الى المعركة ولما كنت أنا نفسي أذهب اليها . ولكن ، لما كنا على اية حال مطوقين من كل جانب بألف موت وخطر ، فلنذهب اذن لنعطي مجدا او لنكسبه» . ان هذا ليس صوت كبير لصوص . و(أخيل) الذي استلّ سيفه على الملك ، واعتكف في خيمته رافضا الكلام ، وازدرى عرض المدن ، وتمرغ في التراب حزينا ، وسحب جثة عدوه بمؤخرة عربته ، وتوسل الى (برايام) المسن ان يذهب بعيدا خوفا من ان تنتابه نوبة مرضيَّة مفاجئة وتقضي عليه ، ذلك هو الزعيم الاكيّي الحقيقي ، المغير على المواشي بلا انقطاع ، وسلاّب (كنوسوس) . الا ان (أخيل) مقضي عليه ، وكذلك (أغاممنون) و(ايجاكس) . وقد أزيلت الامبراطورية التي بنيت بالسرقة والسلب ، ليتذكرها ، في أبيات شعرية سداسية التفاعيل عذبة ، شعراء (آيونيا) الهادئون الحساسون ، الذين أحبوا ملاحظة حركة الخراف في اندفاعها المفاجيء المذعور الى حظيرتها ، او جرة المناجل الطويلة في العشب ، او رشاقة اصابع امرأة على النول . وهكذا ، وكما يرونه ، فان

(أخيل) تمزقه معرفته المسبقة بمستقبله • «هل سأعود الى فثيا وأقضي حياتي في راحة خالية من الاحداث ، ام اموت شابا في معركة وأعيش الى الابد على شفاه الشعراء ؟» • وهذه هي محنة (الالياذة) ، التي تبلور في رائعة ادبية واحدة خمسة قرون من التغير الثوري •

وفي (الاوديسا) ، التي هي احدث من (الالياذة) ، يكون الاسلوب نفسه ، الا ان المحتوى أقل تقليدية ، فالمشاهد في (ايثاكا) لا بـد ان تكون بصورة رئيسة خيالية ، واللهجة أرق ، اي آقل بطولية • واذا كانت القصص عن الفينيقيين، كما ذكر (نيلسن) ، تعود الى أواخر القرن الثامن، عندما كانت التجارة البحرية بادئة لتوّها بالانتعاش ، أمكن الاستنتاج بأن احد الموضوعات الرئيسية للقصيدة ــ الخوف وروعة البحر ــ قد أثارته البدايات الاولى للحركة التجارية التي جاءت لتعجل فورا فـي ازمة جديدة تكمل تطور دولة المدينة •

ان فن القصيدة الملحمية كان قد نما مع النظام الملكي ، وانهار معه• فلقد مست الحاجة الى الملك ليقود القبائل في الحرب ، وعندما كانت الحروب في ذروتها ، اصبحت الممالك اليونانية موحدة في نظام فيدرالي تحت ملكية اعلى في (ميسينيا) • الا ان هذا النظام انهار بسرعة ، ليس لمجرد انه كان عرضة لتهديد (الدوريانيين) ، بل لانه كان عاجزا عـن تكييف نفسه لاساس معين ايام السلم • وعجز النظام الاكيي واضح في القصائد الهوميرية • وحتى على ميدان المعركة ، نجد (أغاممنون) عاجزا عن السيطرة على اقوى توابعه ، وفي ذات الوقت ، فقد احتجز قصره في موطنه احد المغتصبين • وفي الاجيال التي تلت حرب طروادة ، انحلّ الاتحاد الفيدرالي الاكيي الى عدد كبير من الامارات الصغيرة ، حيث ارغم الملك في كل منها ، بعد ان خف ضغط الاحتياجات العسكرية ، علـى اقتسام امتيازاته مع توابعه ، الى ان لم يبق شيء من منصبه سـوى الاسم •

وعندما انهارت البلاطات الملكية ، اختلط القوّالون بالشعب ، حاملين معهم أساليبهم التقليدي ومكيفين موضوعاتهم وفقا للبيئة الجديدة ، وكانت القصائد الهوميرية ، المنظومة لأرستوقراطية غنية ومترفة . قد صست لتكون مصدر متعة والتذاذ ، الا ان الفلاحين . الذين اخذ القوّالون يتوجهون اليهم بأشعارهم الآن ، لم يجدوا فائدة من الشعر ما لم يكن يعين على ملء الافواه الفارغة ، وكان شعر (هيسيود) مصمما للتعليم ، وفي قصيدة (الاعمال والايام) ، تلقى الفلاحون دروسا في الزراعة وقراءة النجوم ومعرفة الطقس ، والأسحار والفأل ، وبصورة عامة كيفية الاستفادة على أفضل وجه من قسمتهم السيئة ، وفي (الثيوغونيا) (دراسة اصل الآلهة وتحدّرهم) ، رُوي لهم اصل العالم ، وكيف كان (الاولمبيون) قد اخضعوا بالعنف والمكر آلهة العصر الذهبي . عندما كان كل الناس يعيشون بقناعة دون اضطرار الى كسب عيشهم بعرق جبينهم ، وفي شعر (هيسيود) ، حثّ الفلاحون على «العمل ، العمل ، العمل» ، وفي الوقت ذاته فقد كانوا يتغذون بذكريات شعبية عن المشاعية البدائية ،

مراجع

Thomson, G. The Prehistoric Aegean. 3ed. London, 1961.



الارستوقراطية

عرض (أغاممنون) على (أخيل) ، استرضاء له وتهدئة ، من بين ما عرض ، سبع بلدات في (ميسينيا) ، كان يسكنها سكان اغنياء بالخراف والابقار ، قال انهم سيكرمونه بالهدايا وكأنه إله • وواضح ان هذه البلدات كانت ضيعات ملكية رغب الملك ان يمنحها لاحد توابعه لانها كانت بعيدة جدا عن عاصمته بحيث تعذر حكمها بشكل مباشر • وهذا الاسلوب في تنظيم الاراضي المفتوحة شبيه بنظام اوربا الغربية الاقطاعي، حيث كان يستند الى تدرج مماثل في الرتب من الملك عبر توابعه وتوابع توابعه حتى الاقنان • وهو يمثل مرحلة متقدمة على نظام الحصص المخصصة ، لانه يعني ان الارض كانت تعود الى الملك ، في الواقع ان لم يكن بالاسم • وهو لم يستمر لان اتجاهات الزعماء المحليين نحو الابتعاد عن المركز كانت ، كما رأينا ، على درجة من القوة ايام السلم

بحيث لم يستطع مقاومتها ؛ وقد ازاله الغزاة الدوريانيون .

وحين دخل الدوريانيون (بيلوبينيز) ، كان تنظيمهم القبلي لا يزال سليما بصورة عامة . وكانت الجمعية القبليـــــة ، المؤلفة من الرجال البالغين ، لا تزال قادرة على تأكيد سلطتها . وهذا ما تظهره معاملة ابناء (تيمينوس) ، وتاريخ الجمعية الاسبارطية التالي . وبالمثل ، كانت ، في سبارطة، الهيئة الادارية الفعالة ردحا من الزمن طويلا هي الـ (gerousia) او مجلس الزعماء القبليين . وبقيت وظيفة منصب الملك السبارطـــــي عسكرية في جوهرها . وبالرغم من ان المنصب كان في الفترة التاريخية وراثيا ، الا ان الدور الذي لعبته الجمعية بعد وفاة (تيمونوس) يبيّن ان الوراثة كانت تخضع يوما ما لمصادقة الشعب .

وقد استمد استيطان الدوريانيين في اسبارطة صفته المميزة من ان النظام القبلي ، المقصور على الفاتحين ، الذين كانوا يؤلفون أقلية ضئيلة بين مجموع السكان ، جرى بذلك تحويله ، ومع تغييرات داخلية طفيفة ، الى طبقة حاكمة منغلقة ومحصورة على نحو صارم . ونظرا لقلة أعداد السبارطيين ، لم يستطع هؤلاء اخضاع الاقنان الا بإبقاء تنظيمهـــــم العسكري في حالة تأهب دائم ، وكـــــان اساس ذلك التنظيم قبليا . وللسبب ذاته ، كان عليهم ان يرصوا صفوفهم ضد مظاهـــر اللامساواة المدمرة التي ستنجم عن نمو الملكية الخاصة . وعلى ذلك ، فقد بذلوا جهدهم للابقاء فيما بينهم على مبدأ التملك المشترك القبلي . وقـــد قسمت الارض الى ملكيات عائلية . الا ان هذه الملكيات كانت غـــير قابلة للتحويل . وكانت وظيفتها تزويد كل اسبارطي ، باستغلال الاقنان الذين كانوا يشغّلونها الى حد خمسين بالمائة من الغلة ، بحصته التـــي يسهم بها في كميات الطعام الجماعي ، لأن السبارطيين استمروا في تناول الطعام بصورة مشتركة، وفي الوقت نفسه عارضوا بشدة تطور التجارة،

ورفضوا نشر مجموعة قوانين كانت التجارة المنظمة بدونها مستحيلة • وبهذه الطريقة ، حوّل نظام كان قد تطور على اساس المساواة الى اداة للهيمنة الطبقية • وكان تركيبه لا يزال طبقيا ، الا انه وظيفيا أصبح دولة •

وبالرغم من هذه الاجراءات الاحتياطية ، فقد تطورت مظاهر اللامساواة • وجرى التهرب من القانون الذي يمنع تحويل الملكيات ، ونشأت هناك طبقة من السبارطيين الذين لم يملكوا اراضي • وقد جوبه الضغط الداخلي الذي خلق بهذا الشكل بسياسة توسع حذر • وكان لا بد لهذا التوسع ان يكون حذرا لان اية هزيمة في الحرب كانت ستتيح للاقنان الفرصة التي كانوا بانتظارها دائما • وللسبب ذاته ، كانت السياسة الخارجية السبارطية يسيّرها التصميم على الحفاظ ما أمكن على هيمنة الطبقة المالكة للاراضي في الدول الاخرى •

وفي (ثيسالي) و(كريت) ، كان السكان الرعايا يعاملون على أيدي فاتحيهم الدوريانيين بذات الطريقة ، بالرغم من انه يبدو ان شكل القنانة الفعلي كان نسبيا أقل قسوة • وفي (كريت) ، نجد نظاما مماثلا في وجبات الطعام المشتركة والملكيات العائلية • الا ان تنظيمها الاجتماعي كان ، بسبب موقعها البحري ولا ريب ، اكثر تقدما في بعض النواحي، او انه كان قد اصبح كذلك بحلول القرن الخامس • وفي تلك الفترة ، ولربما قبلها ، كان للدوريانيين في (غورتينا) مجموعة قوانين مدونة تنطوي على تطور كبير في الملكية الخاصة ، بالرغم من انها كانت اكثر بدائية من مجموعة (صولون) الأتيكية • وكما لاحظتُ سابقا ، فلربما كانت مؤسسات (كريت) الدوريانية القانونية مدينة بشيء لتأثير الحضارة (المينيوية) •

وكانت هيمنة الدوريانيين كاملة في هذه المناطق الثلاث فقط • وفي

(سيكون) و(آراغوليس) ، كانت توجد ، الى جانب القبائل الدوريانية الثلاث ، قبيلة رابعة مؤلفة من عناصر سابقة على عهد الدوريانيين • وهذا يعني ان سكان ما قبل العهد الدورياني لم يحوّلوا الى أقنان بفعل الفتح • وكانت الارستوقراطيات الدوريانية في هذه المناطق أضعف، ومن ثم أقل نجاحا في مقاومة نمو التجارة •

وفي انحاء اخرى من اليونان ـ في أتيكا وآيونيا ـ ، لم يكن النظام الاجتماعي الجديد الذي ظهر بعد حروب الغزو مستندا الى انقسام عرقي او حضاري كالانقسام الذي فصل الدوريانيين عن رعاياهم• وبحلول نهاية القرن السابع ق•م ، كان ملاّك الارض الاتيكيون قد نجحوا في ايصال فلاحيهم الى حال أسوأ من القنانة • ولكن نظرا لانهم انفسهم كانوا مرتبطين بالفلاحين بحضارة مشتركة وبصلات قبلية وعشائرية مشتركة ، فقد استغرقت العملية وقتا طويلا ، وولدت بين الفلاحين استياء عنيفا • لقد كان السبارطيون قد كسبوا الارض بحد السيف ، اما النبلاء الاتيكيون فقد كان عليهم ان يسرقوها •

وكما رأينا ، كان اصل الملكية في الارض هو الحصص المخصصة• وكان لا بد لهذا الاصل من ان يتطور ، لانه كان تقدميا من الناحية الاقتصادية • وفي ظل النظام القبلي ، كانت الارض العائدة الى العشيرة تُستغل بصورة جماعية ، وإلا تقسم بين عائلة فعائلة ويعاد تقسيمها دوريا • وتتفق هاتان الطريقتان مع المراحل المتعاقبة في تطور الزراعة• وفي الاصل ، كانت الارض تشغّل جماعيا ، لان ذلك كان الطريقة الوحيدة التي امكن تشغيلها بها • وبالمثل ، يعكس تقسيم الارض الى ملكيات عائلية الكفاية المتزايدة للوحدة الصغيرة • والى ذلك ، فمن الطبيعي ان الوحدة الصغرى ظهرت اولا بين الطبقات الحاكمة • وكانت الحصص المخصصة تتألف عادة من أجوَد الاراضي • وإذ لم تكن قابلة

لاعادة تقسيمها ، فقد أمكن تسييجها وبالتالي حمايتها على وجه أفضل. واستطاع الزعيم الذي يملكها أن يزرعها بعمل الأرقاء الذين جلبوا الى البلاد عن طريق الحرب . كما اجتذبت فوائد التسييج الاقتصادية سواد الناس . فالرجل الصغير لم يكن بوسعه ان يأمل في الحصول على حصة مخصصة ، ولكنه كان يستطيع ان ينظف ويسيّج قطعة من ارض بور تصبح ملكه بالحيازة . وهذه هي الـ (اسخاتيه) ، التي توجد فعلا أمثلة عليها في (الاوديسا) . وكان ما لديه من العمال الارقاء محدودا ، الا ان العمل المأجور الرخيص كان ، بعد الغزوات الدوريانية ، متوافرا من آلاف المشردين المنزوعة عنهم صفاتهم القبلية ومعنوياتهم ، الذين كان ممكنا تشغيلهم في الحصاد وتسريحهم في الشتاء . وفي هذه الظروف، كان أثر الاستيلاء هو زيادة قيمة الارض وتوسيع مساحة الارض المزروعة في وقت واحد .

الا ان الامر لم يكن الا مسألة وقت قبل ان تبلغ عملية التوسع هذه حدها النهائي ، وبدأت بعد ذلك ملكية الارض بالتركز . وعن طريق تقديم القروض المؤلفة من الحبوب والماشية بعد فصل رديء ، اصبح ملاّك الارض الكبير دائنا للملاك الصغير . وبعد تعاقب الفصول السيئة ، بلغ المالك الصغير النقطة التي كان عندها لا يستطيع تسديد دينه الا بالتنازل عن ارضه او بربط نفسه بالدائن بنظام معين من الجزية السنوية . وقد كان يفقد ارضه او يصبح قنا .

لقد كانت الحصص المخصصة ، بصورة رئيسية ، مكافأة عن الخدمات العسكرية ، الا انه كان ممكنا تكريسها لخدمة إله ما . والحقيقة ، لما كان الزعيم بصورة عامة كاهنا ، فان النمطين لم يكن ممكنا التمييز بينهما بصورة دقيقة . وكانت الاراضي المفردة للعائلات الكهنية احدى الطرق الرئيسية التي انتقلت بها الارض الى سيطرة

النبلاء • وكما كان للإله زعيم يكون خادما له ، فقد طالب ببيت يسكن فيه وحقول قمح لاعاشته • وفي العديد من الحالات ، كان اتساج ارضه المفردة يُكمل بتسلم الاعشار • وكان اصل العشر يكمن في الحصة التي تدفع لوجبات الطعام المشترك الذي تتقاسمه العشيرة مع إلاهها • الا ان الكهنة كانوا قد اصبحوا الان الوسطاء المعترف بهم بين الناس وإلههم . الذي كان وفقا لذلك يتقاسم وجباته معهم فقط •

لقد كانت الكهانة فعلا حسنة التنظيم في الفترة (الميسينية) • وهذا واضح من قدم عبادات قبلية من أمثال ما كان عند قبيلة (البرانخيين) في (ميليتوس) ، و(اليومولبيين) في (ايليوسيس) ، وكهنة (ابولو) في (دلفي) ، الذين عينوا من عدد محدود من العائلات النبيلة • ولكن الدين لم ينظم على شكل واع الا في القرنين الثامن والسابع ق•م• ، بصفته أداة لتعزيز الهيمنة الاقتصادية للطبقة المالكة للارض • وكان من الصعب مقاومة هذه العملية حيث انها لم تنطو على انفصال علني عن الماضي ، لان زعيم العشيرة كان قد اعترف به دائما زعيما دينيا • وقد اصبح الآن دين القبيلة منصبا وراثيا مقصورا على عائلة الزعيم ، وكما فعل كبار ملاكي الارض ، فقد اتحد زعماء القبيلة ضد قبيلتهم ، مستخدمين سلطتهم الدينية لتأمين مصالحهم المادية • وبسبب تلك السلطة ، فقد اصبحوا مفسري التقاليد السلفية والحقوق العرفية المعترف بهم ، كما اصبحوا القضاة المعترف بهم في النزاعات المدنية • ونظرا لان هذه النزاعات في اقتصاد زراعي كانت تتعلق على وجه الحصر تقريبا بالارض ، فقد كانت مصالحهم بوصفهم ملاكي ارض محمية حماية جيدة • وهكذا ، فبتوسيع الامتيازات الممنوحة لهم بموجب النظام القبلي ، كانوا قد حوّلوا ذلك النظام الى دولة •

ويتضح هذا الانتقال من القبيلة الى الدولة بصورة جلية جدا في

تطور قانون القتل في ظل الارستوقراطية • ففي المجتمع القبلي : وكما سبق شرحه (الفصل الثاني) ، كان عقاب القتل داخل العشيرة حرمان القاتل من عضوية العشيرة : بينما كان القتل بين العشائر يفرض على عشيرة المجنى عليه الالتزام بالحصول على تعويض من الجاني • وفي كلتا الحالتين ، كانت المبادرة بيد العشيرة • اما الآن ، وفي الظروف الجديدة التي خلقها تقسيم الاراضي ، فان العشيرة منقسمة على نفسها • وعلى ذلك ، فقد الغي الالتزام بالثأر ، باستثناء ما يتعلق ببقاء المبادرة الى الادعاء متروكة لاقرباء المجنى عليه ، وعوملت جميع أفعال القتل بلا تمييز بوصفها جرائم يعاقب عليها بالطرد من العشيرة •

وقد رأينا ان الرجل ، في المجتمع القبلي ، الذي كان قد طُرد من العشيرة لارتكابه جريمة قتل داخل العشيرة قد يقبل بتبنيه من عشيرة اخرى • وهذا واضح جدا في الادلة الجرمانية ، ويمكن اقتفاء أثره في اليونان في العادات المتعلقة باستقبال المتضرعين • وكان المتضرع هو (Hikéts) : اي الشخص «الذي يأتي» اليك ــ او غريبا • وكان فعل التضرع في جوهره مناشدة لتبني الشخص• وهكذا ، احتضن (اوديسيوس) ، بعد دخوله قصر (الفيسيين) الملكي ، ركبتي الملكة ثم جثم على الموقد ، حيث أمسك الملك عند ذاك بيده وقاده الى مقعد عند المائدة أخلاه لهذه الغاية ابنه المفضل • وكاد المتضرع ان يعجز عن ان يقول شيئا اكثر وضوحا من : «دعني اكن طفلك» ، او بالاحرى «انا طفلك» • انه يطلب تبنيه ، وحين تستجاب استغاثته ، يعامل وكأنه احد الاقرباء •

ويفسر هذا التبني للشخص المنبوذ سمة اخرى من القانون الارستوقراطي الخاص بالقتل • فقد كان القاتل ينبذ ، الا انه كان بالامكان اعادته الى الجماعة بعد ان يكون قد جرى تطهيره • وكان هذا

ايضا عملا من اعمال الطقوس يقوم به الكهنة ، الذين احتفظوا بذلك لانفسهم بحرية تصرف كاملة في معاملة جرائم العنف • الا ان عادة التطهير ، كما سنرى حين ندرس طقس التلقين ، هي . كالتبني، مستندة الى فكرة نفخ حياة وروح جديدتين ، او الولادة الجديدة • وعلى ذلك، فكلتا السنتين ــ النبذ والتطهير ــ كانتا مشتقتين من المجتمع القبلي، وفي كلتا الحالتين كان التغير المتحقق في ظل الارستوقراطية هو لنقل المبادرة من العشيرة الى الدولة • وكانت فكرة القرابة متأصلة بعمق بالغ في أذهان الناس بحيث تعذر اهمالها بسهولة ، وهكذا كان النبلاء يقولون للناس «نحن جميعا أسرة واحدة» ، وعليه فجميع انواع القتل جريمة ضد الاسرة يجب ان تعالجها سلطات مخوّلة • لقد جرى توسيع مفهوم القرابة القبلي ، الا ان الانقسام الطبقي تعمق •

ان هذا التطور في القانون الجنائي ، الذي وصل الى (أتيكا) مبكرا في القرن السابع ، يدين بالكثير لنفوذ كهانة (ابولو) السياسي في (دلفي) ، التي عملت متعاونة تعاونا وثيقا مع اسبارطة ، وأصبحت معقل الارستوقراطية الديني ، وهي واعية وظيفتها الاجتماعية وقوية بشكل متناسب كما كانت عليه بابوية القرون الوسطى • اما بالنسبة لسواد الناس ، فقد كان يعني ليس مجرد انفصال عن تقاليد غائرة في القدم ، بل استسلاما مطلقا لحكامهم في معالجة جريمة نمت البواعث عليها بنمو الملكية الخاصة •

ولنعد الآن الى التاريخ الاول لـ (أتيكا) ، التي تطورت بشكل مختلف عن تطور اسبارطة وأبطأ من (آيونيا) • فقد كانت (أتيكا) احد الاجزاء القليلة من البر اليوناني التي مرت دون كثير من الاضطراب عبر فترة الغزوات ، وبالتالي ، تعود بنا تقاليدها الى مسافة طويلة في العصر (الميسيني) • وبالرغم من ان الكثير لا يزال غامضا ، فقد أوضح هذا

الموضوع الى درجة كبيرة بتحليل (ويدجيري) الدقيق للادلة المستقاة من (ثيوسيدايديس) و(أرسطو) ٠

وفي ظل (كيكروبس) وخلفائه ، كانت (أتيكا) اتحادا فيدراليـــا مفككا ، مؤلفا من مجتمعات قبلية متناثرة ، لكل منها زعماؤهـــا (Archontes) ومجلسها للشورى (Prytaneion) ــ وهو مؤسسة سنتحدث عنها اكثر في فصل لاحق ــ كما كان يوجد في أثينا ، في ظل رئاسة الملك الاثيني ، مجلس شورى ملكي كان ينتمـــي اليه هؤلاء الزعماء ٠ الا انهم لم يكونوا يحضرونه ايام السلم ، حيث كانوا قانعين بحكمهم الذاتي المحلي ٠ وهذا ما نعلمه من (ثيوسيدايديس) ، الـذي يؤكد بذلك أدلة القصائد الهوميرية بأن اساس النظام الملكي الاول كان عسكريا ٠

وفي مجرى الزمن ، وللاسباب التي طرحناها ، طوّر هؤلاء الزعماء المحليون مصالح مشتركة متميزة من مصالح أتباعهم٠ وقد بدأوا يسكنون في آثينا ، حيث كانوا يحضرون المجلس بصورة منتظمة في دار مجلس الشورى الجديد الذي بنـاه (ثيسيوس) ، واختفت المجالس المحلية ٠ وقد حل مكان الحكم المحلي اشراف مركزي ٠ وكان الزعماء قد اتحدوا ليكونوا طبقة حاكمة ٠ ومن هذا الوقت فصاعدا ، كان يدير الدولـــة موظفون ، ما زالوا يسمون (Archontes) ، ينتخبون من قبل ومن بين العائلات المنحدرة في خط الإناث من الاعضاء الاصليين في المجلس المعاد تشكيله ٠ وكان المجلس نفسه مؤلفا من زعماء كانت فترة منصبهم قد انتهت باضافة آخرين اختارهم زملاؤهم من العائلات نفسها ٠ وبهذه الطريقة نشأت هناك قبيلة (اليوباتريين) الحاكمة ٠

وفي الروايات الأتيكية ، كانت هذه التغيرات قد تركزت جميعها في حكم الملك (ثيسيوس) ، الا ان الحقيقة هي انها لا بد ان تكون قـد

امتدت عبر عدة قرون • وكان تداعي النظام الملكي ، بصورة خاصة ، تدريجيا جدا • فقد كان المنصب اولا انتخابيا داخل العشيرة المالكة ، ثم فتح لبقية عشيرة (اليوباتريين) ، ثم قلصت فترته الى عشر سنوات وأخيرا الى سنة واحدة • ولم يتم الوصول الى المرحلة الاخيرة هذه الا في بداية القرن السابع • وحتى بعد ذلك ، فقد استمر الـ (archon basileus) . كما كان يسمى الآن ، يؤدي وظائف كهنوتية مشتقة من منصب الملك ويترأس المجلس •

وكما أوضح (ويدجيري) ، فان الروايات التي قدمها (ثيوسيدايدس) و(ارسطو) عن هذه التطورات هي ، بالرغم من انها مستقلة ، متساوقة جدا • ولا يمكن ان يكون هناك شك في انها صحيحة في جوهرها باستثناء ما يتعلق بتسلسلها الزمني • وهنا جرى تحريف الرواية بالزعم الذي طرحه الوطنيون الاثينيون في القرن الخامس بأن مؤسس ديموقراطيتهم كان ثيسيوس • وقد اعتبر تمركز أتيكا اصلاحا ديموقراطيا فرض على زعماء محليين مترددين ، واعتبر تداعي الملكية عملا تتوج نكران الذات الذي ابداه ثيسيوس نفسه ، الذي تنازل عن العرش بعد ان القى بامتيازاتهم الجديدة على ليوباتريين !

ان العنصر الذاتي عند ثيوسيدايديس وأرسطو يمكن التخلص منه بسهولة • الا ان من سوء الطالع ان (ويدجيري) طرح مفاهيم مسبقة خاصة به . وهي ، بسبب كونها معاصرة ، اكثر اغراء • وهكذا ، فهو حين يتساءل عن السبب في ان عضوية المجلس كانت مقصورة على اليوباتريين ، ويعطي جوابه بأن «وظائفها كانت من النوع الذي لا يمكن اداؤه بصورة سليمة فيمجتمع ارستوقراطي الا من جانب ارستوقراطيين وراثيين» ، يبدو وهو يواجه خطر النسيان بأن الارستوقراطيين ، في سعيهم وراء مصالحهم ذاتها، كانوا هم الذين جعلوا المجتمع ارستوقراطيا•

ان من الضروري مقاومة الافتراض السطحي القائل ان الطبقة الحاكمة مدينة بقوتها لقدرة طبيعية على الحكم .

وهناك دلائل على ان اتيكا احرزت ، في الفترة التي تلت الغزو الدورياني ، بعض التقدم ، في تطوير التجارة الخارجية ، الذي ربما ساعد عليه اختلال بيلوبونيز . الا انه يبدو ان هذه الحركة قد اوقفت في القرن السابع بسنافسة من ايجينيا ، التي كانت تقع في مكان اكثر ملاءمة على الطريق التجاري عبر بحر ايجه . وفي حوالي عام ٦٣٢ق.م.، حاول ان يقيم حكما مطلقا في اثينا نبيل يدعى (كيلون) (ولا يُعرف اسم عشيرته) ، كان قد تزوج ابنة لـ (ثيجينيز) ، طاغية ميغارا . ونظرا لان قوة ثيجينيز تبدو وقد استندت الى تجارة الاصواف ، فمن المحتمل ان كانت لكيلون ايضا صلات تجارية . ولكن ، اذا كان الامر كذلك ، فان المصالح التجارية في اثينا لم تكن على درجة كافية من القوة لتتحدى ملاك الارض بنجاح ، لأن محاولة كيلون كانت عقيمة . وبعد ان لجأ الى معبد أثينا بولياس ، أعدم بتحريض من (ميغاكليس) زعيم عشيرة (الكمايونيين) ، الذي كان أرخوناً في ذلك الوقت . وحكم على شقيق كيلون وعائلته بالنفي المؤبد ، الا ان أنصاره ضمنوا نفي الكمايونيين ايضا بسبب انتهاكهم المكان المقدس . وبعد سنوات قلائل ، نشرت عشيرة اليوباتريين مجموعة قوانين وضعها (دراكون) . وحيث ان من المستبعد ان تكون قد اتخذت مثل هذه الخطوة بمبادرة منها ، فمن المحتمل ان تكون هذه ايضا نتيجة ضغط من الطبقة التجارية . وباستثناء النصوص المتعلقة بالقتل ، التي سبق بحثها ، فكل ما نعرفه عن مجموعة قوانين (دراكون) هو ان السرقات الصغيرة للمنتجات الزراعية اعتبرت جريمة يعاقب عليها بالموت ، وانه يقال بصورة عامة انها كتبت بالدم .

ونعود الى مدن الساحل الآسيوي ، فنجد أنفسنا مرة اخرى في

وضع مختلف • فأولا ، ان جميع هذه المجتمعات جديدة ، حيث أسسها مهاجرون من البر اليوناني وفقا للاسلوب التقليدي القائم على احتلال الارض المفتوحة • الا انها كانت تختلف عن المستوطنات الدوريانية في (بليبونيز) من حيث ان القادمين الجدد ، الذين كانوا انفسهم مجموعة خليطة ، اندمجوا على نحو اكمل مع السكان المحليين ، الذين كانوا من غير اليونانيين •

وثانيا ، كانت لهذه الدول اتصالات جغرافية هامة ، قارية وبحرية • وكانت المنطقة الآسيوية الواقعة خلف السواحل تهيمن عليها مملكتا (فريجيا) و(مايونيا) التجاريتان الغنيتان ، ومن ثم (ليديا) ، التي كانت بدورها على صلة ببابل وآشور • وبالامكان اقتفاء تأثير الفن الشرقي حتى في القصائد الهوميرية• والى جانب هذا، وكما نعلم من (الاوديسا)، كان التجار الفينيقيون نشطين فعلا في بحر (ايجه) ، ومنهم حصل اليونانيون الآسيويون على فن التجارة ، بما فيه الحروف الهجائية •

وبقدر ما يمكن استنتاجه من القصائد الهوميرية ، نزولا حتى نهاية القرن الثامن ، فقد بقي اقتصاد (آيونيا) زراعيا بالدرجة الاولى ، الا ان التجارة البحرية والاستيطان في الفترة التالية تطورا بصورة سريعة وواسعة ــ ابتداء من القرم الى جنوب ايطاليا وصقلية وشمال افريقيا ، بحيث كان الصراع على الارض لفترة قصيرة نسبيا • وقد شجّع الناس الذين لا يملكون اراضي على السعي وراء حظوظهم في الخارج • وقد وجدت الضغوط الداخلية التي خلقها توزيع الارض منفذا لها في التوسع الكولونيالي ، الذي أضعف بدوره مركز ملاك الاراضي وذلك بمضاعفته امكانات التجارة • وبحلول القرن السابع ، كانت السيطرة السياسية في مدن (آيونيا) الرئيسية ، قد انتزعت من الارستوقراطية المالكة للارض من جانب الطاغية او الامير التجاري ،

الذي سنبحث وظيفته التاريخية في الفصل القادم • اما ما علينا ان نتناوله الآن فهو أثر التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي استند اليها نشوء الارستوقراطية في الشعر والفكر اليونانيين •

ان شعر (هيسيود) ، الذي عاش في (بويوتيا) القرن الثامن ، ذو قيمة بوجه خاص بوصفه سجلا لعصره ؛ لانه لم يكن نفسه فردا من الطبقة الحاكمة • انه كان مزارعا صغيرا يملك ارضا يزرعها ، ابن مهاجر من (كيماي) على الجانب الآخر من بحر (ايجه) • ولم يكن يوجد شك في انه حصل من هناك على تدريبه في التقاليد الملحمية • وكان موقفه من الفلاحين موقف حماية وكبت في آن واحد • فهو واعٍ بشدة التنافس المتزايدة وبالآلام التي ينزلها شَرَه ملاك الارض الحاكمين • ولكن لما كان هدفه محافظا ــ الحفاظ على النظام القائم ــ فهو يناشد كل طبقة على التوالي ان تلطف من مطالبها • وهو يحذر النبلاء ألا يسيئوا استخدام سلطاتهم ، وقبل كل شيء ، ألا يصدروا «أحكاما ملتوية» ، ويحض الفلاحين على ان يبذلوا غاية جهدهم للافادة من حظهم بالدأب والاقتصاد ، وأن يتذكروا بأن من الافضل ان تتمتع بما تملك من ان تتشهى ما لا تملك • وهذا الموقف متبلور في بعض الامثلة التي تظهر الآن لأول مرة : ما زاد عن الحاجة عدم • لا تكافح اكثر مما يجب • الاعتدال في كل الامور هو الافضل • المعاناة تعلم العقل • وهو يذكرنا بلاهوتيي القرون الوسطى الذين يعبر عنهم قس (جوسر) : «انا أعلم جيدا انه توجد درجة فوق درجة ، كما هو شأن العقل ، والمهارة هي ان يؤدي الناس واجبهم المطلوب منهم ، الا ان من المؤكد ان اعمال الابتزاز التي تقوم بها وازدراء تابعيك تستحق اللعنة • وكانت انجلترا قس (جوسر) قائمة ايضا على اقتصاد زراعي ، كان فيه الفلاح مرتبطا بسيده بالتزامات مماثلة •

ان هذا المبدأ المثلي في «الاعتدال» او القياس لا يظهر في القصائد الهوميرية . والطريق الاقرب اليه هو المقطع الذي يحذر فيه (بوسيدون) الإله (زيوس) بأن يبقى ضمن حدود حصته . ومـــع ذلك ، وبصورة عامة . فكما رأينا في بحثنا هذا الموضوع ، فان ما تعنيه الحصة هـــو الحق الايجابي . الذي يتمتع به كل فرد في الجماعة ، في حصة مـــن منتجات عمله . وفكرة القياس او الاعتدال هي (الحصة) في مظهـــر جديد . مع تغير هام في التأكيد نحو جانبها السلبي : كفى هذا ولا مزيد . وفي القصائد الهوميرية ، لا تستخدم الكلمة الا بمعنى حسي لآلة للقياس او لكمية مقاسة من القمح او الزيت او النبيذ . وفي ظـــل ارستوقراطية ملاك الاراضي ، كان القن ملزما بأن يدفع حصة ثابتة من انتاجه الى سيده ، وكان على السيد ألا يطلب اكثر مما يستحقه ، كما كان على القن ألا يحتفظ بأكثر مما له . وتطرح العلاقات الاقتصادية المميزة للاقتصاد الزراعي على انها قاعدة أخلاقية تضفي بدورها على هذه العلاقات مصادقة خارجية في الظاهر .

وتتغلغل الفكرة ذاتها في الشعر الارستوقراطي من (ألكمان) الى (بندار) . وعبارة «اعرف نفسك» ، المنقوشة على مدخل معبد (ابولو) في (دلفي) ، هي مجرد شكل آخر من المثل «ما زاد عن الحاجة عدم» . وهي تعني ان عليك ان تدرك محدودياتك البشرية وألا تنزل العقـاب الآلهي عليك بالتطلع الى اكثر مما يجب والسعي لتصبح إلها . وانـــه لعنصر موروث في وجهة النظر هذه هو ان جميع الرغبات الجامحـــة خطرة وتستحق التوبيخ . وفي قصائد (بندار) ، الذي تمسك بمثلـــه الارستوقراطية في عصر كانت فيه أسسها الاجتماعية قد اكتسحت بصورة عامة ، فقد الآلهة والإلاهات الاولمبيات زهوهم الطائش ، بالرغم مـــن انهم ظاهريا كآلهة وإلاهات هومير ، انهم رائعون عند النظر اليهـــم ومهيبون ، ولكنهم متحجرو القلوب .

وبعد (هيسيود) ، توقف فن القصيدة الملحمية عن خلاقيتـــه تدريجيا . ولكن ظهر منه الدوبيت الرثائي . المستند الى البيت الملحمي السداسي التفاعيل واللهجة المحلية الملحمية • والشعر الرثائي دنيـــوي بصورة رئيسية . وهو يحتفظ ، بهذا الصدد ايضا ، بالتقليد الملحمي • الا ان الأهم بكثير من ذلك ، والاكثر تمييزا للارستوقراطية ، هو فن القصيدة الغنائية الكورسية •

ان الزعماء الأكيين ، الذين كافأهم الشعب على قيادتهم في الحرب بحصة الاسد من الغنائم ، انطلقوا متحررين من أصفاد القبيلة والعشيرة نحو سلوك تأكيد ذاتي متسم بالاندفاع والتهور ، ولذلك فقد كـــان شعرهم ، اي القصيدة الملحمية ، دنيويا ، ديناميكيا وفردانيا • وكان هؤلاء الزعماء قد ورثهم في هذا الوقت ملاك ارض مستقرون كانوا قد اتحدوا ضد الشعب في شركة مقفلة معزولة عن عمل الانتاج • كمـــا مزقوا الصلات العشائرية بينهم وبين رعاياهم ، الا ان كـل عائلة بين صفوفهم دأبت على الاحتفاظ بعبادتها التقليديـــة باعتبارها شعـــار امتيازاتها الوراثية • وعلى ذلك ، فان الشعر الارستوقراطي ديني ، راكد وجماعي ، وأكثر بدائية في تركيبه من الشعر الملحمي • وشكله الاكثر تميزا ، وهو القصيدة الكورسية ، منحدرا في الحقيقة انحدارا مباشرا من الطقس السلفي للعشيرة الطوطمية •

والقصيدة الكورسية هي ترنيمة ، او انشودة موكبية ، او مناحية للموتى ، او اغنية انتصار لفوز في المباريات • ولا يزال جوهرها القيام بالفعل الطقسي ـ اي فعل تقديم الاضاحي او التكريس او التهليـــل للمنتصر عند عودته الى موطن أسلافه ـ ومحور القصيدة البندارية هو الاسطورة ، المحصورة بين الثناء على المنتصر فـــي مطلعها وخاتمتها ، ووظيفة هذه الاسطورة هي الاحتفال بالامجاد السلفية لعشيرته• وبالمثل، وتساوقا مع الوحدة الراكدة للطبقة التي تنظم لها ، فان تركيب هـــذه

القصائد شكلي على نحو صارم وغير مثير اطلاقا • وهي ، في اختبار الالفاظ واستخدامها ايضا ، بعيدة جدا عن القصيدة الملحمية • فأسلوب هوميروس بسيط . عفوي . وخال من التصنع . انه أداة ايصال لمجتمع لم تتحول فيه بعد الفروق الاجتماعية وتتحجر على شكل نظام اجتماعي قوامه التمييز الطبقي • ويوجد شيء من هذه السلاسة ذاتها في قصائد (آلكمان) الغنائية الجادة الكورسية . الذي نظم قصائده للاسبارطيين في وقت لم يصبحوا فيه شاعرين برسالتهم التاريخية • وتظهر اسبارطة الناضجة في تَشَكمن (ستيسخورس) — فهي وقور، عسكرية وطنّانة — ويكمل هذه الميول (بندار) ، الذي ترفع على يديه نغمة الطقس الشكلية العالية الى اقصى درجات الفن الارستوقراطي المتسم بالتعقد والتحسس الذاتي والتزمت الشكلي •

وكان تطور الشعر الارستوقراطي على اقصى سرعته ، كما تتوقع بطبيعة الحال ، على امتداد ساحل (آيوليز) و(آيونيا) • أما ان القصيدة الكورسية الجماعية الطويلة كانت قد تواجدت في فترة ما على ساحل آسيا الصغرى فذلك واضح من مدونـــات (آلكمان) من (ساردس) و(ترپياندروس) من جزيرة (ليسبوس) • الا ان هذين الشاعرين هاجرا الى سبارطة ، وفي آسيا الصغرى نفسها تقلصت القصيدة الكورسية هذه الى قصيدة رثاء (Monody) ، ينشدها شخص واحد — قصائـــد (الكايوس) و(سافو) الغنائية الشخصية — وكان كلاهما ينتميان الـــى طبقة النبلاء القديمة • الا ان هيمنة مـــلاك الارض السياسية فـــي (ليسبوس) في عهدهما كانت آخذة بالانهيار فعلا وبالتالـــي فقد كانت الحواجز الاجتماعية بينهم وبين الشعب آخذة بالتداعي • وتمتاز القصيدة (السافوية) ببساطة وحدّة الاغنية الشعبية التي شذبتها وأغنتها الفردانية الحساسة لجماعة ارستوقراطية صغيرة ولكنها متنورة •

الا ان اكبر منجزات الارستوقراطية اليونانية — والاكبر مـــن

شعرها ـ كان العلوم الآيونية • وكانت هذه الحركة مقصورة علـــى الساحل الآسيوي . لان حيويتها كانت قد تجددت هناك فقط عن طريق الاتصال الجديد بعمل الانتاج ، وذلك بسبب نمـــو التجارة السريع • وكانت العلوم الآيونية عمل ارستوقراطية تجاريـــة • وكان مؤسسها ، (ثاليس) ، نفسه تاجرا كان قد سافر كثيرا ، ويقال انه رسم زاوية فـــي الزيت • ومن بين العلمين اللذين طوّرهما ، الهندسة والفلك ، كانت قد استلزمت الاول احتياجات الزراعة والفن المعماري ، اما الثاني فقد دعت اليه الحاجة الى طريقة ملائمة للملاحة في تطوير التجارة الخارجية• وفي كلا العلمين ، لم يقم بأكثر من ان يقدم لليونانيين المعارف التـــي حصل عليها من اتصالاته مع مصر وبابل • ومع ذلك فقد كان يخـــدم حاجة آنيّة ، وبذلك فقد أرسى الاسس للمدرسة الفلسفية الآيونية، التي كانت تستهدف تنسيق النتائج المتحصلة من هذه الطرق في نظرية واحدة عن اصل الكون ونموه • ومما له مغزى بهذا الصدد هو ان هذه المرحلة الاخيرة لم يتم التوصل اليها الا عندما كانت التجارة الآيونية في حالة انحطاط • وكان عمل (آناكسيماندار) (٦١١ ــ ٥٤٧ ق•م) قد انجز اثناء الحروب الاهلية المدمرة التي اعقبت انهيار النظام الاستبدادي فـــي (ميليتوس) •

لقد كان السؤال الجوهري الذي عني به هؤلاء الفلاسفة هـــو مشكلة التغير : كيف كان العالم قد اصبح ما كان عليه ؟ وكان هـــذا السؤال جوهريا ، لان التركيب القديم للمجتمع الانساني ، الذي كان قد احتفظ ، بالرغم من انه لم يكن مستقرا ابدا ، باستمرارية غير منقطعة منذ التجزؤ الاول للجماعة المترحلة البدائية حتـــى استيطان اليونانيين الساحل الآسيوي على اساس القبيلة والعشيرة ، قد مزقه الان الصراع الطبقي • وكما رأينا في تحليلنا لمفهوم القسمة ، فقد كان هذا التركيب القالب الذي كان الفكر اليوناني قد تشكل فيه • الا ان ذلـك القالب

اخذ يتكسر الآن . اما طرق التفكير التقليدية التي صيغت للتعبير عنه فقد تحداها التركيب الاجتماعي الجديد الذي اخذ يحل مكانه • وكان هذا التناقض المفاجيء بين الافكار الموروثة والواقع المعاصر هو الذي اضطر الارستوقراطية الآيونية الى الشك في اصل وتطور العالم الذي كانت تعيش فيه • وقد نسقت الافكار التقليدية لاول مرة على شكل طريقة علمية مطبقة بصورة واعية •

لقد كانت الكلمة التي استعملوها للتعبير عن نظام العالم هي (كوزموس) • وكان معنى هذه الكلمة الاولي اجتماعيا ، وبقي ذلك المعنى قائما في عدد من المصطلحات السياسية ـ كوزموي (كريت) وكوزموبوليز اللوكريين • وفي (الالياذة) ، يستعمل الفعل (kosméo) بمعنيين فقط ـ ترتيب الجنود للمعركة واستيطان القبائل في الارض المحتلة ـ وكان هذان المعنيان في الواقع شيئا واحدا ، لأن الجنود كانوا يرتبون في قبائل وبطون • وهكذا ، وصف الفلاسفة الآيونيون ترتيب العالم بلغة الترتيب القبلي • وهم ، بتقليصهم العالم الى نظام ، انطلقوا بشكل طبيعي وحتمي ، من مفهوم النظام الموروث في طرائق تفكيرهم التقليدية •

وكان تركيب المجتمع القبلي قد تطور بانقسام عضوي في نواة أولية غير مميزة • فقد تجزأت الجماعة المترحلة البدائية الى عشائر ، والعشائر الى مجموعات من عشائر • ووحدت هذه الوحدات القائمة داخل وحدات في شبكة معقدة من التعاون والتنافس ، ومن المنافسات المتقابلة والخدمات المتبادلة • فقد تعاونت العشائر في عمل الانتاج ، وتنافست في الصراع من اجل المكانة • وتوحدت بالتزاوج بينها ، وانقسمت بالثأر للقتلى • وكان الشد الذي خلقه تفاعل هذه القوى المتضادة ـ التعاون والتنافس ، الاتحاد والتعارض ، والتجاذب والتنافر ـ هو دينامية النظام القبلي ، الذي ظل على قيد الحياة الى ان حطمت الملكية الخاصة مساواته

الداخلية • وفي اليونان ، تلقّى صدمته الاولى اثناء حروب الفتح ، التي جاءت بطبقة حاكمة من القادة العسكريين ــ طبقة كانت قد توطدت اخيرا على شكل ارستوقراطية ملاكة للارض ــ وما من مكان تطورت فيه قوى التمزق بسرعة بالغة كما تطورت في (آيونيا) • وكان مستوطنو الساحل الاسيوي الآيونيون ، شأنهم في ذلك شأن فاتحي إسبارطة الدوارنيين ، قد انتظموا على اساس قبلي ، أعادوا تطبيقه في مستعمراتهم في الخارج • ولكن في حين كان الفاتحون الاسبارطيون قادرين على رص صفوفهم ، كان اليونانيون الآيونيون قد رأوا نظامهم يذوب على مرأى منهم تقريبا في بوتقة التجارة •

لقد ذهب (آناكسيماندار) الى ان العالم المادي كان مؤلفا من عدد من العناصر ، التي خلقت بالحركة مما أسماه بالـ **(Toàpeiron)** اي اللامحدود ، وهو ما يكون مطلقا من حيث المكان وغير محدد من حيث الكم • وبكلمة اخرى ، كان العالم قد تطور بالتميثز من نواة اصلية واحدة • وكما خلق نظام العالم بالتميز ، فهو يدمر بالتشابه • وذلك ان العناصر المشتقة تتجاوز على بعضها الآخر باستمرار ، وتنتهي الى ان تفقد هويتها باعادة امتصاصها في المادة الاولية غير المفرقة التي ظهرت منها • وعلى حد قول (آناكسيماندار) : «انها تردّ الى بعضها الآخر عقوبة ظلمها وفقا لتقدير الزمن» •

لقد شرح كل هذا (كورنفورد) ــ احد البحاثين المحدثين القلائل الذين عالجوا على نحو جاد أصول الفكر الآيوني ــ وتفسيره كامل من حيث الاساس ، باستثناء نقطة واحدة • فقول (اناكسيماندار) ، الذي اقتبسناه قبل قليل ، يستند بشكل واضح الى فكرة الـ **(Métron)** الفكرة القائلة ان الالتزام بـ «المقاييس» او الحدود الموصوفة ضروري لصيانة النظام القائم • وكما رأينا ، ليست هذه الفكرة سوى اعادة تفسير ارستوقراطي للفكرة البدائية عن (القسمة) • وعلى ذلك، فان (كورنفورد)

مصيب تماما في رد عناصر (اناكسيماندار) الثانوية الى (قسمة) المجتمع القبلي اليوناني • ويؤكد استنتاجه بتدقيق للتعبير المستخدم لعبارة «دفع العقوبة» — (didonai diken KaiTissin) ؛ المقابل للتعبير اللاتيني : Poenasdare • والآن . وكما بيّن (كالهاون) ، لا تستخدم عبارة Diken dionai (التـــي لا تكون منها في Tisin didonai سوى تهجية آيونية مختلفة) الا في الاشارة الـــى الدعاوى الخاصة . المشتقة من التعويل البدائي على النفس • وأكثر من هذا ، فهي تستخدم بصورة رئيسية للتفكير او التعويض عن القتل • وهكذا ، فقد وصف (اناكسيماندار) تجاوز عنصر على آخر بلغة العداء او الثأر بين عشائر متنافسة •

وعلى ذلك ، يبدو واضحا ان نظرية (اناكسيماندار) عن العالم المادي كانت في جوهرها ادراكا واعيا للمضامين الكامنة في الفكر البدائي • وكانت هي وجهة النظر المميزة للمادية البدائية التي تبلورت وصيغت في اللحظة التي كان المجتمع البدائي يلفظ فيها أنفاسه •

مراجـع

Cornford, F.M. From Religion to Philosophy, London, 1913.
.... Principium Sapientiae. Cambridge, 1952.
Thomson, G. The First Philosophers. 2 ed. London, 1961.

-٦-

الحكم الاستبدادي

توسعت تغيرات القرنين السابع والسادس (ق٠م) الاقتصادية والسياسية ـ نمو التجارة ، نشوء طبقة تجارية ، وبناء المدن ـ بتقدم تقني بعيد المغزى كانت هذه التغيرات قد شجعته ٠ ولا تزال قصة (ميداس) ، ملك (فريجيا) الذي كان يحيل كل ما يلمسه الى ذهب ، تذكر كحكاية خرافية ذائعة ٠ وكانت تماثلها شهرة في قديم الزمان قصة (جيكاز) الليدي ، الذي ، بمساعدة خاتمه الذهبي الذي كان فيه فص سحري ، جعل نفسه شيئا غير منظور ، وتسلل الى قصر الملك ، وقتل الملك وأصبح نفسه ملكا ٠ ولهاتين الاسطورتين معا اساس تاريخي ٠ فقد كان تجار (فريجيا) و(ليديا) ، الذين كانوا يستغلون مناجم الذهب والفضة في (سيبيلوس) و(تمولوس) ، هم الذين اخترعوا سك النقود٠ وكان (ميداس) و(جيكاز) تاجرين ـ اميرين استغلا مركزهما المالي

للاستيلاء على السلطة الملكية • وكان هذان الملكان المصنوعان من النقود مختلفين كل الاختلاف عن ملــــوك الماضي بحيث اطلق عليهما اســـم جديد ـــ Tyrannoi ، او المستبدان •

وتجسد خرافة (جيكاز) الخطوة الاخيرة في تطور سك النقود ـــ اي استخدام المعدن المدموغ بشعار تاجر بارز كضمان للقيمـــة ـــ وكانت السفافيد الحديدية والآنية الذهبية والفضية قد استخدمت فترة طويلـــة لتسهيل التبادل ، الا ان تبادلها تحدد نتيجة حجمها وعدم تواجد معيار معترف به • وبصورة عامة ، كانت التجارة تعتمد على المقايضة ، الامر الذي كان يعني انها اقتصرت في معظم الحالات على تلبية الحاجـــات الملحة • ومقابل هذه الوسائل البدائية ، كانت النقود الجديدة خفيفة الوزن ، موحدة ومضسونة من الدولة • وكما كان خاتم (جيكاز) ، فقد تغلغلت في كل مكان • وعلى حد قول (هيراكليتوس) ، الذي ذهب الى ان النار هي العنصر الاولي الذي صنع منه العالم ، «يجري تبادل النار مقابل كل الاشياء ، وكل الاشياء مقابل النار ، كما هو الذهب مقابـــل البضائع ، والبضائع مقابل الذهب» •

وفي مدينة بعد اخرى ، وحيث انتشر استعمال النقود ، تحـــدى التجار امتيازات قدامى النبلاء السياسية ، الذين حصلوا على سلطتهم من الولادة وعلى ثرواتهم من الارض• وقد شهدت (سافو) و(الكايوس) الاطاحة بـ (البينثيليين) على يد الطاغية (بيتاكوس) ، الذي كان قد تزوج من عائلة نبيلة • وكان (الباسيليون) من (ايفيسوس) قد سقطوا فـــي ذات الوقت تقريبا • وفي نهاية القرن السابع ، كان (ثراسيبوس) حاكما مستبدا في (ميليتوس) • وفي الوقت نفسه ، وعلى البر اليوناني ، أطيح بـ (الباكخيين) من (كورينث) على يد (كيبسيلوس) • وبعد فترة قصيرة، أقيمت انظمة استبدادية علـــى يد (آرثاغوراس) في (سيكيـــون) ،

و(ثيجينيس) في (ميغارا) • ومن بين أوائل الحكام المستبدين هؤلاء . يعرف عن العديد منهم بأنهم كانوا ينتسبون الى الطبقة التجارية ، كما انهم كانوا جميعا ينتسبون الى مدن واقعة على الطريق التجاري عبر بحر ايجه •

وفي أتيكا ، كان تطور النظام الاستبدادي أبطأ وبالتالي أسهل في تعقبه • وكان الأثينيون قد لعبوا دورا ضئيلا في التوسع الكولونيالي في القرن السابع ؛ ولذلك فقد اصبح الصراع الداخلي على الارض اكثر حدة •

وكانت حرية التجارة تعني التحرر من قبيلة (اليوباتريين) ، التي شهدت بدورها انقضاض النقود على اساس سلطتها الاقتصادي • وإذ جابه ملاك الاراضي منافسة مُحدثي الثروات هؤلاء . فقد عوضوا عن خسائرهم بتوسيع استغلال الفلاحين • الا ان النتيجة كانت هي انهم ، بدفعهم الفلاحين الى المطالبة باعادة توزيع الاراضي، قد أفادوا منافسيهم، الذين استغلوا الاضطراب الناجم عن ملكية الارض لينتزعوا امتيازات لانفسهم • والى الحد الذي كان فيه التجار والفلاحون معا معارضين للارستوقراطية مالكة الارض ، فقد كانت لهم مصلحة مشتركة • ولكن الفلاحين عانوا بشدة من ادخال النظام النقدي• وكان أسوأ ملاك الارض جميعا ليس النبلاء ، الذين كانت علاقتهم مع الفلاحين تقليدية وشخصية على الاقل ، وانما التجار انفسهم ، الذين لم يعتادوا على التقاليد اطلاقا ، وأداروا اراضيهم على اساس تجاري صرف • وقد حصلوا على هذه الاراضي اما كمضاربين بشرائهم كامل حصص النبلاء المفقَرين — لأن من بين أولى نتائج النقود كان تسهيل نقل ملكية الارض — وإما بتزوجهم من عائلات نبيلة وبذلك ضمنوا نصيبا من امتيازاتهم السياسية •

ان موقف الارستوقراطيين من هذه التطورات يتكشف في شعرهم • فالثروة الارضية تأتي من الله ، الذي يرسل المطر من السماء، ولذلك فهي مشرّفة ودائمة ، الا ان الثروة المكتسبة بالتجارة هي من صنع الانسان ، ومحفوفة بالمخاطر وقلقة • وخسائر موسم رديء يمكن تعويضها ، بفضل الله . في السنة القادمة • الا ان عاصفة في البحر قد تغرق سفينة التاجر مع جميع رأسماله • والسعي وراء الثروات خطر ، لانه يثير حفيظة السماء • والطموح يغري الانسان بالمبالغة والاخفاق • والانسان يفقد ما يملك في توقه للمزيد • وإذ تدفعه غواية الآمال المجنحة ، فهو طفل يطارد طيرا • والآلهة حسودة ايضا تجاه أولئك الذين يتزوجون من نساء فوق مستواهم • وكانت هذه هي خطيئة (إيكسيون)، كما يرويها (بيندار) • فقد حاول ، بعد ان أتخمته الامتيازات التي وهبتها له الآلهة ، ان يغتصب (ملكة السماء) ، الا انه لم يحتضن الا سحابة ثم قذف به عندئذ الى الجحيم •

وفي أتيكا ، جاءت الازمة الكبيرة الاولى مبكرة في القرن السادس• فقد كان الفلاحون على وشك التمرد • وقد سمح للطبقة الدنيا بأن تحتفظ بسدس انتاجها فقط • وقد اضطروا ، بعد ان افترسهم المرابون، الذين ارتفعت أسعار فوائدهم الى خمسين بالمائة ، الى بيع ارضهم وأطفالهم وأنفسهم • ودُفع العديد منهم الى الخارج ، وكان العديد منهم متسولين او عبيدا ، وبلا بيوت في حقول كانت يوما لهم • وأدركت قبيلة (اليوباتريين) انها اذا ارادت تلافي ثورة فلاحية ، فعليها ان تستخدم تعاون التجار ، الذين كانوا فزعين فزعهم من الخطر على ملكياتهم • وعلى ذلك ، فقد أودعت في (صولون) ، احد أفراد قبيلة (اليوباتريين) الذي كان يمارس التجارة بنشاط ، سلطات ديكتاتورية (٥٩٣ ق•م•) •

ولو كان (صولون) ثوريا ، لنصب نفسه حاكما مطلقا ولربما عجّل بذلك تقدم شعبه بأكثر من جيل • ولكن ، طبعا ، لو كانت تلك نيته لما عين في منصبه • فقد كان اليوباتريبون يعرفون مثلهم •

فأولا ، خفف (صولون) من الضغط الاقتصادي على الفلاحين بأقل قدر ممكن من التغيير • وبإلغائه الديون المستحقة وتحريم الاسترقاق بسبب الديون . فقد تلافى المطالبة بإعادة توزيع الاراضي • وهو لم يفعل شيئا لتعديل نظام الجزء السادس او لتقييد أسعار الفوائد السائدة • وكان المالك الصغير لا يزال عرضة لنهب المرابين ، وكان لا يزال يواجه خطر طرده من ارضه • ولا ريب في ان ذلك كان جزءا من نية (صولون) ، حيث طالما كان الفلاحون مرتبطين بالارض ، فهم لم يكونوا متوافرين كمصدر للعمل الرخيص لتوسيع الصناعة • وكانت لهذا العامل أهمية كبيرة بالنسبة للطبقة التجارية في وقت لم يكن فيه الاستغلال الصناعي لعمل الأرقاء الا في بدايته • وأكثر من هذا . فقد كانت هذه هي الفترة التي بدأ فيها الاثينيون بتشغيل مناجم الفضة في (لوريون) ، ولا بد ان مصدر العمل الرئيسي كان الفلاحون المطرودون من اراضيهم •

واضافة الى هذا ، اعطى (صولون) الطبقة العاملة صوتا في الحكم بإحيائه الجمعية الشعبية ، التي كانت قد توقفت عن العمل منذ انحلال النظام القبلي • وكانت هذه الهيئة هي التي انتخبت ، وان لم يكن ذلك من بين اعضائها هي ، الزعماء (الارخونات) وموظفي الدولة الآخرين • وكانت تجتمع ايضا بوصفها محكمة قانونية للنظر في القضايا باستثناء جريمة القتل • وكاد إحياء الجمعية ان يكون خاليا من فائدة مباشرة للفلاحين ، الذين كانوا بطبيعة الحال أفقر من ان يتمكنوا من السفر الى أثينا لحضور اجتماعاتها • الا انها حسنت من مركز الصناع الى درجة

كبيرة . الذين تمكنوا الآن من حل منازعاتهم القانونية • ومن جهة اخرى . فإضافة الى الجمعية . انشأ (صولون)هيئة جديدة ، وهي (مجلس الاربعمائة) . الذي استبعدت منه الطبقة العاملة ، ولم تستطع الجمعية التصويت الا على القرارات التي يطرحها عليها (المجلس) • وكان دافعه الى انشاء هذه الهيئة هو تقييد كل من الطبقة العاملة ومجلس (الآريوباغوس) . الذي كان الان الاسم الذي حمله مجلس (اليوباتريين) القديم • ولذلك فقد كانت الطبقة التي ربحت من هذا الابتداع هي الطبقة الوسطى الجديدة •

اما وقد أنقذ صولون قبيلة اليوباتريين من مصادرة ملكياتها ، فقد كان هو في مركز يمكنه من المطالبة بشيء ما مقابل ذلك • وقد تنازلت القبيلة عن ادعائها بالخدمة بصفة زعماء بموجب حق الولادة • وقد حُدّد الشرط اللازم للمنصب الاداري وعضوية مجلس (الآريوباغوس) التالية من ناحية الملكية الارضية • وكان هذا يعني ان التجار الاغنياء استطاعوا الآن ان يصبحوا (آرخونات) باستثمار رؤوس أموالهم في الارض ، وكان ذلك صَدعا كبيرا في الاحتكار الارستوقراطي • ولكن لما كان التاجر المحوّل الى ملاك ارض يجنح الى ان يصبح ملاك ارض في وجهة نظره ومصالحه ، فان ذلك لم يلبِّ كامل مطالب الطبقة التجارية • وكما يعبر عن ذلك (ويد ــ جراي) :

> في ظل (صولون) ، كان الاغنياء الجدد مستعدين لشراء الاراضي لكي يدخلوا في الطبقة الحاكمة • وقد حولوا انفسهم الى سادة ريفيين ••• ومن المفروض انهم فعلوا ذلك بتحويل ملكياتهم المنقولة الى ملكيات عقارية • ولكن بعد وقت قصير ، كان أولئك الذين فعلوا ذلك قد صنفوا «ملاك

اراض» وأخذوا يشعرون بأنهم كذلك ، متضامنين مع الارستوقراطية القديمة . واحتفظ الاغنياء الجدد بحق التاجر ، كتاجر ، ان يدخل الطبقة الحاكمة دون ان يصبح سيدا ريفيا أولا .

وقد عكس انشاء (مجلس الاربعمائة) الى جانب مجلس (الآريوباغوس) التمييز المتنامي بين المصالح الدينية والدنيوية في أعقاب تطور التجارة . ومع ذلك ، فقد بقي الاخير معقل الرجعية ، بالرغم من انه لم يعد مؤلفا من قبيلة اليوباتريين على وجه الحصر . فقد كان له ، بالاضافة الى صلاحيته في النظر في جرائم القتل ، الحق في المقاضاة في القضايا التي كانت المحكمة الشعبية ترفض فيها ذلك ، ومارس اشرافا عاما على الالتزام بالقوانين . ذلك الاشراف الذي لا بد وأنه كان الاكثر فاعلية بسبب عدم تحديده .

ان المغزى العام لاصلاحات (صولون) يظهر واضحا جدا من ملاحظات (آدكوك) على موقفه من الطبقة العاملة :

لقد كان أثر قيوده على الجمعية ابقاء الادارة والمبادرة في السياسة بين أيدي الاغنياء او الطبقات الوسطى . وصحيح ان سنوات من الحكم الارستوقراطي كانت قد تركت سواد الناس جهلاء من الناحية السياسية ، يخدعهم الزعماء الطامحون بسهولة ، وان قصائد صولون تظهره وهو على علم تام بمخاطر الآمال غير القائمة على المعرفة . الا ان البديل ، وهو حرمان سواد الناس من جميع السلطات السياسية ، كان شرا اكبر وخطرا اكبر ، ولربما كان صولون يأمل في ان يبقي النظام

الاقتصادي الجديد الأثينيين الفقراء على درجة من الانشغال او القناعة بحيث لا يستسلمون معها للتحزب • ولو اعطي الناس تلك السلطة القليلة التي كانت كافية ، لما ضللوا ودفعوا الى الطمع في المزيد • وكانت السياسة والعدالـــة معا تتطلبان وجوب حمايتهم من سوء الحكم والظلم ، ان لم يحكمـــوا هم فعلا •

وحين ادعى (صولون) انه قد اعطى الشعب قسطا من السلطة ليس اكثر ولا أقل مما يجب ، فقد قدم اسهامة هامة في تطوير الفكر اليوناني• وكان شعار الارستوقراطية القديمة ، لا فائدة من الافراط ، قد رسم الحد الاعلى لنصيب الانسان في الدنيا ، ولكنه لم يرسم حدا أدنى • وادعى (صولون) انه اكتشف الحد الوسط ، وكان بذلك اول من عبر عن وجهة النظر المميزة الخاصة بالطبقة الوسطى الصاعدة •

وفي غضون السنوات الثلاثين القادمة ، وحيث استمرت الملكيات المنقولة بالتنامي ، بدأت الجبهة الارستوقراطية بالتصدع • وكـــان (صولون) نفسه مالك اراض تحوّل الى التجارة ، والآن فقد حـذت حذوه عوائل نبيلة اخرى ـ وفي مقدمتها (الكمايونييون) ، التي كانت لها اتصالات تجارية مع (ساردس) ، المركز التجاري الكبير للجزء البعيد عن السواحل من آسيا الصغرى ، و(البيسيستراتيين) ، التي كانت مهتمة بمناجم (لوريون) • وقد ثقفت كل من هاتين العائلتين الاميريتين أتباعها السياسيين • فقد نظم (ميغاكليس) ، ابن (الكماليون) ، تجار وصنـاع الموانيء ، ونظم (بيسيستراتوس) سكان المناجم • وكان يعارضهما معـا (ليكورغوس) من (الايتيوباوتيين) ، على رأس كبار ملاك الاراضي ، وكانتا في الوقت ذاته تتنافسان فيما بينهما • وقد حاول (بيسيستراتوس)

مرتين الاستيلاء على السلطة ؛ ولكنه في المرتين طرد الى الخارج باتحاد من خصومه • وقد استخدم نفيه الثاني لتوسيع المصالح المالية الهامة في مناجم الفضة في جبل (بنغايون) في (ثريس) • وفي ذات الوقت ، سقطت (سارديس) في عام ٥٤٦ على يد الفرس • وكان ذلك ، ولا ريب ، ضربة لمنافسه ، (ميغاكليس) • وبعد ثلاث سنوات ، قام بمحاولته الثالثة ، ونجح هذه المرة •

وكالانظمة الاستبدادية الاخرى ، كان حكم (بيسيستراتوس) اوتوقراطيا بالضرورة ، ذلك ان حكما ملكيا مركزيا بشكل قوي كان الضمانة الواقية الوحيدة ضد اية ثورة مضادة • وهو ، في الطابع المطلق او الاستبدادي لحكمه ، كما في قيادته الطبقة الوسطى الجديدة، يحمل شبها واضحا بآل (تيودور) الانكليز •

وقد استخدم الاراضي التي أخلاها النبلاء المنفيون لحل مشكلة الارض • وجرى توطين الفلاحين على الاراضي المصادرة مع مساعدات حكومية ؛ كملاك صغار • وقد لُبِّيَت مطالبهم • وكان ذلك انجازا ثابتا • وفي ذات الوقت ، فقد ضمنت سياسته التجارية الصارمة في توسيع سك النقود وتجارة الصادرات دعم التجار المتواصل ، ووفّر برنامجه الشامل في الاشغال العامة ، بما في ذلك هدم سور المدينة القديم وبناء قناة لجر المياه ، الذي هو علامة اكيدة على الثورة المدينية، العمل للطبقة العاملة بالاضافة الى احتياجات المشاريع الخاصة في بناء السفن وصناعة الفخار واستخراج المعادن • وبعد قرن واحد ، كان لا يزال على سبارطة مظهر القرية ، اما أثينا فقد كانت مدينة فعلا •

وقد انطوت التغيرات الاجتماعية بالضرورة على تحول في حياة المجتمع الدينية والثقافية • وفي ظل (بيسيستراتوس) ، كان هذا التحول ايضا يوجه توجيها واعيا • فقد أكمل معبد أثينابولايس وأعاد تنظيم الـ (Panathenaia) باعتباره عيدا وطنيا كبيرا • واعترف رسميا

بعبادة (دايانايسيس) ، الذي كان نادرا ما يعترف به حتى ذلك الوقت إلها من (اوليمبيا) . لكي يوازن بذلك العبادات العشائرية المُغلقة التي تمارسها الارستوقراطية . وأسس او أعاد تنظيم عيد مدينة (دايانيسيا) ، الذي سرعان ما بز بروعته المدينية حتى عيد الـ (باناثينايا) . وأخيرا ، أسس نظام تلاوة القصائد الهوميرية على الجمهور من منشدين آيونيين. الذي اصبح معروفا في ذلك الوقت في (اتيكا) لاول مرة . وكان الهدف الذي تقوم عليه كل هذه المبتدعات الحضارية تعزيز التوسع التجاري لدولة المدينة ، وذلك بتشجيع روح الوعي الذاتي الوطني .

لقد كان مرد نجاح (بيسيستراتوس) بصورة رئيسية تقييمه الصائب لامكانات الوضع الموضوعية التي كان عليه ان يعالجها . والحق فقد كان من حسن طالعه ان تزامَن حكمه مع تقدم الفرس نحو بحر ايجه. حيث حرره ذلك من التنافس التجاري مع (آيونيا) ، الا انه كان سريعا في الاستفادة من طالعه الحسن . وفي السياسة الخارجية ، كان انجازه الاهم احتلال (سيجيون) على الدردنيل . وهكذا اصبحت السيطرة على الدردنيل بالنسبة للأثينيين احدى مصالحهم الحيوية ، حيث ضمنت لهم كميات وافرة من الدقيق ، ومكنتهم بذلك من اطعام عدد من السكان الصناعيين اكبر بكثير مما كانوا يستطيعون اطعامه من مصادرهم الخاصة بمستوى الانتاج القائم . وبطبيعة الحال فقد كان لهذه السياسة جانبها السلبي . فقد اكسدت السوق الداخلية وثبطت تحسين الاساليب الزراعية . ولكنها كانت مبررة طالما كانت أثينا قادرة على السيطرة على الدردنيل وامتصاص التدفق الى داخل المدن .

لقد توفي (بيسيستراتوس) في عام٥٢٨ ، وخلفه ولداه، (هيبارخوس) و(هيبايس) . وقد اغتيل (هيبارخوس) بعد ثماني سنوات في مجرى ثأر شخصي . وأقنع أثينيو القرن التالي انفسهم بأن قتلة (هيبارخوس) كانوا مسؤولين عن الاطاحة بالنظام الاستبدادي ، الا ان الحقيقة هي

ان (هيبايس) بقي في الحكم ثماني سنوات اخرى • وكـــان السبب الرئيسي في انعدام شعبيته المتزايد في القسم الاخير من عهده هـــو التغيرات الحاصلة في القوى السياسية ، بالرغم من ان ذلك تزايد لعوامل شخصية • ففي تقوية الطبقات الوسطى ، أدى (بيسيستراتوس) عملـه على نحو من الكمال بحيث شعرت هذه الطبقات في ذلك الوقت بأنها على درجة من القوة تكفي للاستغناء عن ديكتاتورية حامية • وبالتالي ، فقد ضاقت ذرعا على نحو متزايد بالنفقات التي تتطلبها تلك الديكتاتورية ، بينما اصبح (هيبايس) متورطا في مصاعب مالية ما كان بوسعه ان يواجهها الا بمزيد من الابتزاز • وهكذا ، فبعد ان بدأ النظام المطلق قوة تقدمية، اصبح عقبة أمام التقدم • وجاءت الضربة الاخيرة في عام ٥١٢ ، حين حرم (هيبايس) من مصدر عائداته الرئيسي بفتح الفرس لمقاطعة (ثريس)• وقد طُرد بعد سنتين من ذلك •

وعلى اية حال ، لم تكن القوى التقدمية هي التي حققت فعـــلا الاطاحة به ، وانما كان ذلك بتآلف من خصومه على الجانب الآخر ــ (كليسثينيس) ، ابن عدو ابيه ، و(ميغاكليس) الــذي كان يسعى وراء مصالحه الخاصة ، والارستوقراطيين المنفيين الآخرين ، الذين رأوا في اضعاف الحكم الاستبدادي فرصة للقيام بثورة مضادة • ومنذ عـــدة سنوات خلت ، كان الالكمايونيون يزيدون بدأب من ثرواتهم ، وبخاصة فقد ضمنوا عقدا ضخما لاعادة بناء المعبد في (دلفي) ، الــذي كانت النار قـــد دمرته • وقد استخدم (كليسثينيس) نفوذه في (دلفـي) ليقطع العلاقات الودية التي كان (بيسيستراتوس) قـد أنماها مـــع اسبارطة ، وفي عام ٥١٠ دخل (أتيكا) مع الملك الاسبارطي علـى رأس جيش اسبارطي • وكان حلفاؤه ينوون بوضوح ان يعقب حكـــم (بيسيستراتوس) الاستبدادي عودة الارستوقراطية ، الا ان(كليسثينيس)

استهدف اخذ مكانه • وحين اصبحت اهـــدافه واضحة ، ناشـــد (ايساغوراس) - القائد الارستوقراطي ، اسبارطة ان تتدخل مرة ثانية • ورد (كليسثينيس) على ذلك بلجوئه الى الشعب • وأنجز عددا مـــن الاصلاحات الداخلية امام مقاومة من الارستوقراطيين ومنـــح مئات الاجانب المقيمين في البلاد والعبيد حق الانتخاب • وكانت النتيجة هي انه عندما ظهر الملك الاسبارطي مرة اخرى في (أتيكا) لاعادة نظام الحكم القديم ، ومعه (ايساغوراس) يعمل بصفة مُخبر ، احتجز هو وجنوده جميعا في الـ (اكروبولس) ، ولم يطلق سراحه الا بتعهده بالامتناع عن القيام بتدخل آخر • وقد كان ذلك نصرا للشعب كبيرا •

لقد كانت وظيفة النظام الاستبدادي اليوناني مؤقتة • فهو بفرضه تصدعا في حكم الارستوقراطية وابقائه على ذلك التصدع ، مكّن الطبقة الوسطى من رص قواهـــا استعدادا للمرحلة الاخيرة في الثـــورة الديموقراطية ، التي انطوت على الاطاحة بالنظام الاستبدادي نفسه • وهذا هو السبب في انه ، في الروايات اليونانية ، كان مدانا بالاجماع تقريبا • فقد شجبه سلفاً الارستوقراطيون لانه كان تقدميا ، وشجبـــه الديموقراطيون ، وهم ينظرون الى ماضي أحداثه ، لانه اصبح رجعيا • والشاعران الوحيدان اللذان يملكان ما يمكن قوله في صالحه همـــا (بندار) و(سايمونيديز) ، اللذان خدما حماتهما مقابل أجر • ولا شك في ان أوائل الشعراء في مدينة (دايونيسيا) كانوا متحمسين في ثنائهم على (بيسيستراتوس) ، (الذي كان عهده يقارن تقليديا بعهد كرونوس الاسطوري) ، الا ان كتاباتهم اختفت • وفي نظر معاصري (اسخيلوس)، كان النظام الاستبدادي يعني، قبل كل شيء ، (هيبايس) ، الذي انضم، بعد طرده ، الى عدو الوطن املا في اعادته كأداة طيّعة لدولة اجنبية • وأخيرا ، لما كان النظام الاستبدادي مؤقتا في كل مكان ، وقد ألغي في العديد من الدول بثورة مضادة ناجحة ، فقد اصبح يرمز في التصـــور

الشعبي الى الصعود المذهل الى السلطة للرجل الذي ، بعد ان كدس ثروات كبيرة ، ينسى انه فانٍ ، وانه مُستَدرج بغضب إلهي الى الانتحار • ويكمن وراء هذه المأثورة وعي بالسرعة الغرّارة لانتقال النقود ، تلك التي تحوّل الملك الى شحّاذ بالسرعة التي تحوّل بها الشحاذ الى ملك •

ان المقاومة العنيفة التي جابهتها الحركة الديموقراطية تنعكس صورتها بشكل قوي في شعر (ثيوغنيس) • وإذ كان نموذجا حقيقيا لصنفه ، فقد ربط هذا المترف الرجعي المدنية بامتيازات طبقته :

لقد تلاشى الحياء ، وتغلب الغرور والصلف على العدالة وهما يملكان الارض ••• ان المدينة لا تزال مدينة ، الا ان السكان متغيرون : لقد كانوا يوما يجهلون كل شيء عن القوانين ، ويغطون جنوبهم بجلود الماعز ويسكنون كالأيائل وراء الجدران • الا انهم الآن نبلاء وأساس النبلاء السابقين — آه : من يستطيع احتمال المنظر ؟••• إطحنهم بشدة ولتجعل نيرهم ثقيلا — فتلك هي الطريقة التي تحملهم بها على حب أسيادهم ••• ان معظم الناس يعرفون فضيلة واحدة هي الثروة ، وما من شيء سواها يفيد ••• ان لا تولد هو الافضل ، كما لا تنظرن الى أشعة الشمس • او ان ولدت ، فلتسرع عبر بوابات الموت وارقد تحت كومة من تراب •

لان النظام الطبقي المنغلق القديم قد انهار ، ولأن الاقنان اصبحوا غير راضين بتحميلهم أثقالا مرهقة كالحمير ، وكذلك لأن القانون الخاص بالولاء الشخصي والسخاء ، غير المدون القديم ، قد ترجم الى نقود ، ولذلك فقد تلاشت المدنية • الا ان المدنية لم تنتظر (ثيوغنيس) •

وصحيح ان الحضارة القديمة كانت تنهار ، ولكن ليس الا لان طموحات جديدة ، قيما جديدة ، افكارا جديدة ، كانت تندفع بقوة الى الحياة •

مراجـع

Adcock, F.E. Cambridge Ancient History, Vol. 4.

القسم الثالث

أصل الدراما

-٧-

التلقين

في قبيلة الصيد البدائية ، يصنف أفراد الجماعة وفقا لاعمارهم بوصفهم صغارا وبالغين ومسنين ، وذلك اضافة الى التقسيم الجنسي للعمل الذي سبقت ملاحظته . فالصغار يساعدون النساء في عمل جمع الطعام ، والرجال يصطادون ويقاتلون ، والمسنون هم مستشارو القبيلة. ويتم الانتقال من صنف الى آخر بطقوس التلقين . وأهم هذه الطقوس هو تلقين الاولاد عند سن البلوغ ، وهو عبارة عن ادخال في المركز القبلي الكامل وإعداد للزواج في آنٍ واحد . وتلقين البنات مماثل ، الا ان البرهنة عليه تتم على نطاق أضيق ، لأن النساء البدائيات يكرهن بطبيعة الحال ان يحن للانثروبولوجيين الذكور أسرارا يحجبنها عن أزواجهن انفسهن . ومركز النساء في مجتمعنا نحن هو على نحو يكون معه للقليل فقط الفرصة في ان يصبحوا انثروبولوجيين .

ان وظيفة التلقين ــ قبول الصغير الى مرتبة البالغ ــ يعبر عنها في الفكر البدائي كاعتقاد بأن الصغير يموت ويولد مرة اخرى • ولفهم هذا المفهوم ، علينا ان نطرح جانبا الافكار العصرية عن طبيعة الولادة والموت• وفي المجتمع البدائي ، يعتبر الطفل المولود حديثا واحدا من أسلافه يأتي الى الحياة مرة اخرى • وهذا هو السبب في ان العرف في العديد من انحاء العالم : بما فيها اليونان ، ان يسمى الطفل ، او كان يسمى ، باسم احد أجداده • وفي البلوغ ، يموت الصغير وهو صغير ، ويولد ثانية وهو رجل او امرأة • ويحوّل البالغ بذات الطريقة الى مسن ، وعند الموت يدخل المسن اعلى الدرجات جميعا ، اي درجة الاسلاف الطوطميين ، التي يظهر منها ثانية في الوقت المناسب ليمر بكامل الدورة مرة اخرى • فالولادة موت ، والموت ولادة • انهما جانبان متكاملان ، ولا يمكن انفصالهما ، لعملية تغير أبدية ، لا تنطوي على مجرد الولادة والموت كما نفهمهما بل كذلك نمو وانحطاط القدرة على الحمل والانجاب • وكما لاحظ (كيوريو) ، في دراسته عن الزنجي الافريقي ، «يعتقد السكان الاصليون بأن كل حدث بالغ الخطورة في الحياة المادية يعادل موتا يعقبه نشور» •

ويُعبَّر عن هذه الطريقة في التفكير تعبيرا حسيا في سمة عالمية للتلقين البدائي ــ موت ونشور المبتديء بشكل تمثيلي او رمزي ــ ويتخذ الطقس أشكالا مختلفة •وبعضها على درجة عالية من الواقعية ، حيث تضم كلا من فعل قتله وولادته من امرأة • وفي أشكال اخرى ، يفترض ان يبتلعه ويلفظه إله او روح • وهذا العنصر جوهري جدا بحيث يمكن التعرف عليه بسهولة في الاشكال الاكثر تبسيطا المميزة للمراحل العليا من المجتمع القبلي • وهذا هو شأن النوم السحري او الحلم ، الذي يمدد فيه المبتديء ليرقد وهو طفل ، ان تتملكه روح سلفية ينهض

وهو رجل • ولربما أمكن الظن ان هذا هو ايضا شأن العادة ، المعروفة في العديد من طقوس التلقين ، القائمة على إلباس الولد ملابس بنت والبنت ملابس ولد ، على اساس ان المبتديء ، لكي يحصل على هوية جديدة ، فان عليه ان يهرب او يتخلص من الهوية القديمة • وفي العديد من القبائل ، حين يؤخذ الاولاد للتلقين ، تندبهم أمهاتهم باعتبارهم موتى ، وحين يعودون يتصرفون وكأنهم اطفال ، وكما لو كانوا عاجزين عن الكلام او المشي او التعرف على اصدقائهم • وفي الوقت ذاته ، يأخذون اسما جديدا ، هو في التفكير البدائي مساوٍ لهوية جديدة • وكما كانت تسمية طفل مولود حديثا باسم احد أجداده تعني في الاصل انها اعادة تجسيد للرجل الذي كان يحمل اسمه ، فكذلك يعني اتخاذ اسم جديد في التلقين ان المبتديء قد ولد مجددا •

واضافة الى صور تمثيل الموت والنشور الدرامية هذه ، يُخضَع المبتديء عادة لعملية جراحية تتألف من قطع جزء معين من جسده ، ازالة القُلفة ، اذا كان ولدا ، او البَظر اذا كان بنتا ، او قلع سن ، او بتر اصبع ، او قص الشعر او خصلة من شعر • وأكثر هذه العمليات بدائية هي الختان وقلع السن ، وكلاهما يوجدان في استراليا ، ولكن ليس في آن واحد اطلاقا • وهذا يوحي انها كانت جميعا في الاصل طرقا مختلفة لتحقيق هدف مشترك • اما ماذا كان هذا الهدف فذلك سؤال يخرج عن غرضنا الحالي • الا ان بامكاننا ان نلاحظ بأنه لما كان الجزء المقطوع يُحفظ بعناية ، فان هناك تماثلا بين هذه الطقوس ودفن الموتى ، الذين تحفظ جثثهم ، كلا او جزءا ، لكي يولدوا من جديد •

ان بقية طقوس التلقين هي على صنفين ، يمكن اخذهما معا لانه لا يمكن دائما التمييز بينهما ، وهما التطهير والاختبار بالتعذيب • فالمبتدئون يغسلون بالماء او الدم ، او يستحمون في تيار معين او في

البحر ، او يُشاطون امام النار • وهم يشاركون في سباقات ، وأحيانا مع عوائق مؤلمة ؛ ويتقاتلون في معارك زائفة ، غالبا ما تصحبها نتائج مهلكة ، ويجلدون حتى يغيب وعيهم • وتثقب آذانهم وأنوفهم ، وتُشرّط أجسامهم او توشَم • والالم الجسدي الناجم عن معظم هذه الطقوس يفسر بصورة عامة بأنه امتحان للقوة او اختبار للاحتمال ، الذي يعني الفشل فيه التجريد من الاهلية او العار • ولا يمكن ان يكون هناك شك في ان قسوة هذه الاختبارات قد زيدت بصورة واعية على يد المسنين من اجل ارعاب المبتديء ودفعه بذلك الى عادة الطاعة الدائمة • الا ان من المحتمل ان وظيفتها الاصلية كانت التطهير او كبح الشهوات • وكما ان التلوث مرض ، والمرض هو الموت ، فان التطهير تجديد للحياة •

وأخيرا ، يتلقى المبتديء درسا في عادات القبيلة وتقاليدها • ويجري هذا عن طريق الخطب الوعظية والتعليم بطريقة الاسئلة والاجوبة ، وأداء رقصات درامية ، والكشف عن اشياء مقدسة يُشرح مغزاها في ذات الوقت • وكامل الطقس سري تماما • وهو يؤدي على مسافة من المستوطنة القبلية، وعادة على أرضية طقسية مهيأة بشكل خاص ، ويكون قد أنذر بالابتعاد عنها جميع أفراد الجماعة باستثناء المسنين ومساعديهم المُلَقَّنين ، وغالبا ما يكون الانذار مشفوعا بالتهديد بعقوبة الموت • وفي العديد من القبائل ، تسبق التلقين الفعلي فترة انعزال ، قد تستمر اشهرا ، وعندما يعود المبتدئون الى المستوطنة يحرّم عليهم تحريما باتا ان يبوحوا الى غير الملقنين بأي شيء فعلوه او رأوه او سمعوه •

وبين معظم قبائل الصيد ، يُتبَع التلقين فورا بالزواج ، الذي هو لهذا السبب لا يميز بأي فرق طقسي عن التلقين نفسه • وذلك يفسر السبب في ان طقس الزواج لدى العديد من الشعوب البدائية يشبه

التلقين شبها وثيقا • وهذا ينطبق بصورة خاصة على دور المرأة فيه ـ لان تأجيل الزواج في حالتها بعد سن البلوغ نادر • ومن جهة اخرى ـ يكون الرجال عادة ملزمين ، وذلك في المراتب العليا من المجتمع القبلي ، بأن يمروا بفترة اخرى من الاختبار قبل ان يستطيعوا التزوج • وتقضى هذه الفترة في (بيت الرجال) الذي وصفه (هيوتن ويبيستر) على النحو التالي :

ان (بيت الرجال) هو عادة البناية الكبرى في المستوطنة القبلية • وهو يعود الى القرويين بصورة مشتركة • وهو يؤدي وظيفة قاعة مجلس تشريعي او قاعة بلدية المدينة ، ودار ضيافة للغرباء ، وملتجأ نوم للرجال ••• وحين لا يقع الزواج وامتلاك المرأة القصري بصورة مباشرة بعد القبول في القبيلة ، تصبح مؤسسة (بيت الرجال) قيدا فعالا على الميول الجنسية للشبان غير المتزوجين • فهي تقوم عندئذ بوظيفة منتدى للعزاب ••• ان مؤسسة مقامة بشكل راسخ جدا ومنتشرة على نطاق واسع جدا يمكن انيتوقع بقاؤها بتكريسها لاغراض اخرى ، حيث ان الافكار الاولى التي افضت الى تأسيسها تضمحل • وهذه البيوت ، بوصفها مراكز حراسة يقصر فيها الشبان على الخدمة العسكرية ويدربون على فنون الحرب ، غالبا ما تصبح أداة دفاع مفيدة • وغالبا ما تتركز فيها العبادة الدينية الخاصة بالجماعة • وهي تؤلف في معظم الاحيان مسرح العروض الدرامية ••• اذن ، يشير بقوة وجود (بيت الرجال) في الجماعة البدائية بأي شكل من أشكاله المتعددة ، الى وجود طقوس تلقين سرية ، سواء كان ذلك الآن ام في الماضي •

وبصورة عامة . يرتبط التلقين بالقبيلة ككل ، الا ان دلائل قبائــل الصيد من الطور الاول في استراليا وغينيا الجديدة تشير بوضوح الى مرحلة سابقة كان التلقين فيها قد تركز في العشيرة الطوطمية • وانتقال هذه الطقوس من العشيرة الى القبيلة يتطابق مع توطيد النظام القبلي • وبالعكس . فحين يبدأ النظام بالانحلال ، يفقد التلقين طابعه القبلي : اما منحدرا الى الاضمحلال وفي هذه الحالةتصبح الطقوس شكلية ومتقطعة، وهي لا تزال تمارس بصورة عامة ولكنها ذات طابع محلي وغالبا ما تؤدى قبل فترة طويلة من البلوغ . وإما ان تحتفظ بتماسكها الاصلي حيث تؤلف اساس الجمعية السحرية او الجمعية السرية : التي هي العشــيرة القديمة بشكل جديد ومحوّر • واضافة الى هذا، وكما بيّن (وبيستر)، فان نشوء هذه الجمعيات وانهيار العشيرة يرتبطان معا بتطور مظاهــــر اللامساواة الاجتماعية :

ان طقوس التلقين ، كالتي درسناها ، لا تحتفظ بجوانبها الديموقراطية والقبلية الا في المجتمعات التي لم تظهر من تلك المرحلة البدائية التي تكون فيها كل السيطرة الاجتماعيـــــة في أيدي المسنين القبليين • ولا بد ان يربط وجود طقوس لها هذا الطابع في جميع انحاء استراليا وغينيا الجديدة بغياب زعامات محددة ودائمة في هذه الجزر ••• وفــــي مالينيزيا وأفريقيا ، أسفر التركيز السياسي الى درجة كبيرة عن انشاء زعامات قوية على منطقة كبيرة وغالبا ما تكون وراثية من حيث طبيعتها • الا ان هذه العملية لم تستمر الى حد تجعــــل معه ممكنا تسليم تلك الوظائف المتعلقة بالسيطرة الاجتماعية ، التي تودع في مراحل المجتمع الاولى لدى المسنين فقط ، تسليما

كاملا الى الزعماء القبليين • وبتطوير التركز السياسي ، تجنح هذه الوظائف الى ان تصبح متقادمة العهد . وتتخذ الجوانب الدينية والدرامية للمجتمعات المكان الاكثر اهمية • وقد تم الوصول الى هذه المرحلة الاخيرة في كل من بولونيزيا وأمريكا الشمالية •

وفي الجمعية السرية ، يكون تركيب العشيرة مؤبدا ومتحولا • ولها طوطم مميز . وتقليد مميز ، وطقس مميز • وهي ترفد وحدتها من الشعور القوي بالتضامن الذي يلهم أفرادها • وفي العديد من الحالات، تكون لها وظائف سحرية ــ اقتصادية يؤديها تكاثر الحيوانات المستخدمة للطعام . استنزال المطر . وتطوير الحصاد • ومن جهة اخرى ، لا تستند عضويتها الى القرابة ، وانما الى وحدة التجارب الدينية ، بدءا بطقس التلقين • وبكلمة اخرى ، فان شرط القبول هو ليس الولادة ، وانما الولادة الثانية او التقمص • ووفقا لذلك ، لم يعد الطوطم وراثيا ، وانما هو مكتسب بالتلقين •

ان المرشح للقبول ، الذي يكون عادة ، وليس دائما ، مراهقا ، يخرج وحيدا الى الغابة ، حيث يمضي عدة ايام او اسابيع او اشهر في وحدة تامة . صائما ونائما وحالما بالحيوان المعني ، الذي يصبح بذلك طوطمه الشخصي او روحه الحارسة ، والقوة التي ترسم مصيره وتقرر جميع المسائل الحاسمة في حياته • وحين يعود الى البيت ، يكون ملقنا ، وبوصفه هذا يتسلم اسما جديدا • ويعود المبتدئون بين الهنود الكويكيوتيين بحالة من الجنون المؤقت ، حيث تخلقها مظاهر حرمانهم المادي وقوة اعتقادهم بأن الروح الحارسة قد دخلت فعلا أجسادهم وتملكتهم • ثم تطرد الروح عندئذ بأغان ورقصات تؤديها الجمعية

ويقصد منها ان تشير الى ان العضو الملقن او المقبول حديثا قد توفي وأنه قد ولد مرة اخرى • والفكرة ذاتها يستند اليها الطقس المرتبط بما اصبح في امريكا الشمالية الوظيفة الرئيسية لهذه الجمعيات ـ اي شفاء المرضى • وفي أخَوِيَّات (اوجيبوا) ، فان المريض التي طردت منه روحه يصبح بذلك ملقّنا او مقبولا • وفي أخوية (تسياك) التابعة لهنود (كيب فلاتيري) ، يترتب على المريض ان يكون ملقنا قبل ان يمكن شفاؤه • وهو يعاد الى صحته باعادة ولادته مجددا •

ان سلطة هذه الجمعيات هي بطبيعة الحال نابعة بصورة رئيسية من احتكارها لاشكال معينة من السحر • الا ان السحر في هذه المرحلة من المجتمع البشري اصبح اكثر الى حد بعيد من مكمل لاسلوب الانتاج • لقد فقدت الامتيازات التي يتمتع بها الملقن اساسها الاقتصادي ، وهي تمارس بشكل واع تقريبا لفرض الاستغلال الاجتماعي • وفي المكسيك وبيرو ، وهما اكثر مناطق امريكا البدائية تقدما ، كان هذا التضخم في السحر ، الذي هو اتجاه مستمر في تطور الزراعة ، قد أوصل الناس الى حالة اخضاع مطلق لثيوقراطية متعطشة للدماء ، لم يقض على تحسينها للأضاحي البشرية المتقدم الا بانقراض حضارتها في أهوال اكبر حتى من أهوال الفتح الاسباني •

وأخيرا ، فان سمة شاملة لهذه الجمعيات ، ليس في امريكا فحسب، بل في افريقيا وبولينيزيا ايضا ، هي أداء نوع معين من الدراما الطقسية بصورة دورية ، حيث يتخذ فيها الممثلون شخصيات الاسلاف القبليين ، وغالبا ما يكون ذلك بأشكالهم الطوطمية • وهكذا ، تؤدي جمعيات (كاتسينا) للهنود الهوبيين ، رقصة للاسلاف مُقَنَّعة ، أولئك الاسلاف الذين يعتبرون بأنهم لا يزالون اعضاء نشيطين في الجماعة ويكلفون عن طريق الرقصة بواجب ارسال المطر وجعل الغلال تنمو • ويشبه هذا

الطقس الدراما الناضجة من حيث انه يؤدى امام مشاهدين ويمثل حركة ؛ بينما يرده ارتباطه بالارواح السلفية ووظيفته الاقتصادية ، بشكل ليس أقل وضوحا ؛ الى الطقس التمثيلي لعشيرة الصيد البدائية •

لقد رأينا في فصل سابق كيف ان الرقص التمثيلي لدى العشيرة الطوطمية ، الذي نشأ كجزء من الاسلوب الفعلي للانتاج ومثّل اعمال النوع الطوطمي ، تحول الى مسرحة لانشطة اسلاف العشيرة المتصوّرين على هيئة حيوانات (الفصل الاول) • وبهذا الشكل ، أدى الطقس الى قيام أسطورة اعادت تصوير كل سماته بشكل حواري • وغالبا ما يقال في هذه الحالات ان الاسطورة هي تفسير الطقس ؛ ولكنه بالاحرى الشكل المنطوق للأداء الطقسي ، في مراحله الاولى على الاقل ـ التعبير الجماعي عن التجارب التي لا يمكن نسيانها والتي يتشارك فيها المشاركون في الطقس ذاته بصورة دورية • وفي وقت لاحق ، وحين يكون النظام العشائري في حالة انحلال ، قد تفصل الاسطورة نفسها عن الطقس وتبدو عليها سيماء مستقلة خاصة بها • ومع ذلك ، فحتى هذه هي من وحي الطقس الى درجة كبيرة ، لان كل تجربة تقريبا في المجتمع البدائي تتخذ شكل أداء طقسي معين • وإلا ، فان الاسطورة والطقس ؛ وهما يحتفظان بعلاقتهما الاصلية ، يبقيان معا في دراما الاخوية السحرية ، التي تحفظ ، كما رأينا ، تركيب العشيرة • وفي هذه الظروف ، وحيث ان الاخوية سرية ، تصبح الاسطورة لغزا او سرا، لا يباح به الى غير الملقّن الا بمظهره الخارجي والمنظور ، اما معناه الباطني فهو مقصور على «أولئك الذين يفقهون» • وأخيرا ، فحين تضمحل الاخوية ذاتها ، فان وظيفتها الدرامية هي عادةً الاكثر استمرارا• وتصبح جمعية الالغاز او الاسرار نقابة ممثلين فقدت مسرحياتهم مغزاها السري الذي لا يفهمه الا الخاصة ، الا انها لا تزال تحتفظ الى حد ما

بطابع اللغز ، الذي يجدد الحياة بطريقة او بأخرى •

ومهمتنا التالية أن ندرس في ضوء هذه الاستنتاجات الادلة المتعلقة بمؤسسات مشابهة في اليونان القديمة • وهذه تتألف بصورة رئيسية من الطقوس المؤداة اثناء المراهقة او مطلع الرجولة ، في الاساطير المتعلقة بمولد (زيوس) و(دايانايسيس) ، والاصول الطقسية لبعض الاعياد . وفرق الديانة السرية ، وأخيرا ، اصول او منشأ الدراما •

ان تعليم الشبان الاسبارطيين التقليدي ، الذي اصبح نموذجا للتقشف ، قد وصفه (بلوتارخ) بإسهاب •

فقد كان الطفل المولود حديثا يؤخذ الى كبار القبيلة ، الذين كانوا يقررون ما اذا كان يجب ان يربى او ان يترك في العراء للتخلص منه • وكان الاولاد يبقون بعناية آبائهم وأمهاتهم الى ان يبلغوا السابعة ، حيث تدرج اسماؤهم عند احدى الجماعات المترحلة او «القطعان» ، ويقودهم واحد منهم • وكان أفراد الجماعة هذه يعيشون حياة مشاعية يسودها الضبط الصارم وإشراف المسنين الدائم • وكانوا يحلقون رؤوسهم ، ويرتدون عباءات خشنة ويمشون حفاة • وكانوا يقضون النهار بتمارين رياضية ، بما فيها المعارك الصورية • وفي الصيف ، كانوا ينامون على شجيرات الأسَل التي يجمعونها من اليوروتاس ، وعليهم ان يقطعوها بأيديهم دون استخدام السكاكين • وفي الشتاء ، كانت شجيرات الأسَل تستبدل بأوراق العشب المسمى سم الذئب • وبعد بلوغهم سنتهم الثانية عشرة ، كان لا يسمح لهم بأكثر من عباءة واحدة ، كانوا يرتدونها صيفا وشتاء ، وكان يحرم عليهم دهن أجسامهم او الاستحمام الا في مناسبات نادرة ومعينة • وكان يعهد بكل واحد يرجى منه خير اكثر الى رجل يسمى «صديقه المحب» ، الذي كان يدخل معه في علاقة وثيقة تستمر طوال حياته • وفي سن السابعة عشرة ، كانوا يرقون من الجماعة

او القطيع الى «قطيع الثيران» . تحت قيادة (إيرين) : اي رجل في سنته الثانية من مركز البلوغ • وكان الـ (ايرين) يشرف على ألعابهم ونزالاتهم واستعداداتهم لوجبات الطعام . التي كان عليهم ان يسرقوا من اجلها وقودا وطعاما دون ان يكتشف امرهم • وبعد العشاء . كان يبقى معهم : يعلمهم الاغاني ويسألهم عن الشؤون العامة • وكان الصبي الذي يعطي جوابا خاطئا يعض ابهامه من قبل الـ (ايرين) • ومن بين الاغاني التي كانوا يتعلمونها دورهم في احتفال مؤلف من ثلاث جوقات كانوا هم يزودن أولاها . والثانية الرجال والثالثة المسنون • وكان المسنون يبدأون منشدين : «لقد كنا يوما شبانا وشجعانا ونشيطين» ، ويجيب الرجال : «وكذلك نحن الآن . فتعالوا وجرّبوا» . وينهي الاولاد الانشاد : «ولكننا سنكون الاقوى في المستقبل» • وفي الثامنة عشرة، كان الصبي يصبح (ميليرين) . وفي وقت ما خلال السنتين القادمتين كان يتم اخضاعه لاقسى الاختبارات جميعا ـ جلد جميع الذين يحملون لقب (ميليرين) في مذبح (آرتيميس أورثيا) علنا • ويذكر (بلوتارخ) انه قد شاهد بنفسه عدة صبيان وهم يموتون دون تأفف اثناء هذا الاختبار البربري •

وفي العشرين . كان الـ (ميليرين) يصبح (ايرين) ، ويقبل في الـ (فيديشن) او الـ (فيليشين) ، وهو منتدى كان الرجال يتشاركون فيه في وجبات مشتركة تقدم بتبرعات من قائدهم ومن نتاج الصيد • وكان يسمح للصبيان بحضور هذه المناسبات بعد ان يكون اكبر الرجال سنا قد حذرهم بقوله : «عَبْر هذه» ، مشيرا الى الباب ، «لن تخرج اية كلمة» • وكان لا يسمح بالزواج فور بلوغ مرحلة الرجولة ، بينما كان أولئك الذين بقوا غير متزوجين بعد فترة ما ، ليس محددا طولها ، يواجهون مختلف العقوبات والحرمانات • وحتى بعد الزواج ، كان

الرجال يواصلون تناول الطعام والنوم في المنتدى •

اما عن تدريب البنات فنحن نعرف عنه شيئا أقل • الا انهن ايضا كن ينظمن في جماعات للتدرب على الرقص والركض للمهرجانات العامة ، التي كان يشهدها الرجال وتعتبر المناسبة المعترف بها لعروضات الزواج• وكانت العروس يحملها زوجها مع تظاهر باستخدام القوة • وكانت تصاحبها امرأة اكبر سنا منها ، حيث كانت تقص شعرها وتلبسها ثياب رجل ومن ثم تتركها في الظلام • وفي وقت لاحق من الليل كان يأتيها زوجها حيث يضاجعها ثم يعود ليقضي بقية الليلة في المنتدى • ويقول (بلوتارخ) ان النساء كنّ لا يتزوجن لفترة من الزمن بعد بلوغهن سن النضج ، وهذا يتفق مع الدليل على ان تعليمهن هو الآخر كانت تشرف عليه الدولة اشرافا صارما •

ويستفاد مما ذكره (أرسطو) ان مؤسسات (كريت) في العهد الدورياني كانت اكثر تقادما في عهدها وتأخرا من المؤسسات الاسبارطية، وتأييدا لزعمه يذكر ان الـ (اندريون) او (بيت الرجال) ، وهو ما أسماه الكريتيون بمكان وجبات الرجال المشتركة ، كان الاسم القديم لـ (فيديشن) او الملتقى الاسبارطي • وفي كريت ايضا ، اعتاد الصبيان حضور هذه الوجبات وهم يرتدون عباءات خشنة ، الا انهم لم يكونوا يدخلون المنتدى حتى سن السابعة عشرة ، وهي السن التي كان يدخل عندها الصبيان الاسبارطيون «قطيع الثيران» • وفي القطيع ، كانوا يمرّسون على الصعاب الجسدية ، ويدربون على الصيد والركض ، وكذلك على المنازلات الصورية ، التي يؤلب فيها قطيع على آخر ، وعلى رقصة الحرب الوطنية ، التي تعزى تقليديا الى الـ (الكوريتيين) وتمثل مسيرة نحو المعركة على موسيقى القيثارة والفلوت • وتشير الى اهمية سباق العدو الكلمتان Aromeis و Apodromoi ، اي «العدّاؤون»

و«غير العدّائين» ، اللتان كانتا تستخدمان لتمييز أفراد الجماعـــة او القطيع من الاشخاص الاصغر او الادنى مرتبة منهم •

وكان للصبي الكريتي ايضا صديقه المحب ، الذي كان يحصل عليه بالشكل التالي : فبعد اعطاء اخطار ثلاثة ايام بنيته ، كان الصديق يذهب مع اصحابه المرحين الى بيت الصبي ، وبمساعدتهم يحمله عنوة مـــن اهله ، الذين كانوا يلاحقونهم حتى (بيت الرجال) • وبعد ذلك ، كان حرا في ان يأخذ الصبي معه الى اي جزء من البلاد يشاء • وكان الصبي يعيش شهرين مع اصحابه الجدد كليا ، حيث كان يقضي معظم الوقت في الصيد • وعند انتهاء العزلة ، كان يتسلم من صديقه هدايا هي بدلة محارب وثور وكأس للشرب ، ويعود الى بيته ، ويذبح الثور قربانـــا للإله (زيوس) ، ويدعو رفاقه من (بيت الرجال) الى وليمة •

ويخبرنا (سترابو) بأن «جميع الذين رُقّوا من القطيع او الجماعة كانوا ملزمين بالتزوج في الوقت ذاته» • وهذا يعني ان الزواج كـــان طقسا تشرف عليه الدولة وعاما ، حيث شمل جميع الذين كانوا من ذات صنف السن • ولم يسجل اي شيء ذي اهمية عـــن تدريب الكريتيين للبنات ، عدا انهن كنّ يتزوجن عند بلوغهن سن النضج ، الا انهن كنّ يواصلن العيش مع آبائهن «حتى يصبحن بسن تؤهلهن لادارة البيت» •

ان بعض التفاصيل في هذا الدليل سيكتسب مغزى من مراحـــل لاحقة من بحثنا ، الا ان طابع النظامين العام واضح فعلا • ففي كـــلا البلدين ، كانت الفترة الحاسمة في الانتقال من الصبا الى الرجولة تبدأ في السابعة عشرة • ويبدو ان الانتقال نفسه كان يتم في اسبارطة باختبار الضرب بالسوط ، اما في (كريت) فبعزلة الشهرين • ويود المرء ان يعرف المزيد عما كان يحدث خلال ذينك الشهرين • الا ان من الواضـــح ان الهدايا التي كان يتسلمها الصبي في نهاية تلك الفترة كان يقصد بهـــا

التعبير عن انه قد اصبح الآن رجلا ، وانه بوصفه هذا كان من حقه ان يأكل مع الرجال •

اما ان الضبط الدورياني في سبارطة وكريت كان فريدا الى حـد كبير في العالم اليوناني ، فهو واضح من الاهتمام المستمر الذي أثاره بين بقية اليونانيين • وطبيعي ان تلك التقاليد كانت ستحفظ على وجه افضل على يد ذلك الفرع من العرق اليوناني الذي كان آخر من دخل حوض البحر الإيجيني ، ولاسيما الاسبارطيون الذين كانوا ، للاسباب المعطاة في فصل سابق الارستوقراطية الاكثر محافظة في اليونان • ومع ذلك . فان وجود الجماعات او (القطعان) بين الآيونيين تبرهن عليـــه العبارات المنقوشة من (ميليتوس) و(سميرنا) . وكان تدريب الصبيان في اثينا قد سار على الاسس ذاتها ، وان كان أقل خشونـــة من التدريب الاسبارطي •

وفي عيد الـ (آباتوريا) ، كانت اسماء الصغار الشرعيين والمتبنين خلال السنة تسجل من جانب الاب في سجل البطن الذي كان ينتسب اليه • وفي اليوم الثالث ، كان تؤدى طقوس نيابة عن الصغار المقبولين في السنوات السابقة ــ تكريس خصلة من شعرهم للإلاهة (آرتيمس)، وبالنسبة للبنات تكريس قربان يدعى الـ Gamelia او «القربان العرُسي» ، وكان معناه ان الغرض منه الحصول على أزواج لهن • كما كان من العادة في هذا العيد ان يتسابق الصبيان في تلاوات من الشعر امام أفراد البطن البالغين •

لقد أعيد تنظيم نظام التعليم الأثيني في الجزء الاخير من القرن الرابع قبل الميلاد ، والادلة المتعلقة به متأخرة في معظمها • الا ان من المحتمل انتعود سماته الجوهرية الى فترة أقدم• وتوجد في يسكن الولاء التي كان يؤديها المبتدئون ، وهي احدى الوثائق المتبقية ، عناصر لا بد

ان تكون قديسة • وكان الصبيان يدربون على الالعاب الجمبازية تحت اشراف مدرب جمبازي . وهو موظف سيظهر اصله القبلي في فصل لاحق • وفي سن الثامنة عشرة كانوا يصبحون épheboi ، او ما يقابل مركز الـ (ميليرين) السبارطي ، ويرسلون للخدمة العسكرية على الحدود لمدة عامين • وكانوا يرتدون اثناء هذه الفترة عباءة مميزة ، كانت في الاصل سوداء او قاتمة ، ثم بيضاء في فترة لاحقة • وفي نهاية خدمتهم العسكرية ، كانوا يؤدون امتحانا Dokimasia ويمنحون مركز المواطنة • وبعد انهيار دولة المدينة كوحدة مستقلة ، أُلغيت في النهاية واجباتهم العسكرية واستبدلت بالتدريب على الرياضة والفلسفة، الذي اجتذب الى أثينا شبانا موسرين من جميع انحاء الامبراطورية الرومانية • وفي تطور الضبط الاثيني هذا ، نلمس الخيط الذي يصل بين أصناف العمر في التلقين القبلي والدرجات الاكاديمية في الجامعة العصرية •

ان عباءات الصبيان الاسبارطيين والكريتيين الخشنة كانت تفسر ولا ريب بأنها ملائمة لحياتهم الشاقة • الا ان الالوان المميزة للعباءة الاثينية توحي بأن الالوان الثلاثة جميعا كانت من اصل طقسي • فقد كان اللون الاسود او الغامق اللون التقليدي للحداد في جميع انحاء اليونان باستثناء (آرغوس) ، حيث كان اللون ابيض • ولذلك فمن المحتمل ان نرى هنا اثرا من الاعتقاد البدائي بموت الصغير في التلقين•

ويبدو ان الاعتقاد نفسه هو الذي تقوم عليه عادة قص الشعر • وفي اسبارطة ، كان يقص شعر الصبي قصا دقيقا جدا منذ اللحظة التي يدخل فيها الجماعة او القطيع وحتى يصبح (إيرين) ، وكان يقص شعر الفتاة في ليلة الزفاف وذلك قبيل مجيء العريس • وفي أثينا ، كان الشعر يكرس في اليوم الثالث من عيد الـ (آباتوريا) ، الذي كان يسمى

Koureôtis Hemèra ، وربما كان ذلك تلميحا الى هــــذا الطقس • وهذه العادة ليست مسجلة في (كريت) ، ولكنها ربما كانت ، على وجه التأكيد تقريبا ، شيئا عارضا • والسبب هو انه توجد أدلـــة كثيرة ، ادبية ونقشية معا ، على ان الشعر كان يقص في اليونان القديمة، كما في عدة انحاء اخرى من العالم ، في مناسبتين متميزتين . بلـــوغ الصبي او زواج الفتاة ، وموت احد الاقرباء • وصحيح ان الطقس نفسه كان يؤدى احيانا في مناسبات اخرى ، ولاسيما الشفاء مـن المرض او الهرب من الخطر ، ولكننا سبق ان رأينا ان كل ازمة في الحياة فـــي المجتمع البدائي يحتمل ان ينظر اليها في ضوء التلقين • وفي مدينـــة (جيثيون) من (لاكوينا) ، كانت توجد مأثورة محلية ، ومن الواضـح انها كانت بدائية ، مفادها ان (اوريستوس) ، بعد قتل أمه ، استرجـــع صوابه بقطع احدى اصابعه بأسنانه وحلقه شعره ، عرفانا بالجميـــل للارينيات • وهنا يرتبط قص الشعر بطقس اكثر بدائية له ذات الطبيعة• وكما سنرى في فصل لاحق ، يمكن ان نجد اصل الفكـرة القائلة ان (اوريستوس) المستردّ كان بمعنى من المعاني قد ولد مرة اخرى ، يمكن ان نجدها في (اوريستيا) اسخيلوس • والازمة قد تكـــون البلوغ او التحول او الخطر او المرض او الموت ، ولكنها في كل حالة مناسبة تتطلب تجدد الحياة •

وقبل ان ندرس الاساطير المتعلقة بولادة (زيوس) و(دايانايسيس)، علينا ان نضيف الى ما سردناه عن التلقين البدائي تفصيلا آخر • فقــد رأينا انه كان يجري التظاهر في احد أشكال الطقوس بأن المبتديء تقتله وتأكله روح معينة ، ثم تلفظه بعد ذلك رجلا • وفي بعض القبائل ، يبدو ان هذا هو الآن ، او كان ، اكثر من تظاهر • ان احد المبتدئين يقتــل

ويؤكل لحمه من جانب آخرين فعلا • اما حاليا ؛ فان عادة اكل لحـم البشر هذه نادرة . ولربما كانت كذلك دائما ، والسبب هو بطبيعـة الحال اننا لا نملك الحق في ان نفترض بأن التظاهر بأكل لحـم البشر مشتق بالضرورة من الواقع ، ذلك ان فكرة الموت التمثيلي موروثة في التلقين • الا ان علينا ان نعترف باحتمال ذلك ؛ الامر الذي يجب ان يحكم فيه في ضوء الادلة الاخرى •

وحين ولدت (ريا) زيوس على جبل (آيدا) في كريت ، فقد أخفته عن ابيها (كورونوس) ، الـذي كان معتادا علـى افتراس ذريته ، واستبدلته بحجر ملفوف بأقمطة ، حيث ابتلعه (كورونوس) بدلا منه • ولجأت الى ذات الحيلة عندما ولدت (بوسيدون) ، وكان البديل فـي حالته مُهرا • وكان الحصان احد أشكال (بوسيدون) الحيوانية ، ومن الواضح ان الحجر المستبدل عن (زيوس) هو الحجر الرعدي • وهذا يدل على ان جذور الاسطورة تمتد الى اوطأ مراتب الديانات •

وقد أودعت (ريا) الطفل (زيوس) الى (الكوريتيين) ، الذين رقصوا حوله ، قارعين طبولهم وضاربين رماحهم بدروعهم لكي لا يصل صراخه الى أذني (كورونوس) • وهناك مبرر للاعتقاد ، كما بيَّن (ريـنـدال هاريس) ، بأن رقصة الحرب هذه لدى (الكوريتيين) كانت اصلا رقصة النحل • فقد اشتهر (الكوريتيون) بأنهم اخترعوا فن تربيـة النحل ، وعندما كان الطفل (زيوس) بحمايتهـم ، فقد كانت تطعمـه بنات (ميليسيوس) ، «مربي النحل» • الا ان هذا العنصر فـي الاسطورة ، بالرغم من انه ذو اهمية كبيرة بالنسبة لاصل عبادة (زيوس) ، لا يهمنا الآن • ولنكمل القصة قائلين انه حين شب (زيوس) ، أرغم أباه على تقيؤ الحجر ، وكذلك الاطفال الآخرين الذين بمساعدتهم اسقطه ودحرجه الى الجحيم •

لقد كانت هذه الاسطورة مرتبطة بعبادة فعلية في مدينة (بليكاسترو) في (كريت) ، حيث كان لغز ولادة الإله تمثله جمعية سرية تسمى (الكوريتيين) • وقد شملت الطقوس ترنيمة كان يستدعى فيها الإله بوصفه «كوروسا أعظم» ليسير ويبتهج في الرقص والغناء للسنة الجديدة • ومعنى كلمة Kouros صبي او شاب ، ومنها مشتق اسم (الكيروتيين) ، الذي يستخدم في القصائد الهوميرية بشكل اسم نكرة مرادف لكلمة (كوروس) •

ومن هذا الدليل ، استنتجت (جين هاريسن) ان «الكوريتيين هم شبان علّموا أنفسهم وسيعلمون آخرين ، وسيلقنونهم الواجبات القبلية والرقصات القبلية . ويختطفونهم من أمهاتهم ، ويقضون عليهم بنوع من الموت المصطنع ، وأخيرا يرجعونهم الى بيوتهم وهم شبان مولودون حديثا وناضجون . ويتمتعون بعضوية تامة في القبيلة • ويبدو ان (جين هاريسن) . في توصلها الى هذا الاستنتاج ، كانت غير عالمة بأنه كانت فعلا العادة في (كريت) التأريخية ان يُسرق الصبيان من بيوتهم ويعزلوا في البراري على أيدي رجال ملقنين ، وبأن (الكيروتيين) كانوا المخترعين التقليديين لرقصة الحرب التي كان الصبيان يتمرسون عليها استعدادا لهذه المناسبة •

وقد يثار اعتراض على هذا التفسير على اساس ان (زيوس) ، حين عُهد بالعناية به الى (الكيروتيين) ، لم يكن صبيا يقترب من البلوغ ، وانما كان طفلا • ولكنني أعتقد ان هذا التباين يمكن تفسيره • فأولا ، وكما سبق ان لاحظنا ، حين تضمحل ممارسة التلقين ، تجنح الطقوس الى ان تمارس في عمر مبكر • ومثل قريب من التناول هو الطقس اليهودي الخاص بالختان ، الذي كان يؤدى اصلا استعدادا للزواج ، ولكنه يمارس الآن بعد ايام قلائل من الولادة • واذا كان ممكنا حدوث

مظاهر الاستبدال هذه في الطقس ذاته ، فمن الواضـــــح انها كانت ستحدث على نحو أسهل في الاساطير التي كانت قد فقدت صلتها بأصلها الطقسي • واضافة الى هذا ، يبدو ان الطفل (زيوس) ، شأنه في ذلـك شأن الصغار الإلهيين ، من أمثال (هرميز) في الترنيمة الهوميرية ، نمـا بسرعة مذهلة • ويخبرنا (كاليماخوس) بأن الطفل ، بعد أودع لــدى (الكيروتيين) ، أصبح شابا بسرعة ، وأخذ الزغب يظهر بسرعة علـى ذقنه ؛ فيما يذهب (آراتوس) الى أبعد من ذلك ويقول ان الطفل كبر في غضون سنة واحدة •

لقد كان (الكورتيون) وثيقي الصلة ، بل في الحقيقة مختلطين ، بتنظيمات مشابهة اخرى ـ (الكوريباتيين) ، الذين كانوا يعبــدون الإلاهة الأم لآسيا الصغرى الغربيـــة ، والـ (داكتيليو) من (آيدا) ، السحرة الذين كان لهم فضل اكتشاف الحديد • وفي بعض الروايـات الخاصة بولادة (زيوس) ، يستبدل (الكوريتيون) بالـ (الكوريباتيين)، وهم جميعا على صلة بصناعة الحديد • وكانت أقدم قطعة حديد معروفة حتى الآن في اليونان قد عثر عليها في (كريت) بين اشياء اخرى يعـود تاريخها الى الفترة المينوية الوسطى الثانية • وفي آسيا الصغرى ، كان الحديد معروفا لدى الحثيين منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد علـى الاقل، ولربما قبل ذلك بكثير • وكما هو شأن جميع الاساليب الجديدة، لا بد ان تكون صناعة الحديد قد اعتبرت للوهلة الاولى سرا او لغـزا مبهما ، اي عمل أخوية سحرية • وعلى هذا ، يتفق ذلك مع الادلـة الاخرى التـي تذهب الى ان الاساطير المتعلقـة بـ (الكوريتيين) والـ (الكوريباتيين) والـ (داكتيلو) تجسد الذاكرة الشعبيـة للجمعيات التلقينية البدائية في (كريت) وآسيا الصغرى ما قبل التاريخ •

ويوجد العديد من الروايات المتعلقة بولادة (دايانايسيس) ، وبعضها

مأخوذ عن (سابازيوس) الفريجي (نسبة الى فريجيا في آسيا الصغرى ــ المترجم) ، والآخر عن (اوزيريس) المصري • وحاليا ، سأقصر بحثي على المركزين الرئيسيين للمأثورات اليونانية ــ (طيبة) و(كريت) •

لقد وقع (زيوس) في حب (سيميلا) ، ابنة (قدموس) . ووعدها بكل ما تطلب • وإذ خدعتها (هيرا) ، فقد طلبت منه ان يخطبها كما كان قد خطب (هيرا) ، وإذ ذاك ، فقد ظهر في عربة ملتهبة وقذف صاعقته ، وماتت (سيميلا) من الخوف • وبعد ان انتشل (زيوس) من اللهب طفلها غير المولود ، فقد خاطه في فخذه ، ومن هناك ولد (دايانايسيس) في الوقت الملائم • والى هنا تنتهي الاسطورة الطيبية • اما (هيرا) ، التي أغضبتها الامتيازات التي كان (زيوس) يضفيها على الطفل ، فقد حرضت (الجبابرة) وأقنعتهم بالقضاء على الطفل • وهكذا ، وبعد ان تزود (الجبابرة) بلعب جذابة ــ هي Kônos او دوامة سريعة الدوران ، وموشور سداسي الشكل ، وتفاحات ذهبية من الحوريات حارسات بساتين التفاح ــ فقد اجتذبوه من (الكيروتيين) ــ الذين قد وضع عندهم ، ومزقوه إربا ، وألقوا بأطرافه في مرجل ، وغلوها وأكلوها • وقد مثل هذا الجزء من الاسطورة في الطقس الكريتي عن (زاغيروس) وفي الطقوس الدينية الاورفوسية • وحين اكتشف (زيوس) ما حدث ، احرق الجبابرة بصاعقته ، وبطريقة ما ــ وهنا تختلف الروايات ــ أعيد الطفل الميت الى الحياة •

ان ولادة (دايانايسيس) من فخذ (زيوس) تأتي بتعقيد جديد • ويتطابق هذا الجزء من الاسطورة مع معاملة (كورونوس) لاولاده ومع أسطورة (فانيس) الاورفوسية ، الذي ابتلعه (زيوس) وولد ثانيةً ابنا له • ومن الجلي ان ولادة (فانيس) من جديد هي رمز للتبني • وهي لا شك ابتداع كهنوتي ، لا يجد اساسا مباشرا له في الطقوس • الا ان

اساطير كهذه تفترض سلفا نمطا تقليديا . وهو ما تقدمه في هـــذه الحالة أسطورة (كورونوس) ، التي فسرناها قبل قليل على انها رمـــز للتلقين . فماذا كان يربط اذن بين التلقين والتبني ؟ الجواب هو انهما في المجتمع البدائي متماثلان فعلا . فقد كان يجري تبني الغرباء فـــي العشيرة بفعل ولادتهم مرة اخرى . وهكذا، كان طقس الختان اليهودي، الذي كان يجرى للطفل الشرعي فور ولادته ، يجرى للغرباء ايضا بغض النظر عن أعمارهم ، بوصفه طقسا للتبني . وفي القصص الآيسلنديـة القديمة ، يوصف الغريب المتبنى بشكل صريح بانه قد ولد مرة اخرى ، ويتلقى اسما جديدا ، كما يجري ذلك في التلقين . وحين نزل (هرقل) الى (اوليمبس) ، جلست (هيرا) على اريكة ، وضمتـــه الى صدرها ، وأولجته في ملابسها الى الارض وهي تقوم بتقليد المخاض . ويضيف (ديودوروس) ، الذي يسجل هذه الاسطورة ، بأن طقوسا مماثلة كانت لا تزال تمارس في تبني الغرباء من جانب البرابرة ، ومن الممكـــن الاستشهاد بأمثلة مشابهة متعددة ، ليس من القبائل البدائية فحسب ، بل من اوربا العصور الوسطى والحديثة .

ومع ذلك ، لا يمكن ان تعتبر معاملة دايانايسيس على يد زيـوس مجرد فعل للتبني لأن زيوس كان الاب المعترف به . انها لم تكن تبنيا بل تأليها . وفي رواية ، نخبر بصراحة بأن غرض الصاعقة كان جعل الام والطفل معا خالدين . وكما بيّن (كوك) ، صورت صاعقة (زيوس) اصلا على انها ايقاع للموت من اجل ان يوهب الخلود . وبالمثل ، فحين ارادت (ديميتير) ان تخلد الطفل (ديموفون) ، فقد دفنته في النار ــ وهو عمل امتعضت منه ام الطفل بشكل طبيعي ، بوصفه فعلا لقتل الطفل متعمدا ــ وكان لا بد ان يموت الطفل من اجل ان يعيش الى الابد . «ان ما تبذره لن يُحيى ما لم يمت» . والتأليه شكل من التبني ، والتبني شكل مـــن

التلقين •

ولاول وهلة . يبدو الجبابرة الذين اختطفوا (دايانايسيس) وكأنهم بعيدون عن (الكوروتيين) الذين اختطفوا (زيوس) لينقذوه من ان يؤكل• الا ان المألوف في الاساطير هو ان هذه التناقضات البالغة تميل الى اخفاء صلة اساسية • وفي المثال الحالي ، تتأكد شكوكنا بأسطورة عن ولادة (ايبافوس) ، يكون فيها الشجعان الذين تقنعهم (هيرا) بالقضاء على الطفل هم (الكوروتيون) • والتناقض هو ليس الا التعبير الاسطوري عن طبيعة الطقس ذاته التي تحمل احد معنيين متناقضين او متشابهين او كليهما •

ويتم التوصل الى ذات الاستنتاج من تفحص للعب التي أغري الطفل عن طريقها بالخروج • فالتفاحات الذهبيات للحوريات هي الدافع وراء حكاية او أسطورة شعبية ، الا ان الدوامة والموشور مشتقان من الطقوس • ولربما كانت الدوامة هي دوامة سريعة الحركة من النوع المألوف ، وكان الموشور قطعة من خشب معلقة بخيط تدوّر به في الهواء ، وكان كلاهما يستخدمان في طقوس سرية لمحاكاة الرعد • وكما ذكر (اندرو لانغ) منذ فترة طويلة ، فالحقيقة ان الموشور هو شبيه بذات الخوار (*) التي يستخدمها المتوحشون المعاصرون لاستنزال المطر وتخويف المبتدئين في التلقين • وهكذا ، ففي قبيلة (ويرادثوري) الاسترالية ، لا يستطيع ان يرى ذات الخوار فعلا الا الملقَّن ، ويعتقد غير الملقنين بأنه صوت روح من الارواح • وفي غمرة التلقين ، الذي يجري في الظلام ، يتحلق الرجال المسنون حول المبتدئين ، وهم

(*) قطعة خشبية رقيقة مشدودة الى سير جلدي تدور به في الهواء محدثة صوتا هادرا .

يدوّرون بسرعة خواراتهم في الهواء • وحين تنتهي الغمرة ، تكشف لهم الادوات ويشرح استخدامها • وهذا هو الـ Anakâlypsis اي الكشف عن الاشياء المقدسة ، وهذا هو الطقس الذي تبقى منه ذكرى باهتة في اللعب التي عرضها الجبابرة امام (دايانايسيس) • ثم ، اذا سالنا لماذا تؤدي ذات الخوار دورا بارزا جدا في التلقين ، فلربما اعطي الجواب بكلمات رئيس من قبيلة (ويرادثوري) ، الذي اعلن بأن صوت ذات الخوار هو صوت روح يدعو المطر الى النزول وكل شيء الى النمو من جديد •

اخيرا ، فقد سُلِق (دايانايسيس) وأُكل • ولم يكن هو الوحيد • فقد ابلغت (ميديا) بنات (بيلياس) بأنهن يستطعن جعل ابيهن المسن شابا مرة اخرى بسلقه • وإذ لم تستطع اقناعهن ، فقد اخذت ذراعا قديمة ، وقطعتها ، وألقت بالقطع في مرجل من ماء يغلي ، ثم اخرجت من المرجل حملاً • وألقت (اينو) ، شقيقة (سيميلا) وأم (دايانايسيس) بالرضاعة، الذي يقال انها ربته بوصفه بنتا ، ألقت بطفلها (ميليكيرتيس) في مرجل ، ثم اختطفت المرجل مع الطفل الميت فيه ، وقفزت في البحر • وبتلك الوسيلة اصبح كلاهما خالدين ، حيث أعيدت تسمية الام بـ (ليوكوثيا) والطفل بـ (بالايمون) • وكانت (ثيتيس) تسلق جميع أطفالها بصورة منتظمة، الى ولادة (آخيليس)، حيث تدخل الاب المضلّل• وقد روى هذه القصة (هيسيود) • ويستفاد من المعلق الذي سجلها ، ارادت (ثيتيس) ان ترى ما اذا كان الطفل فانيا ، ولكننا قد نشك بأن دافعها الحقيقي كان ضمان ان يكون خالدا • الا ان الاشهر من كل ذلك هو سلق (بيلويس) ، وهذا يأتي بنا الى اصل (الالعاب الاوليمبية)• وفي هذا الجزء من مناقشتي، سأسير على خطى (وينيغير) و(كورنفورد)•

عندما كان (بيلوبس) طفلا فقد دعا ابوه (تانتالوس) الآلهة الى وليمة

تقدم بتبرعات من كل واحد من المشاركين فيها • وقد تبرع (تانتالوس) نفسه بلحم ابنه . الذي قطعه . وسلقه في مرجل ؛ وقدمه كلحم امـام ضيوفه الذين لم يكونوا على شك من امره • وحين اكتشف (زيوس) طبيعة الاكلة التي قدمت اليهم ، امر بأن يعاد الطفل الى المرجل وبذلك يعاد الى الحياة • وقد جرى تنفيذ هذا ، وأخرجت الطفل من المرجـــل (كلوثو) . التي سبق ان رأيناها كإلاهة للولادة • وهي هنا إلاهة الولادة الجديدة • اما (تانتالوس) فقد احرق بالصاعقة •

اما عن (بيلوبس) ، فما ان ظهرت سيماء الرجولة على وجنتيه حتى قرر الزواج من (هيبوداميا) ، ابنة (اوينوماويس) ، ملـك (إيليس) • وقد سبق ان كان لـ (هيبوداميا) ثلاثة عشر خاطبا ، هلكوا جميعا فـــي الاختبار الذي كان الاب يفرضه على كل متقدم لخطبة ابنته • وكـــان الاختبار سباق عربات • فقد كان الخاطب يسوق عربة والى جانبه عروسه المقبلة . وكان الاب يلحقه بأخرى ، ويجتازه ، ثم يقتلـــــه • الا ان (بيلوبس) احتاط للامر بأن رشى سائق عربة الملك ليزيل احد مسامـــير الدولابين • وكانت النتيجة ان تحطمت عربة الملك ، وأن قتل الملك نفسه على يد (بيلوبس) بضربة من رمحه • وهكذا فقد تزوج (بيلوبس) مـــن (هيبوداميا) وورث مملكة ابيها •

وفي الفترة التاريخية ، كان يحتفل بالالعاب الاولمبية في كل سنـــة رابعة في فترات دورية تتألف من تسعة وأربعين شهرا وخمسين شهراء وحين كان يقع احد الاحتفالات في شهر (ابولونيوس) ، فان الاحتفال القادم كان سيعقد بعد اربع سنوات في شهر (بارثينيوس) التالي • ومن الواضح ان هذا الترتيب يستند الى تشطير او تنصيــف دورة ثمانية الاعوام هي أقصر فترة يمكن ان تجعل فيها السنة القمرية المؤلفة مـــن (٣٥٤) يوما تتصادف او تتفق مع السنة الشمسية المؤلفة من (٤/١ ٣٦٥)

يوما • وفي ثماني سنوات ، كان الفرق بين الاثنتين يبلغ تسعين يوما بالضبط ، حيث كان يكمل بادخال ثلاثة اشهر يتألف كل منها من ثلاثين يوما • وبعد ان ترجم هذا التوفيق بين الحسابات الشمسية والقمرية الى أسطورة ، بدا وكأنه اتحاد بين الشمس والقمر ، وهو كما بيّن (فريزر)، شكل شائع من أشكال الزواج المقدس • وفي هذه الحالة ، مثل الزوجين السماويين (بيلوبس) و(هيبوداميا) •

ان سباق (بيلوبس) كان سباق عربات • ولكننا نعرف من مأثورات (اوليمبيا) المحلية ان السباق الوحيد في الفترة السابقة كان سباق مشي على الاقدام • والى جانب هذا ، تفترض مسبقا الدورة الثمانية التي يقوم عليها التقويم الاولمبي معرفة كبيرة بعلم الفلك • ولا بد انها حلت مكان دورة سابقة تتفق مع تعاقب الفصول السنوي ، الذي هو مهمل في الحساب الثماني • ولهذه الاسباب ، فمن المحتمل ان كان المهرجان في الاصل سنويا •

وعودا الى المأثورات المحلية ، ينبغي التذكر ، كما بيّن (وينيغير) و(كورنفورد) ، بأن قبيلتي اوليمبيا الكهنوتيتين ، (الآيميين) و(الكلايتيين) ، اللتين كانتا قد آدارتا المهرجان منذ أزمان غابرة ، كانتا لا تزالان في هذا المنصب عندما زار (بوسانياس) ، الذي سجل المأثورة، اوليمبيا في القرن الثاني بعد الميلاد • ولذلك لا مبرر للشك في صحته على اساس ان الشكل الذي نراه فيه متأخر • ويستفاد من هذه المأثورة، ان (ريا) حين ولدت (زيوس) عهدت بالطفل الى «داكتيلوي آيدا ، او الكوريتيين ، كما كانوا يسمون» ، الذين كانوا يسافرون من (كريت) الى اوليمبيا ، وكانوا يسلون انفسهم هناك باجراء سباق كان يتوج فيه الفائز بالزيتون البري الذي كان من الوفرة «بحيث انهم اعتادوا النوم على اوراقه حين كانت لا تزال خضراء» •

ونلاحظ ان الاوراق كان لا بد ان تبقى خضراء • وبكلمة اخرى ، فقد كان لهذه الممارسة مغزى طقسي ؛ ويتذكر القارىء عادة الصبيان الاسبارطيين ، الذين اعتادوا على الاسل المجلوب من اليوروتاس ، بعد نهاية سباقهم اثناء النهار • وكان لذلك ايضا مغزى طقسي ، لان استخدام السكين كان محرما • وهنا يمكن ان يضاف بأن المنتصر الاولمبي ، بعد ان يصحب الى الـ (Prytaneion) او بهو المدينة . كان يرشق بالاوراق • وهذا يفسر عادة بأنه طقس من طقوس الخصب • والى حد ما فقد كان كذلك • الا ان هذا لا يتناول صميم المسألة • وفي اسبارطة، كما يقال لنا ، كانت العادة هي ألا توضع اية قرابين في قبر الميت ، وانما الجثة وحدها ملفوفة بعباءة جندي ارجوانية وممددة على اوراق الزيتون • وكانت الميزة لهذه الاوراق ، بالنسبة للاحياء والاموات على حد سواء ، هي جِدّة الحياة •

كما كان يحتفل في اوليمبيا بمهرجان نسوي ، او (الهيرايا) • وكان هذا ايضا يعقد في كل سنة رابعة ، ومن المحتمل ايضا ان يكون في الاصل سنويا • وكانت تشرف عليه جمعية يطلق عليها «النساء الست عشرة» ، اللواتي نسجن ثوبا لـ (هيرا) جديدا ، وقدمن جوقتين من المنشدين ، احداهما لـ (هيبوداميا) والاخرى لـ (فايسكوا) ، وهي عروس لـ (دايانايسيس) محلية • وهذا يوحي ان المهرجان يعود الى وقت لم يكن فيه (هيرا) او (هيبوداميا) ، وانما (فايسكوا) فقط ، وهي فتاة «كانت تجعل الاشياء تنمو» • وكان الجزء الرئيسي من المهرجان يتألف من ثلاث سباقات مشي للبنات • وكانت الفائزات يتوجن بالزيتون البري ويتسلمن حصة من البقرة التي كانت تذبح قربانا لـ (هيرا) •

والخلاصة ، ان سباق المشي للرجال ، الذي كان نواة اوليمبيا ، كان اختبارا سنويا او (Agôn) ، لتحديد من ينبغي ان يكون (كوروس)

السنة • وكان سباق المشي للنساء اختبارا من ذات الطبيعة تماما ؛ حيث تكون الفائزة (كورا) السنة • وكان كلاهما من اختبارات التلقين ؛ الا انهما بالنسبة للفائزين كانا اكثر من ذلك ــ فقد كانا تلقينا وتأليها ايضا ــ وعلى ذلك ، فحين كان المهرجانان يتسقان : كان الزوجان الفائـــزان يصبحان شريكين في الزواج المقدس ــ (بيلوبس) و(هيبوداميا) السنة•

ومع ذلك يبقى سؤال آخر : ماذا كان يحل بالزوجين الفائزين في نهاية سنتهما ؟ نحن نعلم ماذا كان يحدث في غالب الاحيان في هـــذه الحالات من الادلة التي جمعها (فريزر) في دراسته الموسوعية عن الزواج المقدس في (الغصن الذهبي) • وكما بيّن هو ، كان الملك في الاصل إلهياً فقـــد كان يعتبر ملكا ، او ، بكلمة أصح ؛ كـــان ملكا ، حيث كانت فكرة الألوهية مجرد ابراز للقوى السحرية التي أضفيت عليـــه بطقس التتويج • اما ان هذا الطقس كان لا يمكن تمييزه مما اصبــح يعتبر في وقت لاحق تأليها ، فقد اوضحته الى درجة اكبر دراســـة (هوكارت) للموضوع ، التي يظهر منها ايضا ان التتويج ليس الا طقسا اختصاصيا من طقوس التلقين • وكما هو شأن الصبي على عتبة الرجولة، يترتب على المرشح للامتيازات الإلهية ان يموت وأن يولد مرة اخرى • وإضافة الى هذا ، لما كانت السيطرة السحرية على الغلال ، التـــي هي وظيفته التي يجب ان يمارسها ، مهمة على جانب هائل من الصعوبـــة والاهمية ، وتعتمد عليها حياة المجتمع ، فان من الضروري ان يكـــون الشخص نفسه الذي تعهد اليه في ريعان الحياة • ولما كان ذلك الشرط عابرا ، فان فترة منصبه محددة بدورة واحدة ، من فصل البذر حتـــى الحصاد • وفي نهاية السنة يُقتل او ، بالاحرى ، لا يُقتل ، وانمـــا يُرسل لينضم ثانية الى زملائه الآلهة بعد انجاز مهمتــــه على الارض • وأخيرا ، لمـــا كانت هذه القوى السحرية معتمدة على القوة البدنية ، فان

خليفته يختار عادة باختبار في قتال ، يتحداه فيه ويتغلب عليه رجل أصغر عمرا وأقوى • وتظهر هذه السمة في اوليسبيا في مأثورة سجلهـا (بلوتارخ) • فهو يقول : «في العصور القديمة ، كان يُجرى ايضا اختبار قتال مفرد ، كان لا ينتهي الا بذبح المغلوب» •

ان أسطورة (بيلوبس) يمكن ان تفسر اذن بأنها رمز للشكل الخاص الذي كان التلقين البدائي قد اتخذه في اوليمبيا ما قبل التاريخ • وكان هذا يتألف من جزئين : التلقين والادخال في مرحلة الرجولة ، والادخال في منصب الملك • وكان الاول يتم بطقس كان يعتقد فيه ان المبتدئين تلتهمهم الآلهة اطفالا وتعيدهم رجالا • اما الثاني فقد كان يتم باختبار تسابق (كان في الاصل سباق مشي ، ثم سباق عربات في وقت لاحق) ، حيث كان الفائز يُعلن بوصفه الإله ــ الملك لذلك العام • وأخيرا ، وفي نهاية العام ، كان الإله ــ الملك يُقتل على يد خليفته •

وحتى في الازمان التاريخية ، كان ينظر الى المنتصر الاولمبي باحترام خرافي ، وتسبغ عليه امتيازات يمكن ان توصف بأنها اما ملكية او إلهية • وفي اوليمبيا نفسها ، كان يتوج بالزيتون ، ويولم في الـ (Prytaneion) • وعند عودته الى مدينته الأم ، كان يرتدي ثوبا ارجوانيا ، رمزا لمنزلته الرفيعة ، وتنقله جياد بيضاء في موكب منتصر عبر فتحة في الجدران• وفي اسبارطة ، كان يسير الى جانب الملوك نحو المعركة ، اعتقادا ، بشكل واضح ، بأن قربه سيقودهم الى النصر • وفي أثينا ، كان يتمتع بحق تناول الطعام في الـ (Prytaneion) من النفقات العامة طيلة بقية حياته ، وبعد وفاته كان يُعبد بوصفه بطلا، أقل بشرية من الإلهي • وما لم تتذكر كل هذا فلن نكون في وضع يمكننا من تقدير الاصرار المشوب بالقلق الذي يحذر به (بندار) ، في العديد من القصائد الغنائية ، المنتصر في الالعاب بألا يفرط في محاولات

الكسب ، وبألا يفرط في التطلع في المستقبل ، وبألا يطمح الى ان يكون إلها • وحتى في (آلتيس) من اوليمبيا ، حيث كانت الارستوقراطية اليونانية ، تشعر ، الى جوار (دلفي) ، بأقصى درجات الاطمئنان ، فقد جوبهت بهذا التناقض الغريب ، الذي لم يقبل الا لانه كان شيئا لا يمكن استئصاله ، ولانه كان ممكنا حجبه بشكل زائف بزخارف مهنة الكهانة القديمة •

لقد ابتعد بنا مجرى نقاشنا عن طقوس التلقين في القبيلة البدائية ، الا انذات السلسلة تمتد من البداية حتىالنهاية• فقد كان (Prytaneion) دولة المدينة اليونانية ليس مجرد مكان للاكل يستضاف فيه المواطنون البارزون والغرباء مجانا ، بل كان ملجأ الجماعة المقدس ، الذي كان يوقده سنويا في اثينا المنتصرون في سباقات المشاعل للبالغين سن الثامنة عشرة • وكما لاحظ (هيوتن ويبيستير)، «ان مؤسسة على درجة بالغة من الرسوخ والانتشار» ، كبيت الرجال ، «يمكن ان يتوقع بقاؤها بتكريسها لاغراض اخرى ، حيث تموت تدريجا الافكار الاولى التي أدت الى بنائها » •

اذن يمكن القول بشيء من الثقة بأن (كورنفورد) كان مصيبا في رفض وجهة نظر (رجواي) القائلة ان الالعاب الاولمبية كانت اصلا مهرجانا للموتى • ولا ينكر ان عادة المباريات الرياضية في تشييع جنائز الاشخاص البارزين تؤكدها القصائد الهوميرية والممارسة الفعلية في الازمان التاريخية • الا ان وجهة نظر (كورنفورد) ذاتها قد طورت الآن ووسعت بحيث يبدو البلوغ والموت حدثين من نوع واحد ، اذ كلاهما مناسبتان ملائمتان لطقس يجلب جدة الحياة •

ان معرفتنا بالطقوس الدينية السرية الاليوسية مأخوذة في معظمها عن الفترة الهيلينية او ما بعدها • الا ان المأثورة يمكن استقصاؤها ،

في عدد من النقاط الحيويـــــة ، عبر (افلاطون) و(اريستوفــــان) و(اسخيلوس) حتى الترنيمة الهوميرية الى (ديميتير) ، ثم تسير الى مسافة اخرى ، لتصل الى الفترة (الميسينية) ، عن طريق أدلة البقايا الاثرية •

ومن جهة اخرى ، فمن الواضح ان الطابع البدائي للعبادة كان بحلول القرن الخامس قبل الميلاد قد تغير تغيرا اساسيا بإضافات وإعادة تنظيـــم متوالية • ويبدو اصلا ان ملكية عشيرة واحدة ، هي الـ (يومولبييون)، هي التي شارك فيها الـ (كيريكيون) في مرحلة سابقة • وكانت خدمـــة (ديميتر) الكبيرة للجنس البشري ، التي يعتقد ان الطقوس كانت تحتفل بذكراها ، هي اكتشاف الزراعة • وكان يحتفل بذات الخدمة في اثينــا نفسها في مهرجان (ثيسموفوريا) ، الذي كانت توجد بينه وبين الطقوس الدينية السرية كثير من الصلات المشتركة ، والذي كان بالاضافة الى ذلك يكرس للنساء • ومن المحتمل اذن ان تكون عبادة (إيليوسيس) فــــي الاصل هي من النمط ذاته • والحقيقة ، يبدو ان اسطـورة (ديميتير) الأليوسية ، التي كشفت هي نفسها عن فن الزراعة ، ولكنهــــا علّمت استخدام المحراث عن طريق ابنها بالرضاع ، (تريبتوليموس) ، تعكس انتقالا من النسب عن طريق الام الى النسب عن طريق الاب ، الذي ، كما رأينا في فصل سابق (الفصل الاول) ، هو مرتبط بالتقدم من زراعة الحدائق الى زراعة الحقول • وكان من بين وظائف الـ (يومولبيداي)، وهي قديمة ولا ريب ، هي حراثة سهل (الراين) بطقوس ، الامر الـــذي يوحي بأن العشيرة كانت في وقت ما ملكية ولها وظائف مشابهة للوظائف التي درسها (هوك) وآخرون في بابل ومصر القديمتين • وكانت العبادة، على امتداد الفترة التاريخية ، محلية ، حيث لم يكن يُتقبـــل الغرباء الا بالتبني • الا انه في القرن السادس ، ولربما في ظل (بيسيستراتوس) ، الذي اعاد بناء (قاعة التلقين) ، جرى اقتباسها من جانب الدولة الاتيكية

المتنامية ، وفتحت امام جميع الاشخاص الناطقين باليونانية ، بمن فيهم الارقاء • ولا يمكن ان يوجد شك في ان اهتمام الحاكم المستبد في (اليوسيس) كانت قد أثارته ذات الدوافع التي كانت وراء رعايته للحركة الاورفيوسية • ويقول أرسطو ان تقليص عدد العبادات الارستوقراطية القديمة وتوسيع قاعدتها كان الطابع المميز للديموقراطية• وعلى ذلك ، كان تطور الطقوس السرية جزءاً لا يتجزأ من تطور الدولة الأتيكية • فهي ، بعد ان بدأت كعبادة محلية في مجتمع قبلي صغير وبدائي ، كانت تعكس على التوالي منصب الملك الاول ، القائم على السحر المرتبط بالارض ، وانغلاق الارستوقراطية الديني ، وأخيرا ، وتحت تأثير الثورة الديموقراطية ، تدخل سيطرة الدولة •

لقد كان يحتفل بالطقوس الدينية الكبرى في (ايليوسيس) سنويا في شهر (بويديرميون) ، الذي كان يصادف تقريبا شهر سبتمبر ويأتي مباشرة قبل الشهر الذي كانت تبذر فيه الحبوب للسنة القادمة • ويخبرنا (بلوتارخ) ان البذر في (أتيكا) البدائية كان يقع في فترة قبل التي كان يقع فيها خلال العصور التاريخية ، وهكذا نستطيع الاستنتاج بأن الطقوس كانت مصممة في الاصل لتتزامن مع بدء السنة الزراعية •

وكان على الرجل او المرأة اللذين يرغبان في القبول الى الطقوس الكبرى ان يتلقيا تلقينهما اولا في الطقوس الصغيرة في (أغرا) ، التي يقال ان (ديميتير) أسستها لمنفعة (هرقل) • وحين كان (هرقل) على وشك النزول الى (هاديس) او الجحيم ، توجه الى (ايليوسيس) وطلب تلقينه، الا انه رُفض باعتباره غريبا • وعلى ذلك ، جرى تبنيه في الجماعة على (ديميتير) في (أغرا) ، ومن ثم أجيب طلبه • وكان يجري الاحتفال بالطقوس الصغرى في شهر (أنثيستيريون) ، الموافق للجزء الاخير من (شباط) والجزء الاول من (آذار) ، عندما كان ينضج نبيذ الصيف •

وبعد المشاركة في هذه الطقوس ، كان المرشح لا يلقن في (ايليوسيس) في الخريف التالي ، بل كان عليه ان ينتظر حتى السنة التالية على الاقل. والواضح ان هذه الفترة الفاصلة كانت فترة تجربة ، كفتـــرة السنتين اللتين كانتا تقضيان في (إسبارطة) في الـ (Meueirenes) وفـــي أثينا في الـ épheboi • ونحن نُخبر ايضا بأن العباءة التي يرتديها المرشح اثناء التلقين كان لا يجوز تغييرها ، وانما كان عليه ان يلبسها باستمرار حتى تتهرأ •

وفي اليوم الرابع عشر من شهر (بويديرميـــون) ، كان الاشخاص البالغون الثامنة عشرة من أعمارهم يسيرون الى (ايليوسيس) ، وبعدهـــا يسيرون حارسين الاشياء المقدسة التي ربما كانت تشابيه لـ (ديسيتـــير) و(بيرسيفون) ، ومن هناك يتوجهون الى اثينا • وفي اليوم التالي ، كان المرشحـــــون يتجمعون فـــــي أثينا بحضـــور الـ (الهيروفانتيس) والـ (الدايداخوس) ، وهم اعلى كهنة (اليومولبيداي) و(الكيريكيين) ، الذين كانوا يصدرون اعلانا جادا يحذرون فيه غير الجديرين بالمغادرة • وكان البرابرة والقتلة غير المطهرين يجردون من حق الحضور بصـــورة صريحـــة •

ويأتي بعد ذلك التطهير • وكان المبتدئون يتوجهون الى ساحـــــل البحر ويستحمون • وفي طقس آخر ، كان يضحى بخنزير ويراق دمه على المبتديء ، الذي كان يجلس على كرسي واطيء ورأسه مغطى • وقياسا على التلقين البدائي ، جاز لنا ان نخمن بأن دم الخنزير كان بديلا عـــن دم المرشح نفسه ، ويتضح مغزى الغطاء عندما نجد انه كان يرتدى من قبل كلا الطرفين في الزواج ، وانه كان عند الوفاة يوضع في وقت واحد على رأس الجثة كما تلبسه الاقرباء دليلا على الحزن • وفي المثال الحالي، ربما كان مرتبطا بأسطورة (ديميتير) ، التي توصف في الترنيمة الهوميرية

بأنها تجلس مغطاة الوجه حزنا على ابنتها ·

ان المرحلة التالية في الاجراءات غامضة · وهي تتألف على ما يبدو من قربان وعنصر دخيل من عبادة (اسكليبيوس) فـــي (ايادوروس) · ويوصف المرشحون ايضا بأنهم «باقون في البيت» · ومن ثم ، وفـــي اليوم التاسع عشر ، ينطلق الموكب الكبير ، بغناء ورقص عبر الحقول ، نحو (ايليوسيس) ، حارسا صورة (اياخوس) ، الذي يبـــدو انه عنصر دخيل آخر ، مأخـــوذ عن عبادة (دايانايسيس) · وكانت تؤدى طقوس مختلفة في الطريق ، بما فيها تبادل اللعنات والنكات القذرة عند الجسر على (كيفيسوسيس) · وهذا طقس بدائي للخصب موزعا على نطـــاق عالمي · ولكنه لا يلزم ان يوقفنا الآن ، حيث لا يتصل بالتلقين بصـــورة خاصة · ويبدو ان الموكب كان يشمل أولئك الذين كانوا قد لقنوا فقط في (آغرا) في الربيع السابق ، اضافة الى أولئك الذين تم الآن اختبارهم· وبالتالي ، فعند الوصول الى (ايليوسيس) ، كان الحجاج ينقسمون الى مرتبتين : الـ (ميستيين) ، الذين كان عليهم ان ينتظروا عاما آخر قبـــل ان يقطعوا شوطا آخر ، والـ (إيبوبتيين) ، الذين كانوا يقبلون في قاعة التلقين (تيليستريون) ، حيث كانت تكشف لهم اسرار (إيليوسيس) ·

اما ماهية ذلك الشيء الذي كان «يرى ويسمع» على الدقة ، فهو مسألة تخمين · ومع ذلك ، يبدو واضحا انه كان يوجـــد زواج سري يعقده الكاهن والكاهنة الكبيران ، ودراما طقسية ترمز الى رحلة الروح الى مقعد القضاء · وكان من بين اكثر سمات الطقس بروزا ، وهو مـــا يمكن تعقب اصله عند (اسخيلوس) ، هو الوهج المفاجيء لانوار المشاعل الذي كان ينير الظلمة ويحيل حزن المتفرجين الى فرح · ويذكر ايضا ان سنبلة قمح كانت تعرض عليهم اشارة الـــى تحريرهم · اما السمـــات الاخرى ، المستنتجة من رمزية الترنيمة الهوميرية ، فهي مشكوك فيها الى

درجة لا يمكن بها الاعتماد عليها ٠

وكان الملقنون يتعهدون بألا يبوحوا بأي شيء عما سمعوا او رأوا، وكان الصمت المفروض عليهم بهذا الشكل يعبر عنه بالرمز السري وهو «المفتاح الذهبي على اللسان» ، المطابق للرمز الفيثاغوري « ثور على اللسان» والرمز الأورفي «باب على اللسان» ٠

والسبب الرئيسي في ان أدلتنا على المحتوى الفعلي للطقوس الايليوسية هي على درجة كبيرة من القلة ربما لم يكن لان الاسرار كانت محفوظة حفظا جيدا ، بل لانها كانت معروفة جدا ٠ وتفترض سلفا الاعتيادية المألوفة والعابرة التي يلمح بها كتاب من أمثال (اسخيلوس) و(أفلاطون) الى هذه المسائل ، تفترض معرفة عامة ووثيقة بين جمهورهم، وتظهر ان العديد من الصيغ السرية قد دخلت نطاق التداول المشترك للحديث الأتيكي اليومي ٠ ومن الممكن حمل التلميحات نصف المغطاة ، التي يمتليء بها الادب اليوناني ، على ان تكشف ، ان لم يكن الطقس نفسه ، فعلى الاقل الموقف الذاتي للطقس ، الذي هو على درجة مساوية تقريبا من الاهمية ٠

وكان المُلَقَّن الإيليوسي يختلف عن الآخرين في انه كانت لديه «آمال اكثر اشراقا» في المستقبل ـ الامل في «نصيب أفضل» في الحياة التالية ، عندما سيحصل ، بعد «تخليصه من شرور» الهلاك ، على تاج المجد ويعيش بصحبة الآلهة المباركة ٠ ويصف (بلوتارخ) وصفا رائعا الانطباع الذي تركته في ذهنه تجربته عن الطقوس السرية فيقول :

في البدء ، تطواف بلا هدف وانطلاق سريع مضنٍ جيئة وذهوبا ، ورحلات ناقصة لا يرى فيها من الاشياء الا نصفها كما لو كانت عبر الظلام ٠ ثم قبل الاكتمال نفسه ، تأتي كل

صور الرعب والارتعاد والارتجاف وتصبب العرق والذهول ، يجابه بعدها الملقنون بضوء باهر ، او يستقبلون داخل مناطق ومروج نقية . بغناء ورقص وقدسيات اصوات مقدسة وإيحاءات دينية . وهناك . بعد ان يكون الملقن قد أوصل الى درجة الكمال اخيرا ، وأصبح حرا ومغفورا له . يتعبد برأس متوج . بصحبة أولئك الانقياء وغير الملوثين ، مزدريا دهماء الاحياء القذرين غير الملقنين وهم يطأون بعضهم الآخر بالاقدام ويحشرون معا في وحل وضباب كثيفين .

لقد كانت التجربة ذاتها هي التي أوحت بالقصة الرمزية التي شبه فيها افلاطون روح الانسان بسائق عربة . ان للعربة اجنحة ، ويجرها حصانان ، احدهما جيد . والآخر سيء ، ويجرها احدهما عاليا الى القمم السماوية ، ويسحبها الآخر نزولا الى الارض . وتستمر الروح في اندفاعها ، شاقة طريقها بجهد كبير ومتصببة عرقا . وتتحطم العربات وتتصادم ، وتتعطل الخيول وتتكسر الاجنحة، فيما يُداس على المتسابقين ويتنحون عن السباق . ولكن حين يكون السباق قد انتهى بالفوز ، يجري حينئذ قبول الروح في سر الاسرار وهي كاملة ، محرَّرة ، مباركة ، وتتطلع في ضوء واضح الى الرؤيا السماوية . وفي مرحلة لاحقة من الادب ، اصبحت هذه الصورة مألوفة، وتحولت الى المسيحية. ويقول (بلوتارخ) : «ان الروح ، طيلة الحياة ، منهمكة في سباق رياضي ، وحين ينتهي السباق ، تلتقي بمكافأتها» . ويقول (بورفيري) : «تعال لننزع ملابسنا وندخل حلبة السباق لأولمبيا الروح !» ويسأل القديس (بولص) الكورونيثيين : «ألا تعلمون ان الذين يركضون في السباق يركضون جميعا ، الا ان واحدا هو الذي يتسلم الجائزة ؟ ومع

ذلك اركضوا . فلعلكم تفوزون ... والآن فهم يقومون به ليتسلموا تاجا فاسدا ، ولكن لنتسلم نحن تاجا نظيفا» . ولا ريب ان (بلوتارخ) و(بورفيري) كانا يعتمدان بصورة واعية على أفلاطون ، حيث انها موجودة عند (اسخيلوس) و(سوفوكليس) . والحقيقة ، انها لم تكن اختراعا ادبيا اطلاقا ، وانما كانت غائرة الجذور في الطقس السري . وهكذا ، كان من بين الصيغ المقدسة التي كان الاورفيون يأملون في انشادها في العالم الآخر هي «بأقدام مسرعة حصلتُ على التاج المطلوب» . والفكرة ذاتها هي التي تقوم عليها مصطلحات (ايليوسيس) الفنية ، التي يجب ان تتفحصها الآن .

ان اصناف التلقين المتتالية في الاسرار الأليوسية يصفها (ثيون) من (سميرنا) كما يلي :

«ان اقسام التلقين خمسة . الاول هو التطهير . فالاسرار ليست مفتوحة لجميع الذين يريدون المشاركة فيها ، اذ البعض يحذرون بالابتعاد ، من امثال أولئك الذين ليست أيديهم نظيفة او كلامهم واضحا ، وحتى أولئك الذين هم غير ممنوعين يجب ان يتلقوا التطهير اولا . ثم يأتي بعد التطهر تطبيق الطقس . والثالث هو ما يسمى بالايبوبيتيا . والرابع ، الذي هو ايضا نهاية الايبوبيتيا ، هو التتويج ووضع اكليل الزهر ، الذي يخوله ، بعد ان يصبح هيروفانتيس او ديدوخوس او مسؤولا آخر ، بأن يقدم الطقس للآخرين . والخامس والاخير السعادة والغبطة اللتان تأتيان من التمتع بحب الآلهة وتناول الطعام مع الآلهة» .

ان الكاتب مهتم بأن يبين بأنه توجد خمسة اصناف ، لان الرقم

ضروري لدعم رأيه • الا ان الثالث والرابع ، كما يعترف هـو نفسه ، صنف واحد في الواقع • ويذهب كتاب آخرون الى ان التطهير الاولي لا يعتبر صنفا من اصناف التلقين اطلاقا ، بل شيئا تسهيديا • وعلى ذلك ، يمكن تقليص اصناف (ثيون) الخمسة الى ثلاثة : (الميسيس) او التلقين، (الايبوبيتيا) . و(الايوديسونيا) او السعادة الروحية •

ان مرتبة (الايبوبتيز) كانت تنال ، كما رأينا ، في السنة الثانية بعد التلقين في (الطقوس الصغرى) في (آغرا) • وتعني كلمـة (ايبوبتيز) «متفرج» و«مشرف» في آن واحد • وبصفته متفرجا ، كان يسمح للايبوبتيز بأن يشهد الطقوس السرية المقامة في قاعة التلقين • وبصفته مشرفا ، كان يؤدي هذه الطقوس للآخرين • فهو يساوي اذن (الايرين) الاسبارطي ، الذي كان يعين ، في السنة الثانية من رجولته ، مسؤولا عن الصبيان اثناء الفترة التي تسبق مباشرة اختبارهـم في مذبـح (آرتيميس) •

والآن ، فقد كانت الكلمة ذاتها تستخدم في اوليمبيا بمعنى ناظر او مشرف على الالعاب • ولا حاجة الى الافتراض بأن الاستخدام الأليوسي لهذه الكلمة كان مأخوذا عن اوليمبيا • وبالمثل ، لا حاجة الى الافتراض بأن الاستخدام الاولمبي كان مأخوذا من إليوسيس • والسبب هـو ان كليهما قد رُدّا الآن بصورة منفردة الى اصلهمـا المشترك في طقس التلقين البدائي • ففي المكانين معا ، كان الايبوبتييون ، او سبـق ان كانوا ، شأنهم في ذلك شأن الكيروتيين في الاسطورة الكريتية ، الرجال الذين كانوا يشرفون على تلقين الآخرين ، بعد ان كانوا قد تلقنوا هم انفسهم • وفي اوليمبيا ، كان اختبار التلقين سباقا • وفي ايليوسيس ، كان قد اصبح مسرحية آلام تعرض فيها ازمة التغير على هيئة دراما مرعبة عن الروح في رحلتها عبر الموت الى الانقاذ •

أما ان اليونانيين انفسهم كانوا واعين بالمغزى الذي يقوم عليه هذا الاستخدام المزدوج لكلمة (ايوبتيز) ، فذلك واضح من مقطع آخر من (بلوتارخ) . الذي يشرح مرة اخرى المبدأ الصوفي بلغة سباق رياضي :

«يستفاد مما ذكره هيسيود . ان الارواح التي انقذت من الولادة والتي هي متحررة من الجسد من الآن فصاعدا ، كما كانت حرة ومبرأة تماما ، هي الارواح الحارسة للجنس البشري (دايمونيس ايبميلس) • والرياضيون الذين توقفوا عن التدريب بسبب السن لا يتخلون كلية عن اغتباطهم القديم بالسباقات الجسدية ، ولكنهم لا يزالون يتمتعون بمراقبة الآخرين في تمريناتهم ، اذ يركضون الى جانبهم ويهتفون لهم أمامهم • وهكذا ايضا ، لا يفقد أولئك الذين توقفوا عن سباقات الحياة وأصبحوا أرواحا (دايمونيس) بحكم حيويتهم، كل اهتماماتهم في شؤون الحياة الدنيوية والمناقشات والدراسات المتعلقة بها، وانما يبدون شعورا وديا وحماسا متعاطفا تجاه الآخرين المنهمكين في تدريب انفسهم للغرض ذاته ، منطلقين معهم ومطلقين عبارات التشجيع لهم حين يرونهم يقتربون وأخيرا يلمسون الهدف المؤمل» •

ومرة اخرى ، نحن نذكّر بما يقوله العهد الجديد :

اذن دعونا ايضا ، ونحن محاطون بحشد كبير جدا من الشهود ، ان تترك كل الاثقال، والخطيئة التي تحيق بنا بمنتهى السهولة ؛ ودعونا نركض بصبر في السباق المقام امامنا ،

متطلعين الى يسوع منشيء ومكمل ايماننا، الذي تحمل الصلب من اجل الفرح الذي وضع امامه . مزدريا العار ، وجلس الى يمين عرش الله .

ان حشد الشهود هو (الايبوبتاي) . وبقدر ما يتعلق الامر بذلك نجد (ممثلي الجامعات في المباريات الرياضية) ، وهم مزودون الآن بدراجات ؛ حيث لا يمكن ان يوجد شك في ان المزيد من البحث سيظهر ان تنظيم الجامعة المعاصرة ، من حيث العمل واللعب على حد سواء ، يعود في النهاية الى المصدر نفسه .

وكان الصنف الثالث هو (الأيوديموديا) . وواضح ان هذه المرتبة كانت لا تنال الا بعد الموت . والسبب في آن واحد هو ان اليونانيين اعتبروا اطلاق تلك الكلمة على السعادة الدنيوية تجديفا ، وأن الكلمة هنا مرتبطة ارتباطا واضحا بالدخول في صحبة الآلهة . ونحن تتذكر الامتيازات الإلهية التي كانت تضفى على المنتصر الاولمبي ، ونجد مرة أخرى ان المقايسة قد وضعت بشكل واع . ونجد هذه المرة افلاطون هو الذي يحتج ضد الفكرة القائلة ان مكافأة الرجل الصالح لها اية علاقة بالعربدة السيئة الصيت التي كانت تعقب الانتصار في الالعاب :

ان الشيء الاكثر جرأة هو النعم التي يحمل ماوسيوز وابنه الآلهة على اضفائها على الصالحين . انهما يدعيان بأنهما يأخذونهم الى الجحيم ؛ حيث يجلسانهم على الأرائك ويهيئان مأدبة القديسين ، وهناك ، ومع الرؤوس المتوجة ، يشربون طيلة الوقت ، كما لو كانت أبدية الشرب هي أعدل مكافأة للفضيلة .

لقد كان يسمى طقس التلقين (تيليتي) . اما مقدماته فقد كانت تسمى (بروتيليا) • وكانت ذات الكلمتين تستخدمان لوصف طقس الزواج • وقد كان الزواج يعتبر دائما طقسا سريا ، كما كان يعتبر طرفاه مُلَقَّنَين• وكان الملقن يوصف بأنه (تيليوز) . اي التام او الكامل . وكانت الكلمة ذاتها تطلق على أولئك الذين بلغوا مركز الزواج ، وكذلك على (زيوس) و(هيرا) بوصفهما راعيين للحياة الزوجية • وكلا هذين المعنيين مشتقان• والمعنى الاولي لـ (تيليوز) هو «تام النمو» او «ناضج» • وعلى ذلك فهما مشتقان من الزمن الذي كان فيه التلقين والزواج معا يقعان عند البلوغ •

وكان ما بين الصيغ التي تردد عند الزواج هي : «لقد فررت من الأسوأ ووجدت الافضل» • وكانت الصيغة ذاتها تستخدم في طقوس (آتيس) . التي وصلت الى اثينا من آسيا الصغرى في القرن الرابع قبل الميلاد • ونحن لم نُخبَر بأنها كانت تستخدم في (ايليوسيس) ، الا ان من الواضح انها مستندة الى فكرة «التخلص او الهرب من الشر» • وأهميتها في طقس الزواج مرتبطة على نحو واضح بالفكرة التي كانت تقول ان الزواج هو تدشين نصيب جديد او روح حارسة جديدة ، وهي الفكرة التي اشرنا اليها في فصل سابق (الفصل الثالث) • وفي الفصل ذاته ، اشرنا الى العرف الأتيكي المتعلق بالـ (ديوتيروبوتموس) ، اي الرجل الذي ، بعد ان حُزن عليه بوصفه ميتا ، أعيد قبوله في الجماعة بولادة تمثيلية ، أضفت عليه نصيبا ثانيا • والآن ، وفي لغة الطقوس السرية ، غالبا ما توحد كلمة (تيليوز) مع كلمة (هولوكليروس) ، التي لها ذات المغزى الطقسي تماما ، ولكنها تعني حرفيا «الممنوح حصة كاملة» ، حيث ان (كليروس) مرادفة لـ (مويرا) اي النصيب • وعلى ذلك، جاز لنا القول بأن وظيفة كل من طقس الزواج والقبول الى الطقوس السرية كانت في الاصل منح الصبي عند البلوغ نصيبا جديدا • لقد كان

الطفل يولد من جديد .

واذا وضعنا هذه الادلة معا . نستنتج بأن المعنى الذي يكون بـه الشخص الذي يطرق سبيل الطقوس السرية «قد جعل كاملا» هو انه قد منح نصيبا جديدا طيلة الحياة بعد الموت . وكما رأينا سابقا ، كان امل هذا الشخص نصيبا افضل . اي حصة او (مويرا) افضل . في العالـم الآخر . والفكرة ذاتها متضمنة في كلمة (ايودايسونيا) ، التي تستخدم لحالة السعادة الناجمة عن حيازة روح جيدة او صالحة بعد ان تكـون الروح قد انقذت من الفناء . وهكذا . يعيد المبدأ الطقسي السري طرح نسط التلقين القبلي في كل نقطة من نقاطه . وفي الوقت نفسه ، فقـد حمل النمط القديم بمعنى جديد كليا . وفي الطقوس ، كان الطقس الذي صمم كاستعداد للحياة قد حـوّل الى تحضير للموت . وهنا يكمـن جوهر جميع الديانات السرية . أما كيف اوجد هذا التغير العميق فـي نظرة الانسان الى العالم ، فتلك مسألة سنتفرغ لها بعد ان نكون قـد حاولنا اكتناه أسرار (دايانايسيس) .

مراجـع

Webster, H. Primitive Secret Societies. 2 ed. New York, 1932.
Harris, J.R. Boanerges. Cambridge, 1913.
Cornford, F.M. Harrison, J.E. Themis, Chapter VII.
Weniger, L. Das Hochfest des Zeus in Olympia. Klio, Vol. 5.

-٨-

دايانايسيس

تؤلف الاساطير اليونانية سلسلة لا متناهية ، يتداخل بعضها في بعض دون اعتبار يذكر للإله الخاص الذي يتفق ان تكون متعلقة به . والخيط الذي ينتظمها طقسي ، هو اقدم من الآلهة .

وكل من آلهة الباتيون او الهيكل اليوناني هو حصيلة تركيب غير محدود من العبادات المحلية ، التي لم تلد مفهوما موحدا الا بعد ان أدمج التركيب المتناهي الصغر للمجتمع القبلي في المراتب الواسعة للطبقات الاقتصادية . وحتى في ذلك الوقت ، كان هذا المفهوم يتفاوت من طبقة الى طبقة ومن منطقة الى منطقة . فالإلاهة (آرتيميس) الهوميرية هي صيادة عذراء لطيفة . ومع ذلك ، ففي (ايفيسوس) ، التي لا تبعد الا بضعة أميال عن (سميرنا) ، والتي هي من المراكز الرئيسية للمأثورة الهوميرية ، كانت الإلاهة نفسها تعبد أماً متعددة الأثداء ، ليست

مجسدة بعد على هيئة انسان تجسيدا كاملا • وكان الباتتيون الهوميري فعلا شيئا تجريديا ذا قيمة ضئيلة خارج دائرة طبقة حاكمة ضيقة ، وذلك حين بلغ شكله النهائي • وبعد اربعة قرون ؛ حين كان الاتصال التجاري قد أرسى الاساس لباتتيون جديد ، مصسم على النمط الهوميري وان كان مختلفا عنه ، يقف (ابولو) و(دايانايسيس) عند قطبين متعارضين، احدهما يدافع عن المثال الاعلى الارستوقراطي للكمال الساكن عن العامة ــ كما عبر عنها نيتشه ــ والآخر يدافع عن الحماسة الشعبية ، عن القداس الكبير • ولم يكن هذا التمييز يعود الا الى المرحلة الاخيرة من تطورهما ، وكانت المراحل السابقة لا تزال باقية في الطقوس • وفي (دلفي) ، كانت عبادة (ثياديس) المتسمة بالعربدة والقصف مكرسة الى (ابولو) و(دايانايسيس) ايضا • وكان (دايانايسيس) ، كما كان (ابولو)، موسيقيا ونبيا • وكانت المهرجانات الابولوية، كمهرجانات (لامبادافوريا) في (ثيبيس) ، ومهرجان (ستافيلودروميا) في (اسبارطة) ، دايانايسيسية في كل شيء الا اسمها • كما لم تكن صلات دايانايسيس مقصورة على ابولو • ففي كريت ، كان يوحَّد مع زيوس • وفي (ثريس) ، كان إلهـا للحرب مثل (آريس) • وفي اسطورة (أرجيف) ، عن بنات (بروينوس) ، كان الأثريون غير قادرين على الاتفاق على ما اذا كان دايانايسيس او هيرا ، هي التي دفعت النساء الى الجنون • وحيث تسمح لنا الادلة بدفع تحليلنا خطوة اخرى الى وراء ، يختفي هؤلاء الآلهة جميعا : ابولو ، دايانايسيس ، هيرا ، تاركين لنا طقس العشيرة الطوطمية التمثيلي • «في البدء كان الفعل» •

وعلى ذلك ، سنعكس في هذا الفصل الطريقة التي تبناها (فارنيل)، الذي درس فرق الديانة اليونانية بتصنيفها وفقا للآلهة ، ولن نتعقب الا شخصية دايانايسيس بقدر ما يستلزم ذلك النقاش • وبعد استئناف

سردنا للتلقين البدائي ومده الى أجزاء العالم التي لا يتواجد فيها الا في المهرجانات الموسمية للفلاحين المنزوعة عنهم سيماء القبيلة ، سنتعقبه داخل طقس الجمعية السرية اليونانية القديمة ، التي كانت دايانايسيسية بشكل رئيسي ولكن غير قصري .

لقد كانت جائزة الانتصار في اوليمبيا تاجا من الزيتون البري . وفي الماضي السابق للتاريخ . وحين كانت المباريات لا تزال اختبارات للتلقين ، أضفيت على هذا النبات الميزة السحرية لنقل جدة الحياة التي لم يكن ممكنا بدونها ان يولد الطفل مرة اخرى كرجل او امرأة . وكان المجتمع البشري قد أخصب نفسه بفعل بسيط من الاتصال الجسدي بخصب الطبيعة . وعلى العكس ، فقد كان ضروريا ان يتكاثر المجتمع البشري لكي تزداد الطبيعة وتتضاعف . وقد كان الاعتقادان متكاملين وفي النهاية متطابقين ، حيث كانا معا مدفوعين بادراك عميق للاعتماد المتبادل بين المجتمع البشري وبيئته المادية .

وطقوس التلقين في استراليا هي الطقوس الاكثر بدائية التي بقيت على قيد الحياة . ومع ذلك ، يبرهن تعقدها ذاته على انها حصيلة عملية تطور طويلة . وكما لاحظنا في المقدمة ، كان تطور هذه القبائل الاقتصادي قد اوقف ، الا ان مؤسساتها الاجتماعية استمرت في التطور في اتجاهات لا تزال تتمتع فيها بقيمة وظيفية . وعلى ذلك ، ينهض السؤال ما اذا كان ممكنا التغلغل الى ما وراء هذه الطقوس الاسترالية الى شكل من التلقين اكثر بدائية .

لقد رأينا ان فترة التجربة التي توسطت في القبائل الاكثر تقدما بين التلقين والزواج ليست عنصرا اصيلا ، وأن محتوى طقس الزواج يشير الى انه كان يوما موحدا مع التلقين . ومن هذا يمكن الاستنتاج بأن الجنسين في المرحلة الاقدم للمجتمع القبلي كانا يتزاوجان عند البلوغ ،

كما لا يزالان يفعلان ذلك في استراليا • وفي تلك المرحلة ، كان التلقين مجرد قبول الى الحياة الجنسية ـ الفعل الطقسي الاول للاتصال الجسدي • كما رأينا ان نظام القرابة التصنيفي يستند الى مبدأ يشير الى اتصال غير مقيد داخل كل جيل بين الرجال والنساء ممن ينتسبون الى جماعات اباعدية الزواج مختلفة • والى هذين الاعتبارين ، يمكننا ان نضيف اعتبارا ثالثا ، لفت الانتباه اليه (روبرتسن سميث) • فالمجتمعات الأكثر بدائية التي لنا معرفة مباشرة بها تعيش بمستوى اقتصادي منخفض جدا الى درجة يجنح معها الاتصال الجنسي الى ان يكون مقتصرا على ذلك الجزء من السنة الذي يكون فيه الطعام متوافرا بأكبر الكميات • واذا كان هذا التقييد يسري الآن ، فلا بد ان يكون قد سرى بشكل اقوى في اقدم المراحل جميعا : حين كانت القبيلة لا تزال في مجرى النمو من الجماعة المترحلة البدائية • وهذا يعني ان التلقين كان في الاصل احتفالا صيفيا سنويا لمجموعة من الاشخاص في سن واحدة ، محددة بشكل واضح وشاملة ، وتتألف من جميع أولئك الذين بلغوا تواً سن البلوغ من كلا الجنسين • وهكذا يُرَدّ طقس الموت واعادة الولادة البشريين الى شكل يكون فيه غير قابل للفصل عن موت واعادة ولادة الحياة النباتية • وقد سارت الحياة البشرية في تساوق مع الطبيعة • وخفقت النبضة ذاتها في الاثنتين •

ان هذا الجانب من التلقين ليس بارزا جدا في الطقوس الاسترالية، ولربما كان ذلك لان معرفتنا عنها مقصورة في الاغلب على الاوصاف الموضوعية للطقوس الفعلية • ولكنه يبرز بشكل واضح جدا في المهرجانات الربيعية للفلاحين الصينيين القدامى ، التي لها أهمية كبيرة لتفسير التقاليد الفلاحية في أجزاء اخرى من المعمورة • والوصف التالي مأخوذ عن (غرانيت) • ولهذا الوصف قيمة خاصة لاشارته الى موقف المشاركين الذاتي ، المستخلص من اغانيهم التقليدية •

كانت التلقينات ، لقرون طويلة ، يحتفل بها في الاجتماعات الريفية في ذات الوقت بوصفها حفلات زفاف لتدشين الموسم الجديد • ولا تزال كتب الطقوس المليئة بالمعرفة تتحدث عن مهرجانات الربيع حين «كانت البنات والشبان يمرحون بشكل محتشد» • ويضيف التفسير : «وتمنح سن البلوغ عندئذ الى الشبان ، ثم تؤخذ الزوجات» • ان الحياة لا يمكن ان تستيقظ الا بقوى الجنسين المشتركة • ولا يوقظ الربيع الا مهرجان للشبان •

لقد كانت التلقينات وحفلات الزفاف تتم تحت اشراف الجماعة كلها • وكانت الجماعة تعقد جلساتها في اماكن معزولة عن الاعمال البيتية والاستعمالات المدنسة • وفي منطلق بري غير مقيد وواسع ، كان الشبان والبنات ، المتحررون من قيود التقاليد ، يتعلمون الاتصال بالطبيعة • وكانت المياه تتدفق في السواقي التي حررها ذوبان الجليد • وكانت دفقات المياه التي حبسها الشتاء تنفجر من الينابيع التي جاءت مرة اخرى الى الحياة • وكانت الارض التي ذاب عنها الجليد تنفتح لتسمح للعشب بالظهور ، وقد سكنتها الحيوانات ، التي كانت تثب جميعا من مخابئها • وكان زمن الانعزال قد انتهى ، وجاء زمن التداخل الشامل• واستطاعت الارض والسماء ان تتناجيا، وكان قوس قزح علامة اتحادهما• واستطاعت الآن الجماعات المنغلقة ان تدخل في تحالف ، اي في اتحادات جنسية يقابل بعضها بعضا • وفي منطلق ارضي كان مكشوفا وجديدا في آن واحد ، وحيث كان أسلافهم قد لقنوا الحياة الاجتماعية والجنسية في وقت واحد منذ زمن لا تعيه الذاكرة ، كان الشباب يتزاوجون •••

وكان من بين اهم العاب مهرجانات الربيع عبور الانهار ، الذي كان

يقوم به الشبان وهم أنصاف عراة وقبل الزيجات في الحقـول بصورة مباشرة ٠ وكانت النساء ، وهن يرتجفن من الاتصال بالمياه القوية، يشعرن عندئذ بأنفسهن مخترقات كما لو كان ذلـــك بأرواح عائسة ٠ وكانت الينابيع المقدسة ، التي بقيت جافة فترة طويلة ٠ تستيقظ مجددا كما لو كانت عودة الربيع قد اطلقت اسار مياهها من سجن تحت الارض كان قد كبتها ٠٠٠ وبفعل عبور الانهار ، كان يحتفل بخلاصهن ، وكانت تتنزل الامطار على الارض ، وعلى المرء دفق الاخصاب ٠ وكان الصينيون لا يتوقفون اطلاقا عن الدعاء في ذات الوقت ، وبالطقوس ذاتها ٠ من اجل الولادات التي تغني عائلاتهم ، ومن اجل الامطار لتفتح البذور ٠ وكان يتم الحصول على الامطار وأعمال التناسخ اولا عن طريق الالعـــاب الجنسية ٠ الا ان الصينيين في النهاية اعتقدوا بأن للمياه طبيعة أنثوية، وبأن النساء وحدهن يستطعن الاحتفاظ بالصفة التي يمكن بها الحصول على المطر ٠ وبهذا الشكل ايضا ، تصوروا بأن العذارى يمكن ان يصبحن أمهات بمجرد الاتصال بالانهار المقدسة ٠ والحقيقة فقد كان ذلك هـو الوقت الذي كانت الولادات تحرز فيه ربحا خالصا للزوجات ، وحين كانت التناسخات الوحيدة هي المتعلقة بأسلاف الأم ٠٠٠

لقد كانت هذه المهرجانات تتألف من مبادلات في الافكار والعواطف، وحفلات عربدة وقصف ، وألعاب ٠٠٠ وأصبحت اللقاءات والاجتماعات والصيد مناسبات للتنافس في الرقص والغناء ٠ ويمكن ان نجد هـذا حتى الآن في عصرنـــا بين السكان المتخلفين من جنـــوب الصين ٠ ومهرجاناتهم الكبرى هي المهرجانات التي يقف فيها الصبيان والبنات من القرى المجاورة جنبا الى جنب يقطعون السرخس ، وهم يغنون اغانـــي مرتجلة ٠ ويعتمد على هذه المجاولات ازدهار السنـــة وسعادة الناس ٠ وبذات الشكل ، وفي المهرجانات القديمة في الصين ، كان الشباب الذين

يتجمعون للالعاب يعتقدون بأنهم يطيعون امرا من الطبيعة ، ويعملـون سوية معها . وتنسجم رقصاتهم وأغانيهم مع صيحات الطيور الباحثة عن اليف او زوج لها ، ومع تحليق الحشرات وهـي تتعقب بعضها بعضا . «يثب الجندُب الذي في المرعى والجندب الذي على التلة الصغيرة . والى اناكون قد رأيت سيدي ــ آه، كم يخفق قلبي الضَجِر ! ــ ولكن ما أن أراه ــ ما ان أتحد به ــ حتى يهدأ قلبي عندئذ» .

ان الاهمية الخاصة لهذا الشعر الفلاحي الصيني القديم تكمن فـي واقع انه في الوقت الذي يكون فيه اصله الطقسي على جانب كبير من الوضوح . فكذلك هي واضحة صلته بشعر (مدخل الطبيعة) في اوربا القرون الوسطى ــ اغاني الحب التي كان يكتبها الطلبة المتجولـون (الغوليارد) والمتشردون ، الكتبة الفقراء والاساتذة المترحلون ، والشعراء ــ المغنون الالمان (المينيسينغر) ، والشعراء ــ المغنـون والشعراء ــ الموسيقيون البروفانسيون (التروبادور) :

ها قد عادت أسراب الطيور الفرحة
وجاء الربيع الطلق ، وابتهج الشباب
حاملا أفراحا جديدة . لقد أصبح كل شيء اخضر زاهيا ،
حيث الشمس تخلد للسكينة .

أما أن هذه الاغاني هي الاخرى تجد اصلها في الطقوس الزراعية ، فتلك حقيقة مسلّم بها الآن بصورة عامة . والواقع ان الطقس نفسه لا يزال قائما في أشكال متداعية من مهرجانات الحصاد وأيار الاوربية . وهذا الطقس ذو اهمية لغرضنا الحالي ، لانني أعتقد بأنه يلقي ضوءاً على عناصر معينة في عبادة دايانايسيس . وبطبيعة الحال، فقد درسه (مانهارت)

و(فريزر) دراسة كاملة • ومبرري الوحيد لتناول المسألة هنا هو ان احدى سماته الرئيسية ــ فكرة الموت والنشور ــ لم تفسر تفسيرا كاملا •

وسأركز على المهرجانين ، اللذين يحتفل بهما في الربيع او في أوائل الصيف ، واللذين يسميان «طرد الموت» و«جلب الصيف» • وفي العديد من انحاء اوربا ، لا يمثل الا واحد من هذين العنصرين ، ولكنهما يوجدان في غيرها بصورة مجتمعة • وليس هناك من ريب في ان كليهما جزءان لا ينفصلان من احتفال واحد • وبعد خلاصة موجزة للعناصر الاساسية في كل منهما ، سألفت النظر الى بعض التفاصيل ، المأخوذة من أمثال خاصة ، توضح اهميتهما العامة •

ان دمية تسمى (الموت) يحملها الى خارج القرية فريق من الشبان او الشابات ، بينما يمتدحها او يلعنها او يرشقها بالحجارة المتفرجون • ثم تشنق الدمية على شجرة ، او تُحرق ، او تلقى في جدول ، او تمزق إربا في الحقول ، فيما يتدافع هذا الفريق للحصول على بقاياها • وتصنع الدمية دائما لتمثل كائنا بشريا ، وغالبا ما تُلبس ثياب نساء • وفي بعض الاحيان ، يؤدي دور الموت احد القرويين ، ثم يجري تظاهر بقتله• وحين يجري الاحتفالان في آن واحد ، فللفريق من هؤلاء الشبان والشابات ان يقضي الليلة كلها في الغابات ، وعندئذ يكون هناك عادة ترخيص جنسي• ثم يلي ذلك جلب الصيف • وتقطع الاغصان في الغابات ، او تُسقَط شجرة كاملة ، ويعود الفريق بهذه الى القرية ، ويطرق بيتا بيتا لجمع الطعام او النقود ، مباركا من يتبرعون ولاعنا من يرفضون التبرع • وتعقب هذا الجمع وليمة في العادة • وتعلق الاغصان في النهاية على الابواب او تنصب في حظائر المواشي او في الحقول ، حيث يعتقد انها تجلب النسل للنساء والمواشي والغلال • وغالبا ما تصحب الشجرة دمية تمثل شابا وفتاة ، او شاب او فتاة حقيقيان وقد تسربلا بأوراق الاشجار•

وتنصب في القرية كدوار ، تجري حوله الرقصات والسباقات والالعاب من مختلف الانواع ، حيث غالبا ما يُعلن الفائزان باعتبار احدهم ملك السنة او ملكتها • وفي بعض الاماكن ، يجري اخضاع ملك السنة السابقة لاختبار ما : او يعاني شنقا وهميا • والمشاركون في المهرجان هم عادة شباب القرية ـ الرجال او النساء او جميعهم • الا انه توجد نسبة عالية الى حد ما من الحالات التي تكون فيها الاحتفالات مكرسة للنساء •

وفي انحاء من (ترانسيلفانيا) ، يجري قطع شجرة صفصاف ، ثم تزين وتنصب في القرية • ويبصق عليها المسنون والمرضى قائلين : «انك ستموتين حالا ، ولكن دعينا نعيش» • وفي الصباح التالي ، يُحمل شاب متسربل بأوراق الاشجار ويدعى (جورج الاخضر) ، الى جدول وكأن من المقرر اغراقه ، الا ان دمية مصنوعة من الاغصان تلقى في النهر في اللحظة الاخيرة بدلا عنه • وفي (لوسيشيا العليا) ، تُلبس الدمية الحجاب الذي كانت ترتديه العروس الاخيرة وثوبا من البيت الذي وقعت فيه الوفاة الاخيرة • وفي بوهيميا ، تحرق الدمية من جانب الاطفال الذين يغنون اثناء احتراقها :

والآن نحمل الموت الى خارج القرية ،
والصيف الجديد الى داخل القرية •
مرحبا ، ايها الصيف العزيز ، ايتها الحبة الصغيرة الخضراء !

وفي (سباخيندروف) في (سيليسيا) ، يحمل الجمهور المتجمع الدمية الى احد الحقول ويقطعها إربا ، حيث يجاهد كل واحد ليضمن خصلة من القش المصنوعة منه • وتجلب الخصلات الى البيوت وتوضع في معالف

الدواب ، حيث يعتقد انها تجعل المواشي تنمو بقوة ٠

ويماثل من حيث الجوهر احتفالات الربيع هذه ، وان كان في العادة أقل تعقيدا ، عرف (ايار الحصاد) الفرنسي والالماني ٠ وذلك ان غصنا او شجرة ، وقد زينت بسنابل القمح ، تجلب الى البيت على آخر عربة من حقل الحصاد وتثبت على سقف بيت المزرعة ، حيث تظل هناك بقية السنة ٠

ان (فريزر) يفسر هذه المهرجانات على النحو التالي : الموت والصيف متماثلان حقا ، حيث هما جانبان مختلفان لروح الحياة النباتية التي تموت وتولد مرة اخرى عاما بعد عام ٠ وفي الاصل ، كانت روح الحياة النباتية مجسدة في شجرة ، الا انها اصبحت تدريجيا مجسدة على هيئة بشر ــ فقد كانت اولا دمية مزينة بالاوراق ومن ثم كائنا بشريا مزينا بالمثل ومرتبطا بفكرة الشجرة ٠ والشنق الوهمي الذي يعانيه الكائن البشري احيانا مأخوذ عن عرف سابق خاص بتقديم القرابين البشرية ، كان يقتل فيه الملك القديم فعلا على يد الملك الجديد ٠

اما التطابق الجوهري بين الشكلين ، فهو مسألة لا يمكن ان يرقى اليها شك ٠ ويبرهن عليه العديد من الاغاني التي تغنى في المناسبة ، وتظهره بشكل واضح بعض أشكال المهرجانات الروسية ٠ وفي (روسيا الصغرى) ، تتمدد فتاة اسمها (كوسترابونكو) كما لو كانت ميتة ٠ ويطوف حولها المتفجعون ويغنون :

ميتة ، ميتة هي (كوسترابونكو) نا ،
ميتة ، ميتة هي عزيزتنا !

وفجأة تثب الفتاة على قدميها ، ويفرح المتفجعون مغنين :

عائدة الى الحياة ، عائدة الى الحياة هي (كوسترابونكو) تا ،
عائدة الى الحياة هي عزيزتنا !

والى هنا ، اذن ، فان من المؤكد ان (فريزر) مصيب ، الا ان بقية تفسيره عرضة لاعتراضات جادة •

فأولا : ان التفسير مفرط التبسيط ولا ريب • والشجرة هي بلا شك عنصر بدائي ، يعود الى ماض سحيق • الا ان من المستحيل تقريبا، استنادا الى آسس عامة ، ان يكون شكل عبادة سابقة لعبادة التجسيد البشري قد احتفظ به فلاحو اوربا الحديثة دون ان يمسه شيء تقريبا ، مع تشعب الانتقال الى التجسيد تشعبا دقيقا جدا • كما لا يوجد اي مبرر مستقل للافتراض بأن الاشكال التي تستبدل فيها الشجرة بإنسان، شجرة هي أقل بداتية من الاخرى • واضافة الى هذا ، فان الشكلين مختلفان جدا ، وذلك في جوانب معينة ، وبالرغم من صلتهما التي يقومان عليها • فالصيف هو دائما شجرة او انسان ــ شجرة ، وقد ذكر بشكل معقول بأن الشجرة رمز قضيبي • وفي تلك الحالة ، يكون العنصران مختلفين ، ولا مبرر لاشتقاق احدهما من الآخر ، حيث ان الانسان ــ الشجرة حامل القضيب • ومن جهة اخرى ، فان الموت هو دائما تقريبا دمية ، لا ترتبط في معظم الحالات بشكل خاص بالاشجار اطلاقا ، بينما من الواضح انها في بعض الحالات بديل عن كائن بشري • ولا توجد حقا اية آسس للاعتقاد بأن الدمية هي شيء يعود الى ما قبل التجسيد البشري •

وأخيرا ، واستنادا الى ما قلناه في الفصل الاخير ، فمن التهور الافتراض بأن طقس الموت التمثيلي يفترض مسبقا مرحلة سابقة كان الموت فيها فعليا • وفي حالة غياب الادلة المستقلة ، فان الموت الوهمي ،

سواء أكان أسطوريا ام طقسيا ، يفسر تفسيرا مرضيا على اساس انه مأخوذ عن طقوس التلقين . التي يكون فيها الموت التمثيلي ، لا الموت الفعلي . عنصرا جوهريا . وذلك كما رأينا . وعلى ذلك ، لا ينبغي ان يكون شنق الملك القديم الوهمي اكثر من اثر مشوش لاختبار تلقيني منسي . ويصبح هذا التفسير ضروريا تقريبا عندما نجد ان الموت الوهمي غالبا ما يعقبه نشور وهمي . وقد سبق ان استشهدنا بمثال (كوسترابونكو) . وفي (سكسونيا) ، يعيد احد الاطباء الملك الى الحياة ، بعد ان يحكم على الملك بالموت . واستنادا الى فرضية (فريزر)، ينبغي ان تفسر هذه الصفة المميزة بأنها تضحية وهمية بديلة عن تضحية فعلية . الا ان الطبيب السحري يعود الى تقليد واسع الانتشار جدا ، ويمكن تعقب اساسه في الكوميديا اليونانية ومرة اخرى في دراما آوربا القرون الوسطى . ويبدو انه من الابسط الى حد كبير الافتراض بانه ليس اكثر من ذكرى شعبية للموت والنشور الوهميين الموروثين في طقس التلقين .

وعلى ذلك ، فإنني أطرح تفسيرا لهذه المهرجانات ، فيما هو ابسط وأكثر وضوحا ، فلربما كان من الراجح لذلك السبب اقرب الى الحقيقة. ففي بدء الربيع ، يخرج شبان وشابات الجماعة في موكب الى الغابات والمراعي . ورحيلهم مناسبة للحزن ، لان الشبان سيعودون رجالا ، ولأن البنات سيصبحن خادمات لا غير . وفي الغابة ، يحملون الاغصان التي قطعوها من الاشجار ، ويتوجون رؤوسهم بالاوراق . وبهذه الوسيلة يتسلون القوى المولّدة التي انتعشت توآ في الحقل والغابة ، وفي الليل يؤدون لاول مرة فعل الاتصال الجنسي . وفي الصباح التالي يعودون ، حاملين معهم شارات مركزهم الجديد . وتقام العاب وسباقات ومباريات قوة ، ويبجل الزوجان الفائزان كعروس وعريس في زواج السنة

المقدس • وينتهي المهرجان بتناول الطعام بصورة جماعية •

وعلى هذا ، ومن وجهة نظر واحدة ، فان الغرض هو تلقيح الجيل الناشيء بالاتصال مع أولى أزهار الربيع المثمرة • الا ان على المجتمع البشري في ذات الوقت ان يخصب نفسه من اجل تجديد خصب الطبيعة• وبالتالي ، يصبح هذا الجانب مهيمنا ، حيث يتغير تركيب المجتمع • ولا يزال الطقس يؤديه الشبان — اذ لا يزال مهرجان الشباب موضع حاجة اليه لايقاظ الربيع — الا ان اهمية دورهم الخاصة فيه ، ولاسيما طقوسهم في الموت والنشور ، لم تعد مفهومة • ويعاني احدهم موتـــا ونشورا تمثيليين ، او تقتل دمية بدلا عنه • وتصبح الدمية رمزاً لجوع ومرض الشتاء الذي مضى • وبالمثل ، فان الصفات التي تشبهوا بها بالاتصال مع الاغصان مقصورة على الاغصان ذاتها ، وبالتالي مركزة فـــي دُوار القرية • وهكذا ينحط المهرجان الى تسلية تقليدية ، او أنقاض عديمـة المعنى لطقس منسي •

وبطبيعة الحال ، يمكن اقتفاء اثر تقاليد جلب الصيف وأيار الحصاد، بشكل منحط بالمثل تقريبا ، بين الفلاحين اليونانيين ، القدامـــى والمحدثين • وفي (ساموس) ، اعتاد الاطفال في مهرجان أبولـــو ان يشحذوا من باب الى باب بأغنية هي بالضبط ذات النوع الذي لا يزال يغنى في اوربا الوسطى ، وكانوا يحملون الـ (ايريسيوني) — وهو غصن مزين بالصوف • ونحن نُخبر ايضا ان المزارعين في جميع انحاء اليونان اعتادوا تكريم (دايانايسيس) بنصب جذع شجرة في حقولهم • ومـن جهة اخرى ، كان الايريسيوني يحمل ايضا في احتفال (اسخوفوريـــا) الأثيني ، الذي كانت تعترف به الدولة رسميا وتديره عشيرة الفايتاليين• وكانت مواد الاحتفال الرئيسية سباقات للصبيان البالغين سن الثامنـة عشرة ، وموكبا يقوده شابان متنكران بزي امرأتين ، ووجبة طعـــام

جماعية • واضافة الى هذا ، ففي اليونان كما في ايطاليا وأماكن اخرى، اكتسب العنصر السلبي في الطقس البدائي ، المقابل لطرد الموت ، حيوية جديدة بوصفه طقسا لغفران عام • وهكذا ، ففي اليونان الآسيوية ، وفي زمن الوباء او المجاعة ، كان يقاد عبد او مجرم (فارماكوس) الى خارج المدينة • وبعد ان يعطى وجبة من جبن وتين وخبز شعير ، كان يساط على اعضائه التناسلية بأغصان من اشجار برية ، ويحرق حتى الموت على كومة من الخشب مقطوعة من اشجار برية ، ويلقى برماد جثته للرياح • وهنا تطور عنصر إماتة الشهوات بالتعذيب على أسس مستقلة، الا ان فكرة التجدد الاخلاقي تشكل بصورة واضحة اساس أسلوب جلده • ويقول (فريزر) : «لم يكن غير طبيعي تنشيط قواه المنتجة لكي تحوّل هذه بكامل نشاطه الى وارثه» • الا انه لا اثر لوارث في المثال الحالي • وقد نشطت قواه المنتجة من اجل استعادة العافية والوفرة •

لقد رأينا في الفصل الاخير ان التلقين كان سمة جوهرية في تكوين كل الجمعيات السحرية السرية • وقد رأينا الآن ان أصوله لا يمكن فصلها عن أصول الزراعة • ومهمتنا التالية ان نبحث في عبادة (ديانايسيس) ، التي كانت بصورة عامة في ايدي جمعيات سرية ، ومعنية بصورة عامة بالسحر الزراعي • وسأبدأ بأسطورة موت (بينثيوس) كما تعرض في مسرحية (يوربيديس) : (الباخوسييون) •

وجدير بالتذكر بأن (بينثيوس) ، في معاقبته على اضطهاده متعبدي (ديانايسيس) ، قد أغراه وقاده الى حتفه الإله نفسه • وهو ، بعد ان تملكته رغبة في رؤية الباخوسيين في طقوسهم السرية ، يتنكر ، بتوجيه الإله ، بملابس نساء ، ويقاد، وهو بهذه الملابس ، عبر شوارع (طيبه)، أضحوكة للناس • وحين يصلون الى غابة الصنوبر حيث يستريح الباخوسيئون قبل احتفالاتهم ، يطلب (بينثيوس) موقعا ممتازا يستطيع

ان يرى منه المشهد • ويلوي الإله احدى الاشجار ، ويضع (بينثيوس) على قمتها ، ثم يطلقها • ثم يختفي عندئذ الإله ، ويسمع صوت يدعو الباخوسيين الى معاقبة المسيء الذي انتهك حرمتهم • وإذ يلمحون (بينثيوس) على رأس الشجرة ، يرشقونه بالعصي والحجارة • وبعد ذلك، وبأمر من أمه (آغويي) ، التي كانت مع شقيقتيها (اينو) و(اوتونو) من بين المحتفلين ، يقطعون الشجرة من جذورها ويسقطونها ارضا • ويتوسل (بينثيوس) بأمه بأن تبقي على حياته ، الا انها ترفض حتى معرفته • «انها الكاهنة التي تدشن القتل» • وبقوة انسان فوق البشر ، تخلع احدى كتفيه • وتتحلق حوله النساء الاخريات • وتأخذ (اينو) مرفقا ، وتأخذ (اوثونو) القدمين • وفي النهاية ، تختطف (آغويي) الرأس ، وتُخَوزِقه على رمحها او عصاها المضفورة باللبلاب ، وتعدو راجعة بانتصارها الى المدينة ، حيث تضعه على سقف القصر • «لقد جلبنا اكليلا حديثا قطف من التلال الى القصر ، فريسة مملوءة بالنعم» • و(آغويي) هي المنتصرة ، لانها هي التي وجهت الضربة الاولى • وهي تعلن بأن متعبديها يهللون لها بوصفها «آغويي المباركة» ، وتدعو أباها الى ان يفرح بالابنة التي باركها الله ، ثم تدعو اقرباءها الى وليمة •

لقد فُسِّر موت (بينثيوس) منذ عدة سنوات من جانب (باثر) ، وهو يبحث في المصادر والمعطيات التي جمعها (مانهارت) و(فريزر)• وكما اشار هو ، فان الاسطورة قائمة على طقس ، والطقس المقامة عليه يعود الى ذات النمط الذي يقوم عليه تقليد «طرد الموت» وتقليد «جلب الصيف» ، والفرق الوحيد بينهما هو ان الدمية والدوار هنا يُستبدلان بضحية بشرية واحدة • والى تحليل (باثر) العميق ، الذي يجب ان يدرس تفصيلا ، أود ان اضيف بضع نقاط فقط تضع هؤلاء (الباخوسيين) على صلة أوثق مع ما قيل في الفصل الاخير المتعلق بالجمعيات السرية

والديانة السرية •

فهم في مستهل المسرحية ، وبعد ان وصلوا الى (طيبة) بعد رحلتهم من الشرق . يفتحون الدور الكورسي كما يلي :

من هناك ؟ من يقترب ؟ فليذهب من هنا ،
فليتركنا ، ولتسكن جميع الشفاه . لتسكت بصمت !
نحن سنمجد الآن دايانايسيس وفقا لتقليد قديم •

ثم يبدأون ترنيمة :

مباركون هم الذين يعيشون حياة نقية ، وتعلموا بفضل الله الاسرار ، وقد انضموا ، مقدسين نظيفين . فـي مجموعة مقدسة تجوب في التـلال بأقدام مسرعة ، مملـوءة بنفَس باخوس ••• ومع العصي المرفوعة عاليا في الهواء ، والرؤوس المتوجة جميعا باللبلاب ، يعبدونه ، يعبدون دايانايسيس •

وهم يقضون الليلة في الغابة ، وبعضهم يتمدد على جذوع اشجار الصنوبر ، والآخر يتوسد فراشا من اوراق البلوط • ويوصف مـوت (بينثيوس) بأنه كرب او محنة ، وذلك من وجهة نظره هو ، ومن وجهة نظر الباخوسيين معا • وهو يترك المدينة بحراسة الإله • وتعـود (آغويي) بموكب الظافر ، او العودة الظافرة ، وتحمل غنيمة النصر ، التي يتهلل بها بوصفها فرحا او سعادة روحية ، ويحتفل بانتصارها بوليمة •

وفي ضوء الفصل السابق ، تشرح هذه التفاصيل نفسها • ففي بدء الاحتفالات يحذر غير الملقنين بالابتعاد • اما مكافأة التلقين فهي فـرح

روحي ؛ وينام الملقّنون نومة التلقين متصلين بالاوراق التي تجـدد الحياة • وتسير البقية على ذات النمط الطقسي الذي سبق ان تقصينا أثره في طقوس ايليوسيس السرية وفي الالعاب الاولمبية •

وبطبيعة الحال ، لا يمكن الشك في ان موتا فعليا يكمن وراء أسطورة (بينثيوس) • فقد حوّل القربان المقدس الطوطمي للعشيرة البدائية من مجرد مناجاة سحرية الى ضحية دامية عند الجمعية السرية • وقد مُزّق (بينثيوس) إربا على يد الباخوسيين كتجسيد لدايانايسيس ، الذي مزقه الجبابرة إربا • او ، بالاحرى ، ان موت دايانايسيس كان إبرازا أسطوريا للموت الفعلي منعكسا في أسطورة (بينثيوس) • وفي أسطورة دايانايسيس ، يعقب الموت نشور • الا ان هذا العنصر ، في الطقس نفسه ، وبعد استبدال الضحية البشرية، أزيل بالضرورة، باستثناء مدى ما منح موت الضحية من جدة الحياة لجميع من كانوا على صلة بلحمه ودمه • وهذا بحد ذاته اشارة الى ان الضحية البشرية ليست عنصرا موروثا في طقوس من هذا النمط • وقد اتخذت تجسيدات (دايانايسيس) عدة أشكال في أجزاء مختلفة من اليونان • ففي (ماسيدونيا) ، كان التجسيد حية مزقت إربا ، وفي (كريت) ثورا ، وفي أنحاء اخرى خشفا • وفي (اوركومينوس) من (بويوتيا) ، التي لا تبعد سوى بضعة أميال من (طيبة) ، نُخبر «ان النساء اللواتي تملكن الجنون الباخوسي هاجمن اللبلاب ، حيث قطعنه اربا بأيديهن وابتلعنه» • وهذا ما نعرفه من (بلوتارخ) ، وهو مواطن من (بويوتيا) • ولهذا الاسباب ، فسوف نحجم عن الافتراض بأن هذا الطقس يستند بصورة عامة الى ضحية بشرية ، ولكننا سوف نعتبر ذلك العنصر ثانويا ، كان يظهر بصورة متقطعة ، ولاسيما في المجتمعات الثيوقراطية مثل المجتمع الذي لا بد ان كانت فيه (بويوتيا) في الفترة (الميسينية) ، عندما كان ملوك

(اوركومينوس) الكهنة من بين اقوى الملوك في اليونان •

ومن الغريب انه لم يتنبه الا قليلا جدا الى تحليل (باثر) لهـــــذه الاسطورة • اما (نيلسن) فهو يذكرها ، ومن الواضح انه كان متأثرا . لانه يبحثها عرضا في احد الهوامش • ولكنه يستنتج قائلا : «يبدو لي امرا جريئا البحث عن ممارسة عبادية وراء كل تفصيل من اية أسطورة . ولاسيما ما يشرح في الشعر» • وهذا التعليـــــق ليس مفيدا جدا • والسبب هو انه لما كان (نيلسن) يعترف بصحة أسلوب (باثر) العام ، الذي طبقه في الواقع هو نفسه على المشاكل الاخرى للاساطير اليونانية بنجاح كبير ، فان المعيار الوحيد في تحديد تطبيقه لا بد ان يكون قوة الادلة • وكما اشار (باثر) ، تروى القصة ذاتها بتفصيل كبير من جانب (نونوس) ، الذي كان ولا ريب مطلعا على مسرحيات (يوربيديس) • ولكن الروايتين ، بالرغم من كون العناصر الاساسية فيهما هي واحدة ، ليستا متطابقتين ، ولذلك فمن الممكن الافتراض بأنهما تستندان الـــى مأثورة مشتركة • وبطبيعة الحال انه صحيح ان (يوربيديس) و(نونوس) كانا شاعرين ، ولكن كذلك كان (هومير) و(هيسيود) و(فيريكايديس) و(ستيتيخورس) والكتاب الآخرون ، الذين ندين لهم ، بشكل مباشر او غيره ، بكل ما نعرف تقريبا عن الاساطير اليونانية • وكلما زاد المرء من دراسة الشعر اليوناني ، أدرك بشكل اوسع كم يختلف اختلافا عميقا عن شعر أوربا الغربية الحديث ، حيث تستقر جذوره استقرارا راسخا فـــي المأثورات الشعبية •

وننتقل الآن الى مراجعة الادلة الاخرى المتعلقة بجمعيات (داياناييسيس) هذه ، تلك الادلة التي وان كانت ناقصة ومشوشة ، الا انها تصبح اكثر وضوحا على الاقل استنادا الى الفرضية التي طرحناها •

لقد كان قطع اللبلاب في (اوركومينوس) يجري اثناء مهرجـــــان

(آغريونيا) ، ويسجل (بلوتارخ) تفاصيل اخرى عن المهرجان نفسه • فهو يقول : «في بلادنا ، وفي وليمة آغريونيا ، تبحث النساء عن دايانايسيس وكأنه قد لاذ بالفرار • ثم يتوقفن عن البحث ويقلن انه فر الى الموزيّات (*) وهو مختبيء معهن • وبعد برهة وجيزة ، وحيث ينتهي العشاء ، يسأل بعضهن الآخر ألغازا وأحجيات» • ثم : «في كل سنة ، في آغريونيا • تجري مطاردة النساء المسبيات بالأليّات بسيف من جانب كاهن دايانايسيس ، الذي اذا قبض على الاخيرة منهن ، سمح له بقتلها، كما كان يفعل الكاهن زويلوس على ما يذكره الاحياء» • وقد كتب هذا في القرن الاول من فترتنا • وفي المقطع ذاته ، يشير (بلوتارخ) الى اسطورة بنات (مينياس) ، ملك (اوركومينوس) • وقد كانت هؤلاء البنات ، اللواتي تملكتهن رغبة مجنونة في اللحم البشري ، يجرين قرعة، فمن تقع عليها القرعة تعطي ابنها ليمزق إربا • ومن الواضح اذن ان عادة التضحية البشرية في (اوركومينوس) لم تتواجد في العصور ما قبل التاريخية فحسب ، بل كان يجري إحياؤها احيانا طيلة الفترة التاريخية •

وفي (اوركومينوس) ، اذن ، كان الإله يهرب ، وكانت النساء يذهبن بحثا عنه • وهذا معناه انهن كن يعثرن عليه في النهاية ويعدن به الى بيته • وكانت النساء يمزقن ويبتلعن اللبلاب ، الذي يفترض انه كان الإله الذي كنّ قد استعدنه • كما كانت توجد مطاردة طقسية تقتل فيها احداهن • وسيصبح مغزى هذه السمة أوضح فيما بعد • الا ان من الواضح انه كان امتحانا تلقينيا • كما كان شأن سباق المشي الذي كان يجريه الدايانسيون في (اسبارطة) ، وفي العادة المتبعة في مدينة (آليا)

* الإلاهات التسع اللواتي يتولين شؤون الادب والفنون والعلوم (المترجم) •

في (اركاديا) ، كانت النساء يُجلدن في بداية مهرجان دايانايسيس «بذات الطريقة التي يجلد بها صبيان سبارطة البالغون الثامنة عشرة من أعمارهم » •

وتلقي ضوءاً آخر على هذه التفاصيل ، كما تكشف عن تفاصيل جديدة ، عدة اساطير محلية من المسلّم انها مستندة الى طقوس • وهي تشمل (هيرا) و(دايانايسيس) ايضا • ولكنها جميعا على درجة من التلاحم بحيث يكون من الافضل اعطاؤها بصورة كاملة قبل حل التفاصيل •

والاولى هي من (تاناغرا) في بويوتيا ، حيث رويت تفسيرا لعبادة (دايانايسيس) المحلية • فقد كانت النساء يذهبن ، قبل بدء الاحتفالات، الى البحر ليطهرن انفسهن ، وكان يهاجمهن اثناء سباحتهن إله البحر (ترايتين) • وكن يصرخن مستنجدات بدايانايسيس ، الذي تصارع مع (ترايتين) وانتصر عليه •

والثانية هي من (ناكسوس) • فقد هوجمت مربيات (دايانايسيس) على جبل (درايوس) في (ثيسالي) من جانب (بوتيس) الثراسي (الرجل ــ الثور) • وقد هربن الى البحر ، الا ان احداهن تدعى (كورونيس) قبض عليها (بوتيس) وفرّ بها ، حيث اخذها الى (ناكسوس) حيث ارغمها على ان تعايشه الى ان جنّنه (دايانايسيس) وأغرق نفسه في بئر• والتفصيل الاخير يعود للظهور في (آتيكا) ، حيث رحب بدايانايسيس (ايكاريوس) ، الذي قتل عندئذ ودفنت جثته تحت شجرة او ألقيت في بئر ، وفي (آرغوس) ، حيث ألقى الملك (بيرسيوس) بدايانايسيس نفسه في مستنقعات (ليرنا) • ونحن نتذكر ايضا ان الباخوستيين الثريسيين ، حين قطعوا (اورفيوس) إربا ، ألقوا برأسه في البحر •

والثالثة هي من (ثريس) ، وهي مسجلة في الالياذة • فقد كان

(ليكورغوس) ملكا على (الأيدونيين) وأحد ابناء (درایاس) (الانسان ــ شجرة البلوط) • وقـد طارد مربيات (دايانايسيس) ، اللائـي ألقين بعصيّهن على الارض وهربن ، وكان السفاح (ليكورغوس) يضربهـن بمهمازه وهن يهربن • وقد التجأ (دايانايسيس) نفسه ، الذي أرعبتـه صرخاته ، الى البحر ، حيث ضمتـه (ثيتيس) الى صدرها • امـا (ليكورغوس) فقد أعمته الآلهة ومات بعد ذلك فورا • والقصة يرويها ايضا (سوفوكليس) بشكل يدل على ان صراخ (ليكورغوس) كان يتألف من لعنات طقسية • وليس اكيدا ما اذا كان مهمازه هو مهمـاز ثور او فأس حرب • ولكن لما كان يوصف بانه «سفاح» او «قاتل» ، فقد كان من الارجح فأس حرب • وفي رواية اخرى ، انه بعد ان طارد دايانايسيس الى البحر ، سجن الباخوسيين (كما يفعل بينثيوس في يوريبايديس) ؛ الا انهم حرّروا بأعجوبة • وقد أصيب (ليكورغوس) بالجنون وقتل ابنه بضربة من فأسه ، ظانا انه كرمة • وبعد ان قطع جسده ، استعاد صوابه، ولكنه مُزّق إربا بعد فترة وجيزة على جبل (بانغايون) •

ان هروب النساء من (بوتيس) و(ليكورغوس) يتطابق بشكل واضح مع المطاردة الطقسية في احتفال (اغريونيا) في (اوركومينوس) ، ولكنه في الحالتين هروب الى البحر • وفي الاسطورة من (تاناغرا) ، تطهـر النساء انفسهن بالاستحمام في البحر ، بينما توحي اساطير (اورفيوس) و(ايكاريوس) ، ومصير (بوتيس) في (ثيسالي) و(دايانايسيس) نفسه في (آرغوس) ، بأن رأس الضحية او الدمية كان يلقى في الماء • وفي هذه الاساطير ، يتركز التأكيد على الطابع التطهيري للطقس ــ طرد الإله • الا ان اسطورة (بيرسيوس) ربما وجب ربطها بطقس فعلي معروف بأنه كان يمارس في (آرغوس) ، حيث استدعي الإله من مستنقع عديم القاع بنفخة من أبواق •

ان الغطس في الماء تطهير ، ولكنه تجديد للحياة ايضا • وعلى هذا النحو ، كان جلد المجرمين مصمما لا لمجرد طرد المرض والموت بـل لاستحداث الصحة والحياة ايضا • وعلى ذلك فمن المحتمل ان كان غطس هؤلاء النساء عابدات (دايانايسيس) ذا صلة بممارسة من ذات النـوع أعم • فقد اعتادت العرائس اليونانيات ان يستحممن في النهر او في ماء مجلوب من النهر • وكان هذا تطهيرا ايضا ، ولكنه كان يعتقد في الوقت نفسه بأنه يساعد على قدرة العرائس على الحمل • وتوصف ميـاه الاستحمام العرسي بصراحة بأنها «واهبة الحياة» • وتقف الفكرة ذاتها وراء الصيغة التي كانت عرائس (ترود) يرددنها حين كن يستحممن في نهر (سكاماندار) ـ «ياسكاماندار ، خذ ُبتـولتي !» • وهذا معناه انه كان يعتقد ، في اليونان كما في الصين في آن واحد ، بأن الفتاة كانت تحمل فعلا بالاتصال مع المياه الحية • وطالما كان الاتصال الجنسي جماعيا ويبدأ عند البلوغ ، فقد كان اساس الأبوة الفسيولوجي عديم الاهمية وغير ظاهر • ومن المؤكد ان هؤلاء الفتيات اللواتي ، بعد ان يستحممن في النهر ، يصبحن عرائس ، هن الاصول البشرية ما قبل التاريخيـة لحوريات الاساطير والمأثورات الشعبية اليونانية ـ «العرائس» اللائي يتزوجن الهة النهر ويحملن ابناءً أبطالا •

وهكذا ، فقد يكون استحمام النساء ، في عبادة (دايانايسيس) ، اما تلقينا او زواجا ، ولربما كان الاثنين • وكانت ملقنات الجمعيـات عرائس (دايانايسيس) •

ويتطابق آسر (كورونيس) على جبل (درايوس) في (ثيسالي) مـع آسر المرأة الاخيرة في (اركومينوس) ، الا ان الاسيرة في هذه الحالة لم تكن تقتل وانما يغتصبها آسرها • وكانت (كورونيس) مواطنة مـن (ناكسوس) ، حيث تظهر وهي احدى مربيات الإله في اسطورة ميلاده

المحلية • واضافة الى هذا ، فقد كانت (ناكسوس) ، على جبل (درايوس) آخر ، هي التي اختفى فيها (دايانايسيس) مع (آريادني) بعد سلبها من (ثيسيوس) • وهذا يوحي ، في بعض الحالات على الاقل ، بأن الغرض من المطاردة الطقسية كان اختيــار عروس الإله • ونحــن نعلم ان (دايانايسيس) كانت له عروس في اوليمبيا ، وكذلك في أثينا ، حيث كان يلتئم ، في بناية تسمى (بوكوليون) او حظيرة المواشي ، سنويا في زواج مقدس مع زوجة (Archon Basileus) ، الوارثة الكهنوتية للملــوك الأثينيين القدامى •

وكان لـ (آرغوس) ، كما لـ (اركومينوس) ، مهرجان يدعــى (أغرينونيا) ، الذي كان يكرس هناك لاحدى بنات (بروتيوس) • وكما لاحظ (باثير) ، تحمل بنات (بروتيوس) الثلاث هؤلاء شبها بارزا ببنات (ميناس) الثلاث • وحين اتى (دايانايسيس) الى (آرغــوس) ، رفضت النساء التلقين ، حيث أصابهن الجنون وقتلن الرضعاء على صدورهــن والتهمن لحومهم • وهامت بنات (برويتوس) مخبولات في جميع انحــاء (بيلوبينيز) ، يطاردهن كاهن (ميلاميوس) ، الذي كان مواطنا مــن (اوركومينوس) ، وأحد اقرباء (مينياس) • وقد ماتت احدى الاخوات اثناء المطاردة • اما الاخريان فقد طهرهمــا (ميلاميوس) ، حيث القيت النفايات في نهر (آنيغروس) ، وعندئذ استعادتا صوابهما •

وفي رواية اخرى للاسطورة نفسها ، لم يكن الإله الذي اساءت اليه بنات (برويتوس) هو (دايانايسيس) بل (هيرا) ، التــي يقال لنا انها حولتهن الى بقرات • وكما لاحظ (نيلسن) ، يبدو ان هذا يظهر انهن كن يشتركن بشيء ما مع (آيو) • وكانت (آيــو) كاهنة (هيرا) فــي (آرغوس) • وقد احبها (زيوس) ، حيث تحولت اثر هذا الحب الى بقرة وأرسلت الى الرعي في مراعي (ليرنا) تحت رقابة صارمة من راعي ثيران

يسمى (آرغوس) • وفي النهاية ، وبعد مطاردة طويلة ، اعادها (زيوس) الى شكلها وعقلها السليمين بلمسة من يده ، وباللمسة ذاتها حملت طفلا• ويستفاد مما ذكره (اسخيلوس) ، فقد جرى زواجهـــا من (زيوس) في مصر• الا ان هذه الرواية تكشف عن تأثير اسطورة (ايزيس) و(اوزيريس) المصرية • ويستفاد من الاساطير المحلية ان طفلها ولد في مكان لا يبعد كثيرا عن (يوبيا) ؛ جزيرة «الثيران الجميلة» •

ومن الواضح ان اسطورة (آيو) قائمة على زواج مقـــدس ، حيث كانت العروس كاهنة (هيرا) ، وكان العريس ، على ما يبدو ، كاهـــن (زيوس) متنكرا بشكل ثور • والسبب هو ، كما يذكر (كوك) ، ان راعي الثيران (آرغوس) هو (بانوبتس) ، او «الكلي الرؤية»، الذي كان الصفة التقليدية لـ (زيوس) والشـمس ، ويصفه (ابولودوروس) بأنه كان يرتدي جلد ثور • وأكثر من هذا ، توحي عينا (آرغوس) الحادتان ، وقرنا (آيو) الهلاليان ، بأن الزواج كان يعتبر ايضا زواجا بين الشمس والقمر كمـــا سبق ان رأينا في اوليمبيا • وأخيرا ، تدور اسطورة غامضة ، ولكنها على ما يبدو اسطورة قديمة من (آرجايف) ، على النحو التالي : كـــان راعٍ يسمى (هاليكمون) يرعى قطيعه على جبل (كوكيجيون) عندما صادف ان رأى (زيوس) وهو يحتضن (هيرا) • وقد دفعه المشهــــد الى الجنون ، وألقى بنفسه في نهر (كارمانور) ، الذي سمي فيما بعد بنهر (هاليكمون)• وفي وقت لاحق ، حين اغتصب زيوس (آيو) ، طارده ابوها (ايناخوس)، الذي ضربه من خلف ولعنه • وبسبب هذه الجريمة ، جُنّ (ايناخوس) وألقى بنفسه في نهر (هاليكمون) ، الذي اطلق عليه فيما بعد اســـم (ايناخوس) • ويبدو ، اذن ، ان زواج زيوس من (هيرا) او (آيو) كان متعلقا بشكل ما بمطاردة طقسية وبالغطس في النهر •

واذا كان الزواج المقدس الذي تقوم عليه اسطورة (آيو) قد اعتبر

زواجا بين الشمس والقمر ؛ فلنا ان تتأكد بأن هذا الجانب لم يكـــن الجانب الاصلي ، وانما كان انعكاسا عن اصلاحات تقويمية أدخلهـــا الكهانة بالمعرفة الفلكية المتقدمة • ويكمن وراء زواج الشمس والقمر هذا زواج بين ثور وبقرة • وماذا يعني هذا بالضبط ؟ انه يعني اولا ، كما بين (كوك) ، ان الطقس كان يتألف من رقصة كان يمثل فيها الكاهن والكاهنة ، وهما متنكران بشكل ملائم ، جماع القطيع • ولكن لماذا هما مثلا بهذا الشكل ؟ ان الجواب التقليدي عن هذا السؤال ــ انهما فعلا ذلك لان (زيوس) و(هيرا) كانا مرتبطين بالثور والبقرة على التوالي ــ لا يفسر شيئا ويقلب العلاقة الحقيقية بين الاسطورة والطقس • وقد كـــان (زيوس) و(هيرا) مرتبطين بالثور والبقرة لان ممثليهما الآدميين كانوا معتادين على التصرف بهذا الاسلوب • واذا كان الابوان في هذه الرقصة يتظاهران بأنهما ثور وبقرة ، فلا بد ان يكون السبب انهما كانا فـــي فترة أسبق ، ثورا وبقرة فعلا • وهذا قول صعب ، الا ان من الممكـــن تفسيره •

ان وراء عبادة (هيرا) في (آرغوس) تكمن عبادة بقرة مقدسة • ومن المحتمل ان (هيرا) التي رآها (هاليكمون) يحتضنها (زيوس) كانت فعلا بقرة في القطيع الذي كان يرعاه في ذلك الوقت ، اي احدى البقـــرات المقدسات ، التي كان يركبها الثور • ومهما يكن من امر ، لا بد ان تكون عبادة من هذا النوع مأخوذة في النهاية عن طقس لعشيرة طوطمية • وكانت كاهنات (هيرا) هؤلاء منحدرات من نساء عشيرة بقرية ، كانت قد اعربت عن شعورها بصلتها بالحيوان المقدس على شكل اعتقاد بـــأن أفرادها كانوا بقرات • وبهذه الصفة ، فقد كانوا يؤدون رقصة تقليدية يثنمون بها قطعانهم عن طريق السحر التشبيهي •

وحين نلتقي (هيرا) في بداية الادب المدون ، نراها لا تزال «ذات

وجه بقري» (بوبيس) ، ولها علاقات متبقية اخرى مع الحيوان المقدس • ولكنها اتخذت منذ فترة طويلة شكلا بشريا ، وبالتالي ، اكتسبت العديد من السمات المميزة الجديدة والمستقلة • وبطبيعة الحال ، ليس اصلها العشيري مثبتا بصورة مباشرة • ولكننا رأينا فعلا كيف تندمج العبادات العشيرية في العبادات القبلية ، حين يتفكك النظام القبلي • ويخبرنا (بلوتارخ) بأن منطقة (ميغارا) ، الى الشمال من (آرغوس) ، كان يسكنها، في العصور القديمة وحين كانت لا تزال بلاد مجتمعات قروية ، شعب كان يطلق على قسم منه اسم (الهيرائيون) ، الذي يعني شعب (هيرا) • وعلى ذلك ، يمكننا القول بأن افتراضنا ليس ضروريا فحسب لشرح الادلة الداخلية للاسطورة والطقس ، وانما منطبقا مع الاستنتاجات التي قادتنا اليها دراستنا للدين البدائي •

وبالامكان الآن تطبيق الاعتبارات ذاتها على منشأ (دايانايسيس) • فالجمعيات التي كنا ندرسها كانت مرتبطة بأشكال مختلفة بالكرم واللبلاب والتين والثور والماعز والحية والخشف (*) • ونحن نعلم من دلائل رسوم الزهريات ان اثنين من هذه على الاقل ، اللبلاب والخشف، كانا يستخدمان كإشارات طوطمية ، حيث كانا يرسمان كوشم على أذرع اعضاء الجمعية • واضافة الى هذا ، يخبرنا المؤلّف المعجمي (فوتيوس) بأن الفعل (Nebrizo) كان يعني بشكل خياري «يلبس جلد الخشف او يقطع ويزدرد الخشف ، تقليدا لحب دايانايسيس» • وقد كان هؤلاء الباخوسييون ، الذين كانوا يسزقون الخشف ويلتهمونه ، عشيرة في جلود خشف وتتميز بعلامة الخشف • وبكلمة اخرى كانوا خِشَفة ، وينتمون الى عشيرة خشفية • وصحيح انهم لم يكونوا عشيرة من اكثر

---

* الخشف : ولد الظبي •

الانواع بدائية ، وانما وحدة تؤلف جزءا من القبيلة ، الا انهم كانوا جمعية سرية ، تطورت . كما تطورت الجمعيات السرية لجميع الشعوب البدائية ، من العشيرة . واحتفظت بالعديد من وظائفها الطوطمية والسحرية ـ الاقتصادية والتلقينية •

ان احدى السمات البارزة في هذه الجمعيات هي ان عضويتها مقصورة على النساء ، باستثناء الكاهن الذي يرأسها • ونحن نسمع عن جمعية نسوية هي (ميلياستاي) في (اركاديا) ، وعن اخرى هي (دايانايستاي) في رودس ، ولكن ما من شيء يعرف عما حدث لهما • وفي (باتراي) ، الواقعة على الساحل الشمالي لبيلوبينيز ، كانت عبادة الإله بعهدة دائرة مقدسة تتالف من تسعة رجال وتسع نساء • وفي الاسطورة ، غالبا ما يقوم على خدمة (دايانايسيس) إلهة الغابات الى جانب الباخوسيين والمينادات ، الا ان ظهور آلهة الغابات في العبادة الفعلية مقصور على المهرجانات الدرامية ، وارتباطهم بدايانايسيس متأخر نسبيا • ويبدو ، اذن ، ان هذه العبادات الدايانايسيسية كانت في اولى الفترات مقصورة في معظمها على النساء • وهكذا بقيت في العديد من الحالات • وكانت (اوليياي) اوركومينوس من النساء ، وكذلك كانت (ثياديس) دلفي ، و(ديانيسيداسيس) اسبرطة ، و(ديسسيناي) تايجيتوز• وحتى عندما كانت الجمعية قد تحطمت واندمجت عبادتها في مهرجان شعبي ، فالظاهر ان الاحتفالات كانت تديرها بصورة رئيسية النساء • وهذه الاحتفالات يصفها (ديودوروس) ، الذي كتب في القرن الاول قبل الميلاد يقول : «بين عام وآخر ، وفي العديد من المدن اليونانية ، من عادة النساء ان يتجمعن في فرق لباخوس ، حيث تحمل الفتيات العصي ويعبدن الإله بصيحات مسعورة ومتسمة بنشوة روحية ، بينما تقدم النساء المتزوجات الاضاحي في جماعات ، وينغمرن في عربدات باخوسية،

وبصورة عامة يغنين ترنيمات لدايانايسيس تقليدا للينادات ، وزيراته القديسات» .

وبطبيعة الحال ، كانت توجد في العديد من المقاطعات اليونانية عبادات علنية لدايانايسيس ، لم يكن يستبعد منها الرجال اطلاقا . الا ان من الواضح ان واحدة من هذه على الاقل ، وهي العبادة الاوسع انتشارا ، كانت مقصورة في الازمان السابقة على النساء . وكان احتفال (لينايا) في أتيكا يقع في شهر (غاميليون) ، الذي كان يسمى سابقا (لينايون) ، بعد الاحتفال . ونحن نعلم من عبارات منقوشة انه كان يوجد شهر اسمه (لينايون) في تقاويم عدة مقاطعات آيونية : (سميرنا) ، (ايفيوس) ، (لاميساكوس) ، (ساموس) ، (ديلوس) و(كيزيكوس) . ومن هذا يمكن الاستنتاج ان (لينايا) كان احتفالا آيونياً قديما . ومن الواضح ان اسمه يرتبط بـ (ليناي) ، او «النساء المجنونات» ، المرادفة لـ (ميناديس) و(ثياديس) و(ديسميناي) ، وكلها اسماء مميزة للجمعيات الدايانيسيسية . وليس الاحتفال معروفا لدينا الا بالشكل الذي كان قد اتخذه في أتيكا القرن الخامس ، حيث كان دور الرجال فيه كبيرا كِبَر دور النساء على الاقل . وعلى ذلك ، من الواضح ان عبادة دايانايسيس في أتيكا كانت قد عُدِّلت اثر تغيرات في علاقات الجنسين . وسندرس طبيعة هذه التغيرات عندما نستأنف شرحنا للثورة الديموقراطية . ولكن علينا ، قبل ان ننتهي من موضوع دايانايسيس ، ان نكمل بحثنا في الديانات الصوفية .

مراجع

Mannhardt, W. Antike Wald - und Feldkulte. Berlin, 1877.

Granet, M. La civilisation Chinoise. Paris, 1929.

Bather, A.G. The Problem of the Bacchae. Journal of Hellenic Studies, Vol. 14.

-٩-

الاورفيوسية

لقد شرحت الاصلاحات الدينية التي أدخلها (بيسيستراتوس) في الفصل السابق على انها ليست الا جزءا لا يتجزأ من سياسته العامة • فمن اجل القضاء على امتيازات قدامى النبلاء السياسية ، كان عليه ان يضعف سيطرتهم على الدين ، الذي كانوا قد استخدموه أداة للهيمنة الطبقية • وقد حقق هذا الهدف بتقديمه تشجيعا ودعما رسميين الى ديانات تلك الفئات من الناس التي كان يمثل مصالحها ــ ولاسيما عبادة دايانايسيس • وهذا يعني بالطبع ان عبادات دايانايسيس كانت ذائعة او شعبية ، اي غير ارستوقراطية • وهذا افتراض تأكد الآن بدراسة لمضامينها • فقد كانت قديمة جدا ــ أقدم في الحقيقة من الإله الذي نسبت اليه ــ وكانت تتألف من شكل بدائي للسحر الزراعي • وكان طبيعيا ان تظل هذه العبادات حية بين الفلاحين ، الذين استمروا في

حرث الارض ، وليس بين الارستوقراطيين ، الذين كانوا قد انسحبوا من عمل المجتمع المنتج •

ولم يكن (بيسيستراتوس) اول حاكم مستبد ينتج سياسة من هذا النوع • فقد اكرم قبله بحوالـــي سبعين او ثمانين عاما (بيرياندروس) حاكم كورينث في بلاطه شاعرا هو (آريون) من مدينة (ميثيمنا) فـــي ليسبوس، حيث ابتدع تحت رعايته القصيدة(الداياثارمبية) او الحماسية، وهي شكل من القصيدة الغنائية الكورسية المكرسة لدايانايسيس • وبعد جيل واحد ، كان (كليسثينيس) ، حاكم (سيكون) المستبد ، قد حوّل الى دايانايسيس الجزء الرئيسي من عبادة كانت تعود سابقا الى بطـــل (ارجيفا) ، أدراستوس • وفي (سيكون) ، كانت توجد ، بالاضافة الى القبائل الدوريانية الثلاث ، قبيلة رابعة ، تألفت من عناصر سابقة للعهد الدورياني كانت قد أخضعت زمن الفتح الدورياني • وكانت هـــذه القبيلة هي التي استمد منها الحاكم المستبد دعمه الرئيسي • وواضح، على ذلك ، ان كليسثينيس ، بإحلالـــه دايانايسيس بدلاً من بطـــل الارستوقراطية الدوريانية الارجيفي ، كان مدفوعا بذات الدوافع التي حركت بيسيستراتوس •

وفي ظل الحكم الاستبدادي ، جلبت عبادة دايانايسيس الى المدينة، وجرى بالتالي تحويل طابعها الزراعي • وكان المهرجان الأثيني الجديـــد لمدينة (دايانيسيا) تتاج الثورة المدينية ، التي اكتسب بها عددا مـــن الصفات الخاصة التي تميزه بشكل حاد من أصوله النهائية في الريـــف الأتيكي • وسيكون من اللازم دراسة هذه الصفات المميزة بدقة ، الا ان من الضروري اولا البحث بدقة اكثر في الجانب الديني للثورة المدينية •

ففي القرن السادس قبل الميلاد ، نشرت عبادة دايانايسية جديدة ، يمكن وصفها للسهولة بالاورفيوسية ، بحماس تبشيري ، ليس علـــى

الجزء الداخلي من البلاد وفي الجزر فحسب ، وانما ايضا في المستعمرات الواقعة وراء البحر الادرياتيكي • وقبل ان تتساءل عما كانت عليه هذه العبادة وعن سبب انتشارها بصورة واسعة ، فلننظر في الجهة التي اتت منها والطريق الذي سلكته •

ان قصة (آريون) يرويها (هيرودوتس) • فبعد قضاء وقت طويل في بلاط بيرياندروس في كورينث ، هاجر الى الغرب ، حيث كسب كمية كبيرة من المال • وإذ كان يرغب في العودة الى كورينث ، فقد استأجر سفينة كورينثية وأبحر من (تاراس) في جنوب ايطاليا • وأثناء هـــذه الرحلة ، تآمر البحارة على قتله وسرقة نقوده • واكتشف آريون المؤامرة وتوسل اليهم ان يُبقوا على حياته ، الا انهم أجابوا بأن عليه ان يختار بين قتل نفسه فورا ، وفي هذه الحالة سيدفنونه على الساحـل ، وبين القفز من السفينة الى البحر • وأخيرا ، واذ كانوا تائقين الى سمـاع مغنٍّ له مثل هذه السمعة ، فقد اقتنعوا بالسماح له بأن يغني اغنية اخيرة واحدة • وتناول آريون قيثارته ، وهو يرتدي لباسه الطقسي ، وغنـى اغنيته ، ثم قفز بعد ذلك الى البحر ، حيث حُمل على ظهر دلفين سالما الى الشاطيء في (رأس تينارون) •

ان هذا ليس تاريخا وانما أسطورة • وديايانايسيس نفسه يصور في رسوم الزهريات في تلك الفترة وهو يمخر البحر على متن سفينة تحرسها دلفينات • وكان (اورفيوس) ايضا مغنيا شهيرا سحرت موسيقـــاه الحيوانات البرية • وكما رأينا في الفصل السابق ، فقد قفز ديايانايسيس نفسه الى البحر ، وألقي برأس أورفيوس في البحر بعد ان مزقـــه الباخوسيون إربا • وكان (رأس تينارون) ، حيث عاد آريون للظهور بعد ان قيل انه قد مات ، احد مداخل (هاديس) او الجحيم ، وهناك كـان اورفيوس قد نزل الى العالم السفلي •

ومع ذلك فلصياغة القصة مغزى تاريخي ، بالرغم من طابعها الاسطوري • فالمعروف ان كورينث كانت المدينة الاولى على القسم البري من البلاد التي تقيم حكما استبداديا ، وكانت مركزا تجاريا بين البحر الايجي والغرب • كما لا يوجد اي مبرر للشك في ان القصيدة الحماسية قد ادخلها شاعر من ليسبوس ، حيث من المحتمل ان الحاكم (بيتاكوس) كان معاصرا للحاكم (بيرياندروس) • وأكثر من هذا ، فان ليسبوس هي التي قيل ان رأس اورفيوس قد اخرج فيها من جانب البحر ؛ حيث يذكر لنا ان الرأس نفسه كان محفوظا هناك بوصفه تذكارا مقدسا • وكانت مدينة (ميثيمنا) في ليسبوس ، وهي مسقط رأس آريون ، هي التي قيل ان بعض الصيادين فيها قد سحبوا بشباكهم قناعا من خشب الزيون يمثل رأس دايانايسيس • والاستنتاج الذي يشير اليه هذا الدليل هو ان الانبعاث الدايانايسي نشأ في (ثريس) ، حيث نقل من هناك عن طريق التجارة عبر بحر ايجه الى كورينث ، وهكذا الى ايطاليا وصقليا •

ان الاصل الثريسي لهذا الانبعاث امر يكاد الشك لا يتطرق اليه • فقد كانت ثريس دائما مركزا للعبادة الدايانايسية • وقد فسر (كريتشمير) اسم دايانايسيس بأنه المرادف الثريسي ــ الفريجي لـ (Dios Kouros) وأسطورة اورفيوس واقعة بشكل قاطع في الريف المحيط بجبل (بانغايون) في ثريس • وكان جبل (بانغايون) هو الذي لقي عليه حتفهما كل من (اورفيوس) و(ليكورغوس) ، ملك الايدونيين الاسطوري • وقد كانت لهذا الجبل روابط اخرى اكثر دنيوية • وكان بالمثل مشهورا بمناجم الذهب والفضة ، التي كانت في هذه الفترة أغنى المصادر المتوافرة لليونانيين •

وقد سبق ان استقر الاورفيوسيون في أثينا فيعهد (بيسيستراتوس)،

الذي تمتع برعايته زعيمهم (اونوماكريتوس) ، مؤلف كتاب يسمى (التلقينات) • وقد ادخلت القصيدة الحماسية اثناء الفترة نفسها على يد (لاسوس) من (هيرميوني) ، وهي بلدة في (آرغوس) كان سكانها من اصل سابق للعهد الدورياني • وكما رأينا ، كانت القصيدة الحماسية معروفة منذ فترة طويلة في كورينث • ولما كانت الدراما الاتيكية الاولى تحمل آثار التأثير البيلوبينيسي ، فسن المحتمل ان تكون الاورفيوسية قد وصلت الى اثينا من الجهة ذاتها • الا ان طريقا آخر ، وأقصر ، كان مفتوحا امامها •

ان علاقة البيسيستراتوسيين بصناعة التعدين قد أوضحها (اوري) في دراسته عن الحكم الاستبدادي • ففي مجرى صراعه مع ميغاكليس وليكورغوس ، كان بيسيستراتوس قد نظم (الجبليين) ، الذين كانوا عمال مناجم لوريون ، حيث كانت المناجم يشغلها في هذه الفترة عمال احرار بالدرجة الاولى ، وكان قد جعل نفسه حاكما مطلقا بدعم منهم • وكما رأينا ، فقد طرد مرتين على يد خصومه قبل ان ينجح في توطيد مركزه . وقضى فترة نفيه الثاني بجمع التبرعات في جبل (بانغايون) في ثريس • وبعد اعادته الثانية ، انطلق ، على حد تعبير هيرودوتس ، «الى ترسيخ حكمه الاستبدادي بأعداد كبيرة من المرتزقة وبموارد نقدية جمع بعضها من البلاد ذاتها والآخر من نهر سترايمون» ، الذي يجري تحت جبل (بانغايون) عبر منطقة المناجم •

لقد كان سكان مناطق المناجم في جميع انحاء العالم خليطين دائما، لأن العمال المحليين لا يكفون لسد متطلبات صناعة تستلزم عددا كبيرا جدا من الايدي • ونحن نعلم ان سكان لوريون كانوا خليطا في القرن الخامس ، ويمكننا الافتراض بأنهم كانوا كذلك في القرن السادس • كما نعلم انه كان يوجد ، في عهد (هيباركوس) ، عدد كبير من اليونانيين بين

سكان مناجم سترايمون ، الذين كان بينهم ولا ريب عمال مناجم أتيكيون من لوريون • ولما كان البيسيستراتوسييون على علاقة وثيقة جدا مع كلا المركزين ، فلا بد ان هجرة عمالية قد حدثت في كلا الاتجاهين • وأخيرا. لم يكن جبل (بانغايون) والمنطقة المجاورة فقط مهد الاورفيوسية، وانما كانت توجد ، ليس بعيدا عن لوريون ، وفي قلب منطقة المناجم الاتيكية ، قرية السيماخيين ، التي كان يوجد فيها ضريح لدايانايسيس، يسمى (سيماخيون) ، وأسطورة محلية عن مجيء الإله • هنا ، اذن ، كان يوجد ممر يؤدي بصورة مستقيمة الى اثينا من ثريس • ووفقا لذلك ، يمكننا الاستنتاج بأن هذا كان على الاقل واحدا من السبل التي دخلت الحركة الاورفيوسية بها أتيكا •

اذن ، يبدو ان الارفيوسية نقلت الى اتيكا ، كما كانت قد نقلت الى كورينث والغرب ، في أعقاب الصناعة والتجارة • انها كانت من نتائج الثورة المدينية • واذا كان الامر كذلك ، فلا بد ان نكون قادرين على التعرف فيها على نمط الديانة التي كانت هذه الظروف الاجتماعية ستنتجها بطبيعة الحال • ولكن علينا ، قبل ان ندرس محتوى الاورفيوسية ، ان نرى ما اذا كان ممكنا قول اي شيء آخر عن وضع الطبقة العاملة في اتيكا القرن السادس •

ان من المتفق عليه انه حتى هذه الفترة ، كان السكان الارقاء قليلين • وفي ظل اقتصاد زراعي ، كان الطلب على العمال محدودا ، باستثناء فترات حاسمة قليلة من السنة ، كالحصاد ، حيث كان يُسَدّ باستخدام عمال أحرار مؤقتين • الا ان الطلب اصبح ، بنمو التجارة ، مستمرا وغير محدود تقريبا ، وبصورة رئيسية للنقل وقلع الصخور والمناجم • وفي القرن الخامس ، كان الأرقاء كثيرين ورخيصين • ولكن في القرن السادس ، وقبل ان تكشف الشرق الحروب الفارسية ، كان

الفلاحون مصدر العمل الرئيسي ، وذلك في اتيكا على الاقل • وفي هذه الفترة . كان عمال مناجم لوريون رجالا ، كما كانوا ولا شك من النساء والاطفال ، ممن طردوا من الارض • ولهذه الاسباب ، مـــن الراجح ان تكون الحركة الاورفيوسية قد عكست وجهة نظـر فلاحين معدمين • والآن ، فقد سبق ان عرفنا شيئا عن وجهة نظر الفلاح مـــن شعر هيسيود . ولذلك نستطيع ان نبدأ بحثنا في التعاليم الاورفيوسية بمقارنة تفسيرها لاصل العالم مع وجهة النظر المشروحة في اصل الآلهة وتحدرهم الهيسيودي •

ووفقا لما يراه هيسيود ، في البدء كان (الفراغ)• ثم نشأت (الارض)، و(الحب) • ومن (الفراغ) ولد (ايريبوس) (اي المكان المظلم تحت الارض الذي كان الموتى يمرون عبره قبل دخولهم هاديس ــ المترجم)، و(الليل)• ثم أنجب (الليل) كلا من (إيثير) و(النهار) • وولدت (الارض) (السماء)، التي ولدت بدورها (الاوقيانوس) و(ريا) و(كرونـــوس) و(الجبابرة) • وآطاح (كرونوس) بأبيه (السماء) ، ثم أطيح به على يد ابنه (زيوس) • ووفقا لما يراه الاورفيوسيون ، كان في البدء (الوقت) • ثم نشأ (ايثير) و(الفراغ) ، ومنهما صاغ (الوقت) بيضة فضية ، ولد منها (فانيس) ، او (الحب) • وأبوّة (زيوس) هي ذاتها كما وردت عند هيسيود ، ولكنه بعد ان اتى الى السلطة ، يبتلع (فانيس) ، وهكذا يتوحد معه • وعن طريق (بيرسيفونا) ، يصبح والد دايانايسيس ، الذي وصفنا موته على يـــد الجبابرة في فصل سابق (الفصل السابع) • وحين أحرق الجبابـــرة بالصاعقة ، كانوا لا يزالون يتضرجون بدم دايانايسيس ، ومن هذا المزيج من الدم ورماد الجثث المحروقة يولد الجنس البشري • وهذا هو السبب في ان طبيعة الانسان صالحة في جزء منها وسيئة في الجزء الآخر • انها منقسمة على نفسها •

الوقت . البيضة ، ابتلاع فانيس ، حب دايانايسيس وأصل الجنس البشري – كل هذه أفكار جديدة اورفيوسية . حيث تُخبر ان الاخيرة ابتكرها (اونوماكريتوس) : صنيعة بيسيستراتوس في اثينا . ومع ذلك، بالرغم من هذه الافكار الجديدة الهامة ، من الواضح ان الاورفيين كانوا يعتمدون على الاسطورة الهيسيودية . وفي نظر هوميروس ، لم يكن هؤلاء مدينين بأي شيء تقريبا ، الا ان دينهم لهسيود كان عميقا . وهذا يكفي بذاته للتدليل بأي اتجاه يجب البحث عن أصول الحركة .

وفي القصائد الهوميرية . تعني كلمة (Dike) طريقا ، عرفا ، شيئا ملائما ، وفي مقاطع قليلة : حكماً . وعند هيسيود ، تستعمل الكلمة للتعبير عن فكرة العدل المطلقة ، التي تجسد على شكل إلاهة تجلس الى اليد اليمنى لزيوس وتخبره عن شر النبلاء الذين يصدرون أحكاما ملتوية . واستخدام الكلمة الهيسيودي امتداد للاستخدام الهوميري . الا انه امتداد حققه الفلاحون ، الذين طوروا التجريد ، بالرغم من انهم كانوا مضطهَدين، لانهم كانوا بحاجة اليه. وفي الكتابات الاورفيوسية، تعود (دايكي) للظهور الى جانب عرش زيوس . كما تظهر في شعر (سولون) ، الذي قاده موقفه الاصلاحي من الفلاحين الى الاتصال مع المرتبة ذاتها في تطور الفكر .

وأخيرا ، يمثل مفهوم (الحب) الاورفيوسي ، المشتق من هيسيود كما رأينا ، مبدأ كان ينطوي على تحدٍ مباشر للفكر الارستقراطي . وفي نظر النبلاء ، كان الحب شيئا خطرا ، لانه ينطوي على الرغبة ، الطموح، الاستياء . وكما رأينا في ما تناولناه عن (اناكسيماندر) ، كان اتجاه الفكر الارستوقراطي نحو التقسيم ، اي فصل الاشياء . وفي نظر الاورفيوسيين ، كان الحب شيئا يجب احترامه ، لانه ينطوي على اعادة توحيد ما كان قد مزّق ، واستعادة ما كان قد أضيع . وفي فلسفة

(إيميدوكليس) : وهو اورفيوسي من الغرب ، ان الحب هو الذي يجمع شمل العالم ، والنزاع هو الذي يرغمه على التشتت . وان العالم أفضل حين يتغلب الحب على النزاع • وقد كان اتجاه الفكر الشعبي هو نحو الاتحـــاد •

لقد كان جوهر الاورفيوسية يكمن في تعاليمها الصوفية ؛ التـــي كانت جزءا من ارثها من السحر الزراعي لدايانايسيس • وقد سبق ان بحثنا الاصول الزراعية للديانة الصوفيـــة في الحديث عن طقـــــوس ايليوسيس السرية • اما الشيء الذي يجب ان تتناوله الآن فهو الطابع الخاص للتصوف الاورفيوسي • وهو مسألة صعبة ، والسبب هو انه ما ان رسخت الحركة الاورفيوسية في اثينا حتـــــى أقيمت بينها وبين ايليوسيس صلة وثيقة • وبسبب تشابههما الاساسي ، فقد أثرت كـــل منهما في الاخرى الى حد لا يكون بالمستطاع دائما معه التفريق بين الاثنين •

لقد تمتعت عبادة ايليوسيس برعاية الدولة الرسمية • وبعـــد ان ربطت بالنظام القائم ربطا محكما ، فقد أدت دور أداة أمكن لتطلعـــات المجتمع الطبقي المحبطة ان تجد خلالها تعبيرا عن طريق منافذ أبعدتها عن الادراك الواعي لاسبابها • ومن جهة اخرى ، كان الاورفيوسيـــــون منظمين في وحدات صغيرة ومشتتـــــة ، مستندة الى الجمعيـــــات الدايانايسيسية ، حيث كانت موحدة بروابط شخصية ، وكانت صوفيتهم بالتالي اكثر شخصانية • وإذ لم يكونوا خاضعين لاشراف الدولة ، فقد طوّروا على نحو أكمل وأكثر تناسقا الوظيفة الاساسية للديانة الباطنية او الصوفية ، التي ، كما رأينا ، هي نبذ الحياة باستثناء ما يمكن جعلها استعدادا للموت •

ان الحياة كفارة ، او عقوبة ذاتية ، يكفّر بها الانسان عن خطيئـــة

الجبابرة . والجزء الخالد من الانسان مغلف في الجزء الفاني ؛ والروح سجينة في الجسد . ان الجسد قبر الروح . ونحن عبيد الآلهة الذين سيطلقون سراحنا ، متى شاؤوا ذلك ، من سجن الحياة . والحياة بأجمعها تدريب على الموت ؛ ذلك ان الروح تستطيع خلال الموت وحده ان تأمل في الهروب من سجنها ، ان تتخلص من شرور الجسد . ان الحياة موت والموت حياة . وبعد الموت ؛ تمثل الروح للحساب . واذا كانت قد أفسدت نفسها افسادا عميقا باحتكاكها بالجسد بحيث يكون معه علاج الخطيئة امرا مستحيلا ، اودعت الى عذاب أبدي في سجن الجحيم . واذا كانت الخطيئة قابلة للمعالجة ، طُهِّرت الروح وعوقبت ، ثم ترسل ثانية الى الارض لتجدد كفارتها . وحين تكون قد عاشت ثلاث حيوات غير ملوثة بالجسد ، فهي تحرر الى الابد وتذهب لتنضم الى فريق المباركين السماويين .

هذا هو المبدأ الاورفيوسي الخاص بالروح كما نجده عند افلاطون. ولا بد ان يكون قد استغرق شيئا من الوقت ليحقق صياغة قاطعة كهذه الصياغة . وقد كان في القرن السادس لا يزال بدائيا ولا ريب . الا ان خطا واضحا واحدا يمتد خلاله ــ اي الفكرة القائلة ان الانسان بالنسبة للإله ، والجسد بالنسبة للروح ، هما كنسبة العبد لسيده ــ وكما يقول افلاطون ، ان الروح هي بحق الحاكم والسيد ، والجسد هو محكومها وعبدها . وقد كان هذا الفصل في الطبيعة البشرية ، الذي اصبح عبر (بارمينيديس) وأفلاطون اساس الفلسفة المثالية ، شيئا جديدا في الفكر اليوناني . وكانت الروح في نظر علماء (ميليتوس) ، كما في نظر الرؤساء الاكيين والمتوحشين البدائيين ، هي مجرد الشيء الذي تتنفس وتتحرك ونعيش بواسطته . وبالرغم من ان تمييزا واضحا لم يتم بين المادة الحية وغير الحية ، وذلك بسبب فهم قوانين الحركة فهما

ناقصا ، الا ان اساس هذا المفهوم مادي في جوهره • وتوصف عوالـم علم الكون الميليسي بأنها آلهة لانها تتحرك ، ولكنها مع ذلك مادية • ولا يوجد في اي جزء من الفلسفة الميليسية ، ولا في القصائد الهوميرية ، اي شيء يطابق هذا المفهوم الاورفيوسي عن الروح بوصفها مختلفـة نوعيا عن الجسد ، احدهما نقي والآخر فاسد ، فيما الاول إلهي والاخر ارضي • ولا تصبح ثورة اساسية كهذه في الوعي الانساني واضحة الا عندما تـُردّ الى تغير عميق بالمِثل في تركيب المجتمع البشري • اما ما كان عليه هذا التغير فتكشف عنه كشفا واضحا الرمزية التي شُرح فيها المبـدأ •

وفي فصل سابق ، أرجعنا فكرة (القسمة) الى المبدأ القائل ان جميع أفراد المجتمع يحق لهم نصيب متساوٍ في نتاج عملهم الجماعي • وفـي الفترة التي بلغناها الآن ، حيث يجري اكتساح آخر بقايا المجتمع القبلي بسرعة ؛ ينشأ الى جانب (القسمة) شكل (آنانكا) الاورفيوسـي ، او (الحاجة) • وفي الادب ، تظهر (آنانكا) بشكل مدون لاول مرة فـي كتابـات (هيراكليتوس) و(بارمينيديس) ، وكلاهما كانا متأثريـن بالاورفيوسية • ويقرن هيراكليتوس الشكلين بوصفهما متطابقين فعلا • اما بارمينيديس فهو يعطي ذات الصفات الى (القسمة) ، و(دايكـي) و(آنانكا) • وبعد قرن ؛ وفي (الجمهورية) لأفلاطون ، تغتصب آنانكـا مكان القسمة ، بل حتى انها تتزود بمغزلها • وما هو مغزى آنانكا ؟•

في الادب اليوناني كله ، من هوميروس فصاعدا ، ترتبط فكـرة آنانكا (الحاجة) وفكرة (دوليا) اي العبودية ارتباطا وثيقا ، حيث تستخدم الاولى عادة للتعبير عن كل من حالة العبودية بحد ذاتها والاعمال الشاقة والعذابات التي يخضع لها الارقاء • وكان منظر الارقاء ، وهم موثوقون للنقل او المحراثة تحت السياط ، يوحي بصورة قطيع من الثيران • ووفقا

لذلك : نجد ان الـ (زيغون) او «النير» ، هو الاستعارة او المجاز الذي يرتبط تقليديا مع كل من (دوليا) و(آنانكا) • وفي احدى الصور للعالم السفلي الاورفيوسي ، نرى (سيسيفوس) يدفع صخرته الى اعلى التل ، بينما تقف فوق رأسه ، والسوط في يدها ، آنانكا ، سائقـــة العبيد • وتمثل آنانكا المبدأ القائل ان جميع أفراد المجتمع العاملين محرومون من اي نصيب في منتوج عملهم يزيد عن الحد الادنى الضروري لابقائهـم عاملين • وحين اصبحت (القسمة) آنانكا ، فقد حولت الى نقيضها •

ومن بين الصيغ التي تعلمها الاورفيوسيون لتلاوتها بعد ان تكون الروح قد غادرت الجسد ، هي : «لقـــد فررت من دولاب الحـــزن والشقاء» • ومن الواضح ان هذا الدولاب ، الذي يوصف اوصافـــا مختلفة كدولاب الولادة ، ودولاب المصير، ودولاب الحاجة ، منحدر عن دورة الولادة والموت الطوطمية • الا ان المفهوم البدائي قد أسبغ عليه معنى جديدا ، معبرا عنه برمز معاصر • وقد كان الدولاب أداة عامـــة للتعذيب استخدمت لتأديب الارقاء • وكان الضحية يوثق الى الدولاب يدا وقدما ، ثم يدوّر الدولاب • اذن ، كان الفرار من دولاب الولادة هو اطلاق سراح الانسان ، تخليصه ، العثور على متنفس ، من تعاسات الحياة الفانية • ومبدأ الخلاص هذا من العمل او من الشر ، الذي سبق ان وجدناه عند ايليوسيس ، محمل الآن بتلميح الى واقع قاس •

أما وقد حددنا اصل الرمزية الاورفيوسية ، فان علينا ان نحاذر من اي استنتاج متسرع بصدد تركيب الحركة الاجتماعي • ففي مجـــرى تاريخها الطويل ، تغلغلت الاورفيوسية في جميع طبقات المجتمع ، مؤثرة في الديموقراطيين من أمثال يوريبيديس ، وفي الارستوقراطيين مـــن أمثال افلاطون ، وفي البورجوازيين المحترمين من أمثال بلوتارخ • وحين تجاوزت دولة المدينة اليونانية ذروة تطورها ، وكانت الديانة الصوفيـــة

تغترف حيوية جديدة من انتشار المثالية ، والتشاؤم واليأس الاجتماعي، عبّر أناس من جميع الطبقات عن شعورهم بالانقسام بلغة الانقسام الآخذ بالتعمق في المجتمع • ولا يوجد بالتالي اي مبرر للافتراض بأن الحركة الاورفيوسية ، حتى في اولى مراحلها ، كانت حركة أرقاء • وفي الوقت نفسه ، يؤكد الطابع المميز للرمزية الاورفيوسية الاستنتاج الذي كنا نجنح اليه . وهو ان الحركة استقت الهامها الاول من آلام الفلاحين ، الذين طردوا من اراضيهم واستعبدوا او دفعوا الى الصناعة بالثورة المدينية • والدليل الاوضح في هذه المسألة هو تاريخ المسيحية الاول•

فمنذ اعتناق الامبراطور (قسطنطين) لها ، كانت المسيحية ، في شكلها الرسمي ، متميزة عن البدع الثورية : دينا للطبقة الحاكمة • ومع ذلك ، فكما كان شأن الاورفيوسية ، بدأت بين العمال ، وهي تحتفظ حتى اليوم بسيماء اصلها المتواضع • ونحن لا نزال نغني في (ترنيمة التمجيد) ، ناسين مضامينها الاجتماعية ، : «الجياع الذين ملأهم بأشياء جيدة ، والاغنياء الذين طردهم خاويي الوفاض» • ونحن لا نزال نتمسك بمبدأ الافتداء ، الذي كان يعني اصلا فعل العبد في شراء حريته • ولا نزال نركع امام الصليب ، الذي كان يوما ما ، كما كان الدولاب الاورفيوسي ، رمز واقع معاصر •

وبهذا الشرط ، فلننظر ما اذا كان ممكنا تكوين اية فكرة عما كانت عليه الحياة في مناجم (تريس) و(لوريون) • ان الادلة المباشرة معدومة• وفي نهاية القرن الثاني قبل الميلاد ، عندما وجدت ثورة فاشلة ، بلغ عدد الارقاء المستخدمين في المناجم الاتيكية ، كما قيل لنا ، عشرات الالوف• وفي عام ٤١٣ ق•م ، وخلال الحرب البيلوبونيسية ، هرب عشرون الفا من العبيد الاتيكيين الى الاسبارطيين ، ولربما كانت نسبة كبيرة من هؤلاء عمال مناجم • وفي ظل الحكم الاستبدادي ، وقبل ذلك بقرن

واحد ، كان عدد المستخدمين في المناجم اصغر ولا ريب • وأما عن الظروف التي كانوا يعملون فيها ، فكل ما هو معروف هو ما نستطيع استنتاجه من الوصف الذي اعطاه (ديودوروس) في القرن الاول قبل الميلاد للظروف في مناجم الذهب والفضة في مصر واسبانيا • والادلة ، وان كانت غير مباشرة ، ليست بعيدة جدا كما تبدو لاول وهلة • والسبب هو انه من الواضح ان العمال الفعليين العاملين في استخراج الخام من الصخور ، وهو ذلك الجزء من العملية الذي يهمنا ، في المناجم المصرية والاسبانية ، كانوا كليا غير ماهرين ، وبالتالي فليس من الراجح ان يكونوا قد تغيروا •

«توجد على حدود مصر ، وفي مناطق شبه الجزيرة العربية المجاورة واثيوبيا ، عدة مناجم ذهب كبيرة تستغل على نطاق واسع مقابل ثمن باهظ من التعاسة والمال• ان الصخرة سوداء، ولها شقوق وعروق مرمرية بيضاء متألقة الى درجة تكسف معها كل شيء • وهذا هو المكان الذي يهيأ فيه الذهب من جانب المشرفين على المناجم بأعداد ضخمة من العمال • والى هذه المناجم ، يرسل الملوك المصريون المجرمين المحكوم عليهم ، والمأسورين في الحرب ، وكذلك أولئك الذين ذهبوا ضحايا اتهامات زائفة او سجنوا لحلول السخط الملكي عليهم، وأحيانا مع جميع أقربائهم ــ وذلك عقابا على جريرتهم وللارباح الناجمة عن عملهم معا ــ وهناك يتكدسون ، وكلهم مكبلون بالسلاسل ، وكلهم يبقون يعملون باستمرار ليلا ونهارا • وليس هناك راحة او وسيلة للهرب• والسبب هو انهم لما كانوا يتحدثون بلغات مختلفة ، فان حراسهم لا يمكن ان تفسدهم

مباحثات ودية او اعمال معروف طارئـــــة . وحيث تكون الصخرة التي تحمل الذهب صلدة جدا ، فهي تحـــرق اولا بالنار ، وحين تكون قد جعلت ناعمة بشكل يكفـــي لتذعن لجهودهم، يرسل آلاف بعد آلاف من هؤلاء البؤساء المنكودين للعمل عليها بقاطعات صخر حديد تحت اشراف الحرفي الذي يفحص الصخرة ويعلمهم بالمكان الذي يجب ان يبدأوا فيه . ويقوم اقوى هؤلاء المكلفين بهذا العمل المشؤوم بنحت المرمرة بشاقب من حديد . وليس في ذلك اية مهـــارة ، وانما قوة فقط . ولا تقطع مهاوي المنجم بخط مستقيم وانما تتبع عروق الحجر المتألق . وحين يحجب ضوء النهار بالتواءات المنجـم ومنعطفاته . يلبسون مصابيح مشدودة الى جباههم . وهناك ، وبعد ان يلووا آجسامهم لتتلاءم مع محيطات الصخور ، يرمون الكِسَر المقتلعة الى القاع ، ويستمرون في العمـــل المضني دون استراحة . تحت سوط المراقب القاسي . ويهبط صبيان صغار المهاوي الى أعماق الارض ، جامعين بعناء الاحجار وهي تلقى الى أسفل ، وحاملين اياها الى الخارج عند رأس المهوى او المدخل ، حيث يأخذها منهم رجال يتجاوزون الثلاثين مــن أعمارهم ، يتسلم كل منهم كمية محددة ، ويكسرونهـــا على هواوين حجرية بمدقات حديد الى قطع صغيرة الحجم كالبيقة. ثم تسلم الى نساء والى رجال اكبر سنا ، يضعونها على صفوف من المسنّات ، وإذ يقفون في مجموعات تتألف كل منها من اثنين وثلاثة ، يسحقونها حتى يحيلوها الى مسحوق يشابه في نعومته افضل طحين قمح . وما من احد يستطيع ان ينظر الى فقر هؤلاء البؤساء ، وهم بلا حتى خـــرق تستر عوراتهم ،

ومحرومون من الاحساس بالشفقة عليهم لمحنتهم. وقد يكونون مرضى ، او مشوهين ، او مسنين ، او نساء ضعيفات ، ولكن لا تساهل ولا راحة . ويجري الابقاء عليهم في اعمالهم جميعا بالسوط ، الى ان يموتوا ، وقد انهكتهم المشاق ، في عذاباتهم . وتعاستهم على درجة من الشدة بحيث يفزعون معها مما سيأتي اكثر حتى من الحاضر . ان العقوبات قاسية جدا ، وهم يرحبون بالموت باعتباره شيئا يتوقون اليه اكثر من الحياة » .

وليس من حق مواطني امبراطورية (*) لا تزال تستخدم الصغار في المناجم والمصانع ان يشيروا بإصبع اتهام الى الروماني . ولكن من الضروري ان تتذكر الدماء والدموع التي أريقت على مواد الفن اليوناني الخام .

ووصف المناجم الاسبانية يلقي بالمثل ضوءاً كاشفا :

ان العمال في هذه المناجم ينتجون أرباحا للمالكين لا تصدق . ولكنهم ينفقون حياتهم تحت الارض في المقالع حيث تبلى أجسادهم ليلا ونهارا . والعديد منهم يموت ، وآلامه كبيرة جدا . وليس هناك من تخفيف عنهم ولا راحة من أعمالهم . والمشاق التي يرغمهم سوط المراقب على الاذعان لها على درجة من القسوة بحيث يتخلون معها عن الحياة لان الموت يبدو مفضلا عليها ، وذلك باستثناء قلة منهم تمكنهم قوة

---

* يقصد بذلك المؤلف (الامبراطورية البريطانية التي كانت قائمة يوم نشر هذا الكتاب لاول مرة في عام ١٩٤١) . (المترجم)

أجسادهم وشجاعة أرواحهم من الاحتمال مدة طويلة •

وفي هذا المقطع ، انزلق (ديودروس) ، دون ادراك على ما يبدو ، الى أسلوب التعبير التقليدي الاورفيوسي •

وما من ريب في ان هذه هي حقائق الواقع التـــي الهست الخيالات التي يقوم عليها العدد الكبير جدا من القصص الاخلاقيـــــة القصيرة والحكايات الخرافية الاورفيوسية عن هذه الحياة وعن الحياة القادمة ــ الكهف الافلاطوني ، الذي تقيد فيه أيدي الناس وأقدامهم من الطفولة والذي لم يروا فيه ضوء النهار ابدا ، او طوبوغرافيا (الجحيم) ، بما فيها من سيول مياه تحت الارض وأوحال ونيران وكبريت ، او المناطـــــق العليا ، الواقعة تحت سماء صافية ، حيث تسكن أرواح الصالحين :

«أولئك الذين قضي بأنهم عاشوا حياة نقاء بارز ، هؤلاء هم المحررون والمنقذون من المناطق الواقعة تحت الارض وكما لو كان ذلك من سجن ، وهم يرفعون ليعيشوا علـــى سطح الارض ، بينما يتمتع ، أولئك الذين طهروا نفسهم بشكل كاف باتباع الحكمة ، بالحياة الابدية ، متحررين كليا من الجسد ، في اجمل الاراضي جميعا ، حيث من الصعب وصفها حتى لو اتسع الوقت لذلك • ولهذه الاسباب ، ايها السيميون ، علينا ان نبذل كل ما نستطيع لنبلغ الفضيلة والحكمة اثناء حياتنا • ان الجائزة ضخمة والامل كبير» •

ان افلاطون لم يكن عامل منجم ــ بل أبعد ما يكون عنه ــ ، الا انه كان يعتمد على احدى الخرافات القديمة • ومن المؤكد ان المناجـــم

هي التي اعتقد فيها الناس لاول مرة بأن الحياة هي دار سجن وبأن الجسد هو قبر الروح .

وفي الطقوس : يبدو ان الاورفيوسيين قد احتفظوا بتقاليد الجمعية الدايانايسيسية . ومن المحتمل . وان لم يكن من المؤكد تماما ، ان يكون القربان المقدس الحيواني قد استمر بشكل معدّل ، حيث فُسِّر بأنه وسيلة لاعادة توحيد الروح المنفية مع اصلها الإلهي . وكان القبول لا يزال عن طريق التلقين من النمط الذي سبق وصفه . الا ان سلم الدرجات الاورفيوسي ربما كان أقل إحكاما وتفصيلا من السلم الايليوسي . ومن جهة اخرى ، لم تكن الجمعيات الاورفيوسية مقصورة على النساء . ولم يكن الرجال يقبلون مجانا فحسب ، ولكنهم ، في أتيكا على الاقل ، كانوا يشجعون على البقاء عزّابا ، هذا اذا استطعنا التوصل اليه من مسرحية (هيبوليتوس) ليوربيديس . ومن المحتمل ان يكون الاورفيوسيون قد تأثروا في هذا الامر بالتقاليد المحلية . التي كانت تتفاوت الى درجة كبيرة في دويلات مختلفة . الا ان اسطورة (اورفيوس) نفسه ، الذي يقال انه جلب على نفسه عداء الباخوسيين بتلقينه زمرة من الرجال المسلحين ، توحي بأن قبول الرجال كان إبتكارا او بدعة سابقة وجديرة بالتذكر .

وبقدر ما نستطيع ان نحكم ، لم تكن الاورفيوسية ، حتى في ايامها الاولى ، حركة ثورية . فهي لم تَسعَ وراء تغيير العالم ، وإنما للهروب منه . وهي بهذا الصدد ، شأنها في ذلك شأن الحركة اللوثرية في المانيا القرن السادس عشر ، كانت تعكس عجز طبقة فلاحية مقطوعة الجذور عن تنظيم نفسها تنظيما فعالا . انها كانت تعبر عن احتجاج عميق ، ولكنها لم تطرح اية مطالب ، وهكذا عملت على تحويل ضغط الحاجات المادية بوعود غيبية .

ولتقدير فجاجة الثيوغونيا (*) الاورفيوسيـــة ، ما علينا الا ان نقارنها مع النظرية العلمية التي كان يضعها في الفترة ذاتها فلاسفـــة (ميليتوس) • ومع ذلك . فمن الخطأ الاستنتاج بأن الحركة الاورفيوسية كانت خطوة متقهقرة في تطور الفكر اليوناني •

فأولا . كان طابع الاورفيوسية البدائي يعود كليا الى اصلهـــا الطبقي • فقد ارتفعت الطبقة الحاكمة في آيونيا الى مستوى عالٍ جدا، ولكن ذلك لم يكن الا لانها الطبقة الحاكمة • وقد عاشت على الارباح، اما الآخرون فقد دفعوا الثمن • والى هذا ؛ ينبغي التذكـر بأن العلماء والفلاسفة لم يكونوا الا جزءاً من تلك الطبقة • وفي (ميليتوس) نفسها، قلب حركة التنوير الآيونية ، كانت عشيرة البرانخيين الكهنوتية ، التي مارست عبادتها لأبولو نفوذا سياسيا لم تكن اقوى منه الا عبادة ابولو الآخر في (دلفي) ، تدين بسلطتها الى مداورتها البارعة في المكاشفات الغيبية او الاجوبة الإلهية • وكان هؤلاء النبلاء الميليسيون قد تخلوا عن الخرافات في حياتهم الخاصة ؛ ولكن لم يكن هناك سبيل الى التخلـي عنها كأداة للسياسة العامة • وعند البرانخيين ، كانت الاجوبة الإلهيـه تلقى من جانب كاهنة في حالة غيبوبة يسببها استنشاق غازات مائية •

وثانيا ، وكما سبق ان لاحظنا ، وجه الاورفيوسيون تحديا الـــى قانون الاخلاق الارستوقراطية المتمتع بقداسة القِدم • الامـل خطر ، والحب خطر ، وخطر هو الكفاح بإفراط ، وخطرة هي مضاهاة الآلهة • التزم بالاعتدال في كل شيء ، وابق قانعا بما تملك • لقد حـــرر الاورفيوسيون الناس من أكاذيب التهيّب والتخويف هذه • وما كان بستطاعهم ان يبقوا قانعين بما كان لديهم لانهم لم يملكوا شيئا ، وكانت

---

* بحث اصل الآلهة وتحدرهم (المترجم) .

آمالهم غير محدودة كما كانت عليه رغباتهم • لقد كانت الحياة كلهـــا كفاحا وصراعا • ولو خاض الانسان السباق بشجاعة لا غير ، فما من احد كان حقيرا او ذليلا ، ولكنه قد يفوز بجائزة المجد ويصبح إلها • وفي كل هذا ، كشف الاورفيوسيون ـ بشكل معكوس ، صوفي ـ الامكانات الموضوعية للحركة الديموقراطية • وقد بقي على الشعب ، الذي أوقظ من سباته ، أن يترجم صوفيتهم الى عمل •

-١٠-

الديترامب أو القصيدة الحماسية

اندرس الآن طقس مدينة دايانيسيا ، الـــذي أسسه او أعـــاد تأسيسه بيسيستراتوس . والشكل الذي نعرفه فيه لا يعود الا الى القرن الخامس ، وقد أعيد تنظيمه في نهاية القرن السادس . وعلى ذلك فان قدم عناصر معينة منه امر غير مؤكد . الا ان هذا لا يمثل بالنسبـــة لغرضنا صعوبة ما ، ذلك انه في الطقس تميل حتى الافكار الجديدة الى التطابق مع نمط قائم مسبقا .

لقد كان يحتفل بالمهرجـــان في نهاية آذار ، اي في شهـــر (ايلافيبوليون) ، وهو بداية الربيع ، حيث كان البحر يهدأ بعد العواصف الشتائية ، وحين كان التجار والزوار من انحاء اليونان الاخرى يبدأون بالظهور في الشوارع . وكان يستمر خمسة ايام على الاقـــل ، وربما ستة . وسيعنى هذا الفصل بصورة رئيسية باليوم الاول .

في اليوم الاول . كان ينقل تمثال (دايانيسوس ايليوثيريوس) من المعبد الذي حفظ فيه طوال السنة ويحمل الى خارج المدينة الى ضريح بالقرب من الاكاديميا على الطريق الى (ايليوثيراي) ، وهي قرية على الحدود بين اتيكا وبويوتيا . وذهبت القصة الى ان التمثال كان يعود اصلا الى ايليوثيراي ، حيث نقل من هناك الى اثينا ، وان هذا الجزء من المهرجان كان تخليدا لذلك الحدث . وكان يحرس التمثال الصبيان الذين بلغوا الثامنة عشرة من أعمارهم . وهم يسيرون مرتدين دروعهم ، وكان يتبعهم موكب أخاذ ، يضم حيوانات لتقديمها أضاحي ، وبنات غير متزوجات يحملن على رؤوسهن سلالا تحتوي أدوات قربانية ، وعامة الناس . رجالا ونساء ، مواطنين وأجانب . وقد لبسوا حللا زاهية ، حيث كان الاغنياء منهم يركبون عربات ، والعديد منهم يلبس تيجانا او اقنعة. وفي منطقة السوق . كان الموكب يتوقف ، بينما كانت تؤدى اغنية عند تماثيل الآلهة الاثني عشر . ثم كان الموكب يتابع سيره الى الاكاديميا . وكان يوضع التمثال على مذبح منخفض ، وتنشد الترانيم تمجيدا للإله ، وتنحر الحيوانات . وكان البارز بين هذه الحيوانات ثورا مقدما نيابة عن الدولة ويوصف في نقش رسمي بأنه «جدير بالإله» . والتفاصيل بهذا الشأن غير متوافرة ، ولكن اذا اتبع الاجراء الاعتيادي ، كان الحيوان يذبح ، ويشوى ويقطع الى (حصص) ، توزع بعدئذ بين ممثلي الدولة الرسميين . وكانت توجد عدة قرابين اخرى اضافة الى الثور . وكان بعضها مقدما من الدولة ايضا ، والاخرى نيابة عن المنظمات المدينية والمواطنين العاديين . كما كان يزوّد المحتفلون بالنبيذ، وبعد انتهاء الوليمة ، كانوا يستلقون على فرُش من اوراق اللبلاب على الرصيف ، وهم يشربون ويمرحون . وعند حلول الليل ، كان الموكب يعود الى المدينة بالمشاعل . الا ان تمثال دايانايسيس ، بدلا من ان يعاد

الى معبده . كان يصحبه الفتيان الى المسرح ويوضع على مذبح وسط الاوركسترا ، حيث كان يبقى حتى نهاية المهرجان .

ولا يوجد مبرر للشك في الرواية القائلة ان هذا التمثال كان قد نقل الى أثينا من ايليوثيراي . وعلى العكس ، تؤكد هذه الرواية ادلة مستقلة سنبحثها في الوقت المناسب . وفي الوقت نفسه ، يجوز الشك في ما اذا كان الموكب مجرد تخليد لذلك الحدث لا اكثر . والسبب هو ان برنامج اليوم الاول ، مأخوذا بكليته ، يؤلف سلسلة متعاقبة من الطقوس تفسر نفسها .

وقد لاحظنا . في دراستنا التلقين القبلي ، ان الطقس كان يتألف من ثلاثة أجزاء . فقد كان الصبي يؤخذ الى خارج المستوطنة ، ويوضع تحت اختبار معين ، ثم يعاد الى الجماعة وهو رجل . وفي اليونان ، نظهر هذه المراحل الثلاث على شكل الـ (بومبي) او «التوديع» ، والـ (آغون) او «الاختبار» او «المباراة» ، و(الكوموس) او «العودة الظافرة» . وفي وصفنا الالعاب الاولمبية (ص ١١ ــ ١٠٧) ، رأينا ان الـ (آغون) كانت تمثله مباريات رياضية ، وان المنتصرين ، بعد تتويجهم، كانوا يُصحبون في موكب ظافر او (كوموس) الى (برايتانيون) (او مقر مجلس) اوليمبيا ، حيث كانت تقام لهم وليمة . وبامكاننا ان نضيف الآن الى هذا الوصف ان احد المداخل الى الـ (ألتيس) ، حيث كانت تجرى المباريات ، كان يسمى (بومبيك هودوس) ، اي طريق المواكب ، الذي كان المدخل المستخدم لغرض اي (بومبي) او موكب . اما عما كان يتألف منه هذا الموكب فلم نخبر عنه شيئاً ، الا انه يمكن الافتراض بأنه قد ضم المتنافسين الذين كانوا على وشك المشاركة في المباريات الرياضية . وعلى ذلك ، كان المهرجان الاولمبي يتألف من (بومبي) ، و(آغون) و(كوموس) . وأخيرا ، فقد لاحظنا ، في وصفنا مسرحية

(الباخوسيون) ليوريبيديس ، بأن دايانايسيس كان يوصف بأنه مرافق او حرس بينيثيوس ، وبأن قربان بينيثيوس كان يوصف بأنه (آغون) ، كما كانت توصف عودة الباخوسيين الظافرة الى المدينة بأنها (كوموس) (ص ١٣١) •

وفي مدينة دايانيسيا ، يوصف الموكب في المدينة بصراحة في احد القوانين الاثينية بأنه (بومبي) ، والعودة بأنها (كوموس) • والشك الوحيد الذي ينهض هو ما يتعلق بالـ (آغون) ، الذي يشار اليه في هذا القانون • ولكنني اظن ان بالامكان البرهنة على ان الـ (آغون) يمثله في هذه الحالة تقديم القرابين الذي كان يجري بعد انتهاء الـ (بومبي) • وكان (آغون) الباخوسيين ايضا في الوقت نفسه تقديم قرابين ، حيث كان بينثيوس الضحية ، وآغويي «الكاهنة التي بدأت الذبح» • والشبه هو في الواقع أوثق من ذلك ، لان هناك مبررا للاعتقاد بأن ثور مدينة دايانايسيس كان يؤدي ذات الوظائف التي يؤديها قربان الباخوسيين البشري •

كان الثور واحدا من اكثر تجسيدات دايانايسيس ذيوعا • وكما يقول بلوتارخ ، ان تماثيل دايانايسيس التي هي على هيئة ثور وجدت في العديد من انحاء اليونان • وقد رأينا انه عندما كان الكورتيبيون في جزيرة كريت يمزقون الثور ويلتهمونه ، فقد كانوا يعتقدون بأنهم يأكلون إلههم • وكانت نساء (ايليس) ، في مهرجان لدايانايسيس ، ينشدن ترنيمة سجل بلوتارخ جزءاً منها : «تعال ، ايها البطل دايانايسيس ، الى معبد شعب ايليس المقدس ، الى معبد مع الخاريتيات ، غاضبا بقدمي ثور ، يا ايها الثور الجدير ، الثور الجدير !» • وفي هذه الترنيمة ، يكون الثور موحدا بشكل صريح مع الإله ، ومن المفروض ان يكون الحيوان المخاطب مهيئا للتضحية • ويؤكد هذا الافتراض رسم بارز على زهرية ، يصور (بومبي) او موكبا دايانايسيسيا • ويقود الموكب ثور ، يحرسه

خدم يحملون اغصان كرم ، ويتبعهم دايانايسيس نفسه جالسا في عربة، وقد ذهب البعض الى حد القول بأن موضوع هذا الرسم هو الموكب الفعلي في مدينة دايانيسيا . ولكننا نستطيع القول ، دون ان نلـــزم انفسنا الى هذا الحد (حيث لا تؤيد اغصان الكرم ذلك) ، بأنه مهما كان شأن المناسبة فان دايانايسيس متواجد هنا بشخصه بالذات وبالثور معا ، كما كان متواجدا في مسرحية «الباخوسييون» بشخصه بالذات وبشخص بينثيوس في آن واحد . وأخيرا ، فان كلمات الترنيمة من ايليس ، «الثور الجديد» ، تعيد الى الذاكرة الكتابة المنقوشة الاثينية التي سبق اقتباسها، والتي جاء فيها ان الضحية المقدمة قربانا في مدينة دايانيسيا كانت ثورا «جديرا بالإله» . وكانت هذه بشكل واضح صيغة طقسية . ولهــذه الاسباب ، ليس من باب المخاطرة الاستنتاج بأن التضحية بالثور فـي مدينة دايانيسيا ، كما هي التضحية ببينثيوس في «الباخوسييون» ، كانت قربانا مقدسا ، حيث كان الثور تجسيدا للإله .

وكانت الايام المتبقية من المهرجان تكرس للباريات في المسرح . وهذه ، هي الاخرى ، كانت توصف بأنها (آغون) ، الامر الذي سيصبح مغزاه واضحا عندما نكون قد اكتشفنا اصلها . وكانت هذه على نوعين: المباريات الدرامية والقصائد الحماسية . وكانت توجد مباراتان فـــي القصائد الحماسية ، احداهما بين خمس مجموعــات من الصبيــان ، والاخرى بين خمس مجموعات من الرجال . ولم تدخل مجموعـــات الرجال الا بعد سقوط النظام الاستبدادي .

وكانت القصيدة الحماسية ، بالشكل الذي كانت قد اتخذته في ظل الديموقراطية في اثينا ، ترنيمة ، تكريما لدايانايسيس ، ولكـــن ليس بالضرورة عنه ، تنشدها بصحبة الفلوت(*) مجموعة مؤلفة من خمسين

(*) آلة موسيقية هوائية .

صبيا او رجلا مجمعين في حلقة حول المذبح في وسط الاوركسترا • اما ان هذا لم يكن اصلها البدائي فذلك شيء مؤكد • ولكن ماذا كان اصلها البدائي ؟ ان علينا . ونحن نحقق في هذا السؤال : ان تتذكر ، وذلك بقدر ما تسمح به معرفتنا ، بأن اكثرية القصائد الحماسية التي نظمت في القرن الخامس كانت مصممة لالقائها في اثينا • الا ان القصيدة الحماسية كان لها تاريخ طويل ، كما انتشرت انتشارا واسعا •

ان اصل القصيدة الحماسية ينسبه بيندار ، في احدى قصائده . الى كورينث . وفي اخرى الى (طيبة) و(ناكسوس) • واذ كان له عدة حماة ينبغي ان يخدمهم ، فهو لم يتردد في اعطاء اجوبة مختلفة عن السؤال ذاته • وقد ادعت (طيبة) و(ناكسوس) معا بأنهما مسقط رأس ديايانايسيس • وكان ادعاء كورينث بالقصيدة الحماسية يستند الى قصة آريون ، التي اعدنا روايتها في الفصل الاخير • ويقول هيرودوتس : «ان آريون كان اول رجل نعرف انه نظم وسمّى وانتج قصيدة حماسية في كورينث» • وهذا القول ، الذي يعيده (سويداس) بشكل مختلف نوعا ما ، يفهمه (بيكارد ــ كمبرج) بأنه يعني بأن آريون « ادخل اولا كورسا لازم مكانا محددا (مثلا ، دائرة حول مذبح) ، بدلا من التجوال كالقصافين بصورة عشوائية • وجعل اغنية الكورس قصيدة منتظمة ، لها موضوع محدد اشتقت اسمها منه» • وهذا هو التفسير المقبول ، ومن المؤكد تقريبا انه صحيح •

لقد كان آريون ينتسب الى الجزء الاخير من القرن السابع • ونحن نسمع كذلك عن قصائد حماسية نظمها في فترة سابقة (باخياداس) من (سيكيون) ، حيث كانت عبادة ديايانايسيس تشجع في ظل الحاكم المستبد كليسثينيس (٥٩٠ ق•م) ، وأرخيلوخوس من (باروس) ، الذي غنّى : «أنا اعرف ، وقد صعقتني الخمرة ، كيف أتصدر القصيدة الحماسية ،

أغنية دايانايسيس الجميلة» . وبوصفه (الايكسارخون) ، او القائد ، يمكن الافتراض بأن ارخيلوخوس قد ابتكر سلسلة من المقاطع الشعرية، كان مرافقوه يغنون بعد كل واحدة منها لازمة واحدة . الا ان هذا لا يعني اطلاقا ان المستوى الفني لاغنية المرح المرتجلة هـذه كان الآن منخفضا . والشعر البدائي تفوه سحري يصدر تلقائيا عن حالة انتشاء روحي او ازدهاء ، وغالبا ما يحـدث الشرب هذه الحالة . ولا يزال بالامكان درس العلاقة المتبادلة بين الايحاء والارتجال والسكر في الشعر الفلاحي ، الذي غالبا ما يصل الى درجة من الاحكام الفني اعلى بكثير من شعرنا ، شعر اوربا الحديثة . وعلينا ألا نسمح بأن يضللنا في هذه المسألة بيكارد ـ كمبرج ، الذي يقول معلقا على عبارة «مصعـوق بالخمرة» : «ان ارخيلوخوس ربما كان قد بدأ لغنية المرح وهو في تلك الحالة . ولربما يُشك في ما اذا كان قد نظمها بهذا الشكل ، او ، فـي الحقيقة ، ما اذا كانت قد «نظمت» اصلا» . وهذا ما يسفر عنه الحكم على الشعر اليوناني بقوانين نظم البيت اليوناني .

ان دليل ارخيلوخوس يؤكده اسخيلوس ، الذي عاش فـي وقت كانت فيه القصيدة الحماسية ، وذلك في اثينا على الاقل ، قد توقفت عن وصفها قصيدة مرح . فهو يقول : «ان من المناسب ان ترافق النغمات الموسيقية المختلطة للقصيدة الحماسية دايانايسيس في عودته الظافرة» . وهذا يعطينا دليلا آخر . وبغير ان نؤكد «العودة الظافرة» تأكيـدا مفرطا ، نستطيع الاستنتاج بشكل مؤكد بأن القصيدة الحماسية بدأت قصيدة موكبية تنشد بمناسبة سلسلة الطقوس المتعاقبة التي وجدنا اصلها في الجمعيات الدايانايسية وفي مهرجانات مدينة دايانيسيا الافتتاحية . فقد كانت الضحية تقاد في موكب الى بقعة معينة ، حيث تنحر هناك ، ثم يعود عندئذ الموكب .

وفي مدينة دايانيسيا ، لم تكن الضحية الرئيسية فحسب ثورا ، بل كان الثور جائزة الفوز في مباريات القصائد الحماسية • واضافة الى هذا ، يبدو ان الشاعر الفائز كان يركب في عربة وتجري مرافقته في موكب ظافر ، يمكن ان نفترض انه كان يضم الثور الذي كان قد تسلمه تواً كجائزة • وهكذا يكتب (سايسويندير) ، مخاطبا نفسه بعد ان أحرز خمسين فوزا من هذا النوع : «خمسين مرة ، ولتدريب جوقة رائعة من الرجال ، ركبت انت عربة النصر المجيد المتألقة» • ونستطيع الافتراض ايضا بأن الثور كان يقدم قربانا من الشاعر ، الذي كان يقيم عندئذ مأدبة لاصدقائه •

ويصف بيندار القصيدة الحماسية بأنها «القصيدة الحماسية سائقة الثور» • فبأي معنى كانت القصيدة الحماسية «تسوق الثور» ؟ من المسلم به ان الاجوبة الذائعة عن هذا السؤال غير مقنعة • ومن الممكن ان يكون بندار قد قصد بأن الشاعر الفائز كان قادرا ، بحكم القصيدة الرابحة ، ان يسوق الثور الى بيته • وفي تلك الحالة ، كان بندار يلمح الى المهرجان المعاصر في اثينا • ولكن يبدو ان من الاكثر ترجيحا ان الصفة كانت تقليدية • واذا كانت القصيدة الحماسية في الاصل موكبية تغنى في المناسبة التي وصفناها ، فقد كانت هي الاغنية المغناة عندما كان الثور يساق الى التضحية •

اما الوضع الذي كانت تنطوي عليه ترنيمة نساء ايليس فهو مختلف نوعا ما • فهناك تبدو النساء في المعبد وهن ينتظرن وصول الموكب • ونحن نذكّر بترنيمة اخرى ، كان كوريتيو (كريت) يحيّون فيها وصول إلههم : «مرحبا ، كبير الفتيان ، كرونيوس ، سيد الجميع ••• انت جئت على رأس الارواح • تعال للسنة كلها الى ديكتي ، وامرح في الاغنية التي ننسجها لك بمزيج المزمار والقيثار ، وغنّ فيما نحن نأخذ مكاننا

حول مذبحك !» • وجدير بالملاحظة ان هذه الترنيمة تتألف من سلسلة من المقطوعات الشعرية التي تتخللها لازمة متكررة • والنص ، الذي هو ليس كاملا ، لا يحتوي اشارة الى اية أضحية ، والإله الذي يتضرع اليه هو زيوس ؛ وليس دايانايسيس ، الذي يشبهه زيوس الكريتي شبهـا وثيقا • ومن الطبيعي اننا لا نستطيع التأكيد بأن اية من هاتين الترنيمتين كانت قصيدة حماسية • وكل ما نستطيع قوله هـو انهما مشابهتان شبها وثيقا لما يبدو ان القصيدة الحماسية البدائية كانت عليه ، وذلك في ضوء الادلة الاخرى •

ان ارتباط القصيدة الحماسية بالثور يذكرنـا بأساطير (باوتيس) ، الرجل ــ الثور ، وأساطير (ليكورغوس) ، الذي استخدم مهماز ثور او فأسا لذبح الثيران • فمن وجهة نظر واحدة ، يرمز كل شكل من هذين الشكلين بشكل واضح الى الكاهن على رأس الجمعية • ولكنهما ، من وجهة نظر اخرى ، يبدوان وهما يجسدان دايانايسيس ، لان كلا منهمـا عانى ما حل بإلههما ايضا • وهذا الغموض ، الذي كان بشكل واضح صفة للعبادة ملازمة . يعيـــد تصويره يوربيدس في مسرحيتـــه (الباخوسييون) ، حيث يكون دايانايسيس زعيم الجمعية وإلهها في آن واحـد •

وماذا كانت علاقة الشاعر بجوقته في القصيدة الحماسية الناضجة؟ في مدينة دايانيسيا ، كانت نفقات الانتاج تغطيها الدولة ، باستثناء عازف الفلوت ، الذي كان يجب ان يهيأ من جانب الشاعر نفسه • ويعني هذا النظام ان وظيفة عازف الفلوت في الازمان السابقة كان يؤديها الشاعر بشخصه هو • وكان الشاعر في آن واحد قائد الجوقة ، شأنه في ذلك شأن أرخيلوخوس في باروس ، يرتجل المقطوعات الشعريـة ويصاحب اللازمات • وهذا يقرب من القول بأنه كان في الاصل الكاهن الـــذي

يرأس القداس ، والذي كان يمثل الإله •

واذا كانت القصيدة الحماسية ، كما يذهب الى ذلك رأينا ، قد بدأت كمصاحبة موسيقية لموكب الجمعية الدايانايسية ، نجم عن ذلك ان المغنين كانوا اصلا من النساء • ولا يمكن استخدام ترنيمة نساء ايليس دليلا بهذا الصدد ، لانها ليست موصوفة وصفا صريحا بأنها قصيدة حماسية • ولكننا سبق ان لاحظنا بأن جوقات الفتيان في مدينة دايانيسيا كانت أقدم من جوقات الرجال • ويوجد نموذج من الادلة ربما ينقلنا الى الماضي • انه قطعة لاذعة تسجل انتصارا أحرزه شاعر ، عدا ذلك ليس معروفا ، مع جوقة مزودة من قبيلة (اكاماتنيز) الاتيكية ، وهي تبدأ : «غالبا ما كانت الهوريات والدايانايسيات يطلقن في الماضي ، في جوقات الاكاماتنيز ، تسابيح بمناسبة قصائد حمل اللبلاب الحماسية ، ويحجبن شَعر الشعراء المجيدين بعصابات من ورود متفتحة» • وطبيعي ان تربط هؤلاء الهوريات مع تصويرات أسطورية اخرى لمريدين لدايانايسيس من الاناث ، كالموزيات والخاريتيات ، لاسيما وأنهن موصوفات بالدايانايسيات ، الذي كان اسم جمعية حقيقية في سبارطة • ومن الصعب فهم السبب في ربطهن بهذا الشكل مع الاداءات الماضية للقصيدة الحماسية لو لم يكن المؤدون يوما ما من النساء •

وكان لقرويي (اليبوثيراي) ، الذين قال الاثينيون ان تمثال دايانايسيس ايليوثيريوس يعود في الاصل اليهم ، تمثال آخر للإله الذي كان نسخة طبق الاصل من التمثال الذي كانوا قد تنازلوا عنه • وهذا هو ما يسجله (بوزانياس) ، الذي كان قد رأى التمثالين • وفي القرية ذاتها ، وجدت اسطورة بنات (ايليوثير) ، اللواتي بعد ان لمحن الإله وهو مكسو بجلد ماعز ، احتقرنه ، وأصابهن الجنون • وقد شُفين عندما أسس والدهن ، استجابة لوحي إلهي ، عبادة دايانايسيس ميلانايفيس ،

اي دايانايسيس جلد الماعز الاسود . وتساعد هذه الاسطورة على تفسير الطريقة التي اصبح بها الماعز مرتبطا بمدينة دايانيسيا ، ذلك ان الجائزة في المباريات التراجيدية ، متميزة بذلك من المباريات في القصائـــــد الحماسية . لم تكن ثورا بل ماعزا . وهي اكثر من ذلـك تدل على ان عبادة دايانايسيس ايليثيريس كانت تنتسب في زمن مـــا الى جمعيـــة نسائية من النمط الاعتيادي . والحقيقة ، فلربما كانت هذه الجمعية هي التي اعطت انقرية اسمها ، لان عبارة (هاي ايليوثيراي) هي مساويـــة لعبارة (هاي افيتاي) ، اي النساء اللواتي «حررن» او «تركن طليقات»، كبنات بروتيوس وآيو ، اللواتي تركن هائسات في العراء بعد ان أصابهن الإله بالمجنون .

وعلى ذلك . يبدو ان القصيدة الحماسية كانت تنتسب اصلا الـى جمعية النساء الدايانايسية . وتدعم هذا الاستنتاج حكاية اسطوريـــة غريبة تتعلق بالشاعر أرخيلوخوس . ويُحكى لنا انه في شبابه آرسلـه ابوه الى الريف ليحضر ثورا كان من المقرر اخذه الى السوق . وقـد غادر قبل الفجر في ضوء القمر ، وفي طريق عودته التقى جماعة مـــن الفلاحات ، كما ظنهن ، اللواتي عرضن عليه شراء الثور منه ثم اختفين مع الثور ، تاركات قيثارة عند قدميه . وكانت النساء في الواقع هـــن (الموزيات) . ومعنى هذه الاسطورة ، كما أفهمه ، هو ان فن الشاعـر كان مشتقا من عبادة ثور احتفظت بها جمعية انثوية تقودها كاهنة .

لقد كانت المرحلة الاولى في تطور القصيدة الحماسية كشكل فني هي انحطاط الجمعية الذي تلا مركز النساء الاجتماعي الآخذ بالانحطاط. وقد تم بلوغ المرحلة الثانية عندما اوقفت عند مذبح ما ، بـدلا من ان تكون مغناة كقصيدة موكبية ، وبذلــك اصبحت (Stasimon) او اغنية وقوف ــ اي «وقوفا» او ركودا في الحقيقة . وقد رأينا كيف

ان موكب مدينة دايانيسيا كان يقوم بمثل هذا التوقف عند مذابح الآلهة الاثني عشر في ساحة السوق ثم في المذبح الذي كان يودع فيه التمثال في نهاية البومبي • ولو سأل سائل ماذا كان موضوع هذه الاغنية ، فلا بد انها كانت اولا الاسطورة المطابقة للطقس الذي كان على وشك الاحتفال به ـ حب دايانايسيس • وأخيرا ، لما كان هنالك مبرر للاعتقاد بأن قائد الجوقة كان يمثل شخص الإله ، فمن الواضح اننا هنا امام اصل دراما طقسية • وحين يبدأ قائد القصيدة الحماسية يتحدث بشكل مناسب الى جوقته ، تصبح القصيدة الحماسية مسرحية آلام • وكما قال ارسطو ، ان فن التراجيديا تطور «من قادة القصيدة الحماسية» •

وعند هذه النقطة الحاسمة في تطورها ، تجزأت القصيدة الحماسية البدائية ، وتطور الشكلان اللذان ظهرا منها تطورا متباينا • ولما كان هذان الشكلان متعايشين ، فقد حدد كل منهما تطور الآخر • ولم يستطيعا النمو الا في اتجاهين متعاكسين • ففي الاول ، طغت الموسيقى على الكلمات ، وأصبح القائد هو العازف ، وطمس العنصر التمثيلي • وفي الآخر ، اصبحت الكلمات على درجة كبيرة من الهيمنة بحيث تحرر نفسها من غشائها الموسيقي ، بينما اصبح القائد ممثلا ، ثم ممثلين ، وأخيرا ثلاثة • ومع ذلك ، فبعد فترة طويلة من طلوع أجنحة فن التراجيديا كانت لا تزال ملتصقة به أجزاء من الخادرة (*) التي كانت قد أخفته يوما ما• وتوحي دراسة المسرحيات الموجودة حاليا انها ، قبل اسخيلوس ، كانت قد بدأت بشكل طبيعي وانتهت بمقطع من الجوقة حيثما دخلت الاوركسترا او غادرتها • وفي هذين العنصرين ، نستطيع ان نلمس آخر آثار البومبي والكوموس ، وبالتعليل ذاته ندفع الى الاستنتاج بأن الاداء الذي كان يبدأ وينتهي بهذا الشكل كان ، اصلا وجوهرا ، (آغون) ـ اختبارا او مباراة ، تنظيفا او تطهيرا كان يجدد الحياة •

---

* خادرة : دودة قبل ان تنسلخ وتصير فراشة .

-١١-

التراجيديا

ان مهمتنا التالية هي ان نسد ثغرة نصف قرن على الاقل تمتد بين اللحظة الحاسمة التي تركنا عندها فن التراجيديا في نهاية الفصل السابق وبين اول اعمال اسخيلوس • وهذه اصعب معضلة كان علينا ان نجابهها، والسبب هو ليس ان الادلة قليلة فقط ، بل لانها ايضا في معظمها من نوع مشكوك فيه • وللتوصل الى حل كاف ؛ علينا ان ننتظر الى ان يلقى ضوء جديد على كامل الموضوع ، وذلك بدراسة مقارنة للدراما البدائية، الشرقية والاوربية ، الامر الذي لم تجر محاولته حتى الآن اطلاقا • وفي الوقت ذاته ، علينا ان نبذل ما نستطيع بما يتيسر من مصادر في حوزتنا •

لقد كنا حتى الآن تتقصى مسيرة التراجيديا حسب تطورها • وعلينا الآن ان نتخلى عن هذه الطريقة • وكل ما نعرفه تقريبا عن

التراجيديا اليونانية في هذه الفترة هو ما يمكن استنتاجه من المسرحيات الباقية ، مكملا بكتاب (الشعر) لأرسطو • اما كم ثمينة هي تلك التكملة فهذا ما يمكن الحكم عليه من حقيقة اننا لا نملك الا ثلاثا وثلاثين مسرحية من المائتين والخمسين مسرحية تقريبا المعروف انها قد كتبت من جانب اسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس ، بينما امتلكها ارسطو جميعا ، ناهيك عن عدد غير معروف من مسرحيات كتبها آخرون ، وهي مسرحيات اختفت كليا • اما وأن الامر كذلك ، فسنعتبر المحك الحاسم لاية اعادة تركيب لتاريخ التراجيديا الاول انطباقها مع أدلة ارسطو ، الذي كان الشارح البارع لاسلوب علمي ، اضافة الى كونه أعلم منا بما لا يقاس• واذ سنبدأ بدراسة للممثل ، فسوف نتجه الى دراسة للكورس ، ومن ثم ، بعد ان نشير الى تحليل ارسطو للذروة التراجيدية ، سنختتم الحديث ببعض ملاحظات عن المسرح • وفي كل هذا ، سيتركز انتباهنا على تاريخ التراجيديا قبل اسخيلوس • وفي نهاية الفصل ، سيبقى الكثير مما يجب تفسيره ، الا ان هذا يجب الاحتفاظ به الى ان نستأنف روايتنا لتاريخ اثينا •

ويخبرنا ارسطو ان الممثل الثاني قد ادخله اسخيلوس ، وان الممثل الثالث قد ادخله سوفوكليس • ولم يجرِ تجاوز هذا العدد اطلاقا • ومن مسرحيات اسخيلوس السبع الباقية ، يستخدم الممثل في الاربع الاخيرة فقط ، اي في ثلاثية (اوريستيه) ، وفي (بروميثيوس مقيدا) ، التي ربما كانت أخيرتها جميعا • ولما كان ادخال الممثل الثالث يقع تماما ضمن المرحلة التي تغطيها المسرحيات الباقية ، فلا بد ان يكون ممكنا اقتفاء الطريقة التي طورت بها وظيفته • والمعلومات المكتسبة بهذا الشكل قد تلقي ضوءاً على تطور الممثل الثاني •

ان الاستخدام الكامل للممثل الثالث يشاهد في تلك المحاورات التي

يتواجد فيها ثلاثة شخوص على المسرح وكل منهم يتحادث بحرية مع الآخرين معا • ويوجد العديد من هذا عند سوفوكليس ويوربيديس ، الا ان التبادل عند إسخيلوس ليس مشتركا او بالمثل تماما • وهكذا ، ففي مسرحية (حاملات الشراب) ، يكون (بايلاديس) حاضرا عندما يكشف (اوريستيس) عن نفسه الى (كلايتيمنيسترا) ، الا ان دوره مقصور على الاجابة عن سؤال يوجهه اليه (اوريستيس) • وخلال المحاكمة في مسرحية (الارواح المنتقمة) ، تتحادث (اثينا) مع (أبولو) ، وأبولو يخاطبه اوريستيس . لكن ما من حديث يدور بين اوريستيس وأثينا الى ان تنتهي المحاكمة . وفي ذلك الوقت ينتهي دور أبولو • وفي مسرحية (آغاممنون)، تكون (كساندرا) حاضرة خلال الحوار بين آغاممنون وكلايتيمنيسترا ، ولكنها لا تقول شيئا اطلاقا • وبالمثل ، ففي مقدمة (بروميثيوس مقيدا)، يبقى البطل صامتا الى ما بعد ذهاب إله (القوة) و(هيفيستوس) • وفي هاتين الحالتين ، يجري ادخال الشخصية الصامتة لغرض التتابع • والحوار الوحيد الآخر من هذا النمط هو في (آنتيغوني) ، وهي أولى مسرحيات سوفوكليس المتواجدة ، حيث تبقى (آنتيغوني) صامتة خلال الحوار بين (كريون) و(الحرس) ، ثم تتحادث مع كريون بعد ذهاب الحرس • وفي هذه الامثلة جميعا ، يكون الصمت ، بطبيعة الحال ، مؤثرا من الناحية الدرامية • وكان اسخيلوس بصورة خاصة مشهورا بسكناته الدرامية ، الا ان غياب هذه المؤثرات عن المسرحيات الاخيرة يبين انها اشارة الى عدم النضج •

ولنطبق الآن ذات الاعتبارات على تطور الممثل الثاني • ولهذا الغرض ، نعود الى اقدم ثلاث مسرحيات من المسرحيات المتبقية ، وجميعها بقلم اسخيلوس وهي : (الفرس) (٤٧٢ ق•م) و(سبعة ضد طيبة) (٤٦٧ ق•م) و(المتضرعات) ، التي ربما كانت قد اخرجت بعد

(سبعة) ببضع سنوات •

وتبدأ مسرحية (سبعة) بخطاب من الملك الى شعبه ، ممثلا بجمهور الحاضرين • ويدخل رسول . ويعطي تقريره ، وينسحب • ويصلي الملك للنصر ، وينتهي المشهد • ومن الصعب تسمية هذا بحوار • وفي وقت لاحق في المسرحية : يلقي الرسول سلسلة من الخطب . واصفا علـــى التعاقب ظهور قادة العدو ، وكل منهم على وشك ان يهاجم واحدة مـــن البوابات السبع ؛ ويرد الملك على كل منها بوصف للقائد المدافع ، ويتلو كل خطبتين مقطع من الكورس في قصيدة انشادية • ويمكن ان يسمى هذا حوارا ، ولكنه ذو طابع شكلي جدا ، لانه يتألف كليا مـــن خطب مهيأة • ومن جهة اخرى ، يتحادث كل من الملك والرسول ، عندمـــا يكونان وحيدين على المسرح ، مع الكورس بحرية •

وفي مسرحية (الفرس) ، تكون الملكة على المسرح ، حين يصـــل الرسول حاملا خبر الهزيمة في سالاميس ، ولكنه يسلم رسالته الـــى الكورس ، الذي يجيب عنها بقصيدة انشادية • وبإسهاب ، تستجوب الملكة الرسول ، بعد ان تعلن بأن الغم قد أعجزها عن الكلام ، وهناك يُتلى حوار بينهما ، لا يشارك فيه الكورس اطلاقا • وفي مرحلة تالية من المسرحية ، تكون الملكة مرة اخرى علـــى المسرح حيث يظهر شبــــح (داريوس) ، الا ان الشبح يخاطب الكورس ، الذي يجيب بقصيـــــدة انشادية كما من قبل • وفي هذه المناسبة ، يكون صمت الملك بلا دافع • ثم يعقب ذلك حوار يتحادث فيه الشيخ اولا مع الملكة ، بينمـــا يلازم الكورس الصمت ، ثم يتحادث في وقت لاحق مع الكورس ، بينما تبقى الملكة صامتة • ومن الواضح ان الكاتب المسرحي لم يتعلم بعـــد تدبير حوار يتحادث فيه الممثلان والكورس معا • ومن جهة اخـــرى ، تتميز هذه المسرحية ، بالمقارنة مع مسرحية (سبعة) بحرية اكبر في معالجـــة

الحوارات بين الممثلين .

وفي مسرحية (المتضرعات) ، بالرغم من ان عدة حوارات تتواجد بين احد الممثلين والكورس ، فان حوارا واحدا فقط يتواجد بين الممثلين : شجار الملك مع الرسول . ومما له مغزى ان الرسول ربما يتحدث من الاوركيسترا . وفي مرحلة سابقة في المسرحية . يكون (داناأوس) حاضرا طوال مقابلة الملك المطولة مع الكورس ، ولكنه لا يشترك في شيء حتى النهاية ، حين يوجه خطابا قصيرا الى الملك ، وحتى في ذلك الوقت يُرَدّ عليه بجواب يشير فيه الملك اليه بالشخص الثالث. وصمت (داناأوس) في هذا المشهد . وهو مطول وبلا دافع ، هو في غاية الفجاجة . والحقيقة . فان وظيفته خلال المسرحية كلها هي بصورة رئيسية وظيفة رسول . وهو حتى بوصفه رسولا لا يدلي بشيء لم يكن الملك قادرا على الادلاء به . وقد يشك في ان (دانا أوس) قد أدخل بصورة رئيسية لغرض المسرحيتين الثانية والثالثة من الثلاثية ، اللتين كان له فيهما حتما دور بارز . وبقدر تعلق الامر بالمسرحية الاولى ، فهي ما كانت لتعاني الا القليل لو كانت قد كتبت لممثل واحد .

لقد رأينا ، في مسرحية (الفرس) ، انه حين يجلب الرسول الخبر ، ثم حين يظهر الشبح . يتبع ذلك حوار بين الممثل ، الذي يتكلم بأبيات من الوزن (الايامبي) (ابيات ثلاثية التفعيلات تتألف كل تفعيلة من مقطع مخفف وآخر مشدد) او (التروخائي) (رباعية التفعيلات تتألف كل تفعيلة فيها من مقطع مشدد وآخر مخفف) ، وبين الكورس ، الذي يجيب بقصيدة انشادية . وتوجد ثلاثة حوارات من هذا النمط في (المتضرعات) ــ حيث يتضرع الكورس الى الملك ، والى دانا أوس ايضا، وحيث يهاجمهم الرسول . وفي مسرحية (سبعة ضد طيبة) ، يوجد حواران ، بينما يكون وصف القادة ، الذي يشترك فيه ممثلان ، تفصيلا

للمبدأ ذاته . وعلى ذلك فمن المحتمل ان كان دور الممثل في فترة سابقة هو من هذا النوع الى حد كبير . ولربما استطعنا ان نذهب حتى الى ابعد من ذلك . ففي (المتضرعات) ، حيثما يهاجم الكورس من قبل الرسول ، يبدأ الاخير بقصيدة غنائية ، كما يبدأ الكورس نفسه — ولا ينتهي بأبيات مؤلفة من مقاطع مخففة تتلوها مشددة (أيامبية) الا في وقت لاحق . ومن المحتمل ، كما ذهب الى ذلك (كرانز) ، ان يعود هذا الاسلوب الى زمن لم يكن فيه دور منطوق ابدا ، وانما مجرد تبادل غنائي بين الكورس والممثل .

ان المشكلة التي اخذها اسخيلوس على عاتقه بإدخاله الممثل الثاني كانت كيفية اعادة توجيه الممثلين تجاه بعضهم الآخر وبعيدا عن الكورس. وبحل هذه المشكلة فقد تؤثر علاقة المسرح بالاوركسترا، لانه كان عندئذ قادرا على تطوير حبكة المسرحية عن طريق الممثلين فقط ، دون تدخل الكورس . والآن ، نحن نعرف من ارسطو ان دور الممثل كان يؤديه اصلا الشاعر . ومن السهل ان نرى انه لو اخذ اسخيلوس الدور نفسه، لكان في وضع قوي بشكل خاص يمكنه من معالجة مشكلة تطويره — وهو مثل ممتاز لوحدة النظرية والتطبيق . وأكثر من هذا ، لو كان الممثل هو الشاعر ، المنغمر في مبادلة شعرية مع الكورس ، فلن نكون بعيدين جدا عن القصيدة الحماسية البدائية ، التي كانت تستند ، كما رأينا ، بالضبط الى هذه العلاقة . وكما قال ارسطو ، كان فن التراجيديا قد أخذ من قادة القصيدة الحماسية .

لقد كان شخوص التراجيديا اليونانية يؤخذون في الاغلب من عدد محدود من الانماط التقليدية ، التي تميز كل منها بلباس تقليدي : الملك ، الملكة ، النبي ، النذير ، الرسول ، وهلم جرا . وأهم هؤلاء هو الملك الذي سنقول عنه المزيد في وقت لاحق . الا ان الاكثر بروزا في ناحية

واحدة هو الرسول • ويختلف هذا النمط عن الآخرين في انه ليس مميزا بصفة فردية خاصة اطلاقا ، وذلك باستثناء واحد (هو الرسول الكورينثي لسوفوكلس) • ووظيفة الرسول تؤدى طبعا احيانا من قبل شخصية اخرى ، من أمثال دانا أوس في (المتضرعات) والعبد الفريجي في (اوريستيس) • ولكن حيثما يظهر الرسول كما هو عليه تعوزه الشخصية • والمثل الاكثر وضوحا هو مسرحية (سبعة ضد طيبة) ، التي يكون فيها الملك والرسول الجزئين الممثلين الوحيدين ، (باستثناء الخاتمة المصطنعة) • والملك والكورس مميزان معا تمييزا جيدا ، الا أن الرسول، الذي يكون له دور طويل ويظهر في كامل المسرحية من وقت لآخر ، يبقى صوتا متكلما لا اكثر • ويبدو ان التفسير هو ان هذا النمط عنصر مهجور ومصطنع ، وقد بقي على وضعه البدائي لانه كان مصمما لمجرد الغرض التكنيكي الخاص بسرد ما حدث خارج المسرح • وحين كان يوجد ممثل واحد فقط ، وكان البطل يقتل في مجرى المسرحية ، كان موته يروى بسرد غير مثير •

وفي ضوء هذه الاعتبارات ، ليس من الصعب تصور الخطوط العامة للتراجيدية ما قبل عهد اسخيلوس • فقد كان الكورس يدخل بأغنية او القاء ملحن ، وبعد ان يتخذ أفراده مواقعهم حول المذبح كانوا يغنون اغنية وقوف (ستاتيسمون) • ثم يظهر بعد ذلك البطل ، ويوضح هويته ويشرح الموقف في حوار مع الكورس • ثم كان يختفي ، وبعد اغنية وقوف اخرى من الكورس ، كان يدخل رسول ليعلن موت البطل • ويعقب ذلك نحيب ، وينسحب الرسول ، ويترك الكورس الاوركسترا بذات الطريقة التي دخل فيها •

وعند هذه النقطة ، علينا ان نتوقف لنجابه صعوبة • فاذا كانت التراجيديا قد نشأت عن عبادة دايانايسيس ، فلا بد ان تكون حبكاتها

قد اخذت اصلا من أساطير دايانايسيس • وهذا ينبع من رأينا ، وتؤكده الاحاديث اليونانية . التي هي واضحة تماما في هذه المسألــــة • الا ان ارسطو يخبرنا بأن حبكاتها كانت لفترة طويلة «صغيرة» . وبأن أسلوبها كان «سخيفا» • وكيف يمكن التوفيق بين هذين الحديثين ؟ لقد عبر عن هذه الصعوبة بيكارد ــ كامبرج في ملاحظاته علــــى (ثيسبيس) : مؤسس التراجيديا التقليدي ، الذي يقال انه كتب مسرحية عن اسطورة بينثيوس • فهو يقول : «ان لغة ثيسبيس ربما كانت نوعا ما فجــــة ومضحكة • الا ان قصة بينثيوس لا بد انها كانت تراجيديـــة دائما» • وهذا افتراض مشكوك فيه •

لقد كانت احــــدى اساطير الايليوثيريين تتعلــــق بمبارزة بين (زانثوس) (الرجل الابيض) و(ميلانثوس) (الرجل الاسود) ، التي ذُبح فيها الاول من قبل خصمه بمساعدة دايانايسيس ميلانايغيس • وكمــا أوضح (يوسينير) ، تقوم هذه الاسطورة على دراما طقسية من نســـط معروف . يقتل فيها (الصيف) على يد (الشتاء) • وذهب (فارنل) الى حد القول بأننا نجد في دراما الايليوثيريين هذه النموذج الاصلي للتراجيديا الاثينية • ويجب رفض رأي (فارنل) لسببين : فأولا ، لا يوجد مــــا يبرهن على انها كانت تؤدى بهذا الشكل ، بل في الحقيقة بأي شكــل آخر ، خلال المرحلة الحاسمة من القرن السادس قبل الميلاد • والى جانب هذا ، وبقدر ما يمكن اعادة تركيبه من الاسطورة ، فهي تشمل ثلاثـة ممثلين بدون كورس • وهي تبتعد عن الخط المباشر لانحدارها • ومن جهة اخرى ، فانها موضوع دايانايسي ــ جعلت التراجيديــا محتواه • وبالاضافة الى ذلك ، فمن الواضح انه موضوع يعرض نفسه لمعالجــة صاخبة • وما علينا الا ان نفكر بمسرحياتنا الصامتــــة المشتقة من ذات الاصل ، كالمبارزة بين القديس (جورج) والكابتن (سلاشير) •

ولكن هل من المحتمل ان تكون قصة بينثيوس قد عولجت بهذه الطريقة ؟ ان هناك ادلة قاطعة على انها قد عولجت كذلك . ولا يمكن ان يوجد شك في ان المشهد الوارد في (الباخوسييون) ليوريبيديس ، حيث يظهر بينثيوس قبيل موته مرتديا ملابس نسوية مبهرجة ، وحزامه مفكوك مع عقصة لا مكان لها ، ويعدلها الإله ضاحكا ، هو مشهد سخيف مضحك بشكل مقصود . وكما ذكر (باثر) . ان المعالجة الكوميدية لهذه المرحلة في الاسطورة تفسرها المرحلة المقابلة في الطقوس . وينطلق موقف بيكارد — كامبرج في هذه المسألة من سوء فهم لطبيعة الديانة البدائية. وليس للفكرة القائلة ان أمثال هذه الاشياء ، كالضحك والبذاءة والفحش . ليس لها مكان في التعبد الإلهي ، اساس من الصحة خارج الحلقة الضيقة من تقاليدنا البروتستانتية .

والى هذا ، اذا كان أسلوب التراجيديا مضحكا او سخيفا اصلا ، فقد كانت تلك الصفة منسجمة مع شكلها العروضي . فقد كان الوزن المستخدم في الاصل هو (التروخائي) اي البيت الرباعي التفعيلات الذي تتألف كل تفعيلة منه من مقطع مشدد وآخر مخفف — اي ايقاع خفيف وسريع ، استمر اسخيلوس ويوريبيديس على استخدامه بين الفينة والفينة لاضفاء حيوية على الحوار — ولكنه ، بصورة عامة ، استبدل بالوزن (الايامبي) اي الثلاثي التفعيلات الذي تضم كل تفعيلة منه مقطعا مخففا يتلوه آخر مشدد ، وهو البيت الذي كان اقرب الى ايقاع الكلام العام . وكان كلا هذين الوزنين من اصل شعبي ، وكان الوزن الايامبي مرتبطا بالهجو اللاذع ، الذي كان بالتأكيد مضحكا .

من الواضح اذن انه لا يوجد تفاوت فعلي فيأدلتنا في هذه النقطة. وهذا بالرغم منانه سيترتب علينا ان نواجه في مرحلة تالية من استقصائنا مسألة سبب استبعاد العنصر الكوميدي في الفترة اللاحقة .

ولندرس الآن الممثل التراجيدي من وجهة نظر مختلفة . فلقد كانت الكلمة اليونانية لممثل (hypokrités) . المطابقة للفعل (hypokrinomai) الذي يعني دائما اما «يجيب» او «يفسر» ، باستثناء استعماله للتمثيل . فهل كان الممثل اليوناني مجيبا ام مفسرا ؟ ومن كان يجيب او ماذا كان يفسر ؟ ان هذه المشكلة قد اساء معالجتها بحاثة اختصاصيون محدثون . افترضوا انها مجرد مسألة اختيار بين الاثنين . وقبل ان نتمكن من ان نفعل ذلك ، علينا ان نفسر لماذا كان المعنيان تغطيهما كلمة واحدة .

في الالياذة ، يرى الطرواديون فألا : نسرا يحمل حية . ويشرح (بوليداماس) ما يفهمه من معنى الفأل ، ويستنتج : «ان هذا هو الشكل الذي سوف يفسره به العرّاف» . وفي الاوديسا ، رأت (بينيلوبـــي) حلما ، وتقول لأوديسيوس : «فسر حلمي» . ويجيب اوديسيوس: «ليس ممكنا تفسير حلمك» . وليس هناك من شك في ما يعنيه الفعل في هذه المقاطع الثلاثة . وفي مقطع آخر من الاوديسا ، يُشاهَد نسر يحمل آوزة. ويلتفت (بيسيستراتوس) الى (مينيلوس) ويسأله : «هل هذا الفـــأل مقصود لك ام لنا ؟» . ويفكر مينيلوس متسائلا «كيف يجب ان يفسره (او يجيب) بشكل صحيح» . وفي هذا المقطع الاخير ، حيث يمكن ان تفسر الكلمة بأي من المعنيين ، تكشف وحدة المعنين الاساسية . فالفعل (hypokrinomai) يعني «يفسر حلما او فألا» او بدلا من ذلك «يجيب عن تساؤل عن حلم او فأل» . لقد كانت كلمة طقسية ، تصـــف وظيفة للكهانة .

وبمعنى «يجيب» المعمم ، يوجد الفعل المذكور مرة واحدة فقط في الالياذة ، ومرة في الاوديسا ، حيث تكون الكلمة الاعتيادية للفعـــل «يجيب» هي (ameibmai) ، التي ترد مئات المرات . وينجم عن ذلك ان الاستخدام المعمم للفعل (hypokrinomai) لم يكن الا في

بدايته في اليونانية الهوميرية • وفي الآيونية ، اصبح الاستخدام المهيمن، ولكن في الاتيكية لا يستخدم الا بمعنى «التمثيل» ، حيث ان الفعل مقابل للاسم **hypokrités** ، وفكرة «يجيب» يعبر عنها بتشكيل اخر من الجذر ذاته هو apokrinomai • ويمكن الاستنتاج بـأن hypkrinomai الاتيكي فقد معناه الاصلي عندما اكتسب الاسم المقابل معنى «ممثل» •

وتوجز المشكلة الآن الى هذا : عندما اطلقت الكلمة hypokrités اولا على الممثل : فهل كانت تعني hypokrinomai بمعناها البدائـي «يفسر» ام بمعناها المشتق «يجيب» ؟ والآن ، لا يوجد ، في الاتيكية ، اي دليل على ان هذه الكلمة كانت تعنـي يوما «يجيب» ، او ان hypokrités كانت تعني «مجيب» • ولا يستخدم الفعل الا بالمعنى المقابل للاسم ، ولا يستخدم الاسم دائما بمعنى ممثل او خطيب ، باستثناء ما يرد في مقطع واحد من افلاطون • وهذا المقطع مرشد بهذا الصدد • فأفلاطون يبحث معنى كلمة Prothétes الدقيق • وهو يقول ان بعض الناس يتحدث عـن الـ Prothêtai وكأنهـم نفس الـ manteis ، «الانبياء» ، الا ان هـذا الاستخدام غير صحيح • فالـ Prophêtai هم ليسوا انبياء ، وانما هم مفسرون hypokritai لاقوال وظواهر غامضة • والآن ، لما كـان افلاطون مهتما بالاشارة الى المعنى الدقيق لكلمة prothétes فلا بد ان نفترض انه دقيق بالمثل في استخدام كلمة hypokrités اي ، انه عالم بأن الاخيرة كانت تطلق ، مثل كلمة krités على مفسر الاجوبة الإلهية ، او الاحلام او الطوالع •

وقد كانت الكلمة الاتيكية الدارجة لـ (مفسر) بهذا المعنى هـي hermeneûs ، التي ليس مؤكدا اصلها • اما الكلمة الآيونية فقد

كانت exegetés ، التي كانت ايضا لقب كهنة في ايليوسيس • وكان الكهنة الايليوسيسيون شراح الـ Legomena ، اي «الاشياء التي تقال» في الطقوس الدينية السرية ، وبتلك الطريقـــة كانوا يفسرون الـ Dromena ، اي «الاشياء التي تُفعل» في الطقوس الرمزية •

والآن . تعني كلمة exegetés ، بصورة رئيسية ، «قائد» • وعلى ذلك فهي مرادفة لـ exanehon (اكسارخون) التي هي الكلمـة التي يستخدمها ارخيلوخوس وأرسطو لقائد القصيدة الحماسية • وتوحي هذه الاعتبارات بأن exànehon و hypokrités كانتا في الاصل متطابقتين •

وكان الاكسارخون هو القائد ــ الشاعر لرقص وغناء القصائد الحماسية ، ومنحدرا من الكاهن ــ الإله للثيوس (الجمعية) الدايانايسية• وكيف اصبح مفسرا ؟ لقد كانت الثيوس جمعية سرية ، وبالتالي فقد كان طقسها لغزا ، لا يقدر على فهمه الا الذين لُقّنوا السر • وعليه ، فحين اصبح هذا الطقس دراما بكل معنى الكلمة ، اي طقسا تشبيهيا يؤديـه الملقنون ام جمهور غير ملقن ، فقد احتاج الـــى مفسر • ولنفرض ان جمعية الـ (الايليوثيراي) تؤدي رقصة كورسية امام جمهور مـــن المتفرجين • فالرقصة مصممة للتعبير عن تشرد بنات ايليوثير بعد ان دفعهن دايانايسيس الى الجنون • والراقصون يفهمون هذا ، ولكن المتفرجين لا يفهمونه • وعلى ذلك ، وفي نقطة معينة ، يتقدم القائد ويقول بلغـة بسيطة : «انا دايانايسيس ، وهؤلاء هن بنات ايليوثير ، اللواتي اصبتهن بالجنون» • والقائد بعمله هذا هو مفسر فعلا ، وهو في سبيله الى ان يكون ممثلا • لقد أخذت التراجيديا عن قادة القصيدة الحماسية •

لقد ر*د* الآن اصل فن التراجيديا الى نقطـــة يتصل فيها بأكثر

الدرامات الطقسية تقدما لدى الهنود الشماليين الاميركيين • وذلك انه يجب التذكر بأنه بالرغم من ان هذه الدرامات كانت تؤدى احيانا علنا ، الا ان معناها الباطني لم يكن يفهمه الا اعضاء الجمعية السرية الملقنون الذين قاموا بأدائها • وعن هذه النقطة يكتب (هيوتن وبيبستير) كما يلي:

> ان الطقوس ، التي يكون جزء منها سريا والآخر علنيا ، تؤلف مَسرَحة بدائية للاساطير والخرافات ولكنها فعالة جدا في معظم الاحيان • وفي العادة . لا يفهم مغزاها الا اعضاء الجمعية المعنية التي تؤدي الطقوس • والممثلون ، المقنعون او المرتدون ملابس معينة ، يمثلون حيوانات او كائنات تروي الاساطير تاريخها •

لقد أوقف ، بين الهنود الشماليين الاميركيين ، نمو الدراما عند النقطة الحاسمة ، والسبب هو ان المركز الاجتماعي للجمعيات السرية كان مضمونا الى درجة تكفي لمقاومة العلمنة • وفي اتيكا ، حيث كانت الجمعية الدايانايسيسية تمر بمرحلة تدهور ، لم تظل على قيد البقاء الا بتحولها الى نقابة ممثلين •

ان القصائد الكورسية للتراجيديا اليونانية مبنية على النمط الايقاعي المعروف بشكل المقطع الثاني (Antistrophic) (أنتي ستروفيك) من مقاطع القصيدة البيندارية الثلاثة • اذ تقدم مجموعة ابيات مختلفة الطول (Strophé) (ستروفي) ، او مقطع كما ينبغي ان نسميها ، وتكرر • ثم تقدم وتكرر مجموعة ثانية بذات الطريقة ، وهلم جرا • وعلى ذلك تقع القصيدة في سلسلة زوجية AA BB CC وأحيانا تعقب كل زوجين (ephymnion) او لازمة (AAX BBX CCX)

اما تركيب القصيدة الحماسية الناضجة فهو مختلف • فهو يستند الى ما يعرف بالشكل الثلاثي المقاطع (Triad) • اذ تقدم مجموعة ابيات وتعاد ، وتعقبها مجموعة ثانية تسمى (الايبودة) (epoidôs) او «ما بعد الاغنية» • ومن ثم يعاد تقديم المجموعة الاولى ، وتكرر مرة اخرى ، ويعقبها تكرار للأيبودة ، وهلم جرا • وعلى ذلك فان القصائد الحماسية مؤسسة على ثلاثي واحد او منفرد يكرر باستمرار (AAX BBX CCX) وتستخدم الايبودة احيانا في التراجيديا ، ولكن ليس الا في نهاية القصيدة بوصفها تقفيلة • ويقال ان الشكل الثلاثي قد اخترعه (ستيسيخوروس) ، وهو الشكل المهيمن ، ليس في القصيدة الحماسية فحسب ، بل في القصيدة الكورسية الارستوقراطية اللاحقة• وكل القصائد تقريبا التي نظمها بيندار و(باخيليديس) للانتصارات في الالعاب هي ثلاثية المقاطع •

وأخيرا ، هناك الشكل المعروف بالقصيدة التي لا يتغير تركيبها المقطعي (monostrophic) (مونوستروفيك) ، حيث تتألف من تكرار مستمر لمجموعة واحدة (AA A) • ويستخدم هذا احيانا بيندار وباخيليديس في قصائدهما الانتصارية ، ويستخدمه الاخير في بعض قصائده الحماسية • وقبل اختراع الشكل الثلاثي ، كان هذا هو الشكل المهيمن في الاعراف الارستوقراطية • وتنتسب جميع قصائد (الكمان) و(سافو) و(الكايوس) الموجودة الى هذا النمط •

ان علينا ان نحاول اعادة تركيب صورة اصل هذه الاعراف ونموها• فأولا ، نلاحظ ان (الأنتي ستروفيك) هو الاكثر مرونة من بين الاشكال الثلاثة • والسبب هو انه لما كان كل زوج مختلفا عن الزوج الاخير ، فان بالامكان تنويع وزن القصيدة وتطويره • وعلى ذلك فهو الاكثر اثارة• وثانيا ، ان السبب في ان المجموعات تجمع ، في الشكلين الانتي ستروفي

والثلاثي معا ، بشكل زوجي لا بد ان يكمن في ان القصيدة هي ترنيمة ترجيعية او تجاوبية antiphoral • وثالثا ، ان القصيدة الحماسية تنتسب الى العرف الارستوقراطي ، حيث تكون اما ثلاثية او ثابتة المقطع • فأي هذين الشكلين هو الاكثر بدائية ؟ يبدو ان الجواب ان ايا منهما ليس بدائيا ، بل ان لهما معا اصلا مشتركا •

وفي الالياذة ، تنشد نساء طروادة اغاني حزينة او مناحيات على جثمان (هكتور) • وتقودهن (اندروماخي) و(هيكوبي) و(هيلين) • وكل من هؤلاء «تستهل» انشادها على التعاقب بالثناء على الرجل الميت ، وتتبع كل تأدية منفردة بنحيب عام • والكلمة المستخدمة لوصف وظيفة القائدات هي التي يطلقها ارسطو وآرخيلوخيس على قادة القصيدة الحماسية (الاكسارخونات) • وواضح ان الاساس الطقسي لهذا الاداء هو سلسلة من التأديات المنفردة المرتجلة من القادة تعقبها في كل حالة لازمة من الجوقة • ويمكن الافتراض بأن التأديات المنفردة كانت تتطابق مع نموذج ايقاعي مشترك • وكما اعتبرها هوميروس ، فانها العنصر الحيوي ، اما اللازمات فهي روتينية او ميكانيكية لا غير • واخضاع اللازمة للتأدية المنفردة هذا ، اي اخضاع الكثرة للقلة ، يتطابق مع التمييز بين الشعب والنبلاء ، او بين جمهور المؤمنين والكهنة • والى هذا ، اذا حذفنا العنصر الشعبي حذفا تاما ، تركت لنا سلسلة من التأديات المنفردة المرتجلة على نمط موسيقي متكرر • وهذه هي الـ (سكوليون) او اغنية الشرب الارستوقراطية • فالمستمتعون بالشرب يغنون ، وهم جالسون حول الطاولة ، واحدا بعد آخر مقطعا ترتجل كلماته ، بمصاحبة موسيقى متكررة • واذا كيفنا هذا العرف مع الفن الواعي لشاعر فرد ، كانت لدينا قصيدة (سافو) و(الكايوس) و(الكمان) الثابتة المقطع •

وفي وقت لاحق ، تظهر الايبودة مرة اخرى في الاعراف

الأرستوقراطية ـ الا انها ليست على هيئة لازمة شعبية ، بل اتقان فني. فالقصيدة تغنيها الآن شبه جوقتين : حيث تغني المقطع الاول (الستروفي) الجوقة الاولى ، والمقطع الثاني (الانتي ستروفـــــي) الجوقة الثانية ، والايبودة الجوقتان معا . وبعد ان يجري التخلي عن ممارسة المجاوبة الانشادية ، يحتفظ بالقصيدة الثلاثية باعتبارها اساس البناء الاجتماعي ، وتنتقل من القصيدة الارستوقراطية الى القصيدة الحماسية الناضجة . وآخيرا ، ففي التراجيديا ، تستبدل القصيدة الثلاثية بالزوج الأنتـــي ستروفي . ومن جهة اخرى ، يستمر التراجيديون في الاستفادة احيانا من اللازمة التي تعرف الآن بالـ (ايفيمينيون) ، وذلـــك بسبب المغزى المتغير للايبودة . ويمكن الاستنتاج بأنهم استخلصوا هذا العنصر مـــن القصيدة الحماسية البدائية .

ان اعادة التركيب هذه تنطوي على الافتراض بأن الايبودة كانت بدائية ، وتتألف في الاصل من لازمة ، بالرغم من انها لم تكن موجودة في العرف الارستوقراطي القديم . وعلينا ان تتذكر بأن العرف الذي كنا ندرسه كان عرفا فنيا . ولا بد ان كانت الترنيمات التقليدية المستخدمة في صلاة الآلهة اليومية ابسط وأكثر بدائية . ولا نعرف عن هـــــذه الترنيمات الا القليل ، ولكن ما نعرفه ذو اهمية . فترنيمة الكوريتيين ، التي اشرنا اليها في الفصل السابق ، هي قصيدة ثابتة المقطع مع لازمـــة ملحقة بكل ستروفي . واللازمة في الترنيمة الموجهة الى دايانايسيس التي تنشدها نساء ايليسيس ـ «ايها الثور الجدير ، الثور الجدير» ـ يصفها بلوتارخ بعبارات تدل على انه اعتبرها ايبودة .

لقد كان لكلمة (epoidôs) معنيان . ففي المعنى الفني ، كانت تطلق على الجزء الثالث من القصيدة الثلاثية ، وبهذا الاطلاق كانت تفهم على انها تعني «ما بعد الاغنية» . ولكنها كانت تستخدم بمعنى غير فني،

اي تعويذة ؛ رقية ، او تعزيم • وبهذا المعنى فقد كانت مرادفة لـ (epoidé) • وفكرة التعزيم تعود بنا الى السحر البدائي ، وتبين ان المغزى الاصلي لـ (epoidos) لم يكن «ما بعد اغنية» وانما اغنية «تغنى على» شخص ما ؛ كعويل النساء الطرواديات على جثمان هكتور ، او الرقية التي تتلى على الرجل المريض لشفائه او على الآثم لتنفيذ اداانته • والحقيقة ، بامكاننا ان نتجاوز هذا ونقول ان اللازمة البدائية كانت تعزيما • وفي (اوريستيه) اسخيلوس ، تؤدي الايرينيات رقصة سحرية غرضها انزال الموت بقاتل أمه وإدانته • والرقصة هي (Stàsimon) (ستايتسسون) او اغنية وقوف من النسط الاعتيادي باستثناء ان الجزء الاول من كل زوج انتي ستروفي تعقبه لازمة ؛ تكرر في نهاية الثاني • وهذه اللازمات ، التي تغنى فيما تقفز الارينيات حول ضحيتهن ؛ هي التي يأتي السحر عن طريقها بمفعوله • وتستخدم اللازمة من جانب اسخيلوس بذات الطريقة في الستاتيسمون الاول في مسرحية (المتضرعات) ؛ حيث تلعن الهاربات مطارديهن ويستنزلن عليهم عاصفة قبل ان يتمكنوا من الوصول الى الميناء • وهذه اللازمات هي مجرد تعزيمات السحر التمثيلي • وهي النواة البدائية التي كانت قد تطورت منها الجوقة اليونانية ، بالمراحل التي سبقت الاشارة اليها •

والقصائد الكورسية للتراجيديا اليونانية هي على ثلاثة انواع : (البارودوس) ؛ وهي تنشد فيما تدخل الجوقة الاوركيسترا ، و(الستاتيسمون) ، وهي تنشد بعد ان يكون أفرادها قد اتخذوا اماكنهم، و(الكوموس) • اما عن النوعين الاولين ، اللذين يطابقان التركيب الانتي ستروفي الاعتيادي ؛ فلا حاجة لقول المزيد • الا ان الثالث مختلف نوعا ما • وقد سبق ان رأينا مثلا واحدا من الكوموس في الحوار الشعري بين البشير والجوقة في (المتضرعات) لأسخيلوس • وفي بحثنا

ذلك المقطع ، اشرنا الى وجهة النظر التي طرحها (كرانز) وهي اننا نجد في هذه الحوارات الشعرية نواة الحوار التراجيدي • والكوموس هي تفجع تشارك فيه الجوقة وواحد او اكثر من الممثلين ، ومكانها الاعتيادي هو مباشرة قبل الازمة التراجيدية او بعدها • ولربما كانت «لطما على الصدر» ــ اي (Thrénos) او تفجع • الا انه جدير بالملاحظة ان الكلمة لا تستخدم اطلاقا في النثر الاتيكي باستثناء استخدامها كتعبير فني لوصف هذا الجزء من التراجيديا • وعلى ذلك فقد كانت كلمة قديمة مهجورة الاستعمال • وهذا ينطبق مع وجهة نظر (كرانز) بأن ما كانت تعنيه الكلمة هو سمة بدائية المعرف التراجيدي • وهناك أدلة تشير الى ذات الاتجاه •

وفي نمط الكوموس ، او التفجع ، الابسط ، ينشد الممثل المقطع الاول او الستروفي ، يعقبه آخر من الجوقة ، ثم ينشد الممثل مقطعه الثاني او الانتي ستروفي ، وتغني الجوقة مقاطعها (ABAB CDCD) • واذا حذفنا مبدأ المقطع الثاني ، الذي ربما لم يكن ، كما رأينا ، أقدم من التراجيديا نفسها ، تقلص هذا التركيب الى تأدية منفردة ثابتة المقطع مع لازمات (Ab Ab Ab) • ووفقا لرأينا ، كان ذلك هو شكل القصيدة الحماسية البدائية • واضافة الى ذلك ، واضح في وقت واحد من الايقاع الذي بني عليه (وهو عادة بيوني) (*) ، وفي بعض الحالات من الكلمات المصاحبة ، ان حركة رقص الكوموس كانت مثارة ومشبوبة العاطفة • ولا نعرف شيئا تقريبا عن كيفية استخدام الفواصل النغمية

(*) البيون Paeon : في علم العروض الكلاسيكي ، تفعيلة ذات طول واحد وثلاثة مقاطع قصيرة ، تسمى البيون الاول او الثاني او الثالث او الرابع ، حسب موقع المقطع الطويل (المترجم) .

الموسيقية في التراجيديا اليونانية • ولكن يبدو ممكنا ان الكوموس كان يميز ايضا باستخدام أسلوب الفواصل النغمية الفريجينية المثارة ، الذي يوصف بالـ (entheos) او «الممسوس» او المتلهف • ونحن نعلم ان هذا هو الاسلوب الذي استخدم في القصيدة الحماسية •

وهكذا ، كانت ذروة التراجيديا ، المتطابقة مع اللحظة الحاسمة ، (الآغون) . في الوله بدايانايسيس ، تمثل بصورة عامة بشكل متميز كان يجسد بقايا القصيدة الحماسية البدائية ــ اي حوارا موسيقيا بين القائد وجمعيته •

ان أرسطو ، في تحليله الحبكات التراجيدية ، يميز الحبكة المركبة او المعقدة من الحبكة البسيطة ، باعتبارها حبكـــة يتصادف فيها تغير الحظ (بيريتيا) اي تحول الفعـــل الى نقيضـــه او (انغانوريسيس) او التعرف او كليهما • وما كان يعنيه بالمصطلح الاول سؤال جوهري لن نحاول الاجابة عنه في هذه المرحلة • اما التعرف فهو يحدده بأنـــــه «تحول من الجهل الى المعرفة . تحولا يفضي الى صداقـــة او كره بين الشخوص الذين يخصصون لحظ حسن او عاثر» • وهو يقسم هـــذا التعرف الى اربعة أصناف وفقا للطرق التـــي تحقق بها بالرمـــوز ، وبالكشف او البوح الذاتي المتعمد ، وبصراخ او عمـــل معينين غير مقصودين ، وبالاستنتاج •

وملاحظاته عن هذا الموضوع توضح ليس فقط ان التعرف كـــان سمة للعرف مستمرة وجذرية ، بل ان احد اشكاله الاعم ، الذي يعتبره الاكثر بدائية ، كان التعرف بطريق الرموز الوراثية • ومثالان من هذا الصنف هما معروفان لدينا من المسرحيات الموجودة : التعرف علـــى اوريستيس من احزمة قماطه المطرزة ، والتعرف على آيون بالعلامـات التي كان ترك بها معرضا في العراء وهو طفل • وقد سبق ان شرحنـــا

مغزى هذين المثالين : وأرسطو يشير الى امثلة اخرى تنتسب بوضوح الى الصنف نفسه ــ رمح السبارتوي (ص ٤٦) ؛ ونجمة البيلوبيداي ــ وهي علامة تقليدية اخرى للولادة • فماذا كان اصل التعرف ؟

من المتفق عليه ان موضوعات التراجيديا الاولى كانت تؤخذ من اساطير دايانايسيس • وقد ذهبت انا الى ان الموضوع الاصلي كان موت الإله • ومعروف ايضا ان سلسلة الحكايات التي تصور مغامرات دايانايسيس لم تكن في القرن الخامس اكثر بروزا في التراجيديا من السلسلات الاسطورية الاخرى • وبامكاننا ان نخطو الآن خطوة أبعد • فمن البدهي ان اوائل التراجيديين ، قبل ان يبدأوا بالاعتماد على سلسلات اخرى ، قد استخدموا حتما الاساطير الدايانايسيسية استخداما تاما • ولا بد انهم مسرحوا ، لا موت دايانايسيس فحسب ، بل ميلاده وبعثه ايضا • وهذا ، كما قلت ، بدهي ، ويدعمه القياس بالمسرحيات الدينية في القرون الوسطى • وكانت نواة هذه المسرحيات هي أنشودة الماريات الثلاث «عمن تبحثن» في طقس عيد الفصح • وقد طورت هذه النواة بمَسرحة العناصر الاخرى في اسطورة الفصح ــ اجتماع الماريات مع الملاك ، ومع الحواريين ، ومع المسيح نفسه • وتم الوصول الى المرحلة الثانية عندما طبقت العملية ذاتها على اسطورة الميلاد • وفي المرحلة الثالثة ، تتراوح الموضوعات من الخلق والسقوط الى دانيال ونبوخذنصّر •

ولهذه الاسباب يمكن التخمين بأن موضوع التعرف مشتق من بَوح الإله الذاتي بعد اعادة ولادته او بعثه • ويجوز لنا الافتراض بأن ظهوره قد أعقبه استجواب من جانب الجوقة ، أثبت في نهايته هويته بكشفه لهم عن الاشياء المقدسة او الرموز السرية المرتبطة بعبادته • ويتلقى هذا التخمين شيئا من الدعم الاضافي من سمة اخرى للعرف لا

يزال من الواجب تفحصها •

وما من صفة مميزة للتراجيديا اليونانية اكثر ذيوعا من المقاطع المرتبة بشكل سؤال وجواب متناوبين بيتا فبيتا ، والتي يطلق عليها باللغة اليونانية تعبير (ستيخوميثيا) • وقد احتفظت هذه السمة طوال تاريخها بطابعها المسعن في الشكلية ، باستثناء ما كان يقوم به سوفوكليس ويوريبديس احيانا من تخفيف لشدته الى حد السماح بتغيير للمتحدث وسط البيت • وبالنسبة الى آذاننا ، غالبا ما يكون الاثر غير مألوف بل حتى سخيفا ، ومثال ذلك ما نسمعه في ازمة (أغاممنون) • واذا كان الاثينيون قد قبلوه . فقد كان السبب الرئيسي في ذلك ، على ما يجب ان نفترضه ، هو انه كان سمة للعرف اساسية ، وبالتالي بدائية •

ان الحوارات الشكلية هذه هي بالمثل تلفت النظر لمحتواها • فهي لا تقتصر على الانطلاق بترتيب متناسق للاسئلة والاجوبة ، ولكنها غالبا ما تبدو . ولاسيما عند اسخيلوس ، وكأن المتحدثين اكثر حرصا على اخفاء معناها من الكشف عنه • «ان كلامك لغز ـ تحدث بكلمات واضحة» • وهذه الابيات نموذجية • ويتخذ الكلام احيانا الشكل الفعلي للغز • وهكذا ، نجد في مسرحية (خيفوري) او (حاملات الشراب) ، وبعد مقتل (ايجيسثوس) ، وحين تسأل كليمينيسترا العبد عن سبب الصياح ، نجد العبد يعلن بشكل غامض : «أخبرك ان الاحياء يقتلهم الموتى» • وتجيب كليمينيسترا : «آه لي ، انه لغز ، ولكنني أقرأ معناه» • والتأثير الكامل لجوابها مضاع في الترجمة ، لان الكلمة التي تستعملها ـ **(xynéca)** «انا أفهم» ـ تعيد الى الذهن العبارة التي تطلق بصورة عامة على الملقنين ـ **(hoixynetoi)** ـ «أولئك الذين يفهمون» ، أولئك الذين قبلوا الى الاسرار الطقسية • وإذن هنا لغز ، علينا ان نسعى لحله •

ان اللغز مترسّخ في الفولكلور الهندي ـ الاوربي على درجة من العمق تساوي انتشاره بين الشعوب البدائية في الوقت الحاضر • وتوحي المعطيات التي جمعها (شولز) ، والتي يجدر ان تعوض بتحليل اعمق ، بأن اللغز كان يؤلف في الاصل الجزء المنطوق من تجربة او اختبار قاسٍ تلقيني • الا ان عليّ الآن أن اقتصر على الادلة المأخوذة من اليونان القديمة ، التي هي كافية لاثبات النقطة المباشرة مدار البحث بصورة مؤقتة •

لقد عرف اللغز من قبل (كليرخوس) من (سولوي) بأنه «معضلة مضحكة تتطلب استخدام الذكاء في اكتشاف الحل وتنطق لغرض عقاب او مكافأة» • والنمط اليوناني الاعتيادي يمكن ايضاحه بلغز السفينيكس ، الذي اصبح بقراءاته اوديبوس ملك طيبة :

هناك شيء له صوت واحد ،
أقدامه اربعة واثنان وثلاثة ؛
ولا يوجد شيء كثير التحول جدا ،
بحيث يتحرك في الارض او السماء او البحر ؛
وحين يكون هذا الشيء على معظم أقدامه فهو ينطلق ،
قوته أقل ، وخطوه أبطأ •

ان السمة الجوهرية في اللغز هو ان الشيء المراد تشخيصه يوصف بعبارات رمزية ومتناقضة في الظاهر •

لقد كانت السفينيكس حيوانا هولة ذات تركيب جسدي عجيب ، وكانت تعيش في جبل (فيكيون) ، حيث كان (فيكس) الشكل الأيأولي لاسمها • والاسطورة عن علاقاتها مع عائلة طيبة المالكة مدونة من قبل

(بوزانياس) • وقد تعلمت هي لغزها من (ليوس) ، الذي يفترض انه كان قد تعلمه من ابيه . لاننا نعلم انه اعطي اصلا من قبل قاريء الاسرار الدلفي الى والد جده . قدموس . مؤسس السلالة • وكان لليوس ابناء من نساء أخريات عدا ملكته • وعلى ذلك ، فحين كان احدهم يرغب في المطالبة بأن يكون وارثا . كان يرسل الى الجبل . حيث كانت السفينيكس تسأله لغزها ، واذا فشل في حله ، كان يُقتل • وتنطوي هذه الاسطورة على شكل معين من التلقين بأسرار عشيرة مالكة •

وجدير بالتذكر ان العادة في اسبارطة جرت على ان يُسأل الصبيان من قبل الايرين (اي رجل في السنة الثانية من بلوغه) بعد العشاء اسئلة عن الشؤون العامة . واذا اعطوه جوابا خاطئا عضّ ابهامهم (الفصل السابع) • ويبدو محتملا ان هذه الاسئلة ايضا كانت تتعلق اصلا بأسرار تلقينية ، لاننا رأينا ان احد الطقوس البدائية للتلقين ، الذي يمكن ان يرى آثره في اسطورة اوريستوس ، هو بتر احد الاصابع (الفصل السابع) • ويذكر (أثينايوس) ان الالغاز في العصور القديمة كانت تسأل عادة في حفلات الشرب لغرض تعليم الشبان . وهو يشير الى مقطع من (ديفيلوس) يصف ثلاث فتيات من (ساموس) تسأل احداهن الاخرى الغازا في حفلة شرب اثناء مهرجان (ادونيس) • وأخيرا ، يقول بلوتارخ انه كان من عادة النساء في مهرجان (اغريونيا) في طيبة ان تسأل احداهن الاخرى الغازا بعد العشاء، وذلك بعد ان يعدن من بحثهن عن دايانايسيس المفقود •

ويوحي هذا الدليل انه في اليونان ، كما في اجزاء اخرى من العالم ، كانت عادة السؤال عن الالغاز مأخوذة من طريقة التعليم بالاسئلة والاجوبة في أسرار التلقين ، حيث كان الغرض اختبار معرفة المبتديء بالرموز الطقسية • وعلى ذلك فمن المحتمل ان تكون الستيخوميثيا

أثرا من طرق التعليم هذه بالاسئلة والاجوبة ، لان الكثير من التراجيديا اليونانية يعود في اصله الى التلقين • ومن السهل ان نرى كيـــف ان تشخيص الإله يمكن ان يستخدم كوسيلة لتفسير تلك الرموز في مجرى اية دراما طقسية •

وأخيرا ، علينا ان نرى ما اذا كان ممكنا استخلاص اي شيء ذي قيمة مما نعرف عن المسرح الذي كان يؤدي المثلون عليه تمثيلهم • ومن سوء الحظ ان هذا قليل جدا • فلم يبق اثر من المسرح كما كان عليه ايام اسخيلوس ، ولربما كان السبب هو انه كان مصنوعـــا من الخشب • واستنادا الى بقايا أقدم البنايات الحجرية ، التي يعود تاريخها الى نهاية القرن الخامس وفقا لما يقوله (بخشتين) ، او منتصف الرابع وفقا لمـــا يقوله (دوربفيلد) ، يبدو محتملا ان الهيكل الخشبي القديم كان بناية طويلة ذات اجنحة في كل طرف منها تبرز نحو الاوركسترا ، وأن المسرح كان منصة ضيقة تمتد امام هذه البناية من جناح الى جناح • وعلى ذلك فقد كانت واجهة البناية تؤدي وظيفة خلفية للمسرح ، وكانت توجد فيها ابواب تؤدي من المسرح الى غرف تغيير ملابس المثلين • وعمق المسرح مجهول ، ولكن لا يحتمل ان كان مرتفعا جدا ، لاننا نعلـم ان الممثلين كانوا يتحاورون بحرية مع الجوقة ، وأن طريقا سهلا كان يتواجد للمرور من المسرح الى الاوركسترا •

كان المسرح وبنايات المسرح تعرف باسم (Skené) • وتعنـي هذه الكلمة بصورة رئيسية «خيمة» ، كما تستعمل بمعنى غطاء العربة او ظلة عربة مغطاة • وهذا مهم ، لان (هوراس) يخبرنا بـأن (ثيسبيس) وممثليه اعتادوا التطواف في الريف الاتيكي بعربة • كما نعلم ان العربات كانت سمة ثابتة للكوموس الدايانايسيسي • وكل هذه الامور تشكـل وحدة متماسكة وتخبرنا بشيء جدير بالمعرفة عن الدراما الاتيكية قبل

تأسيس المباريات الرسمية في مدينة دايانيسيا • ويقال ان ثيسبيس قد فاز بالجائزة التراجيدية (وهي معزاة) حوالي عام ٥٣٤ قبل الميلاد ، وهو الوقت الذي كان يجري فيه تنظيم المهرجان من قبل بيسيستراتوس •

اسلوب تطور التراجيديا اليونانية الطقسي

التلقين البدائي	التلقين اليوناني	التراجيديا
الرحيل صبياً	بومبي	بارادوس
الموت والنشور	آغون سباراجموس	بيريبيتيا كوموس
الكشف عن الاشياء المقدسة	أناكاليبسيس	أناغنوريسيس
التعليم بالاسئلة والاجوبة	اينيفياتا دوكيماسيا	ستيخوميثيا
العودة بالغناً	كوموس	ايكسودس

واذا كانت الرواية التي حفظها هوراس حقيقة ـ وليس هناك من مبرر للشك فيها ـ فهي تزودنا بحلقة هامة في السلسلة التي كنا نحاول اعادة تركيبها • فقد كانت الدراما الدايانايسيسية ، بعد ان توقفت عن كونها طقس جمعية سرية ، وقبل ان تضسن موضع قدم لها في اثينا ، كانت في أيدي نقابة او نقابات مسثلين ، كانوا يجوبون القرى الريفية • وما من ريب في ان هذه النقابات كانت لا تزال منظمة على اساس ديني ، مشتق من تنظيم الجمعيات ، وكان أداؤها لا يزال مغلفا بمغزى ديني ومرتبطا بصالح الغلال • الا ان من الواضح الى حد ما انها لو كانت قد بقيت في هذه البيئة لتدهورت الى المسرحية الصامتة الفلاحية التي لا

نزال نألفها في اوربا الحديثة . وإذن فقد كانت هذه هي الفترة التي تطورت فيها صفات الصخب والفجاجة . تلك الصفات التي لاحظ ارسطو بأنها كانت مميزة للاسلوب التراجيدي الاول .

وقد أوضح (جامبرز) ، في دراسته مسرح القرون الوسطى الانكليزي ، بأنه مع نهوض البرجوازية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فقد نقل ما يسمى بالمسرحيات الطقسية ، التي كانت قد نست من طقوس كنيسة القرون الوسطى ، من الكهنة الى نقابات البرجوازيين . ومن الكاتدرائية الى ساحة السوق ، وفي ذات الوقت فقد جعلت موضوعاتها علمانية . وقد كان للدراما الانكليزية عناصر اساسية مشتركة مع الدراما اليونانية . والسبب هو ان هذه المسرحيات الطقسية قد تأثرت بالمسرحية الصامتة ، وبالرقص الشعبي والانشطة الادائية الاخرى المأخوذة عن الطقوس الزراعية للقبائل الجرمانية . وبعد ان جرت علمنة الدراما طورت ايضا برعاية الملوك التيودوريين . الا انه يوجد فارق جذري واحد ، له اهميته العميقة بالنسبة لكلتيهما . ففي انكلترا ، دافعت الكنيسة عن النبلاء الاقطاعيين ، وكانت طقوسها باعتبارها طقوس طبقة حاكمة قد رسخت منذ فترة طويلة بشكل جامد غير ملائم للتغير . ولهذا السبب ، فان الدافع الى المسرحة ، التي جاءت اولا من الفلاحين ، الذين سعوا بصورة غريزية وراء تحويل الطقوس الى شيء مفيد — الى سحر تمثيلي — لم يدفع الى أمام الا بوجه معارضة شديدة من السلطات الكنسية . وللسبب ذاته ، عندما تولى هذه المسرحيات البرجوازيون ، منافسو النبلاء الاقطاعيين ، ومن ثم رعاها التيودوريون بوصفهم زعماء البرجوازية ، طوّرت الدراما في معارضة واعية ضد الطقوس الدينية ، التي اصبحت مستقلة عنها استقلالا تاما . ومن جهة اخرى ، ففي اتيكا ، كانت عبادة ديانايسيس ، التي تطورت منها

الدراما ، شعبية دائما ، ولهذا فقد أحياها الحكام المستبدون وأعادوا تنظيمها معارضة للعبادات العشائرية لدى قدامى النبلاء • وبالتالي ، فحين جلبت الدراما الى اثينا ، فقد عكس الاتجاه نحو العلمنة ، الذي كان قد بدأ مع انتشار العبادات الدايانايسيسية بين الفلاحين • وبدلا من الاستمرار في الابتعاد عن الطقوس ، فقد أعيدت اليها ، وبقيت بعد ذلك طوال تاريخها خدمة إلهية بالدرجة الاولى ، فرضت على شرّاحها انضباطا فنيا صارما في اللحظة التي أقيمت فيها بشكلها الطقسي الجديد • وهذا احد الاسباب في ان التراجيديا الاثينية هي فنيا اكثر كمالا من التراجيديا الاليزبيثية •

لقد رأينا ان بيسيستراتوس ، في سياسته الدينية ، كان يسعى وراء هدف مدرك بصورة واعية • وينطبق هذا ايضا على موقفه من الدراما• فهو حين أسس المباريات التراجيدية ، لم يكن هدفه مجرد ارضاء أذواق واهتمامات التجار والصناع الاثينيين ، وانما استخدام الشكل الفني ، الذي كان الناس قد خلقوه ، وسيلة لرفع مستواهم الثقافي وصهرهم في أمة • وكما كان الشكل الفني الجديد تعبيرا عن التقدم الذي سبق احرازه ، فقد أصبح تحت توجيهه حافزا لمزيد من التقدم • وقد كانت التراجيديا الاثينية مرتبطة منذ البدء ارتباطا لا ينفصم بالتقدم المادي والاجتماعي للشعب الاثيني •

كما رأى ايضا ، انه اذا اراد الاثينيون ان يطوروا ثقافة وطنية متميزة ، كان عليهم ان يتمثلوا ثقافة الدول اليونانية الاخرى ، ولاسيما تلك التي كانت في ذلك الوقت اكثر تقدما منهم • وكان هذا هو الغرض الذي من اجله أسس التلاوة العامة للملحمة الآيونية ، وبذلك فتح امام الدراميين الأثينيين مستودعا من المواد التقليدية المفصلة تفصيلا وافرا • الا ان الشاهد الاكثر اثارة على بعد نظره هو تاريخ

القصيدة الحماسية الناضجة •

ففي ظل الحكام المستبدين ، اصبحت اثينا بسرعة المركز الرئيسي في اليونان لاداء القصائد الحماسية • ومع ذلك ، فقد كان شعـــــراء القصائد الحماسية المعروفون لدينا بأجمعهم تقريبا من الاجانب : لاسوس من (هيرمايني) ، هيبوديكوس من (خالكيس) ، بنــــدار من (طيبة) . سايمونيديس وباكخيليديس من (كييوس) . وقد كتبوا جميعا لمدينـــة دايانيسيا • ولماذا بذل الحكام المستبدون الاثينيون كل هذا الجهـــد لتشجيع شكل فني لم يظهر نحوه شعراؤهـــم ، المستغرقو الذهــــن بالتراجيديا ، الا قليلا من الميل ؟ ان السبب لا بد ان يكون بالتأكيد هو انهم قدّروا قيمته بالنسبة لتطور التراجيديا • وفي شبه جزيـــرة البيلوبونيس ، في كورينث وسيكيون ، كانت الحركة الشعبية ، ومعها الانبعاث الدايانايسيسي ، قد بدأت في فترة اقدم بكثير من بدئها في اثينا • واضافة الى هذا ، فان شكلها الفني المميز ، القصيدة الحماسيه، كان قد تلقى منذ البدء عونا من الاتصال الوثيق بالتقليد الكورســـي للارستوقراطية الدوريانية ـــ وهو تقليد لم يكن قد تأصل ابدا فـــي اتيكا • والحكام المستبدون ، بتأسيسهم القصيدة الحماسية في مدينه دايانيسيا ، جعلوا من هذا التقليد شيئا يمكن ان يصل اليه الدراميـــون الاثينيون ، الذين كانوا بذلك قادرين على دمجه في جوقتهم التراجيدية•

وهكذا ، فيما اتت السلطة من الناس ، فقد كان قائدهم هو الذي جعلهم وُعاة بها وبذلك مكنهم من استخدامها • ولولا هذا الاتحاد بين الدافع الجماهيري والقيادة الفردية ، لما استطاع فن التراجيديا ان يتقدم بالسرعة التي تقدم بها ، وبالتالي لما كان مهيئاً للافادة الى اقصى حد من الحافز الهائل الذي كان سيتلقاه قريبا من الثورة الديموقراطية •

ان محاججتنا حتى هذه النقطة يمكن تلخيصها على النحو التالي : ان

الجمعية (الثاياسوس) الدايانايسيسية كانت جمعية سحرية سرية احتفظت، بشكل محوّر ، بتركيب ووظائف العشيرة الطوطمية ، التي كانت قد تطورت منها اثناء الفترات الاخيرة من المجتمع القبلي . وكانت تتألف من نساء يقودهن كاهن . وكان طقسها الرئيسي ، المشتق من التلقين ، يحتوي ثلاثة عناصر هي : هجرة عربدة وطرب الى الريف الطلق ، وحفل ديني كان يمزق فيه قربان ما إربا ويؤكل نيئا ، وعودة ظافرة . وكان هذا الطقس يعرض بوصفه أسطورة لحب دايانايسيس . ولما كانت وظيفته زيادة خصب التربة . فقد استمر بين الفلاحين وحدهم ، وهكذا اصبح في مرحلة تالية مرتبطا ارتباطا وثيقا بالحركة الشعبية ضد النبلاء مالكي الارض . وفي بعض انحاء اليونان ، وبسبب التغيرات في العلاقات الاجتماعية للجنسين ، فقد انتقل الطقس الى هيمنة الرجال ومر بتغير آخر . وقد توقف عن السرية ، وبدأ بالانحلال . وقد اصبح الموكب الخاص بالقصف والطرب ترنيمة ، تطورت بأقصى سرعة في شبه جزيرة بيلوبينيس ، وأصبح حفل القربان المقدس مسرحية تصور حياة إله ، حيث تطورت بصورة رئيسية في اتيكا ، حيث تقدمت اكثر الحركة الشعبية بعد بدئها في مرحلة لاحقة . ومن الاولى نشأت القصيدة الحماسية ، ومن الثانية التراجيديا . وقد خلع عليهما صفة المدينة ووجههما توجيها واعيا معا الحكام المستبدون ، حيث كانت الاولى تنضج تحت تأثير الشعر الغنائي الارستقراطي . وهكذا ، ونحن نلتفت متأملين في محاججتنا ، نستطيع القول بشكل اكيد بأن فن التراجيديا كان منحدرا من الطقس التمثيلي للعشيرة الطوطمية البدائية ، انحدارا بعيدا ولكنه مباشر : وكان مكيفا في كل مرحلة في تطوره بتطور المجتمع نفسه .

مراجع

Pauly - Wissowa, S.V. Râtzel.

Pickard - Cambridge, A.W. The Theatre of Dionysus in Athens. Oxford, 1946.

.... The Dramatic Festivals of Athens. Oxford, 1953.

Chambers, E.K. The Medixval Stage. Oxford, 1903.

القسم الرابع

اسخيلوس

-١٢-

الديموقراطية

لم يكن قد وجد تطور ظاهر يذكر في دستور اثينا في ظل الحكام المستبدين . الذين أبقوا على سيطرتهم على الادارة بملء المناصب التنفيذية بمرشحيهم . وبعد طرد (هيبياس) وهزيمة الثورة المضادة التي حاولها (ايساغوراس) ، وضع دستور جديد هدفه وضع الحقوق التي كسبها الشعب على اساس امين .

وكانت اثينا قد انتقلت الآن من اقتصاد زراعي بسيط الى اقتصاد نقدي . وكانت الامتيازات الوراثية لطبقة ملاك الاراضي قد ألغيت ، وأخضعت حقوق الولادة الى حقوق الملكية . وقد أدت هذه التغيرات فعلا الى تغيرات عميقة في قوانين الارث وفي العلاقات الاجتماعية للجنسين . والآن فقد أزيلت آخر بقايا النظام القبلي القديم ، القائم على القرابة . والذي اصبح قيدا على جوانب الواقع الاقتصادية والاجتماعية

الجديدة . ومن جهة اخرى . لما كانت الثورة التي تحققت بهذا الشكل تتكون بصورة رئيسية من استرداد عامة الناس للمساواة التي كانوا يتمتعون بها في ظل النظام القبلي . فقد صحبتها ، في أحوال جديدة ومختلفة اختلافا واسعا . بعض مؤسسات المجتمع القبلي المميزة ، كالجمعية الشعبية . والمهرجانات العامة . واستخدام القرعة . وأخيرا ، لما كانت القوة الدافعة وراء الثورة هي طبقة التجار والصناع الوسطى الجديدة ، فقد اتسم صعود هذه الطبقة الى السلطة بتطور وجهة نظر جديدة ومتميزة تجاه المجتمع والعالم .

وقد سبق ان وصفنا كيف نصبت العائلات البارزة من العشائر الاتيكية البدائية نفسها طبقة حاكمة منغلقة . الا ان تركيب النظام القبلي . بالرغم من تضرره بهذا التطور ، الذي دمر تضامن القبيلة ، احتفظ بنفسه باستمرار حتى الفترة التي بلغناها الآن . فقد كان تنظيم الجيش في ظل الرؤساء القبليين الاربعة (فيلوبيسيليز) ، المنتخبين من قبيلة (البوباتريين) ، قبليا . والاهم من ذلك ، فقد كان التمتع بالحقوق المدنية يعتمد على عضوية احدى البطون . ولما كانت البطون مجموعات عشائر ، فقد كان هذا يعني ان المواطنين كانوا لا يزالون جماعة قبلية ، مؤلفة من أولئك الذين كانوا ينتسبون الى العشائر الاتيكية البدائية . وهذه هي النقطة التي كان عندها الضغط ضد التركيب القبلي على أشده ، وقد اتى من الطبقة الوسطى الجديدة .

وقد كان تطور اتيكا الصناعي قد تعرقل في مراحله الاولى بقلة العمال . وكما رأينا ، فقد كان هذا هو السبب في ان صولون لم يفعل شيئا لوقف نزع ملكيات الفلاحين ، وللسبب ذاته كان قد أجاز قوانين ضد البطالة وشجع هجرة الصناع الاجانب . الا ان هؤلاء المهاجرين لم يستطيعوا اكتساب الحقوق المدنية الا بحصولهم على قبول في البطون ،

وبالتالي فقد كانت سياسة الارستوقراطية مالكة الاراضي ابقاء البطون مغلقة • وقد جرى الاحتفاظ من هذه الفترة بقانون يشترط عدم قصر عضوية العشيرة على أفراد العشيرة • وقد زُعم ان هذا دليل على ان ارسطو كان مخطئا في قوله بأن البطن الاتيكي كان يتألف من مجـــرد عشائر متعددة كثيرة • الا انه بطبيعة الحال يثبت ان ارسطو كـــان مصيبا ؛ لان من البديهي انه اذا كان غير أفراد العشيرة لـم يستبعدوا اصلا ، لما كانت هناك حاجة الى قانون يفرض قبولهم • ولكن مـــن الواضح ان هذا القانون كان بصورة عامة غير فعال • ويخبرنا ارسطو بأن من اقوى مؤيدي بيسيستراتوس كان أولئك الخائفـــون ، بسبب كونهم من اصل غير نقي ، من فَقد مواطنتهم ـ اي المنحدرون مـــن صناع مهاجرين ممن كانوا قد قبلوا في البطون ـ ولكنهم كانوا يواجهون خطر الطرد على يد الحزب الزراعي • اما مدى ما كانت تدين به هـــذه الطبقة للنظام الاستبدادي فتظهره حقيقـــة ان من بين اول اعمـــال ايساغوراس . عندما سقط هذا النظام ، كان نزع حقوق عدد مـــن المواطنين كبير ممن كانوا عاجزين عن اثبات اصل اثيني نقي ، وبعد فترة قصيرة من ذلك ، وحين دخل الملك الاسبارطي اتيكا ، طرد ما لا يقل عن سبعمائة عائلة كانت مؤيدة لـ (كليسثينيس) • وواضح اذن ان طبقـــة التجار والصناع المتنامية بسرعة كانت ، حتى الوقت الذي تسلمت فيه السلطة في ظل كليسثنيس ، لا تزال غير آمنة على امتلاكها الحق بسبب نفوذ كبار ملاك الارض في البطون • وعلى ذلك ، فقد ألغيت فـــي الدستور الجديد الوظائف السياسية للبطون الغاء نهائيا •

وقبل ان نعالج اصلاحات كليسثينيس علينا ان نتوقف لننظر في آثار نمو الملكية في تركيب العشيرة الداخلي • فحتى بداية القرن السادس كانت ملكية الممتلكات ؛ العقارية والشخصيـــة معا ، لا تزال مودعة ،

اسيا على الاقل ، في العشيرة • ولم يتمتع الفرد الا بحق الانتفاع • وحين كان يموت رجل ما . كانت ثروته تنتقل الى ابناء عشيرته ، الذين تقسم بينهم بنسب تحددها ولا ريب درجة العلاقة بالميت • ومن المحتمل ان يكون الذكور قد استفادوا الى درجة اكبر من استفادة الاناث ؛ وبطبيعة الحال فقد كانت عضوية العشيرة تنتقل بالنسب الى الام بحلول هذه الفترة •

وكان قانون الميراث الاتيكي ، كما رسخ في ظل الديموقراطية ، ينسب الى صولون • وفي الوقت الذي لا يوجد فيه مبرر للشك في صحة هذا الحديث ، ينبغي التذكر بأنه كان لا بد بالضرورة من مضي بعض الوقت قبل ان تصبح النتائج الكاملة للنظام الجديد واضحة • وعلى ذلك يمكننا القول بأن الممارسة الديموقراطية المتعلقة بالارث كانت قد نمت تدريجيا في القرن السادس • ولكي نفهمها علينا ان نقارنها مع ما هو معروف عن ارث الملكية في انحاء اليونان الاخرى • فقد بقي قانون غورتينا ، الذي يعود تاريخه الى القرن الخامس ، ونحن نعرف شيئا عن الممارسة الاسبارطية في عصر ارسطو • وهذا الدليل ، وان كان ضئيلا ، كاف ليضع القانون الاتيكي بمنظور تطوري ، لأن غورتينا كانت من الناحية الاقتصادية اكثر تأخرا في القرن الخامس مما كانت عليه اثينا في القرن السادس ؛ وكانت اسبارطة ، حتى في القرن الرابع ، لا تزال اكثر تأخرا •

وفي القانون الاتيكي ، كان حق التوريث بالوصية معترفا به فقط في حالة غياب الذرية الشرعية ، وكان يمارس عن طريق التبني • واذا لم تكن للرجل ذرية ، فقد كان يستطيع ان يتبنى ابنا ، كان يصبح بذلك وارثه • وهكذا فقد استخدم استخداما جديدا العرف البدائي الخاص بالتبني • واذا توفي بلا اولاد ، شرعيين او متبنين ، انتقلت ملكيته الى

قريبه وفقا لترتيب الاولوية التالي: الاب ، الاخوة وأولادهم . الاخوات وأولادهن ، ابناء الاعمام والعمات وأولادهن . وأبناء الاخوال والخالات وأولادهن . ويبين استبعاد الام ، اضافة الى اخوتهـا وأخواتها . ان المفهوم الأحادي للقرابة المميز للعشيرة لم يكن قد أخضع بعد للمفهوم الاضيق ، والثنائي رغم ذلك . المميز للعائلة . فاذا كانت لشخص ذرية من كلا الجنسين ، كانت الملكية تقتسم من قبل الابناء شريطة ان يعيلوا أخواتهن حتى الزواج وأن يزودوهن بدوطة كان مبلغهـا محددا . واذا كانت له بنات فقط ، كنّ يرثن . ولكنهن كن يلزمن بالتزوج من أقرب انسبائه . الذين سيكونون بالدرجة الاولى اخوته ، وكان الميراث ينتقل الى ابنائهن حال بلوغهم سن الرشد . وهكذا فقد خرقت قاعدة الزواج من الأباعد . واضافة الى هذا . اذا كانت الوارثة متزوجة فعلا ، فقـد تلزم بتطليق زوجها لكي تتزوج أقرب الانسباء ، وكان اقرب الانسبـاء يطلق زوجته لكي يتزوجها . وتتطابق هذه التقييدات على حرية المرأة في مصالح الملكية مع القانون الاتيكي المتعلق بالخيانة الزوجية ، التي كانت تعتبر جريمة على درجة من الخطورة بحيث كان بمستطاع الرجل ان يقتل زوجة خائنة يقبض عليها متلبسة بالفعل دون ان يعتبر مرتكبا جريمةقتل.

وفي غورتينا ، كانت الزوجة تحتفظ بحقوقها على الملكية التي جلبتها معها كدوطة ، واذا طلقت على مسؤولية زوجها ، كانت تتسلم بالاضافة الى ذلك مبلغا قدره خمسة ستاتيرات من النقود . وحين كـان يموت الرجل ، كانت الملكية توزع كما يلي: بيت المدينة ومحتوياته . والمواشي، كانت توزع بين الابناء . اما الباقي وهو اراضي الريف ، بما فـي ذلك الاقنان المرتبطون بها والدور والمواشي التابعة لهم ، فقد كـان يقسم بين الابناء والبنات ، حيث كان للبنت نصف ما للابن . واذا لم يكن يوجد اولاد ، كانت الملكية تنتقل بأكملها الى البنت ، التي كـان

بامكانها ان ترفض التزوج من أقرب الانسباء ، شريطة ان تعوضـه بالتنازل عن نصف الاراضي •

وفي سبارطة . لم تكن القوانين مدونة ، ولذلك فليس من السهل تحديد قواعد الارث • الا انها يمكن ان تستنتج من ملاحظات ارسطو بصدد المسألة في ضوء القانونين الاتيكي والغورتيني • وقد كـان الاقتصاد السبارطي يستند الى ذات نظام الاراضي العائلية الذي كـان يستند اليه النظام الكريتي • ولكن في اسبارطة ، وذلك بسبب غيـاب النقود وكبح الصناعة والتجارة ، لم تكن توجد ملكية منفصلة عـن الارض ، وعن الاقنان المرتبطين بها ، وعن انتاجها •

ويلاحظ ارسطو ان احد مميزات المجتمع السبارطي هو حريـة ونفوذ النساء • ويؤكد روايته لهذه المسألة كتاب آخرون • فقد كانت النساء مخيرات في التجول علنا ، ولم تكن الخيانة الزوجية معاقبا عليها بل ليست حتى مدعاة لسوء السمعة ، وكان بامكان المرأة ان يكون لها عدة أزواج • وكل هذا يستهجنه ارسطو بشدة • ولكننا يجب ان نتذكر بأنه يكتب من وجهة نظر بورجوازي اثيني ، بدا في نظـره اخضاع النساء وعزلهن حكما من أحكام الطبيعة • ثم يأخذ بالتعليق على قواعد الارث الاسبرطية :

> لقد استطاع البعض ان يحصل على اراض كثيرة جدا ، وحصل آخرون على القليل منها ، وهكذا تحولت الارض الى أيدي أقلية صغيرة • وقد رتبت هذا ايضا ترتيبا سيئا القوانين ، اذ بينما اعتبر المشرع بصواب تام امرا مخلا بالشرف شراء او بيع الارض ، فهو لم يقيد تحويل ملكيتها عن طريـق الهبة او الوصية ، وهكذا فقد نجمت بالضرورة ذات النتيجة • وبسبب

عدد الوارثات وحجم الدوطات ، فان حوالي خمس الاراضي يملكهما نساء . وقد كان من الافضل ألا تفرض اية دوطة او ان تفرض دوطة صغيرة فقط . وفي الواقع ، ان الرجل يستطيع ان يعطي الوارثة الى اي شخص يختاره . واذا مات دون ان يكون قد وهبها . استطاع وارثه ان يفعل ذلك .

وللوهلة الاولى . يبدو هذا المقطع وكأنه يعنـــي ان الاسبارطيين اعترفوا بحق التصرف الحر بالملكية عن طريق التوريث بالوصية ، وهذه هي الكيفية التي فهم بها بصورة عامة . الا ان قليلا من التأمل يؤدي الى اثبات ان هذا سوء تفسير . فمن المستحيل الافتراض بأن حقا لـم يعترف به في قانون غورتينا . ولا في القانون الاتيكي ، ولا في قانون قديم آخر قبل تطور القانون الناضج ، كان يمكـــن ان تعترف بـــه ارستوقراطية اسبارطة الرجعية ، التي لم تكن قد بلغت بعد مرحلة تدوين القوانين اطلاقا . اذن فما هو البديل ؟ ان ارسطو يحكم على الممارسة الاسبارطية من وجهة نظر اثيني . وما يعنيه ، حين يتحدث عن تحويل الملكية بالهبة او الوصية ، وكذلك حين يقول ان الرجـل يستطيع ان يعطي الوارثة الى من كان يختاره ، هو مجرد ان المرأة في اسبارطة ، على عكس اثينا وغورتينيا والدول اليونانية الاخرى ، لم تكن ملزمة بالتزوج من اقرب الانسباء . وبالتالي لم تكن هناك اية وسيلة لضمان انتقـــال ملكية العائلة الى الذرية المتحدرين من الاناث .

لقد سبق ان وصفنا حياة اسبارطة الاجتماعية (الفصـل السابع) . ففي سن السابعة ، كان الولد يؤخذ من والديه ويسجل في الـ (أجيلا) . وفي الثامنة عشرة ، كان يبلغ سن الرشد ويتخذ مكان اقامته في (بيت الرجال) ، حيث يأكل وينام مع الرجال الآخرين ويقضي اليوم بتماريـن

عسكرية • وحين كان يتزوج ، كان لا يعيش مع زوجته ، وانما يزورها فقط سرا من وقت الى آخر • ولا بد من الافتراض بأن العروس كانت تعيش مع والديها ، كما في كريت • ويقول بلوتارخ ان الرجال كانوا يستمرون في العيش على هذا المنوال «فترة طويلة» ـ ولربما حتى حصولهم على الاعفاء من الخدمة العسكرية •

وكانت البنات ايضا ينظمن في (أجيلات) . ولكن ليس هناك دليل على أنهن كنّ يعزلن كالاولاد • وفي هذه الظروف ، كان البيت الاسبارطي يتألف حتما من الاب (الذي كان على درجة من الكبر بحيث يعفى من الاقامة في بيت الرجال) . والام ، والبنات المتزوجات وغير المتزوجات ، والاطفال من الجنسين دون السابعة من أعمارهم • وفي غياب الابناء البالغين ، كانت البنات يتمتعن بمزية في المطالبة بحقوقهن في الميراث • ولم يكن يحصلن على دوطات كبيرة فحسب ، وانما كانت ادارة الارض بأيديهن ايضا ، وذلك لاستمرار غياب أزواجهن • وبطبيعة الحال فقد كنّ مبعدات عن الحياة السياسية ، ولكن نفوذهن ، نظرا لوضعهن الاقتصادي ، كان على درجة كبيرة بحيث يتحدث ارسطو عن اسبارطة بوصفها قطرا «تحكمه النساء» • وأخيرا ، اذا سأل سائل كيف كان هذا النظام قد نشأ ، فلربما وجد الجواب في ظروف الفتح الخاصة• فنحن نعلم ان المستوطنين الاسبارطيين كانوا قد تزاوجوا مع السكان المحتلين • ولما كانوا مضطرين الى الاحتفاظ بجيش دائم مؤلف من جميع المواطنين الذكور البالغين ، فقد قامت الدولة الجديدة على اساس تقسيم للعمل بين الجنسين • فقد كان الرجال يقاتلون ، وكانت النساء يدرن الاراضي •

واذا قارنا بين هذه الانظمة الثلاثة ـ السبارطي والغورتينيّ والاثينيّ ـ اصبح واضحا انها تمثل ثلاث مراحل متتالية في تطور

الملكية وفي اخضاع النساء ، وأكثر من هذا ، فاذا كان اخضاع النساء في اتيكا نتيجة لتطور الملكية . نجم عن ذلك ان النساء في العصور السابقة قد تمتّعن حتما بقدر من الحرية اكبر ، وهذا ما تؤكده بشكل مذهل التقاليد الاتيكية ، فحتى عهد (كيكروبس) تمتعت النساء بحق التصويت مع الرجال في الجمعية الشعبية . ولم يكن يوجد زواج رسمي، وكان لكل امرأة اطفال من عدة رجال . وكان الاطفال يحملون اسم أمهم ، وهكذا . فقد كان مركز النساء في اتيكا في فترة ما اعلى مما كان عليه في اسبارطة التاريخية ، واضافة الى ذلك ، فقد ذكر هذا في التقاليد الاتيكية ، وهذا التعارض المزدوج . بين اتيكا المعاصرة وسبارطة المعاصرة . وبين اتيكا المعاصرة والتقاليد الاتيكية ، يفسر السبب في ان الكتاب الاتيكيين : اسخيلوس . وسوفوكليس ، يوربيديس . اريستوفانس . افلاطون ، ارسطو ، كانوا مهتمين أهتماما عميقا بعلاقات الجنسين الاجتماعية .

وهكذا ، أكمل اصحاب الثروات في القرن السادس عمل اليوباتريين بإزالتهم ما تبقى من الهيكل والوظائف البدائية للعشيرة ، ولصد النفوذ الذي كان يمارسه النبلاء عن طريق عباداتهم العشيرية، واصل كليسثينيس سياسة بيسيستراتوس في تطوير مهرجانات الدولة الذائعة ، الا ان هذه السياسة بين يديه لم تكن كافية ، بل ربما حتى غير مصممة ، لتستأصل بصورة تامة السلطة التي كانت تستمدها العائلات النبيلة من ثرواتها ومكانتها ، وسيظهر هذا في الفصل التالي ، وقد تركز الصراع المباشر في البطن ، الذي كان فيه النبلاء لا يزالون ، كما رأينا ، على درجة من القوة تكفي لتهديد أمن الطبقة الوسطى ، واذا كان يراد ازالة ذلك التهديد ــ الامر الذي كان يصر عليه أنصار كليسثينيس ــ فقد كان لا بد من جعل البطن عاجزا سياسيا ، ولما كان قد اصبح النقطة المحورية

في النظام القبلي ، فقد كان من اللازم اعادة تكوين ذلك النظام •

ان الاسلوب الذي تحقق به هذا كان مميزا • فإعادة التركيب القبلي لم تكن شيئا جديدا • وكما لاحظنا في فصل سابق ، انجزت هـــذه الاعادة في كيريني ، كما انجزت في سبارطة بوصفهـــا جزءاً من اعادة التنظيم العسكري • الا ان الاثر الذي تركه في عقول الناس التركيب الاجتماعي الذي عاش في ظله أسلافهم باستمرار منذ ان اخذ المجتمع البشري شكله الاول مرة متطورا من القبيلة المترحلة البدائية كان على درجة من العمق ـــ وكما رأينا فقد سبق ان صاغ مفهومهم عن تركيب الكون المادي ـــ بحيث كان لا يزال مسلما به ، دون تشكك ، بوصفه الاساس الطبيعي والضروري لاي شكل من أشكال النظام الاجتماعي • وعلى ذلك ، ففي اتيكا ، كما في غيرها ، حين كان يستبدل النظـــام القبلي البدائي ، كان يعاد ابراز السمات الخارجية للنظام القديم فـــي النظام الجديد بأمانة • وعندما يلاحظ مؤرخ عصري بأنـــه «نظام اكثر زيفا من قبائل ودوائر كليسثينيس الادارية بحيث قد يتجاوز ذكاء الانسان في ابتكاره» ، يمكن الرد بأنه مهما يكن رأينا نحن فيه ، فقد كان في نظر يونانيِّي هذه الفترة الامر الاكثر طبيعية في العالم •

وقد كانت الوحدة الحيوية في النظام الجديد هي (الديموس) ، او الدائرة • وبوصفها وحدة محلية ، كانت الديموس قد تواجدت منـــذ عصور ما قبل التاريخ • وفي العديد جدا من الحالات كانت تحمل اسم عشيرة : اليوبيرين ، الايثاليين ، السيماخيين • واضافـــة الى هذا ، تعني الكلمة نفسها اصلا حصة ، حيث هي شقيقة لكلمة (داسموس) ، التي سبق ان درسنا اهميتها بالنسبة لملكية الارض • وينجم عـــن استنتاجاتنا عن ذلك الموضوع بأن (الديموس) في شكلها الاصلي كانت (المويرا) او حصة الارض المخصصة لعشيرة معينة • وعلى ذلك فقد كان

لها ارتباط تقليدي بالعشيرة ؛ وذلك بطبيعة الحال بالرغم من ان الصلة الاصلية كانت قد طمست الى حد كبير بحلول نهاية القرن السادس ، بسبب انحلال نظام ملكية الارض العشائري •

وقد نظم كليسثينيس الرجال القاطنين في كل ديموس على شكل مجلس بلدي له رئيس منتخب (ديمارخوس) ، وله وظائف مشتركة هامة، بما فيها الاحتفاظ بسجل كان يدخل فيه اسم كل ذكر حال بلوغه سن الرشد • وكان التسجيل في هذا السجل يحمل معـه حقوق المواطنة • وكان اعضاء الديموس الاصليون الذكور، البالغين المقيمين ضمن حدودها في الوقت الذي قننت فيه اصلاحات كليسثينيس ــ والى ذلك الحد فقد خفف من مبدأ القرابة • ولكن العضوية في أجيال تالية كانت تقـرر بالنسب • وبغض النظر عن المكان الذي يصادف ان يكون الابن مقيما فيه ، فقد كان ينتسب دائما الى ذات الديموس التي ينتسب اليها ابوه • وهكذا ؛ وبعد جيلين ، نمت هذه الوحدة الى هيئة اقرباء حقيقيين ، لها رئيسها ، وحياتها المشتركة وارتباطاتها العاطفية الخاصة • ولم يكـن بمقدور كليسثينيس ان يبتكر طريقة افضل لملء الفراغ الذي كان قـد تركه في أذهان الناس تدمير العشيرة البدائية •

ان عدد الديموسات في هذه الفترة ليس معروفا • ولربما كان بين مائة وخمسين ومئتين • وكانت تقسم الى ثلاثين مجموعة ، يطلق عليها اسم (ترتيسات) ، او الدوائر الادارية • وبوصفها مجموعة ديموسات، فقد كانت للترتيس علاقة بالبطن هي ذات علاقة الديموس بالعشيرة • ولم يكن لها اي وجود مشترك او موحد اطلاقا ؛ انها كانت مجرد وحدة جغرافية ، الا انها زودت المصلحين بغطاء كانوا قادرين تحتـه على ان يتدخلوا بشكل حذر السمة الثورية فعلا للنظام الجديد • ومـن بين الترتيسات الثلاثين هذه ، كانت عشرة منها تتألف من ديموسات تقع في

المدينة او بالقرب منها ، وتقع عشر ديموسات في المناطق البحرية ، وعشر ديموسات في الداخل • وسيصبح غرض هذا الترتيب واضحا عندما نرى كيف جمعت الترتيسات في قبائل •

وحتى هذا الوقت كانت توجد اربع قبائل اتيكية • وقد زيد العدد الآن الى عشرة • وقد ضمت كل واحدة من هذه القبائل العشرة ثلاث ترتيسات ، واحدة من المنطقة المدينية ، وواحدة من المناطق البحرية ، وأخرى من الداخل • وكان يعني هذا ان السكان المدينيين كانوا راسخين رسوخا امينا في كل قبيلة ، ولما كانت جميع الاجتماعات السياسية تجري في المدينة . فقد كانت في وضع يمكنها من الحصول على قوة تصويتية لا تتناسب مع اعدادها • وهكذا فقد ضمنت الطبقة الوسطى المؤلفة من التجار وأصحاب المانيفاكتورات والحرفيين وضعا ممتازا دائما على ملاك الاراضي والمزارعين والفلاحين ، وفي الوقت نفسه اخضعت مصالح الريف لمصالح المدينة •

هكذا كان النظام الجديد للمجتمع الذي كان كليسيثينيس قد بناه على نمط النظام القديم • ولم يجرِ تدخل في شؤون العشائر والبطون القديمة ، ولكنها أبدلت بصورة فعالة ، وهكذا فقد اضمحلت • وكان اثر النظام الجديد ، والهدف الذي صمم من اجله ، هو بطبيعة الحال ازالة آخر العقبات المتبقية امام تطور الملكية ، على يد الجزء الاكثر تقدما من المجتمع ــ الطبقة الوسطى • وهذا امر معترف به بصورة عامة ، ولكنه لا يفسر لماذا جسدت هذه التغييرات الاساسية في قالب محافظ جدا • لقد قيل «ان احلال الايموس مكان العشيرة كان يعني في الواقع الانتقال من مبدأ القرابة الى مبدأ الموقع او مكان الاقامة» • وهذا صحيح ، الا انه لا يفسر لماذا كانت عضوية الديموس وراثية • وما كان قد حدث هو ان نظام القرابة القديم ، الذي كانت تسيطر عليه العشائر الارستوقراطية،

قد استبدل بنظام جديد تجوهلت فيه العشائر : الا ان مبدأ القرابة قد احتفظ به قدر الامكان . وبكلمة اخرى ، ان ما كان الديموقراطيون قد فعلوه هو الغاء النظام القبلي القديم ، الذي كانت الارستوقراطية قد حرفته الى اداة للاضطهاد الطبقي . واقامة نظام قبلي جديد مكانه . نظام كان ، بحكم كونه مصوغا على غرار النظام القديم ولكنه ديموقراطي في الوقت ذاته ، قد حظي بسهولة بقبول الناس باعتباره اعادة تأكيد لحقوقهم القبلية القديمة : ليس انقطاعا عن الماضي بل إحياء للماضي .

ولماذا زيد عدد القبائل الى عشرة ؟ لقد كانت هذه الفكرة الجديدة مرتبطة باصلاح للتقويم كان قد أدخل في الوقت نفسه . فقد كانت اتيكا تحتفظ حتى ذلك الوقت بالتقويم القمري البدائي المستند الى اثني عشر شهرا مع اضافات دورية يشرف عليها الكهنة ومصممة للتوفيق بين السنة القمرية والسنة الشمسية . وفي ظل الديموقراطية ، احتفظ بالحساب القمري لاغراض دينية ، كما احتفظ به في اوربا الحديثة بسبب أعياد الكنيسة . ولكن ، لاغراض دنيوية ، أدخل كليستينيس تقويما شمسيا مستندا الى عشر فترات كل منها مؤلف من ستة وثلاثين او سبعة وثلاثين يوما . وفي الوقت نفسه ، زيد عدد اعضاء (مجلس الاربعمائة) الذي أسسه صولون الى خمسمائة : خمسون من كل قبيلة من القبائل العشر . وعملت هذه المجموعات القبلية العشر ، المؤلف كل منها من خمسين عضوا ، بالتناوب خلال السنة كلجنة دائمة للمجلس . وسيكون مما ينسجم مع روح الدستور الجديد الافتراض بأن هذه العلاقة المتبادلة بين النظام القبلي الجديد والتقويم الجديد كانت مصممة لالغاء علاقة متبادلة مماثلة بين النظام القبلي القديم والتقويم القديم . وتوجد بعض الادلة على ان الامر في الحقيقة كان كذلك .

ويستفاد مما يذكره ارسطو ان النظام الاتيكي البدائي كان يتألف

من اربع قبائل : كانت كل واحدة منها تضم ثلاثة بطون • وهو يمضي قائلا ان كل بطن كان يضم ثلاثين عشيرة ، وكل عشيرة ثلاثين رجلا • ويضيف بأن القبائل الاربع كانت تتطابق مع الفصول . والبطون الاثني عشر مع الاشهر ، والعشائر الثلاثين في كل بطن مع الثلاثين يوما في كل شهر • والطابع الخيالي لهذا الترتيب هو على درجة من الوضوح رفض معها العديد من البحاثة المعاصرين تصديق الكلام برمته ، الى حد انكار ان يكون البطن مجموعة من العشائر • ومع ذلك . ففيما يتعلق بمسألة ما اذا كان ارسطو يبحث اصل الديموقراطية ام اصل التراجيديا ، فان معالجته للرواية التاريخية على درجة من المتانة ووضوح الرؤية بحيث لا يجوز معها ان تهمل استنتاجاته باستخفاف • وفي المثل الراهن ، فمن المؤكد ان رأيه في العلاقة بين البطن والقبيلة صائب ، ومن الراجح ان تكون الرواية المتعلقة بعلاقة النظام القبلي القديم بالفصول قديمة على الاقل ، وان كان واضحا انها مخططة بشكل وهمي ، لانها تستند الى التقويم القمري القديم • والحقيقة انها قد تكون صحيحة في جوهرها ، وذلك على الاقل الى حد ان كل قبيلة وبطن كانت قد أدت وظائف معينة على التناوب في فترات من السنة متتالية • ومثل هذا التركيب سيكون منسجما تماما مع التعاون الطقسي المحكم المميز للمجتمع القبلي ، وهو يشرح الصلة بين النظام القبلي الجديد واصلاح التقويم •

لقد كان اعضاء (مجلس الخمسمائة) الجديد ينتخبون بالقرعة ، ومُدّت الطريقة ذاتها بعد سنوات قلائل الى انتخاب اعلى موظفي الدولة ، (الأرخوتنات) • وخدم استعمال القرعة ذات الغرض في الدستور الديموقراطي الجديد الذي كان قد خدمه اصلا في ديموقراطية القبيلة البدائية ، اذ كان ضامنا للمساواة • وكانت الديموقراطية القديمة عودة الى الديموقراطية القبلية على مستوى تطوري اعلى •

كان شعار الدستور الجديد هو (الايسونوميا) : المساواة في الحقوق السياسية . المساواة امام القانون . ومع ذلك . وكما لاحظ مؤرخ يوناني لاحق بذكاء . فالمساواة السياسية عقيمة بلامساواة اقتصادية . وكان ذلك درسا مريرا كان لا يزال على الديموقراطيين الاثينيين ان يتعلموه ، وبدلا من تعلمه كفوا عن ان يكونوا ديموقراطيين. الا ان هذا التناقض كان لا يزال خفيا في هذه الفترة ، بسبب مصادرة ملكيات ملاك الاراضي على يد الحكام المستبدين وتوسع الصناعة والتجارة السريع . وبالشكل نفسه . فان التناقض الاعمق الكامن في تطور العمال العبيد لم يكن قد تغلغل بعد في المجتمع الى حد فرض نفسه على وعي الناس الشرفاء .

ومن جهة اخرى ، كانت هناك نقطة لم يرتفع عندها دستور كليسثينيس حتى الى مستوى هدفه المعلن . فقد كان القبول في وظيفة الارخون لا يزال خاضعا لشرط تملك ، حيث استبعد الطبقات الدنيا . وهذا التحديد يكشف طابع الثورة الديموقراطية الاساسي . انها كانت ثورة طبقة وسطى . وبعد ان جمعت الشعب كله باسم المساواة ، توجهت الطبقة الوسطى نحو تحصين نفسها في دستور انكر المساواة على الجماهير التي مكنتها من السيطرة . وكان لهذا التناقض تاثير في فكر الطبقة الوسطى الذي كان عميقا جدا لانه كان غرزيا مكبوتا .

وكان الشارح الكبير الاول للفكر الديموقراطي هو (فيثاغورس)، وهو مواطن من (ساموس) هاجر حوالي عام ٥٣٠ قبل الميلاد الى مستعمرة (كروتون) في جنوب ايطاليا . والروايات عن ميلاده متناقضة وخرافية الى حد ما . والارجح هو انه كان ابن نقاش احجار كريمة ساموسي . وكانت ساموس في هذه الفترة تحت حكم (بوليكريتس) الاستبدادي الذي كان واحدا من اروع ما شهدته اليونان ، الى ان أنهاه

الفتح الفارسي لآيونيا • وكان بوليكريتس قد أطاح بالارستوقراطية ملاكة الأراضي ، وأقام تجارة مباشرة مع مصر ، ونفذ أشغالا عامة كثيرة، من بينها سد للسيناء يحجز الامواج وقناة لسحب المياه تحت الارض ، وقام بتجارب في سك النقود ، وطمح الى السيادة التجارية على بحر ايجه •

وهكذا ، فقد اتى فيثاغورس من احد المراكز الرئيسية للثورة المدينية . وتزامنت حياته في ايطاليا مع تطور سك النقود في الغرب • ويستفاد مما ذكره (اريستوكسينوس) ان فيثاغورس هو الذي ادخل الاوزان والمقاييس الى اليونانيين • وبالرغم من ان هذه الروايه لا يمكن التسليم بها بالشكل الذي اتت به الينا (ونحن لا نملك كلمات اريستوكسينوس الفعلية) ، فمن الراجح بشكل كاف انه كان مهتما بتوحيد الاوزان والمقاييس الذي كان يجري تحقيقه في هذا الوقت تحت ضغط التجارة الخارجية • ومهما يكن من امر ، لا سبيل للشك في اصل اهتمامه بالرياضيات ، لأن أريستوكسينوس يقول انه كان اول من طوّر تلك الدراسة الى أبعد من مستلزمات التجارة •

وفي كروتون ، أسس جمعية سرية ، كانت تختلف عن الثايسوي (الجمعية) الاورفيسية بكونها منظمة كحزب سياسي • وفي حوالي عام (٥١٠) قبل الميلاد ، وبعد نكسة سياسية ، هاجر فيثاغورس الى (ميتابوتتيون)، حيث يبدو انه بقي فيها حتى وفاته• وفي النصف الاول من القرن الخامس ، مد الفيثاغورسيون تأثيرهم الى جميع جنوب ايطاليا • ومن ثم ، وفي مدينة بعد اخرى ، ابتداء من كروتون ، حلّت الجمعية واضطهد اعضاؤها •

وواضح ان الفيثاغورسيين ، وهم منظمون كحزب سياسي ، كانوا يملكون حتما برنامجا سياسيا يتعلق بتطورات عصرهم الاقتصادية والاجتماعية • ومن الممتع ان نلاحظ ان (كوندورسيه) ، الجيروندي ،

الذي كان له برنامج سياسي خاص به أثّر تأثيرا مباشرا جدا في الثورة الفرنسية ، افترض بأن اوائل الفيثاغورسيين كانوا ديموقراطيين • وقد وجدت نظرية تناسق الاضداد الفيثاغورسية استجابة مباشرة لديه ، لانها كانت تشبه شبها وثيقا جدا فكرة التوفيق الاجتماعي التي دافع عنهـا الجيرانديون • الا ان اكثرية الباحثين الاختصاصيين المعاصرين ، وهم أقل وعيا من كوندورسيه بعلاقتهم بالمجتمـع ، رأوا ان الفيثاغورسيين كانوا يؤلفون نواة الارستوقراطية • ودعماً لهذا الرأي ، يقتبسون كلاما لدايوجينيز اللائيرتي بأن تلاميذ فيثاغورس في كروتون «ومجمـوع» عددهم حوالي ثلثمائة . أداروا الحكومة ادارة جيدة جـدا (أريستا) ، بحيث ان حكمهم كان فعلا ارستوقراطيا (اريستوكراتيا)» • الا ان من الواضح جدا أن كلمة (اريستوكراتيا) تستعمل هنا بمعناها الحرفـي والفلسفي وهو حكم الاخيار • أما ان الاشراف على الدولة كان فعلا في يد ثلثمائة شخص فهو يعني بالتأكيد بأن اساسهم الاجتماعي كان ضيقا . ولكنه لا يستتبع اطلاقا بأنهم كانوا أرستوقراطيين بمعنى تمثيل مصالح النبلاء ملاكي الارض • وانما على العكس تماما ، من الصعب ان نرى كيف ان معمّرا من ساموس كان يستطيع ان يرى نفسه علـى رأس الاوليغاركية مالكة الارض الوراثية في دولة كانت قد أسست قبل حوالي مائتي عام من مجيئه •

وكان اول من رفض هذا الرأي المسلم به هو (بيرنيت) ، الذي ذهب الى ان أوائل الفيثاغورسيين ديموقراطيون • وتؤكد هذا الاستنتـاج الادلة المستقاة من دراسة القطع النقدية ، التي تبرهن على انهم هم الذين اصدروا النقود الاولى في الغرب ، وإذن فلا بد انهم كانوا يمثلـون مصالح الطبقة التجارية •

ويستفاد مما ذكره (ابولونيوس) ، ان خصوم الفيثاغورسيين كانوا

اثنين : (كيلون) الارستوقراطي ، الذي يوصف بأنه المواطن الاول في الثروة والمولد . و(نينون) الديسوقراطي . واضافة الى هذا ، يقال ان الفيثاغورسيين قاوموا مقترحات لتوسيع حق الانتخاب وجعل القضاة مسؤولين امام الشعب . وينجم عن ذلك انهم اذا كانوا ديسوقراطيين فقد كانوا ديسوقراطيين معتدلين ، يمثلون مصالح كبار التجار ، وبالتالي فقد عارضهم النبلاء من جهة والعمال من جهة اخرى .

وينبغي الاعتراف بأن تاريخ جنوب ايطاليا السياسي في هذه الفترة الحاسمة لم يوضَّح بعد ، الا ان الافتراض الذي طرحته انا لا يبدو فقط وهو يفسر الادلة أفضل من اي افتراض آخر ، وانما تدعمه ايضا دراسة الجانب الديني للفيثاغورسية .

لقد آمن الفيثاغورسيون بالتناسخ ، الذي وصفوه بأنه (دولاب الحاجة او الضرورة) . وكانوا مغرقين في الزهد والتقشف وكثيري الادمان على التأمل الصامت . وقد اخترعوا الرمز «ثور على اللسان» ، المقابل للرمز الاورفيسي «باب على اللسان» والرمز الاليوسيسي «مفتاح على اللسان» . وتقيدوا بمحرمات متعددة ، وبعضها بدائي ، علقوا عليها اهمية أخلاقية . فمثلا : «لا تدس على عاتق ميزان» ـ اي ، لا تنتهك حدود العدل ـ وآمنوا بمسؤولية الفرد الاخلاقية عن أعماله ، وحين كانوا يعودون الى بيوتهم بعد عمل اليوم ، كانوا يقولون لانفسهم : «اين أخطأت انا ؟ ماذا أنجزت ؟ ماذا تركت ناقصا عليّ أن اقوم به ؟» . وبشروا بأن الروح خالدة وشيء مختلف عن الحياة ، وبأن ارواح الاطهار تصعد الى المنطقة العليا من (الجحيم) ، بينما أرواح المدنسين توثقها الارينيات بقيود لا تكسر ، وبأن الجو مملوء بالارواح الحارسة التي تزور الناس في الاحلام ، لان الروح تستيقظ عندما ينام الجسد ، وبأن الرجل الذي تتملكه روح صالحة هو مبارك . وكانت طقوس دفنهم

خاصة بهم ومصممة لضمان انقاذهم او خلاصهم الشخصي • وكان القبول في الجمعية بشكل معين من التلقين . مع فترة اختبار أمدهـا خمس سنوات •

وواضح ان هذه العقيدة . وهي أبعد ما تكون ارستوقراطية ، لها أوثق الصلات بالاورفيوسية . التي يقال ان فيثاغورس كان يكنّ لهـا اعجابا شديدا • والحقيقة فان (بيري) يذهب الى حد القول بـأن «الفيثاغورسيين كانوا عمليا جماعة اورفيوسية» ؛ الا ان هذا مبالغة • فقد كانت جميع العناصر الاساسية ــ التلقين ، التطهير ، الانقاذ ، التفريق بين الجسد والروح ــ مشتركة ؛ ولكن كانت توجد ايضا خلافات هامة• فقد كان الإله الراعي للفيثاغورسيين هو (ابولو) ؛ وليس دايانايسيس • وكانت العبادة الاورفيوسية الخاصة بالقداسة طقسيـة بصورة كلية او شبه كلية ؛ وكان للفيثاغورسيين قانون مفصل للسلوك الاجتماعـي والاخلاقي • وفي محتواها الفكري ، كانت الفيثاغورسية اعلى بكثير من الاورفيوسية . الامر الذي يشير الى انها كانت عبادة الصفوة او النخبة وليست عبادة الجماهير• والاهم من كل ذلك، انه بينما كان الاورفسيون متصوفين ، قانعين باعتزال العالم ، كان أوائل الفيثاغورسيين منهمكين بشدة في تغييره بتنفيذ برنامج سياسي جذري • وفي الوقت الذي كانت الاورفيوسية قد استمدت حافزها من الفلاحين المعدمين والعامة الجدد المدينيين في وقت لا يزالون فيه غير منظمين سياسيا، كان الفيثاغورسيون يمثلون الجزء النشط والواعي طبقيا من الحركة الشعبية ــ اي رجـال المال ، التجار ، المغتنين مسبقا بنمو التجارة الخارجية ، الذين وجـدوا السبيل الى مزيد من الاغتناء مغلقا بمعارضة الاوليغاركية مالكة الارض الوراثية • وعلى ذلك يمكن ان يوصف حكمهـم في كروتون بأنـه ثيوقراطية تجارية •

ومع هذه الاعتبارات في أذهاننا . فلننتقل الآن الى المفهوم الاساسي الذي يكمن في اصل الفلسفة الفيثاغورسية ـ اي مبدأ وحدة الاضداد في المعدن الوسطي .

وعن علاقة هذا المبدأ بالفلسفة الميليسية كتب (بيرنيت) :

والآن . يوحي فورا هذا الاكتشاف للوسط الحسابي بحل جديد للمشكلة الميليسية القديمة المتعلقة بالاضداد، ونحن نعلم بأن آناكسيمندار اعتبر تجاوز الضد الواحد على الآخر «ظلما» ، ولا بد انه كان يرى ان هناك نقطة منصفة للاثنين . الا ان هذا لم يمتلك اية وسيلة لتحديدها . ويوحي اكتشاف الوسط الحسابي بأنه يجب العثور عليها في «مزيج»(كريسيس) من الاضداد ، يمكن تحديده عدديا ، كما كان قد حدد مزيج النغمات العالية والواطئة للجواب في الموسيقى . وقد جعلت عادات اليونانيين المتسمة بالاسراف في الشراب فكرة كهذه طبيعية عليهم . فقد اعتاد رئيس الوليمة ان يصف نسب الخمر والماء اللذين يجب سكبهما في طاس المزج قبل تقديم الشراب الى الضيوف .

والمفروض ان أناكسيمندار ، بسبب وصفه تجاوز الضد الواحد على الآخر ظلما ، قد اعتبر العدل (اذا كان قد حدد فكرته عنه اصلا) حالة ينعزل فيها كل ضد بنفسه . ولا يوجد دليل على «انه كان يرى ان هناك نقطة منصفة للاثنين» ، ولو كان قد فعل ذلك ، كما كان قد منعه من تحديدها جهله بالموسيقى او الرياضيات ، لان مبدأ الوسط الحسابي كان قد طرحه مسبقا صولون . والحقيقة هي ان أناكسيمندار لم ينظر

بوضوح الى المشكلة من وجهة النظر تلك • ويستفاد مما ذكره (بيرنيت)، ان فكرة الوحدة قد استنتجها فيثاغورس من نظريته عن المعدل الوسطي • الا ان تلك النظرية ، كما سنرى بعد قليل . تفترض تلك الفكرة مسبقا • وقد قفز هذا الاستنتاج الى ذهنه لان الفكرة كانت «طبيعية» علـــى اليونانيين • وهذا التفكير غير الدقيق ، الذي يمر بسهولة خادعــــة متجاوزا كل المسائل الهامة ، هو نتيجة محاولة تفسير الفلسفة اليونانية وكأنها نظام مغلق من الفكر الصرف ، ممنوحة ، كالروح الافلاطونية ، قدرة تحرك ذاتي مستقلة عن بيئتها المادية •

ان ما اكتشفه فيثاغورس هو العلاقة بين نغمات الجواب الثابتــة الاربع . التي تمثلها السلسلة العددية ٦ ــ ٨ ــ ٩ ــ ١٢ : اي ، ان هذه الاعداد تمثل أطوال الوتر النسبية اللازمة ، في درجة متساوية من التوتر ، لاحداث النغمات محل البحث • والحدان (٦) و(١٢) يعتبران ضدين • و(٨) هو الضد الجزئي subeontroray او الوسط التوافقي (٨ = ١٢ ــ ١٢/٣ = ٦ + ٦/٣ و(٩) هو الوسط الحسابي او العـــددي (٩ = ١٢ ــ ٣ = ٦+٣) • وماذا دفع فيثاغورس الى هذا الاكتشاف ؟ انه بالدرجة الاولى ، ولا ريب ، اهتمامه بعلم الرياضيات ، الذي كانت تمتد جذوره ، كما رأينا ، في حركة عصره الاجتماعية • ولكن ، فـــي الوقت الذي لا يوجد فيه شك بأن التطبيق الطبي والتطبيقات الاخرى للوسط كانت مجرد امتدادات للنظرية الموسيقية ، فان النظرية الموسيقية نفسها غير قابلة للتفسير بشكل تام عن طريق الظاهـــرة التي صممت لتفسيرها • فمن ناحية الموسيقى او الرياضيات ، لا يوجد اي شيء في طبيعة العددين (٦) و(١٢) يستلزم وجوب اعتبارهما متضادين • وتلك الفكرة هي مفهوم مسبق ، وفي الوقت نفسه فهي اساسية • فالعلاقة بين

هذين الحدين توصف باستمرار في الكتابات الفيثاغورسية بأنها علاقة اختلاف او عداء . يحلّ او يوفق بدمجهما او توحيدهما في الوسط . وهكذا يخبرنا (ثيون) السميرني بأن الفيثاغورسيين وصفوا الاتفاق (هارمونيا) بأنه «مناغمة الاضداد . توحيد للجماهير . توفيق ما بين المتخالفين» . والعبارة الاخيرة توجد مرة اخرى في جزء من عمل غير كامل منسوب للمؤرخ (فيلولاس) .

وماذا كان اصل هذا المفهوم المسبق ؟ يمكن القول انه اخذ عن آناكسيماندر . الذي قال عن تجاوز ضد على الآخر بأنه «ظلم» يجب ان يلحق به «عقاب» . الا ان المصطلح الفيثاغورسي كان مختلفا . فالكلمتان (ديخافرونين) «اختلاف» و(سيمفروناسيس) «توفيق» هما دوريانيتان . والكلمتان الاتيكيتان المرادفتان لهما هما (ستاسيازن) و(هومونويا) المقابلتان للكلمتين اللاتينيتين (سيرتامين) و(كونكورديا) . وكلتا هاتين الكلمتين مشتقتان من علاقات اجتماعية : فكلمة (ستاسيس) تعني الصراع الحزبي او الحرب الاهلية . وكلمة (هومونويا) السلم الاهلي او الاتفاق . وهكذا . عبرت (سيمفروناسيس) او (هومونويا) الفيثاغورسيين عن الموقف الذاتي المميز للطبقة التي كانت تدعي انها حلت الصراع الطبقي القديم في الديموقراطية . وقد خلق مبدأ اندماج او وحدة الاضداد في الوسط بنشوء الطبقة الوسطى . الوسيطة بين ملاك الارض والاقنان . وعن هذا التطور في الفلسفة اليونانية بين ايدينا دليل مستقل مذهل في شعر (ثيوغنيس) . الذي كان قد عاش ليرى بلده ميغارا تنتقل الى سيطرة الديموقراطيين المكروهين :

في خرافنا ، وفي حميرنا وخيولنا ، نسعى للحفاظ على
نسل نبيل ، ونحب ان نزاوجها بسلالة جيدة . ومع ذلك لا

يتردد الرجل النبيل في التزوج من زوجة وضيعة المولد . طالما كانت تأتيه بالنقود ، كما لا ترفض المرأة طلب خاطب وضيع المولد. مفضلة الثروة على النبالة • ان ما يكرمونه هو النقود، فالرجل النبيل يتزوج من عائلة نبيلة • لقد اندمجت الثروة مع الاصل • لذا لا تعجب ان ترى اصل المواطنين آخذا بالتلاشي، لان النبيل يمزج بالوضيع •

وفي هذه الكلمات ، لدينا ، بشكل ملخص ، كامل تاريخ سقوط النبلاء الوراثيين ونهوض الطبقة الوسطى • ولم يكن (ثيوغنيس) فيلسوفا . وانما هو يصف ، لا اكثر ، التغيرات التي رآها تحدث في مجتمع عصره . بوصفه واحدا ممن عارضوها بشدة • وماذا رأى ؟ لقد رأى النقيضين . الـ (ايسثلوي) والـ (كاكوي) ، اللذين كان يرغب بوصفه ارستوقراطيا بابقائهما منفصلين ، وهما يمزجان بثروة الطبقة الوسطى الجديدة •

ولا يؤثر هذا الاستنتاج بطبيعة الحال في القيمة الموضوعية للاكتشاف الرياضي الذي قام به فيثاغورس • وأهميته هي انه يبين كيف كان التقدم الاجتماعي قد اسفر عن توسع للمعرفة باقناع أولئك العاملين فيه على تبني وجهة نظر جديدة • وكما يمكّن تقدم المعرفة الانسان من توسيع سيطرته على المادة ، يسكنه التقدم المادي من توسيع معرفته •

لقد طبق مبدأ الوسط على الطب رجل أصغر سنا ومعاصر لفيثاغورس نفسه ، وهو (الكمايون) الكروتوني ، الذي اعلن بأن «الصحة تتألف من تنسع السلطات : الرطب والجاف ، الحار والبارد ، المر والحلو ، وهلم جرا ، بحقوق متساوية (ايسونوميا) ، بينما ملكية واحدة او اخرى منها

كانت مساعدة على المرض» • وهنا يكون المغزى السياسي للمفهوم غير مقنّع او مخفي • ولربما كانت الاشارة الى الملكية (مونارخيا) هي الى الحكم الاستبدادي ، لان هذه هي الكلمة المستخدمة بمعنى الحكم الاستبدادي في اللهجة الآيونية ، ولأن حالة الصحة توصف بصراحة بـ (ايسونوميا) ـ شعار الديموقراطية •

وتم الوصول الى المرحلة الاخيرة في التطور العلمي لهذه النظرية التي طبقها الفيثاغورسيون على علم الرياضيات والطب والفلك . عندما طبقها هيبوقراط ، الذي كان متأثرا بالكمايون تأثرا عميقا ، على تطور الجنس البشري •

لو كان المرضى قد آفادهم ذات الطعام الخاص والرسيم كما أفاد منه الاصحاء ـ لو لم يكن هناك شيء افضل يعثر عليه. لما اكتشف فن الطب او بحث عنه ـ اي لما كانت هناك اية حاجة اليه • ان ما أجبر الناس على البحث عن الطب والعثور عليه كان محض الضرورة ، لان المرضى لا يستفيدون ، ولم يستفيدوا قط ، من ذات الرسيم كالأصحاء • ولأذهب أبعد الى الوراء ، اقول انه ما كان ليكتشف قط حتى أسلوب الحياة والتغذي الخاص اللذين تتمتع بهما اليوم لو كان الناس قد قنعوا بذات الطعام والشراب كالحيوانات الاخرى .. كالثيران والخيول ، التي تقتات وتنمو وتعيش دون ألم على الفواكه ، والغابات والاعشاب ، وبلا حاجة الى اية أطعمة خاصة اخرى • ومع ذلك فقد كان هذا ، كما اعتقد ، في البدء طعام الانسان نفسه • ان طريقة حياتنا الراهنة هي في نظري حصيلة فترة طويلة من الاختراع والإحكام • وطالما كان الناس يتشاركون

في الاطعمة الفجة القوية بنوعيتها وغير المركبة ، فقـــد كان طعامهم البهيمي يخضعهم لآلام شديدة ـ تماما كما سيعانون الآن ـ تهاجمهم آلام حادة وأمراض يعقبها الموت بسرعة • وفي العصور السابقة كانوا يعانون أقل ولا ريب ، لانهـــم كانوا معتادين على ذلك . ولكن بقسوة حتى في ذلـــك الوقت • والعديد منهم ، ممن كانت بنياتهم أضعف من ان تتحملـه . هلكوا بطبيعة الحال ، الا ان الاقوياء قاومـــوا . كما يتخلص الآن بعض الناس من الاطعمة القويـــــة بدون صعوبة ، اما الآخرون فلا يتخلصون منها الا بألم ممض• وأعتقد ان هذا هو السبب في ان الناس كانوا يبحثون عن طعام ينسجم وبنياتهم الى ان اكتشفوا الطعام الذي نستعمله الآن •

لقد كان الاورفيوسيون . وهم يحذون حذو هسيود . هم الذيـــن اعتقدوا اولا بأن الحياة الانسانية صراع ، لانها كانت بالنسبة للجماهير التي عبروا عن مطامحها صراعا • ولكن لما كانت تلك الجماهير غير واعية قوتها وبالتالي عاجزة عن ممارستها ، فقد وضعوا جائزة النصر فـــي الجانب الآخر من الموت • الا ان الطبقة الوسطى القت بنفسها منذ ذلك الوقت في الصراع وفازت بجائزة الديموقراطية • وعلى ذلك فقد بدا لها نظام العالم وكأنه توقف لصراع الاضداد الابدي ، التي كانت قـــد توقفت عن ان تكون أضدادا بامتزاجها وانضمامها في بعضها الآخر • ومن ثم طبقت هذه الافكار على العملية التاريخية التي كانت قد ولدتها• وبدت الحضارة الانسانية : باستعراض ماضيها ، وهي صراع ديناميكي ومتصاعد ، اضطرت فيه الناس احتياجاتهم المادية الى توسيع سيطرتهم على بيئتهم المادية • وكل هذا مفهوم ضمنا في الكلمات التي استشهدنا

بها قبل قليل . ولكن الافكار ذاتها ، سبق ان وضعها في الشعر قبـــل هيبوقراط بجيل واحد اسخيلوس ، الذي كان نفسه فيثاغورسيــــاً وديموقراطيا .

مراجـع

Burnet, E.K. Early Greek Philosophy. London, 1920.

Bury, J.B. History of Greece. 2 ed. London, 1913.

-١٣-

اثينا وفارس

كان أوائل سكنة بلاد الرافدين بدواً ساميين من شبه الجزيـــرة العربية كانوا قد بدأوا ازالة المستنقعات وحرث التربة بالري عندمـــا أخضعهم الغزاة السومريون القادمون من الشرق • ولفترة قصيرة بعد الفتح حكمت المنطقة بأجمعها في ظل ملكية مركزية ، ولكنها تفرقت بعد وقت قصير الى عدد من دول ـــ مدن زراعية ، يحكم كلا منها ملك ـــ كاهن وراثي • وبتقدم الزراعة واستخراج المعادن السريع ، اصبـــح التنافس بين هذه الدول حادا ، وظهرت في كل دولة طبقة تجارية تعارض الكهنة الحاكمين • ويبدو ان دور هؤلاء الغاصبين ، من أمثال ملـوك (لكش) ، كان يشبه دور الحكام المستبدين اليونانيين • الا ان هـــذه الدول ـــ المدن السومرية تطورت تطورا يختلـــف عن تطور الدول اليونانية • فقد فرضت احتياجات الري توقفا على تطور الملكية فـــي

الارض ، وسهلت حرية الاتصال التوسع عن طريق الحرب • وكـــان التوحيد الاستعماري الاول لبابل قد حققه (شاروكين) وخلفاؤه ، وهم سلالة تنتمي الى اصل سامي . الا ان فترة من الحروب الاهلية اعقبتـــه حيث استرد فيها النبلاء السومريون مركزهم • وبعد ذلك . وعند نهاية الالف الثالث ، شيد حمورابي البابلي امبراطورية امتدت الى أرمينيا في الشمال وفلسطين في الغرب • وأطـاح بالسلالة الحاكمة البابليــــة الآشوريون ، الذين لم يحاولوا على كل حال تنظيم اراضيهم التـــــي استولوا عليها بالفتح ، وانهارت امبراطوريتهـــم • وجرت الحركـــة الاستعمارية الكبيرة الثانية في ظل السلالة الحاكمة الفارسية الاخمينية، الذين كانوا بحلول نهاية القرن السادس قد أخضعوا ليديا وآيونية وبابل ومصر •

وكانت الامبراطورية الفارسية اقـــوى بكثير من ان يستطيــــع اليونانيون مهاجمتها ، وكانوا بالتالي عاجزين عن التوحـد على اساس التوسع الاستعماري في الشرق • وبالمثل ، ففي الغرب ، كان التوسع مقيدا بقوة قرطاجة المتنامية • وأجبرت دول المدن اليونانية ، وهي مطوقة من الجانبين ، على السير على طريق التطور الداخلي • وكان التنافس بينها على درجة من الحدة بحيث لم توجد اية امكانية لمقاومة منظمة للفتح الفارسي الآيونية • وبعد سقوط ميليتوس تحوّل جزء كبير من تجارتها الى اثينا وكورينث • وقد أزال استيلاء الفرس على ساموس ، في وقت كانت تتجه فيه بقيادة بوليكريتيس نحو الهيمنة التجارية على بحر ايجه، عقبة من طريق الحكام المستبدين الاثينيين ، الذين كانوا يرنون الـى الغرض ذاته • وبالتالي ، حين ثار اليونانيون الآيونيون في عام (٤٩٩) قبل الميلاد ، لم يتلقوا مساعدة تذكر من البر اليوناني ، وأخمدت الثورة• ووجد سكان البر اليوناني عندئذ انفسهم مهددين بذات المصير • وكانت

النتيجة توسع التناقضات الداخلية في كل دولة ٠

وعلم اليونانيون انهم اذا استسلموا فسوف يخضعون للجزية ولحكم طاغية في صالح الفارسيين ٠ ولسوف تكبح اذن الحركة الديموقراطية ٠ ومن جهة اخرى ، اذا قاوموا فسوف يترتب عليهم ان يسعوا للحصول على مساعدات من سبارطة ، التي كانوا قد خبروا مسبقا موقفها من الديموقراطية ٠ وفي هذه الظروف ، فقد كانت الفرصة الوحيدة للحفاظ على الديموقراطية هي مقاتلة فارس بمساعدات سبارطية املا في ان يعطيهم الانتصار قوة تكفي للوقوف بوجه حليفهم السابق ٠ وجرى في النهاية تبني هذه السياسة ، وبنجاح بارز ، ولكن ليس الا لان الشعب كان على درجة من القوة تكفي لفرضها ٠

وكانت الثورة الديموقراطية التي تحققت بقيادة كليسثينيس حصيلة صراع ثلاثي الاركان انقسمت فيه المعارضة ضد الديموقراطية ٠ فبعد اندحاره ، رص الرجعيون صفوفهم ٠ والخلافات بين آتباع هيبياس وأتباع ايساغوراس ، وكلاهما كان ينوي الاطاحة بالديموقراطية ، تلاشت الى الحد الذي ارسلت معه اسبارطة في عام (٥٠٦) حملة اخرى الى اتيكا لغرض اعادة هيبياس ٠ وفشلت الحملة بسبب انسحاب كورينث في اللحظة الاخيرة ، التي لم تكن ترغب ابدا في ان ترى النفوذ الاسبارطي ممتدا الى شمال البرزخ او ان تضعف الاثينيين في وقت كانوا مشتبكين خلاله في حرب تجارية مع منافسهما التجاري ، ايجينا٠

وفي الوقت الذي استنجد فيه هيبياس باسبارطة ، فقد استنجد كليسثينيس بفارس ٠ ودون ان يستشير الشعب ، فقد عرض الاستسلام للفرس ، وكان ذلك ولا شك على اساس انه سينصب حاكما مطلقا ٠ وهذا العمل من جانبه لا يفسره بشكل واف خوفه من اسبارطة ٠ فقد كانت الطبقات الدنيا ، التي كان قد استثناها من حق الانتخاب ، قد

اخذت تفرض فعلا تأثيرها بشكل محسوس ، وهكذا فقد جوبه كليسثينيس ، بوصفه زعيم الطبقة الوسطى ، بالخيار بين التراجع عن الديموقراطية والتعرض للإزالة في خاتمة المطاف . وحين اصبحت معروفة طبيعة مفاوضاته مع الفرس ، حاول ستر نفسه بالتبرؤ من مبعوثيه ، دون نجاح على ما يبدو ، لانه انسحب بعد ذلك بفترة قصيرة من السياسة الاثينية انسحابا كاملا . وما حدث له غامض ، الا انه يقال انه قد حكم عليه بالنفي .

واذ ضعف الالكمايونيون بخسارة قائدهم ، فقد اتجهوا الى اليمين اكثر من ذي قبل . ولربما كان دعمهم هو الذي ضمن به أنصار هيبياس انتخاب هيبارخوس زعيما ، وهو قريب مباشر لهيبياس نفسه (٤٩٦ ق.م) . وفي الوقت نفسه ، توجه هيبياس ، بعد ان فقد الثقة باسبارطة ، الى ساردیس ليؤكد مطالبه ، التي كان الآن منافسوه السلفيون الالكمايونيون قد آذعنوا لها ، بوصفه الحاكم المطلق المتوقع لأثينا يستعبدها الفرس . وقد انحاز المعتدلون الى الرجعيين .

وفي غضون السنوات الثلاث القادمة ، وبينما كان الفرس يحطمون الثورة الآيونية ويضعون خططا لحملة ضد البر اليوناني ، ظهرت شخصيتان جديدتان على المسرح : الاولى هي ثيميستوكلس ، زعيم الديموقراطيين الراديكاليين الجديد ، الذي انتخب رئيسا للاساقفة في عام (٤٩٣) . وكان ثيميوستوكلس اول زعيم سياسي في اثينا لم ينتسب الى واحدة من العائلات النبيلة القديمة . وقد وصل الى السلطة بفضل الطبقة الوسطى الدنيا عن الالكمايونيين ، ولكنه لم يكن بعد على درجة كافية من القوة لينتهج خطا مستقلا ، واكتفى بضرب خصومه ببعضهم الآخر . وكانت الشخصية الاخرى هي ميلتياديس ، الذي كان والده قد نصبه بيسيستراتوس حاكما مطلقا على غاليبولي بعد ضمها من قبل اثينا .

وكان ميلتياديس قد خلف أباه ، ولكنه تخاصم مع البيسيستراتوسيين بدعمه الايونيين ، والآن . وبعد فشل الثورة ، فقد عاد الى اثينا هاربا . وكان ميلتياديس ينتمي الى عشيرة الفيلاييين الشهيرة . ولم يكن طبعا ديموقراطيا . ولكنه رأى فرصة حشد دعم الشعب حوله ضد سياسة البيسيسترانوسيين والكمايونيين الرجعية والانهزامية . وذلك بطرحه عليهم البديل وهو مقاتلة فارس بمساعدات اسبارطية . وحاول خصومه احباطه باتهامه بتهمة سوء الحكم في غاليبولي ، الا ان ميلتياديس ابريء من التهمة . وتظهر براءته ان ثيميستوكلس كان قد قرر ، للوقت الحاضر ، ان يدعمه .

وبعد ان اجتاح الفرس آيونيا ، أطبقوا على (يوبويا) وأنزلوا فرقة في ماراثون . وأرسل الاثينيون نداء مستعجلا الى سبارطة ، ولكن الاسبارطيين ماطلوا . ومن الجلي انه كان يوجد العديد منهم ممن كانوا يعتقدون بأن الطريق الافضل هو ترك الديموقراطية الاثينية للفرس ، بالرغم من خطورة ذلك عليهم انفسهم . وفي الوقت نفسه ، فقد شن ميلتياديس ، على رأس الجيش الاثيني ، هجوما في ماراثون . وكانت المعركة قصيرة ، ولكنها على درجة من الطول يكفي هيبياس ، وهو يراقبها من سفينة تحمل علما فارسيا ، ليرى وميضا من درع على المرتفعات المطلة على الخليج . لقد كان الوميض اشارة اليه ــ رسالة ضوئية من الالكمايونيين تقول انهم كانوا مستعدين لتسليم المدينة الى الحاكم الطاغية التي كانوا قد حرروها منه قبل عشرين عاما . وقاتل الاثينيون قتالا جيدا ودفعوا الفرس الى البحر ، ثم هرعوا عائدين الى المدينة لمجابهة خطر انزال مُعادٍ في (فاليرون) . وقد طاف الفرس فعلا بسفنهم في فاليرون ، منتظرين اشارة للانزال . الا ان الالكمايونيين لم يجرأوا على ارسال رسالة ضوئية مرة اخرى ، بسبب نتيجة معركة

ماراثون • وفي المساء . وصل الجيش الاسبارطي ليخبره الاثينيـــون المنتصرون بأن مساعدته لـم تعد موضع حاجة • ولم يكن هناك مـــن شيء ليفعله القائد الاسبارطي سوى تقديم تحياته والانسحاب • ومرة اخرى كان الاسبارطيون قد أخطأوا الحساب •

وبعد ماراثون بأشهر قليلة ، قاد ميلتياديس حملة ضد جزيـــرة (باروس) ، التي كانت قد انحازت الى الفرس • وظروف الحملة غامضة، الا ان هدفها ربما كان ، كما ذهب الى ذلك (ووكر) ، تنظيم جـــزر (سيكليديز) كخط خارجي للدفاع ضد الفرس ، الذين لم تكن الهزيمة في ماراثون حاسمة بالنسبة لهم بأي حال • وانتهت الحملة بفشل تام ، وعند عودة ميلتيادس اتهمه بالخيانــة (زانثيبوس) ، شقيق زوجـــة ميغاكليس ، الذي كان الزعيم الجديد للالكمايونيين • وكان ميليتياديس يحتضر فعلا متأثرا من جرح كان قد أصيب به اثناء الحملة • ولولا ذلك لكان قد حكم عليه بالموت • وفعلا فقد خفض الحكم الى غرامة ، ومات بعد ذلك بفترة قصيرة •

ان (ووكر) يقول ان فشل هذه الحملة «كان ضربة للقضية التي كان ثيميستوكلس يحملها في أعماق قلبه ، وكان عليه ان يستخدم نفـــوذه ليضمن براءة ميليتياديس ، او تخفيف الحكم على الاقل» • وهذا الرأي يحيل مجرى الاحداث الى شيء غامض • ففي هذه المناسبة ، كما فـــي المحاكمة السابقة قبـــل سنتين ، كان محاكمو ميلستياديس هـــم الالكمايونيين • وفي المحاكمة السابقة ، وكما رأينا ، كان ميلتياديس ، وهو حديث عهد ليس له أتباع منظمون ، قد أبريء • ومنذ ذلك الحين كانت معركة ماراثون قد كسبت ، ونودي بميلتياديس منقذا لأثينا ، بينما تكبد الالكمايونيون هزيمة ساحقة وانحنوا امام شبهة الخيانة التـــي أمضوا فيها جيلا قبل نسيانها • ومن غير المعقول انهم كانوا سيستطيعون

تأمين ادانة ميلتياديس في هذه الظروف دون دعم ثيميستوكلس • كما ليست دوافع ثيميستوكلس أبعد من ان تدرك • فقد دعم سياسة ميلتياديس المعادية للفرس لانه لم يكن بعد قويا بما يكفي لاتتهاجها مستقلا . ولكنه كان يعلم بأن الهدف النهائي لهذا الجزء من الفيلايين لم يكن ديموقراطيا اكثر من هدف النبلاء الاغنياء الآخرين الذين كانوا قد عرضوا خدماتهم على الشعب • وكان الراديكاليون قد بدأوا تعلم درسهم • ولذلك . فقد استغل في اول فرصة سانحة الانقسام بين ميلتياديس والالكمايونيين ليتخلص من ميلتياديس • وبعد فترة وجيزة نجح في التخلص من الالكمايونيين • وفي عام (٤٨) نفي مرشحهم . هيبارخوس • وفي السنة التالية نفي زعيمهم ، ميغاكليس • وفي عام (٤٨٤) نفي زانثيبوس ، الذي قاضى ميلتياديس • وفي عام (٤٨٢) ، نفي اريستيديس . احد اقوى أتباعهم نفوذا • وهكذا . ففي السنين التي اعقبت ماراثون . أطيح بخصوم ثيميستوكليس واحدا بعد آخر • وبفضل السرعة التي كان الشعب قد عالج بها ميلتياديس ، فقد كان قادرا على اخذ مهمة الدفاع عن بلاده بيديه •

ورأى ثيميستوكلس انه بالرغم من الانتصار في ماراثون فان الصراع الفعلي مع فارس لا يزال منتظرا ، ورأى ان الامل الوحيد في الانتصار النهائي يكمن في بناء أسطول بحري • وكانت هذه السياسة يعارضها الالكمانيون ، لانها كانت تعني منفذا للسلطة بالنسبة للطبقة الفقيرة في المدينة والموانيء ، التي كانت يجب الحصول منها على العاملين في الاسطول • ونفذها ثيميستوكلس على الرغم منهم • ومع ذلك ، فقد كادت معارضتهم ان تكون مهلكة ، لانه حين أزفت اللحظة الحاسمة لم يكن الاسطول الجديد على درجة بعد من القوة تكفي لدعم ادعاء أثينا بالسيطرة العليا في البحر •

وفي ذات الوقت . كان الامبراطور (زركسيس) ، الذي كان قد خلف أباه (داريوس) ، يعدّ غزواً لليونان واسع النطاق . وكان الجيش الذي حشده اكبر من ان ينقل عبر بحر ايجه ؛ ولذلك فقد زحف برا عن طريق جسر من العوّامات على الدردنيل ومن ثم على امتداد الساحل الثريسي الى داخل ثيسالي . وكان من المقرر ان يغطى تقدمه بالاسطول، الذي كان بالمستطاع استخدامه لانزال القوات في مؤخرة العدو اذا تجرأ على المقاومة . وكان اسطولا هائلا ؛ ولربما كان سيبدو ميئوسا منه وضع اسبارطة وآثينا اللتين اختيرتا لعقاب تحذيري .

وعن الوضع الذي خلقته الحروب الفارسية ، كتب (بيري) قائلا :

> ان الحرب الفارسية . في تأثيراتها في اليونان . توضح سير قانون عام يحكم المجتمعات البشرية. فالضغط من الخارج، سواء كان على أمة او عرق. يجنح الى تعزيز الوحدة والتماسك في الداخل . واذا كان الامر يتعلق بأمة ، زاد خطر الهجوم الخارجي من الشعور بالوحدة بين المواطنين الافراد وعزز السلطة المركزية . واذا كان الامر متعلقا بعرق ، فهو يجنح الى صهر الجماعات المنفردة في امة او اتحاد . وفي الحالة الاخيرة، تعتمد امكانية تحقيق وحدة كاملة او دائمة على قوة واستمرار الضغط الخارجي من جهة ، وعلى درجة القوة في الدافع الغريزي نحو الاستقلال الذي عاق حتى الآن الجزيئات السياسية عن التماسك ، من جهة اخرى .

ان المؤرخين الانكليز الحديثين قلّما يجرأون على صياغة قوانين عامة للمجتمع البشري ، وهذا الاستثناء ليس موفقا جدا . والحقيقة ، من

الصعب ان نرى اية علاقة له بالاحداث التي يقال ان مفعوله فيها مصور. وصحيح ان اقتراحا لاقامة اتحاد آيوني شامل قد جرت مناقشته عندما هددت المدن الآيونية اولا بفقد استقلالها . ولكنه لم يسفر عن ايـــة نتيجة . وحين سعت هذه المدن الى طرح النير الفارسي عنهـــا . طلبت مساعدات من سبارطة وأثينا . الا ان الاستجابة كانت فاترة ، وانهارت الثورة بسبب خيانات بين هذه المدن . وقد سبق ان رأينا كيف عرض كليسثينيس اولا وهيبياس من بعده بيع اثينا لمصلحتهما الخاصة ، وان الضغط الذي دفع الى هذه العروض كان داخليا . وفي وقت متأخر من عام (٤٨١) . وحين كانت الخطط الفارسية كاملة ، اجتمع مندوبون من عدد من الدول اليونانية في البرزخ لتنسيق دفاعهم تحت قيادة سبارطة، التي كانت لا تزال ، بفضل جيشها الذي لا يُنافَس ، اقوى دولة فــي اليونان . وكانت كورينث وأثينا مستعدتين للتعاون ، وتوصلت اثينا الى اتفاق مع ايجينا . وانضم ايضا الى التحالف الثيساليون والبويوتيون ، الا انهم كانوا معروفين بأنهـــم لا يمكن الاعتماد عليهـــم . وكانت ارستوقراطية طيبة الحاكمة مؤيدة للفرس ، وكذلـــــك كانت عشيرة الثيساليين من الاليويين . وفي بيلوبنيس نفسهـــا ، رفضت الانضمام آرغوس التي كانت قد هُزمت في الفترة الاخيرة ولكنها لم تفتح مـــن قبل سبارطه ، وكانت تتجه الآن نحو الديموقراطية . وهكـــــذا فعلت المدن الأخية على امتداد الساحل الشمالي . وعبر خليج كورينث ، كان مَوحى دلفي اكثر غموضا من اي وقت مضى ، وكانت توجـــد أسس للشك في انه كان مستعدا للانحياز الى زركيس . والى اقصى الشمال، وعدت مدينة (كيركيرا) ، التي كانت منافسا تجاريا لكورينث علـــى التجارة مع الغرب ، بإرسال مساعدات ، ولكنها لم تنفذ وعدها . وأرسل مبعوثون من المؤتمر الى بحر ايجه والى الغرب ، ولكن النتائج كانت

سلبية • ولم يكن هناك اي تفكير في كسب الآيونيين الذين كانــوا يزودون الآن الاسطول الفارسي بوحدات عسكرية . وذلك بفضــل السياسة الاسترضائية التي تبنتها فارس بذكاء بعد الثورة • وكانت مدن جزيرة كريت متحصنة بخشوع وراء كاهن من دلفي • وفي الغرب . ولربما كان ذلك نتيجة للديبلوماسية الفارسية : وجد (جيلون) : حاكم (سيراكوسي) المطلق . نفسه مشغولا بحرب ضد (قرطاجة) ، ولربما ايضا توقف ليفكر بأن سقوط كورينث وأثينا قد يؤثر في التجارة السيراكوسية تأثيرا ليس غير مفيد • ويجب الاعتراف بأن الاستجابة لهــذه الدعوة القوية الواضحة الى الوحدة الهيلينية القادمة من البرزخ كانت مثبّطة• وعدا الانقسامات الطبقية داخل كل «جزيئي سياسي» . فقد كانت الدول الاصغر مدفوعة بشكل واضح بأحد دافعين او كليهما ـــ الاعتقاد بأن الضغط الخارجي كان على درجة من القوة بحيث يجعل من المقاومــة شيئا عقيما . والخوف من ان الوحدة في ظل الحكم الاسبارطي ستظهر بأنها لا يمكن ان تكون اكثر تلاؤما وتجانسا من مصير آيونيا الحالي •

كان اليونانيون أقل عددا في البر والبحر الى درجة كبيرة • ولم يكن بمستطاع جيشهم ولا أسطولهم ان يتحملا ابداء مقاومة باستثناء مواقع ضيقة يعجز فيها العدو عن حشد قواته • ومن جهة اخرى ، لــو استطاعوا انزال هزيمة بالعدو في البحر : فانهم سيكونون قادرين على سحب جيشه بمهاجمة ساحل آسيا الصغرى بصورة متكررة • وكانت الصعوبة هي تحديد مكان ملاقاته • وكانت لدى الاسبارطيين مبررات قوية لانتظار العدو في البرزخ • واذا ارسلوا قواتهم الى مسافة أبعد في الشمال ، فسوف تتعرض لانزال فارسي على ساحــل آرغوس • وسيكون هذا الانزال شيئا مهلكا اذا أعقبته انتفاضة من السكان الاقنان في اسبارطة نفسها ، وهو امر محتمل الوقوع جدا • ومن جهة اخرى ،

اذا كان الدفاع سيقتصر على بيلوبونيس ، فان اثينا ، وهي غير محمية ، قد تتفاهم مع الفرس • وبدون الاسطول الاثيني ، سيضطر الاسبارطيون فورا الى التراجع من البرزخ • وعلى ذلك . اقترح ثيميستوكلس ان يزحف الجيش الاسبارطي شمالا ويحتل ممر (تيمي) ، وهو مدخل ثيسالي ، بينما يسعى الاسطول وراء اشتباك مع العدو في المدخل الشمالي الى يوريبوس •

قبل الاسبارطيون هذه الخطة ، ولكن بغير الهمة اللازمة لانجاحها • فقد ارسلوا قوة أصغر من هذه الى (ثيرموبيلاي) ، وهي الممر المؤدي من ثيسالي الى بويوتيا ، حيث فاجأها الفرس من المؤخرة وأبادوها • وقد اصبحت بويوتيا وأتيكا الآن بلا دفاع • وبعد اشتباك غير حاسم خارج (آرتيميسيون) ، انسحب الاسطول اليوناني الى القناة بين البر الاتيكي وجزيرة (سلاميس) • وأجلي سكان آتيكا على وجه السرعة الى سلاميس وإيجينا وترويزين • وبعد فترة قصيرة دخل الجيش الفارسي اتيكا ، ونهب الريف . واستولى على الاكروبوليس ، وأحرق المعابد عن آخرها•

كان الدفاع اليوناني آخذا الآن بالتمزق • وكان الاسبارطيون يريدون سحب الاسطول الى ساحل ميغارا ، والرجوع الى خطتهم الاصلية وهي الاستعداد للقتال في البرزخ • وكان معنى هذا ترك اللاجئين الاتينيين في سالاميس والتخلي عن الفرصة الوحيدة المتبقية لمجابهة الاسطول الفارسي في مياه ضيقه • وأظهر ثيميستوكلس انه اهل لما يجب القيام به • وأعلن بانه اذا تم التخلي عن سالاميس فسيأخذ الاثينيون لاجئيهم على سفنهم ويهاجرون بصورة جماعية الى ايطاليا • وفي الوقت نفسه ارسل رسالة الى الفرس يقترح فيها قيامهم بالهجوم فورا ، حيث كان الاسطول اليوناني يعد الخطه للهرب • وكان الوقت الآن أواخر الخريف ، ووقع الفرس ، وقد ضاق صدرهم بالتأخر ، في

الفخ • فبعد ان حوصرت سفنهم بين سالاميس والبر ، أصابها الارتباك والتبعثر ، ومنوا بهزيمة ساحقة • وسحب زركسيس أسطوله الى آسيا لفترة الشتاء ، تاركا جيشه تحت قيادة (ماردونيوس) في ثيسالي •

وفي مستهل السنة التالية (٤٧٩) ، انتخب (اريستيديس) ، الذي كان قد استدعي مع منفيين آخرين عند اندلاع الحرب ، لقيادة القوات الاثينية بدلا من ثيميستوكلس • وهذا يوحي بأن المقاومة الاثينيـــة (وأتيكا لا تزال مفرغة) كانت على وشك الانهيار • ولكن حين عرض ماردونيوس على اثينا صلحا منفردا ، فقد رفض العرض رفضا شديدا ، وكان يشنق على شجرة كل مواطن كان يؤيده مع زوجتـــه وعائلته • وأرسل نداء مستعجل آخر الى سبارطة ، وبعد تاخر مؤلم جدا عبـــر البرزخ جيش اسبارطي بقيادة (بوسانياس) • وقابل ماردونيوس هــذا الجيش في بويوتيا ، وكانت النتيجة نصرا حاسما للاسبرطيين • وانتهت الآن الازمة • وثار الايونيون ونظموا تحت قيادة الاثينيين في اتحـاد مناوىء للفرس •

وقضيت السنوات القلائل التالية بمهاجمة الفرس بصورة متكررة في جميع أرجاء بحر ايجه والى قبرص وساحل فينيقيا • وقد انفتح الآن امام المنتصرين مستقبل جديد ومغرٍ من التوسع التجاري • ومن الجانب الاثيني ، كانت هذه العمليات قد آدارها أريستيديس وكيمون ، ابـــن ميلتياديس ، الذي كان قد تزوج احدى حفيدات ميغاكليس • وبهـذا فقد آوقع الصلح بين عشيرتـي الفيلايين والالكمايونيين المتنافستين ، وضمنوا فيما بينهم في عام (٤٧١) نفي ثيميستوكلس ، الذي هرب الى آرغوس وانهمك هناك في مؤامرات ضد اسبارطة • وفي البداية ، وتحت قيادة بوسانياس ، شارك الاسبارطيون بدور فعال في العمليات الآيونية ، ولكن في عام (٤٧٦) استدعي بوسانياس واتهم بالتآمر اولا مع الفرس

ومن ثم مع ثيميستوكلس على الاطاحة بالدستور الاسبارطي عن طريق تمرد بين الاقنان • وأعدم بوسانياس ، واستجابة لاحتجاج اسبارطي استدعي ثيميستوكلس للاجابة عن تهمة بالخيانة العظمى • واذ لم يمثل هذا . فقد طورد من آرغوس الى كيركيرا ، ومن هذه عبر الجبال الى الساحل الايجي . ومن هناك الى (ايفيسوس) حيث وجد ملاذا في حماية الامبراطور الفارسي •

ان هذا انقلاب مذهل في الامور • فماذا كان قد حدث ؟ اننا نخبر بأن بوسانياس قد أدار النصر رأسه ، وبأن ثيميستوكلس ، كمبتدىء ، لم يكن يضارع المكانة المشتركة لخصومه الكريمي المحتد • ولكن هذا ليس الا لغواً من ذات الضرب الذي ينتسب اليه التفسير الذي يقدمه بلوتارخ الذي يقول ان ثيميستوكلس سقط من السلطة «لان الشعب كان ضجرا منه» •

ان التحالفات السياسية في اثينا واسبرطة قد تغيرت لان الوضع كان قد تغير • وقد بقيت الاهداف في كل حالة هي ذاتها • فحين كانت فارس قوية . نصح الالكمايونيون بالاستسلام ، الا ان ثيميستوكلس كان قد نفذ السياسة البديلة وهي مقاومة فارس بمساعدة اسبارطة • والآن فان فارس ضعيفة • والالكمايونيون يؤيدون تنظيم آيونيا في حملة ضد الفرس • وثيميستوكلس ، من جهة اخرى ، مصمم على معارضة اسبارطة ، وبمساعدة فارسية اذا اقتضى الامر ذلك •

وكانت الحرب قد تركت اثينا في وضع ملائم • وبفضل اسطولها وتنظيمها التجاري كانت قادرة على استغلال النصر • وانتهزت البيوت التجارية الغنية هذه الفرصة لضمان السيطرة الاقتصادية على بحر ايجه، وكانت في الوقت نفسه حريصة على تنمية علاقات ودية مع حكومة اسبارطة المعادية الديموقراطية • وكانت تلك الحكومة قد تعرضت

للاهتزاز • فما لم تترك سياستها التقليدية ، فسوف يكون حظها ممـا تكسبه من الحرب قليلا نسبيا • ولكنها لم تستطع البدء بسياسة توسع تجاري بغير ان تعرض للخطر في الداخل هيمنة الارستوقراطية مالكـة الارض ، التي كانت تمثل مصالحها • ولذلك فقد أرغمت على استدعاء بوسانياس ، الذي كان يستهدف بوضوح اقامة حكـم مطلق • وأدرك ثيميستوكلس بأن الخطر الذي يهدد الديموقراطية الاثينية . في الوضع الجديد ؛ هو ليس قوة فارس . التي كانت قد حُطمت الآن ؛ وانما نظام حكم اسبارطة المعادي للديموقراطية . ولذلك فقد دعم محاولة بوسانياس للاطاحة به • الا ان الشعب الاثيني ، الذي كانت الحرب قـد أنهبت مشاعره الوطنية ، لم يكن بالمستطاع اقناعه بأن فارس لم تعد هي العدو. ولاسيما ان احتمال الغنى الذي عرضته المعارضة المحافظة كان كبيرا • وقد بوغت وهو غير مستعد . وبالتالي فقد أغري بتنحية قائده • ودفع الثمن بعد سبعين عاما ؛ وذلك حين انتزعت منه حقوقه الديموقراطية في ثورة مضادة دامية (٤٠٤ ق•م) ، بجيش اسبارطي يقـف على ابوابه • وهلك مئات المواطنين • وبدا للاقنان ان ساعة خلاصهم آتية في النهاية• فقد ثاروا في العديد من انحاء لاكونيا وفي جميع انحاء ميسينيا • وجرى انقاذ الاسبارطيين بفرقة من الجنود من مانتينيا في أركاديا ، حيث اقاموا نظام حكم صديقا لهم بعد الحرب • وانسحب الثوار الى منأى جبـل (آيثومي) في ميسينيا ، حيث صمدوا عـدة سنوات • ولم يكـن الاسبارطيون مدربين على عمليات الحصار ، واستنجدوا بأثينا لترسل اليهم بعض القوات • وجوبه الطلب بمعارضة شديدة من (إفياليتيس) ، الزعيم الجديد للحزب الراديكالي ، والذي كان ، شأنه في ذلك شـأن ثيميستوكلس ، من العامة • ورأى الراديكاليون انهم كانوا يملكـون الآن فرصة : لا يحتمل ان تتكرر ، لرد الضربة التي كانوا قد أصيبوا بها

بفقد ثيميستوكلس . وفي الجانب الآخر ، كان المحافظون عازمين بالمثل على تلبية الطلب ، وكانت الغلبة لنفوذ كيمون . وصوتت الجمعية له على قوة مؤلفة من اربعة آلاف رجل مدجج بالسلاح ، حيث نقلها بسرعة الى ميسينيا ليفرض حصارا على جبل آيثومي . ومع ذلك ، لم يحـــرز الحصار اي تقدم . ووقع انشقاق بين القوات الاثينيـــة والاسبارطية . واضطرت الحكومة الاسبارطية في النهاية ان تطلب من حلفائها العودة الى بلادهم . وأسباب هذا الانشقاق ليست مذكورة ، الا ان هناك من خمّن بصواب بأن كيمون كان عاجزا عن كبح تعاطف قواعده مـــع المتمردين . وعندما عاد كيمون الى اثينا وجد نفسه وحزبه مجردين تماما من كل ثقة بهما . وألغي التحالف مع اسبارطة ، الذي كان قد حوفـظ عليه منذ الحرب الفارسية، وعقد بدلا منه تحالف مع منافستها، آرغوس. وفي السنة التالية نُفي كيمون .

لقد كان الراديكاليون في السلطة مرة اخرى . وقد فاتت فرصـــة التدخل بصورة فعالة في اسبارطة . ولكنهم كانوا قادرين على ادخـــال بعض الاصلاحات الهامة في الداخل . ومند عام (٤٨٠) ، وحين استرد المحافظون الهيمنة ، كان مجلس الايروباغوس ، الذي كان دائما اكثر الهيئات رجعية في الدولة ، قد استرد جزءاً كبيرا من نفوذه . وبمبادرة من افياليتيس ، قسست جميع سلطات المجلس ، باستثناء اختصاصه في حالات القتل ، بين مجلس الخمسمائة والجمعية والمحاكم القانونيـــة الشعبية . وتظهر اهمية هذا الاصلاح في ان اعداء الثورة قد ألغوه في نهاية الحرب البيلوبونيسية ؛ كما انه لم يكن دون تأثير في المحافظين في وقته ، لأن إفياليتيس اغتيل بعد بضعة اشهر . وأجاب الراديكاليـــون بإزالة آخر القيود المتبقية على حق الانتخاب . وفتحت وظائف الدولـة امام أقل الطبقات تسلكا . الا ان طبقة واحدة ، وهي أدنى الطبقـــات

جميعا . منحت في التطبيق هذا الحق بحيلة شرعية ، وان كانت رسميا لا تزال غير مؤهلة . وكان هذا في عام (٤٥٦) قبل الميلاد ، العام الذي توفي فيه اسخيلوس .

وفي ذات الوقت ، كان تركيب المجتمع الاثيني يتحول بشكل غير ملحوظ ، ولكنه سريع ، بتطور العمال الارقاء وتحويل الاتحاد ضد الفرس الى امبراطورية اثينية . وبحلول منتصف القرن ، كانت اثينا قد دخلت ، بشكل نهائي ، طريق التوسع الاستعماري . وسندرس هذا التطور في فصل لاحق . وكان أثره المباشر هو تخفيف التوتر الطبقي بين السكان المواطنين عن طريق الاستغلال المشترك للأرقاء والامبراطورية. وكان يتحتم الآن حل التناقض الذي قامت عليه الثورة الديموقراطية بإلغاء الديموقراطية . وكاد اسخيلوس ان يكون جاهلا بهذا الجانب السلبي من الثورة ، باستثناء ما كان في آخر أعماله الى حد ما . ولكنه كان واسع الادراك لجانبها الايجابي ، الذي كان في الحقيقة مصدر الهام لفنه . وفي نظره ، وهو الذي كان في مرحله من العمر تكفي ليتذكر حكم هيبياس المطلق ، كان الصراع قد تم كسبه ، وكانت التناقضات قد تم التوفيق بينها .

مراجع

Walker, E.M. Cambridge Ancient History, Vol. 5.

-١٤-

الرباعيّة

كان مهرجان مدينة دايانيسيا ، كما أعاد تنظيمه كليستينيس في نهاية القرن السادس ، يستمر خمسة او ستة ايام • وقد وصفنا برنامج اليوم الاول في الفصل العاشر • اما ترتيب وقائع البرامج خلال بقية المهرجان فليس مؤكدا • وكانت التنظيمات التي تحكم المباريات على النحو التالي :

كانت تلقى عشر قصائد حماسية ، وعلى اساس قصيدة واحدة من كل قبيلة • وكان تدريب الجوقة يؤول الى مواطن غني ترشحه القبيلة من بينها ويعرف بالـ (خوريغوس) • واذا رأى مواطن مرشح لهذا الغرض ان الاختيار كان يجب ان يقع على فرد آخر من قبيلته ، فقد كان بامكانه ان يتحداه اما بأخذ مكانه بوصفه خوريغوس وإما بتبادل الاملاك • وكانت هيئة قضاة تنتخب من قبل مجلس الخمسمائة بمساعدة

الخوريغوس ، وكانت تختار عشرة أسماء من هذه الهيئة بالقرعة • وكما سبق ان لاحظنا ، فقد كانت الجائزة ثورا •

وكانت الاداءات الدرامية مستقلة عن النظام القبلي • فقد كانت المباراة مفتوحة امام كل مواطن • وكان على المواطن الذي يرغب في ذلك ان يقدم الى الأرخون ايبونيسوس اربع مسرحيات ، تتألف من اربع تراجيديات ومسرحية هزلية (ساتير) واحدة • وسنشرح طبيعة المسرحية الهزلية فيما بعد • وقد عرفت هذه المجموعة من المسرحيات الاربع في اوقات تالية بالرباعية • اما التراجيديات الثلاث ، مأخوذة بذاتها ، فقد عرفت بالثلاثية • ولم تكن طوال القرن الخامس اية ندرة في المتبارين • وكان الآرخون يختار ثلاثة من بين المتقدمين للمباراة ، ويعين لكل منهم خوريغوسا يرشحه من بين مجموع المواطنين • وكانت القواعد المتعلقة بالخوريغوسات والقضاة هي ذات القواعد المتعلقة بمباراة القصائد الحماسية • وكانت الجائزة معزاة • وكانت كلمة Tragoidia تعني بالضبط «اغنية الماعز» •

وليس واضحا السبب في ان مباراة القصائد الحماسية كانت قبلية، بينما كانت المباراة الدرامية غير قبلية • ويبدو محتملا ان طابع الاولى القبلي كان سابقا على اعادة تنظيم المهرجان من قبل كليسثينيس ، والسبب انه يصعب ، عدا ذلك ، ان نرى لماذا كان قد ميز بين الاثنتين • والافتراض الذي يطرح نفسه هو ان المباراة في القصيدة الحماسية تواجدت بشكل ما قبل حكم بيسيستراتوس المطلق ، الذي كان بتسلمه اياها قد ترك طابعها القبلي دون تغيير ، ولكنه حرص على وضع المباراة الدرامية ، التي كانت جديدة ، على اساس اكثر شعبية •

والأهم هو السؤال الاكبر وهو لماذا كانت كل الاداءات في هذا المهرجان ، قصائدية ام درامية على حد سواء ، تنافسية • وما من صفة

تقابل هذه السمة في دراما القرون الوسطى • وقد كانت المنافسة حادة جدا • وقد تنافس المواطنون الاغنياء فيما بينهم كخوريغوسات من اجل المكانة السياسية • ولم يكن الآرخون الذي كان يختار الرباعيات الثلاث موظفا سياسيا فحسب يتغير من عام الى آخر ، بل ان طريقة تخصيصها للخوريغوسات الثلاثة المرشحين من قبله لم تكن تحول دون امكـــان التواطؤ بين الخوريغوس والشاعر • ففـــي عام (٤٩٣ ق٠م) ، قدمت تراجيدية عنوانها «نهب ميليتوس» من قبل فرينيخوس • وكان موضوعها سقوط تلك المدينة في نهاية الثورة الآيونية • وقد أثارت المسرحية غضبا شديدا ــ والواضح بين مؤيدي الالكمايونيين الموالين للفرس ــ وحكم على المؤلف بغرامة • وبعد سبعة عشر عاما كرّس ثيميستوكلس لوحا نَذريا يخلد انتصارا أحرز في مباريات تراجيدية من قبله هو بوصفـه خوريغورسا ومن فرينيخوس بوصفه شاعرا • ونحن لا نستطيع ان نؤكد بأن ثيميستوكلس كان خوريغورسا لمسرحية «نهب ميليتوس» ، الا ان من المستحيل ألا نشك بأنه كان مسهما في اخراجها • وبطبيعة الحال فقد كان من غير المألوف ان يؤخذ موضوع التراجيديا من الحياة المعاصرة ، الا اننا نجد في العديد من التراجيديات المتواجدة ، ولاسيما ما كتبـه اسخيلوس ويوريبيديس ، ان الاساطير تُعالَج بإشارة صريحة الـــى أحداث سياسية • وينبني على ذلك ان كلا من اختيار الآرخون وحكـم القضاة قد تأثر حتما ، وبصورة واعية في بعض الحالات ، بانحيـــاز سياسي •

اذن ، ماذا كان اصل عنصر التنافس الرسمي هذا الممثل بنظـــام الخوريغوسات ؟ ان هذا لم يكن النظام الوحيد من نوعه • فإضافة الى الخوريغوس كان يوجـــد الـ (جيمناسيارخوس) والـ (هيستياتور) ، وكلاهما يرشحان بالطريقة الموصوفة ، والاول لتدريب الفتيان علـــى

المهرجانات الرياضية ، والثاني لتقديم ولائم عامة لافراد قبيلته . والكلمة الشاملة لخدمات من هذا النوع كانت هي (ليتورجيا) ، المشتقة من (ليتون) او (لايتون) ، مرادف كلمة (بريتينيون) الآيولية المرادفة . وهذه «الخدمات في بيت الرجال» تعود بنا الى ايام ما قبل ثيسيوس ، حيث كان لكل مستوطنة قروية بريتينيونها الخاص بها (الفصل الخامس) ، الذي كان يجتمع فيه رجال القبيلة برئاسة الزعيم المحلي للاحتفالات الطقسية، واعداد الفتيان للتلقين ، ولوجبات الطعام الجماعية . والليتورجيات هي الشكل الذي كان قد أعيد به تنظيم هذه الاعراف البدائية في ظل الدستور الديموقراطي ـ وقد أعيد تنظيمها ولم تبعث مجددا لان هناك دليلا على انها كانت لا تزال تمارس ولكن بشكل ضعيف في ظل الارستوقراطية ، في عادة فتح البيوت للضيوف . وهكذا يروي لنا بلوتارخ . عطفا على أرسطو وكراتينوس ، ان كيمون ، ابن ميلتيادس ، اعتاد ان يقيم في بيته مأدبة بسيطة ولكنها كافية لعدد كبير ، وكان لجميع أفراد ديموسه حرية الوصول اليها :

> لقد فاق كرم كيمون كل حسن الضيافة والجود الاثينيين القديمين ... وبتقديمه استخدام بيته كيريتينيون وسماحه للمسافرين بتناول الفواكه المزروعة في ارضه ، يبدو قد أعاد الى العالم مجتمع الاخيار الذي تروي الاساطير انه قد وجد في عهد كرونوس .

وبقيامه على هذا النحو بدور هيستياتور على مسؤوليته ، فقد كان كيمون ، الذي كان فخورا جدا بتقاليده الارستوقراطية ، يحافظ بشكل واضح على عرف عائلي قديم ، يتلمس فيه بلوتارخ بصواب أثرا من

الشيوعية البدائية .

وينبغي ان تكون مهمتنا التالية ان نحل ، اذا كان ذلك ممكنا ، المشاكل التي تطرحها الرباعية . فلماذا كان يطلب من المرشح للجائزة التراجيدية ان يقدم ثلاث تراجيديات ومسرحية هزلية (ساتير) ؟

لقد كانت المسرحية الهزلية تشبه التراجيديا في تركيبها . الا انها كانت تقليدية ساخرة من حيث اللهجة ، وكانت جوقتها تمثل دائما فرقة من الساتيرات . وكانت الساتيرات مخلوقات أسطورية ، نصفها بشر والآخر وحش . وأصلها مجهول في الوقت الحاضر . والادلة المتعلقة بها جمعها (بيكارد ــ كمبرج) مع تقرير كامل عن الاعتراضاتالتي لا تدحض الموجهة الى النظرية (المستندة الى سوء فهم لأرسطو) القائلة ان المسرحية الساتيرية تمثل العنصر الاصلي في فن التراجيديا ، الذي كانت منه التراجيديا ، بمعنى الكلمة الضيق ، نتيجة متفرعة . ولا تترك معالجة بيكارد ــ كمبرج لهذه المسألة مزيدا لمستزيد . ولكن لمّا كان ممكنا في نظري أن يستخلص من الادلة استنتاج اكثر ايجابية مما استخلصه ، فمن الضروري معالجة نقاط معينة بإيجاز .

اولا ، فلنتناول الروايات القديمة . فقد كان (آريون) في كورينث هو «اول من أدخل ساتيرات تتحدث شعرا» ، وكان (براتيناس) من (فلايوس) (على بعد بضعة أميال من كورينث) هو « اول من اخرج مسرحيات ساتيرية» . وكان براتيناس قد اقام في اثينا ، حيث تبارى مع اسخيلوس على الجائزة التراجيدية بين عام (٤٩٩) و(٤٩٦) قبل الميلاد. ويقال انه كتب خمسين مسرحية ، كانت اثنتان وثلاثون منها ساتيرية . ويستنتج من هذا انه كان يتبارى حتما في اثينا قبل ان تصبح قاعدة الرباعية معمولا بها ، وإلا تعذر تفسير النسبة بين هذين الرقمين . والآن ، نحن نعلم ان المهرجان أعيد تنظيمه خلال العقد الاخير من

القرن السادس ـ ومن المحتمل ان يكون في عام ٥٠٢ ـ ٥٠١ قبل الميلاد ؛ ومن الراجح جدا اذن ان تكون قاعدة الرباعية مؤسسة في ذلك الوقت • وهذا الاستنتاج بأن المسرحية الساتيرية ، وهي أبعد ما تكون ممثلة لاصل التراجيديا ، كانت زيادة متأخرة ، يؤكده التأمل في تركيبها الذي سار بالضبط على ذات خطوط التراجيديا ، وذلك بقدر ما يمكن الحكم به استنادا الى الساتيريات المتبقية • واذا اعتبرت الجوقة الساتيرية بقية من الشكل البدائي للجوقة التراجيدية ، اصبح من المستحيل تفسير سبب عدم وجود اية سمات بدائية اخرى في تركيب المسرحية الساتيرية • ولا حاجة الى قول اي شيء آخر هنا بشأن الحجج الاخرى المطروحة لدعم هذه النظرية ، التي فنّدها بيكارد ـ كمبرج • وعلى ذلك يكون استنتاجي على النحو التالي : ليس هناك من شيء معروف عن تاريخ الدراما الساتيرية الاول يتجاوز الحقائق المجردة المسجلة في الحديث الذي سبقت الاشارة اليه • وقد جرى ادخالها في العرف الاثيني على يد براتيناس خلال الربع الاخير من القرن السادس قبل الميلاد ، وكان تركيبها قد جعل عندئذ مشابها لتركيب التراجيديا ، التي كانت تقترب فعلا من النضج • وأخيرا ، ففي العقد الاخير من القرن المذكور ، وعندما أعيد تنظيم مدينة ديايانيسيا ، أعطيت مكانا ثابتا في العرف الجديد الخاص بالرباعية ، حيث احتفظت به دون استثناء تقريبا طوال القرن التالي •

وقبل ان نسير في البحث خطوة اخرى ، علينا ان نتوقف لنتناول صعوبة أثارها ـ بلا مسوّغ كما يبدو لي ـ بيكارد ـ كمبرج نفسه• وقد ناقشنا قول ارسطو بأن «التراجيديا نشأت عن قادة القصيدة الحماسية» بإسهاب في فصل سابق ، حيث وجدنا انه يتفق مع كل من الادلة الداخلية اليونانية والاستنتاجات المستخلصة من دراستنا العامة

للطقوس البدائية • ويستمر ارسطو في المقطع ذاته على النحو التالي :

ان التراجيديا ، وقد بدأت بحبكـــات صغيرة وعبارات مضحكة ، بسبب اصلها الشبيه بالساتير (ايك ساتيريكــو) ، اصبحت في النهاية جادة ، واستعيض بالعروض الايامبي عــن الرباعي التروخائي ، وكان الاخير قد استخدم اولا بسبب طابع الشعر الشبيه بالساتير (ساتيريكين) والشبيه بالرقص •

ان السؤال يدور حول معنى كلمة (ساتيريكوس) ، وتعني حرفيــا «الشبيه بالساتير» • وكان لهذه الكلمة استعمالان • فأولا ، وبصورة عامة ، كانت تعني «شبيه ساتير» او «ينتسب الى ساتير» ، وذلك تماما كما كانت كلمة (باسيليكوس) تعني «على نحو ملكي» او «ينتسب الى ملك» • وكانت الساتيرات مخلوقات شهوانية ، وكان المرادف الاقرب لكلمة (ساتيريكوس) بهذا المعنى هو (هايبريستيكوس) ، اي «شبق» ، «خليع» ، «فاحش» ، «صخّاب» ، «مملوء بنشاط حيواني»• وثانيا، كانت هذه الكلمة تستعمل بمعنى فني بتركيز خاص على المسرحيـــات الساتيرية ، التي كانت تسمى عادة (ساتيرو) ، ولكن احيانا ايضـــا (ساتيريكا دراماتا) • وكلا المعنيين يأتيان طبعا من تكوين الكلمة • ولا يوجد المعنى الاول قبل بلوتارخ ، بينما يشهد على الثاني افلاطون، ولكن لما كانت الكلمة لا ترد اكثر من اثنتي عشرة مرة اجمالا ، فليس هـــذا الفرق هاما • والحقيقة ، يمكن البرهنة على ان المعنى الاول كان مألوفا على وجه التأكيد تقريبا لدى افلاطون ، الذي يتحدث عن (ساتيروس هيبريستيس) ، اي «ساتير شبق» ، تماما كما يصف بلوتارخ شخصا ما بأنه (ساتيريكوس كاي هيبريستيكوس) اي «شبق وشبيه بالساتير» •

فأي المعنيين . اذن . اراد ارسطو : ان التراجيديا كانت اصلا صخابة ، شبقة ، فاحشة . ام انها نشأت اصلا من الدراما الساتيرية ؟ لما كان اي من التفسيرين ممكنا لغويا ، يجب حسم المسألة في ضوء الاحتمالات العامة للامر . ولا يوجد اي دليل على ان القصيدة الحماسية كانت لها اية صلة بالدراما الساتيرية ، او على ان ارسطو كان يعتقد بأن لها هذه الصلة . (وصحيح انه يقال ان آريون نظم مسرحيات ساتيرية كما نظم قصائد حماسية . ولكن ، وكما لاحظ بيكارد ـ كمبرج ، لا يمكن الاستنتاج من هذا بأن النوعين كانا من اصل مشترك) . وعلى ذلك ، اذا فهمنا أرسطو بأنه يعني بأن التراجيديا نشأت في الدراما الساتيرية ، فنحن ننسب اليه بذلك تناقضا . والتفسير البديل عن ذلك لا ينطوي على اية صعوبة . فهو يقول . في الاصل لم تكن التراجيديا جادة ، وكانت حبكاتها صغيرة وعبارتها هزلية ـ انها كانت مبتذلة ، بذيئة . فاحشة . ونحن نتذكر بقصيدة آرخيلوخوس الحماسية ، التي كانت تلقى عندما كان المنشد «مصعوقا بالخمرة» . ويبدو واضحا ، اذن ، ان هذا هو ما كان يعنيه ارسطو .

لقد عالجتُ هذه المسألة بشيء من الاسهاب ، لان معالجة بيكارد ـ كمبرج لها هي شائبة خطرة جدا في كتاب ممتاز . فهو بعد ان يعترف قائلا «نحن لا نستطيع ان نقرر» بأي معنى يستخدم ارسطو الكلمة ، يعبر عن رأيه بأن «ميزان الاحتمال هو في صالح التفسير الحرفي» ، اي المعنى الفني ، مشيرا بذلك الى الدراما الساتيرية . ولكنه يكرر تحذيره من ان هذا التفسير «لا يمكن ان يعتبر قاطعا» . ومن ثم ، وبعد ان يتخلى عن تحذيره ، يمضي ليناقش وكأن التفسير البديل لم يتواجد، وهكذا ، وبعد ان يحكم على ارسطو بالتناقض الذاتي ، يصل الى الاستنتاج التالي :

ان علينا ، باختصار ، ان نعترف بأسف بأن من المستحيل قبول شهادة ارسطو دون شك ، وانه ربما كان يستخدم حرية التنظير التي لم يتركها بعد بالتأكيد أولئك الباحثون العصريون الذين يطلبون الينا التسليم به بوصفه معصوما من الخطأ .

وليس من الضروري الايمان بعصمة ارسطو من الخطأ لكي ندرك ان الطريقة التي آهمل بها شهادته في هذه النقطة الحيوية هي خاطئة كليا . وانه لأمر يدعو الى عميق الاسف ان يكون ناقد كان قد كشف عن مواطيء زلل كثيرة جدا تقوم عليها نظريات شائعة عن اصل التراجيديا قد زلّت به قدماه في هاوية حفرها بنفسه .

وانه لأكثر من راجح ان تكون احتفالات الجمعية الدايانايسيسية قد احتوت الكثير مما ينبغي ان نصفه بالفحش . والطقس البدائي يمتليء بالتعبير الذاتي الجنسي من جميع الانواع ، لان وظيفته هي جعل الاشياء تنمو عن طريق السحر التمثيلي ، وهو في الوقت ذاته على درجة كبيرة من الجدية ، لان انجاز تلك الوظيفة ضرورة ماسة . ولكن، لما كان الاسلوب الفعلي للانتاج يتطور ، فان العنصر السحري يتدهور، وعندئذ يمكن ان يحدث شيئان . فالطقس قد يتحول الى الطقوس الدينية لطبقة حاكمة ما . وفي تلك الحاله ، يصبح قمعيا ، اما عنصر التعبير الذاتي الجنسي فهو اما أن يُستبعد وإما آن يحصر ضمن حدود معينة . او ، بدلا من ذلك ، فهو ، بعد ان تتخلى عنه الطبقة الحاكمة ، يبقى بين الفلاحين ، الذين يقدم اليهم تحررا من الكوابح التي يخلقها الكبت الاجتماعي عن طريق الفحص والسلوك المستهتر . وفي فصل سابق ، ذهبنا الى ان هذه كانت هي المرحلة التي بلغتها مسرحية الآلام الدايانايسية في الوقت الذي تبنتها فيه الدولة كجزء من مدينة دايانيسيا .

وقد خلقت هذه توترا جديدا ، كان له تأثير هام في تطورها • فبينما كافحت الطبقة الوسطى من اجل تشذيب محتواها الفكري وابعادها عن الاتصال المباشر مع الواقع ، فقد واصل الفلاحون والعامة البحث فيها عن انجاز وظيفتها السابقة • وكانت النتيجة ، كما يقول ارسطو ، هي انها مرت بفترة طويلة لتصبح جادة ورصينـــــة • والحقيقة فان العنصر الكوميدي او الهزلي لم يستأصل كليا • ففي الوقت الذي كان يجري فيه ابعاده عن التراجيديات ، فقد عاد الى الظهور في المسرحية الساتيرية• وعلى هذا الاساس ، وفي نهاية القرن السادس ، اكتسب الشكل الفني مساواة نهائية تدين باستقرارها الى حقيقة هي ان العنصر الكوميـــدي كان يجد في الوقت ذاته منفذا جديدا ومستقلا • وهكذا ، كان تطور التراجيديا وظهور الكوميديا مرتبطين معا على نحو مباشر بتفاعــــل التوترات الداخلية الذي هو القوة المحركة للمجتمع •

اما عن الكوميديا ، فسأقصر اهتمامي على تلك الجوانب التـــي تصور بأقصى وضوح صلتها بفن التراجيديا • وانطلاقا من مقارنـــة لتركيب الكوميديا الاريستوفانية مع المهرجانات الفلاحية في ماسيدونيا الحديثة ، التي تحتوي عنصرا او عنصرين ديانايسيين بوجـه خاص ، ذهب (كورنفورد) الى ان الكوميديا الاتيكية مؤسسة على نمط الموت والنشور الطقسي الذي فسر في هذا الكتاب في ضوء التلقين البدائي ، وهو في الحقيقة ذات الطقس الذي رددتُ اليـــه اصل التراجيديا • ونظرية كورنفورد هي بحاجة الى تعديل في نقاط معينة • فهو ، بافتراضه بأن كلا من الطقس الماسيدوني وتركيب الكوميديا الاتيكية كانا اكثر تماسكا مما كانا عليه فعلا ، قد حاول في رأيي ان يبرهن على اكثر مما يجب • ومن جهة اخرى ، فأنا مقتنع بأن فرضيته العامـــة ــ وهي ان الكوميديا مأخوذة من الطقس البدائي للنمط الذي بحثته في الفصـــل

الثامن ـ هي صحيحة . ومن الضروري الاصرار على هذا ، لان نظريته تحداها بأجمعها بيكارد ـ كمبرج ، الذي لا يجد صعوبة في ذكر نواقص عارضة او جانبية ، ولكنه يبرهن على انه عاجز تماما عن تقدير اهميتها الاساسية . ووجهة نظر بيكارد ـ كمبرج هي ان العديد من سمات الكوميديا التي سعى كونفورد لتفسيرها هي «طبيعية» . وهكذا، وهو يبحث دور (الطاهي) في مسرحية (الفرسان) ، الذي ، كما يتصوره كورنفورد ، يرتبط بالطبيب التقليدي الذي يعيد الموتى الى الحياة ، يجيب على كورنفورد كما يلي :

ان اعادة الشباب عن طريق الطبخ هي بالتأكيد ليست اكثر من تذكرة بقصة ميديا وبيلياس في اطار كوميدي ـ شكل آخر لاعادة الشباب الى رجل مسنّ حيث تقع بالتأكيد في عدة مسرحيات ، وهي طبيعية تماما في كوميديا كان فيها القروي العجوز شخصية تقليدية وستحقق أمنية قلبه على افضل وجه بأن يصبح شابا مرة اخرى . ولا يحتاج الامر الى طقس لشرح هذا .

ويمكن الظن بأن كورنفود سيرد ، بصواب تماما ، على هذا الانتقاد بأنه يترك بلا تفسير جميع الامور التي تتطلب تفسيرا . فما هو مغزى أسطورة ميديا وبيلياس ؟ ولماذا كان القروي العجوز شخصية تقليدية ؟ ولماذا يأتي موضوع اعادة الشباب في عدة مسرحيات ؟ اما بالنسبة لبيكارد ـ كمبرج فيكفيه القول بأن هذه الامور كانت «طبيعية» . وهو يعرب عن وجهة النظر نفسها في تعليقه على الادلة المتعلقة بالملابس التنكرية الحيوانية التي ترتديها الجوقة الكوميدية :

> الحقيقة . ان اعادة الظهور على هيئة حيوانات هي عالمية الانتشار • وفي بعض الاقطار قد تعود الى اصل طوطمي ؛ وفي اخرى (او فيها نفسها) قد تكون مرتبطة بطقوس سحرية لضمان خصب الارض او النوع البشري • وفي حالات كثيرة جدا ، ولربما اكثر مما يسمح به الانثروبولوجيون دائما . ربما كانت تمارس على سبيل الضحك واللهو فقط . وذلك اما لان اي مبرر ديني للعرف قد نسي منذ فترة طويلة ، او (ولربما كان ذلك في حالات اكثر) لان الطفل في الجنس البشري يموت بعد كفاح مرير •

انها عالمية الانتشار ، ولربما كانت هذا او ذاك ، ولربما كانت على سبيل الضحك واللهو فقط • وملاحظات من هذا القبيل كهذه الملاحظات تظهر بأن ذهن بيكارد ــ كمبرج يتحرك في دائرة ضيقة • وداخل تلك الدائرة ، ما من دارس للدراما اليونانية يكون اكثر تضلعا وقوة ملاحظة، أما خارجها ، فهو لا يفكر اطلاقا • والملاحظة الاخيرة ، وهي ان الطفل في الجنس البشري يموت بعد كفاح مرير ، ملاحظة لا استطيع فهمها •

وكما كان شأن القصيدة الحماسية ، تطورت الكوميديا في اتيكا تحت تأثيرات من بيلوبونيس • ولربما كانت الوسيلة التي نقلت بها هذه التأثيرات هي الهجرة ، التي كانت ، كما رأينا ، مستمرة طوال القرن السادس • ومن سوء الحظ اننا لا نعرف شيئا يذكر عن الدراما البيلوبونيسية • ويوجد دليل من مرحلة مبكرة على وجود دراما طقسية ارتبطت بعبادة آرتيميس أورثيا في اسبارطة وكانت تتألف من شخصيتين تقليديتين ، الطبيب الدجال والامرأة العجوز ، اللذين نقابلهما مرة اخرى في الكوميديا الاتيكية • الا ان هاتين الشخصيتين توجدان في العديد

من انحاء العالم ، في كل من العصور القديمة والعصور الوسطى . ولذلك لا يسكن الافتراض بأن الكوميديا الاتيكية اشتقت من بيلوبونيس • كما يوجد دليل ــ ربما كان من (سيكيون) ، الا ان المكان غير محدد ــ على تواجد فرقة من الممثلين المتنكرين الذين كانــوا يدخلون الاوركسترا مرنجلين ترنيمة لدايانايسيس • وكان قائدهم ، الذي كان وجهه ملطخا بالسخام ، يحمل القضيب • وبعد انتهاء الترنيمة ، كانوا يركضون الى آفراد بين المشاهدين ويسخرون منهم بتقليدهم • ومما يغري بهذا الصدد ان نرى في القضيب الطراز الاولي لسارية ايار الحديثة ، (وهي عبارة عن عمود مزين بالاشرطة والازهار ، ينصب في العراء ليرقص حوله في عيد اول ايار) (*) • و(الرجل الاسود) الذي سبق ان رأيناه عنــد الايليوثيريين بوصفه ميلانثوس ، هو شخصية تقليدية اخرى • والسخرية من المتفرجين ترتبط بشكــل واضح بوظيفة الخطب المسرحيــة الاريستوفانية •

وعلى اية حال فقد كانت ميغارا هي التي تطورت فيها الدرامــا البيلوبونيسية تطورا بالغ السرعة والكمال • ولما كانت ميغارا لا تقع الا على بضعة أميال فقط عبر الحدود الاتيكية ، أمكن اعتبار كون الكوميديا الاتيكية مدينة بالكثير الى هذا المصدر شيئا مؤكدا • واضافة الى هذا نحن نعلم بشكل صريح بأن الكوميديا الميغارية تطورت في ظــل الديموقراطية ، التي أقيمت حوالي عام (٥٨٠) قبل الميلاد • ولمـا كانت ميغارا الدولة البيلوبونيسية الاولى (ولربما كانت ، في القرن السادس، الدولة الوحيدة) التي بلغت هذه المرحلة ، فلدينا هنا اشارة واضحة الى ان الكوميديا كانت مرتبطة بالحركة الديموقراطية بشكل لا يقل عــن ارتباط التراجيديا بها •

(*) الشرح المحصور بين القوسين من المترجم •

وقد نشأت الكوميديا الاتيكية في مهرجان (لينايا) الدايانايسيسي، الذي كان يحتفل به في شهر كانون الاول ، وربما كان متماثلا مع مهرجان ريف دايانيسيا الذي كان يعقد في ذات الوقت تقريبا في القرى الاتيكية • وفي عام ٤٨٦ ـ ٤٨٧ قبل الميلاد ، اقيمت مباريات في الكوميديا بصورة رسمية في مدينة دايانيسيا على ذات الاساس الذي أسست عليه المباريات التراجيدية ، باستثناء الشاعر الكوميدي كان يتنافس بمسرحية واحدة • وجدير بالملاحظة ان هذا التاريخ يقع في وقت كان فيه ثيميستوكلس ، زعيم الديموقراطيين الراديكاليين في أوج سلطته • ومن المحتمل ان مباريات مماثلة كانت تعقد فعلا بصورة غير رسمية في لينايا . الا ان هذه لم تنل اعترافا من الدولة قبل عام (٤٤٢) قبل الميلاد •

وكانت اللينايا اصلا عبارة عن عيد للينيات او «النساء المجنونات»: اي انها كانت تستند الى طقس جمعية دايانايسيسية • وكانت تبدأ ، كمدينة دايانيسيا ، ببومبي ، يمكن استنتاج طابعه جزئيا من باروديـة اريستوفان (محاكاته الساخرة) للبومبي في مدينة دايانيسيا • وكان الموكب تتصدره فتيات يحملن سلالا قربانية وتتبعهن جوقة من الذكور يحمل رئيسهم القضيب • وفيما كانوا يسيرون ، كانت الجوقة ترتجل ترنيمة تسخر خلالها من اشخاص بين جمهور المتفرجين • وكان يذبح حيوان قربانا ، ولربما كان احد الكهنة ينطق عند هذا بالكلمات «نادوا الإله !» ، التي كان يرد عليها الحشد : «دايانايسيس ، ابـن سيميلي ، واهب الثروة !» • وينبغي الافتراض بأن القربان كان يعقبه كوموس • وكلمة (كومويديا) تعني «اغنية الكوموس» • وهكـذا يكشف طقس اللينايا عن ذات السلسلة المتعاقبة ـ بومبي ، آغون ، كوموس ـ التي سبق ان تعقبناها في مدينة دايانيسيا • ويوحي الاحتمال نفسه بـأن

المهرجان الاخير كان قد وضع بشكل مقصود على غرار اللينايا •

ان كوميديات اريستوفان (٤٤٤ ــ ٣٨٨ ق•م) تستند الى نمط تركيبي خاضع لتنوع واسع ، ولكنه متميز بصورة واضحة • والعناصر الرئيسية هي الـ (بارودوس) او دخول الجوقة ، والـ (آغون) وهو مشاحنة او مناقشة يسبقها عراك احيانا ، والـ (باراباسيس) ، وهو خطاب يتحدث فيه الشاعر الى الجمهور عبر الجوقة عن أمور شخصية وسياسية، والـ (ايكسودوس) ، الذي له عادة طابع كوموس • وتتخلل هذه العناصر مشاهد حوار شعري من العروض الايامبي ، يشترك فيه ممثل او اكثر، وتسبق البارودوس مقدمة •

يقول ارسطو ان الكوميديا نشأت «من قادة الترانيم الغاليّة» ، كما نشأت التراجيديا من قادة القصيدة الحماسية • وما يعنيه هو بوضوح ان قائد الترنيمة الغالية هو الذي حوّل الطقس الى دراما بتحدثه بشكل يليق بدوره ، شأنه في ذلك شأن قائد القصيدة الحماسية الذي اصبح الممثل التراجيدي • ويتفق النقاد المعاصرون بصورة عامة على ان المقدمة والمشاهد الايامبية الاخرى ، التي يركز فيها على العنصر الدرامي ، هي ذات اصل متأخر عن الاجزاء الاخرى • وحين تُستبعد هذه ، تبقى لدينا البارودوس ، التي نراها وهي البومبي ، والآغون ، والباراباسيس، والايكسودوس او الكوموس • وبصرف النظر عن طابع الآغون ، المؤسس بشكل واضح على عراك وهمي طقسي ، والباراباسيس ، الخاص بالكوميديا ، فان هذه هي السلسلة المتعاقبة التي سبق ان حددناها بأنها اساس التراجيديا • ويعود الشكلان الفنيان الى اصل مشترك •

ان العنصر الكوميدي في العرف التراجيدي ، الذي تمثله المسرحية الساتيرية ، قد اصبح الآن مفسرا ، وبقي الان ان ننظر في الدافع الذي

حدا الى نظم التراجيديات في مجموعات ثلاثية • وعن هذا السؤال قلتُ في كتابي عن (الاوريستية) :

> انا لا أعتقد بأن اسخيلوس اخترع الثلاثية • وليس من الراجح ان تكون عادة نظم التراجيديات في مجموعات ثلاثية قد نشأت من ابتكار كاتب درامي معين ، بالرغم من انها عالجت موضوعات مختلفة • وما كان لها ان تستمر بعد ان تلاشت اهميتها لو لم تكن قد شكلت جزءاً قديما وأساسيا من العرف التراجيدي •

ان هذا الرأي غير سليم منطقيا • والسبب في التخلي عن العادة الاسخيلوسية في نظم الرباعيات عن موضوع واحد في النهاية هو مسألة سنتناولها في حينه • ولكن لما كانت كل الادلة تبرهن على ان المسرحية الساتيرية كانت زيادة لاحقة ، فان الافتراض بأن الثلاثية كانت بدائية لا يمكن دعمه •

وفي هذه المسألة ، أضلتني الفرضية المغرية ، التي طرحها (موريي)، والتي لا تدعمها الادلة ، بأن الثلاثية كانت مصممة لتمثل ولادة الإله وموته ونشوره • اما ان فن التراجيديا يرجع الى طقوس من هذا النوع فهو يبدو لي امرا مؤكدا • ويعود الفضل في اكتشاف هذا بصورة رئيسية الى (جين هاريسن) ، الذي كانت دراسته عن الديانة اليونانية نقطة الانطلاق في بحث كورنفورد عن الكوميديا وبحث موريي عن التراجيديا • ولكن بينما كان كورنفورد يبحث ، بصواب ، عن الآثار الطقسية المتبقية في تركيب الكوميديا الاساسي ، فقد ركز موريي اهتمامه بصورة رئيسية على الحبكات التراجيدية ، التي هي من هذه

الزاوية عنصر سطحي ، وبالتالي فقد انهارت فرضيته . والثلاثية قابلة للتفسير تفسيرا أبسط .

ان حبكات التراجيديا الاولى . كما يخبرنا أرسطو ، كانت صغيرة. فكيف وسعت ؟ لقد طرحت الجوقة عقبة كأداء . فقد كان بوسع الممثل ان يغير أدواره ، ولكن الجوقة كانت تبقى بالضرورة نفسهـا طوال المسرحية . وقد كانت الطريقة الوحيدة التي أمكن بها التغلب على هذه الصعوبة هي مضاعفة عدد المسرحيات . وقد كانت المسرحيات المتعددة للثلاثية اليونانية تطابق وظيفيا الفصول المتعددة للمسرحية الاليزابيثية : فقد عملت على توسيع نطاق الحبكة بإحداث انقطاعات كاملة في التمثيل. ولولا الثلاثية لاستحال على اسخيلوس ان يعالج بإسهاب أسطـورة (اوديبوس) ، التي كانت من الموضوعات التي عالجها بهذه الطريقة . وقد عالجت المسرحية الاولى الاب ، والثانية الابن ، والثالثة ابنـاء الابن . وهكذا ، فقد غطى كامل الثلاثية أجيال . وصحيح ان سوفوكلس غطى الجيلين الاولين بمسرحية واحدة ، «اوديبوس الطاغية» . ولكنه لم يكن قادرا على انجاز رائعة التركيز هذه الا لأنه كان يملك خلفـه منجزات سابقة على النطاق الاوسع .

اما بشأن التساؤل عما اذا كان اسخيلوس اخترع الثلاثية ، فكل ما يمكن الاجابة عنه هو انه معروف بأنه كان يكتب ليس اكثر من ست سنوات بعد التاريخ الذي ربما رسخت فيه قاعدة الثلاثية فـي شكلها النهائي ، ولذلك فمن الراجح الى حد معقول انه شارك في تثبيتها . وان ما هو مؤكد هو ان اسخيلوس هو الذي أوصل الرباعية الى درجة الكمال . وقد رأينا كيف انها كانت قد نمت من تاريخ الفترة الاجتماعي. وقد انهمك اسخيلوس فيها وصاغها على شكل درامي لا يمكن ان يقارن الا بسيمفونية بيتهوفن من حيث سعة المجال والوحدة العضوية والتكثف الذروي .

لقد جرى الاعراب عن بعض الشكوك في العصور الحديثة بشأن الملاءمة الفنية في المسرحية الساتيرية . ويجب الاعتراف بأن مسرحيـــة (الاخنيوتييون) لسوفوكلس ومسرحية (سيكلوبس) ليوريبيديس (وهما الوحيدتان المتبقيتان) لم يكن بمقدورهما ان يفعلا شيئا كثيرا لزيـــادة تأثير التراجيديات التي سبقتهما . ومع ذلك ، ففيما يتعلق بأسخيلوس ، يوجد سببان ، عدا ندرة الادلة ، يلزماننا بتأجيل الحكم . فهو بوصفه كاتب مسرحيات ساتيرية ، اعتبره الاقدمون متقدما جدا على سوفوكلس ويوريبيديس الى درجة انه بينما أعطي هو المقام الاول ، فقد أعطي المقام الثاني الى كاتب درامي ليس عمله معروفا لدينا وهو (آخايوس)الارتيري. واضافة الى هذا ، كانت المسرحية الساتيرية الاسخيلوسية جزءاً عضويا من الرباعية . وهكذا فان مسرحية (بروتيوس) ، التي اعقبت ثلاثيـــة (اوريستية) ، عالجت مغامرات مينيلوس بعد حرب طروادة كتسليـــة مضحكة لعودة اخيه المأساوية الى الوطن . وليس صعبا تصور بروتيوس محملا بجو الاوديسا الرومانتيكي الذي سيختم جلال الاوريستيـــة الطقسي بدوامة من المرح المستهتر .

واكثر اهمية من ذلك ، كانت معالجته للرباعية نفسها . فعلى يديه، كما سنرى في الفصل القادم ، اصبحت أداة مكيفة بشكل كامل لحركة فكره الطبيعية ، حيث كانت مصممة للتعبير عـــن الاساءة ، والاساءة المضادة ، والتوفيق ــ الصراع ومكافأة الصراع ، تحويل الخلاف الـــى انسجام ، وانتصار الديموقراطية .

-١٥-

اوريستيه

كان اسخيلوس مواطنا من ايليوسيس . وكان اسم ابيه يوفوريون. ولا نعرف اسم عشيرته ، الى ان عائلته كانت تنتسب الى اليوباتدريين . وهذا مهم ، لانه يعني انه كان سليل تقليد ارستوقراطي يعود الى المجتمع القبلي لأتيكا البدائية . وكانت سنة ميلاده هي (٥٢٥) قبل الميلاد . ولذلك كان في سن تكفي لتذكره بحكم هيبايس المطلق وللتصويت على اصلاحات كليسثينيس الديموقراطية . وقد ظهر لاول مرة في مدينة دايانيسيا في عام (٥٠٠) ، ولكنه لم يفز بالجائزة الا بعد خمسة عشر عاما . وقد قاتل في ماراثون ، حيث قتل أخوه كيتيجيروس ، ومن ثم في سالاميس . ويقال انه نظم ما مجموعه تسعون مسرحية تقريبا ، لم تبق منها الا سبع مسرحيات فقط . وقد أمضى معظم حياته في اتيكا ، الا انه

زار مرتين على الاقل بلاط هيرون ، حاكـم سيراكيوس (*) المطلق ، حيث أخرجت بعض مسرحياته : الاولى في حوالي عام (٤٧١) قبـل الميلاد ، والثانية بعد اخراج اوريستيه في عام ٤٥٨ • وتوفي في (جيلا) بعد عامين . حيث ترك ابنا هو يوفوريون ، الذي كسب اربعة انتصارات برباعيات كان ابوه قد نظمها ولكنه لم يخرجها •

ان شيشرون يصف اسخيلوس بأنه «فيثاغورسي كما هو شاعر ــ هكذا تقول الرواية» • وكان شيشرون قد درس في اثينا ، ولذلك فلن يكون هناك مبرر لرفض هذه الرواية وان لم تؤيدها تأييدا كبيرا الادلة الداخلية المستقاة من المسرحيات المتبقية • وأما موقف (ويلاموويتز) من هذه المسألة ــ حيث يستبعد هذا القول واصفا اياه بأنه «زلة ذاكرة» عند شيشرون ــ فلا يمكن وصفه الا بأنه خاطيء • وواضح كذلك ان اسخيلوس كان مشرّبا بعمق بمعتقدات مسقط رأسه الصوفيه • ويستفاد من احدى الروايات ان البدلات التي صممها للمسرح التراجيدي قـد استعارها كهنة ايليوسيس • ويستفاد من رواية اخرى ، تعود الـى ارسطو ، ان اسخيلوس حوكم لكشفه في مسرحياته عن بعض الاسرار الصوفية ، ولكنه بُرّيء على اساس انه لم يكن عالما بأنهـا أسرار • وسنرى ان استخدام الافكار الصوفية الدرامي هو سمة مميزة لثلاثية اوريستيه •

ومن بين المسرحيات السبع المتبقية ، كانت (الفرس) و(سبعـة) و(المتضرعات) قد أخرجت جميعا في غضون بضع سنوات بين الواحدة والاخرى (الفصل الحادي عشر) ، اما أوريستيه فقد اخرجت في وقت متأخر نوعا ما ، اي في عام (٤٥٨) قبل الميلاد • ولا يزال تاريـخ

(*) مدينة قديمة في ساحل صقليا الشرقي (المترجم) .

مسرحية(بروميثيوس مقيدا) موضع خلاف ، ولكن ، لأسباب قدمتها في مكان آخر ، أعتقد بأن هذه هي آخر المسرحيات المتواجدة . ولا يمكن استبعاد احتمال انها كانت واحدة من تلك المسرحيات التي أخرجها بعد وفاته يوفوريون •

وكانت (المتضرعات) و(بروميثيوس) المسرحيتين الأوليين من حيث رباعية كل منهما ، وكانت (الفرس) الثانية . و(سبعة) الثالثة • أمـــا أوريستيه فهي ثلاثية كاملة ــ والوحيدة التي بين أيدينا • والى هذا ، وباستثناء (الفرس) ، كانت كل هذه المسرحيات تنتمي الى رباعيـــات النمط المترابط او الموحد • و(المتضرعات) و(بروميثيوس) هما فصـــلان أولان ، و(سبعة ضد طيبة) هي فصل ثالث ، من مسرحيات ضاع الباقي من كل منها • ولولا (اوريستيه) لما كانت لدينا وسيلة لتحديد الطريقـة التي صهر بها اسخيلوس تراجيدياته الثلاث في كل واحد ، امّا بها ، فان لدينا أدلة غير مباشرة ذات قيمة كبيرة عن المشاكل التي تطرحها المسرحيات الاخرى • ولهذه الاسباب ، فمن المفيد ، رغم الترتيب الزمني ، اعطـاء الاولوية لثلاثية اوريستيا •

حين مات بيلوبس ، خلف ولدين هما آتريوس وثايستيس ، اللذان تنازعا على الخلافة • وقد طرد آتريوس أخاه من البلاد ، الا انه بعـد مضي فترة من الزمن ، وبحجة مصالحته ، استدعاه وأقام له وليمة قدم فيها اليه لحم ابنائه ، الذين كان قد قتلهم سرا • وحين اكتشف ثايستيس الجريمة ، لعن بيت بيلوبس • وبعد موت آتريوس ، قسمت المملكة بين ابنيه ، آغاممنون ومينيلاس ، اللذين كانا قد تزوجا شقيقتين همـــا كلايتيمنيسترا وهيلين • وكان مينيلاس قد زاره (بارس) ، وهو ابن لملك طروادة ، الذي أحب هيلين وهرب بها • وكان ذلك سبب الحـــرب الطروادية • وتجمع اليونانيون في (أوليس) تحت قيادة أغاممنون ، الا

ان مغادرة الحملة تأخرت بسبب هبوب عاصفة . وقد أخبر أغاممنون من قبل متنبئه ، كلاخاس ، بأن العاصفة كانت بسبب غضب آرتيميس ، الذي لا تسكن تهدئته الا بالتضحية بابنته افيجينيا . وعلى ذلك ، فقد أُرسل أؤديسيوس الى آرغوس لاحضار الفتاة من أمها بدعوى انها ستتزوّج من اخيلس . وذبحها ابوها . وأبحرت الحملة عندئذ الى طروادة . وبعد فترة قصيرة ، بدأت كلايتيمنيسترا مؤامرة مع أجيسثوس ، وهو ابــن لثايستيس كان قد نجا من الوليمة التي أقامتها آتريوس لأبيه . ولكي تسهل مؤامرتها ، أبعدت ابنها اوريستيس ، وكان آنئذ صبيا ، الــى فوكيس . واستمرت الحرب عشرة أعوام . وحين سقطت طروادة ، جلب اليونانيون على أنفسهم غضب الآلهة بنهب المعابد ، وبالتالي فقد بــدد الرعد والبرق اسطولهم . واختفى مينيلاس وأوديسيوس ولم يعودا الا بعد عدة سنوات . اما آغاممنون فقد عاد سالما ، الا ان زوجته قتلتــه بالتواطؤ مع عشيقها . وقُتلت في الوقت ذاته كاساندرا ، وهي ابنــة لملك طروادة ، كان قد جلبها معه كمحظية . وبعد بضع سنوات ، تسلم اوريستيس امرا من كاشف غيب أبولو في دَلْفي بأن يثأر لقتل ابيه . وبعد ان عاد سرا مع صديقه ، بيلاديس ، ابن مضيفه في فوكيس ، كشف عن نفسه لأخته الباقية على قيد الحياة ، ايليكترا ، وبمساعدتها قتل أمه وآجيسثوس . واذ كان مطاردا من الارواح المنتقمات لأمه ، الايرينات ، فقد فر الى دلفي ، حيث طهره أبولو . وبعد ان بقي تهاجمه من وقت لآخر الايرينات ، اللواتي رفضن الاعتراف بشرعية تطهيره ، فقد استمر في تشرده الى ان حوكم اخيرا وأبرىء من تهمة قتل أمه في محكمــة الأريوباغوس الاثينية ، التي أقامتها اثينا لهذا الغرض .

هذه هي قصة أوريستيس كما يرويها اسخيلوس . والقصة ذاتهــا تروى في القصائد الهوميرية ، ولكن دون اشارة الى وليمة آتريوس ،

او كاشف الغيب الدلفي ، او الاضطهاد من جانب الايرينات ، او التطهير من جانب ابولو . او المحاكمة بسبب جريمة قتل الام • وفي تقييم اهمية هذه الاجزاء المحذوفة ، ينبغي التذكر ، من جهة ، بأن هوميروس لا يقصد رواية القصة كاملة ، ومن جهة اخرى فان هناك اتجاها عاما فـي الملحمة لتحوير الاساطير الشعبية لصالح النظام الملكي • ووليمة آتريوس هي أسطورة من ذات نمط وليمة تانتالوس التي بحثناها في فصل سابق (الفصل السابع) • والعرف الخاص بتقديم قربان بشري في مطلع حملة ما مثبت في مكان آخر بأنه سمة للحكم الملكي الاول المرتبط بكهنـة اقوياء سياسيا • واضطهاد اوريستيس على يد ايرينات أمه يشير الـى النسب من جهة الام • ومن هذه العناصر الثلاثة ، التي يمكن اعتبارها جميعا بأنها بدائية ، بقي العنصر الثالث مستقلا في عدة اساطير محلية • وفي احدى هذه الاساطير ، كان اوريستيس قد شفي من جنونه بالجلوس على صنم حجري يدعى زيوس كابوتاس : وكان من الواضح حجـرا رعديا • وفي اخرى ، شفي من جنونه بعد ان قضم احد أصابعه ، ونذر للإيرينات هدية من شَعر عرفانا بالجميل • وفي ثالثة ، طهره تسعـة رجال من (ترويزين) عند حجر مقدس مقابل معبد لآرتيميس • وفي جميع هذه الاساطير لا يلعب أبولو اي دور • وفي الاسطورة الثالثة ، يبدو ان فكرة التطهير كانت قد ركبت على عبادة سابقة على العبادة التجسيدية كعبادة زيوس كابوتاس • وعلى ذلك يمكن الاستنتاج بأن التطهير على يد أبولو يعود الى فترة الارستوقراطية مالكة الارض ، وتدعم هـذا الاستنتاج أدلة اخرى • وكانت هذه الفترة هي التي حصل فيهـا الاسبارطيون على كاشف غيب من دلفي يصدر تخويلا بنقل رفـات اوريستيس من تيجيا الى اسبارطة ليعزز مطالبتهم بالهيمنة السياسية على البليوبونيس ، وهناك مبرر للاعتقـاد بأن أوريستيه (ستيسيخوروس)

المفقودة كانت مصسة لخدمة المصالح الاسبارطية • وأخيرا ، فان المحاكمة في الاريوباغوس هي . بشكل واضح ، زيادة اثينية ، طورت في معارضة مقصودة للرواية او النص الاسبارطي • ولربما كان اسخيلوس نفسه هو الذي خصص دور المحاكمين للايرينات وجعل من محاكمة اوريستيس سبب انشاء المحكمة • وفي مسرحية (ايليكترا) ليوريبيديس . تختفي الايرينات لا اكثر في الارض وهنّ مثقلات بالغم من هزيمتهن • وفي مسرحية (الارواح المنتقمة) ايضا . يختفين في الارض ، ولكنهن يتقدن بحراسة اثينا وسط ابتهاج شعبي • وعلى ذلك يمكن ان نقول ان الحراسة وكل ما تنطوي عليه قد آضيفت من جانب اسخيلوس • وهكذا . وكما يرويها هو . فان قصة اوريستيس قطعة مجزآة من تاريخ اجتماعي تجسد الرواسب المتراكمة للقبيلة البدائية ، والنظام الملكي الاول . والارستوقراطية والديموقراطية •

ان مستهل (أغامنون) مصمم بإشارة الى سمة مميزة من سمات الحبكة • كلايتيمنيسترا متآمرة ولا تستطيع الجهر بما في نفسها • ولربما كان شكسبير سيكشف عن غرضها ، كما فعل (سينيكا) ، في حوار مع اجيسثوس او في مناجاة ومهامسات • الا ان اسلوب اسخيلوس اكثر اقتصادا • فنحن نسمعها قبل ان نراها ، ونحن نراها قبل ان تتحدث بفترة طويلة • وفي كل مرة تظهر فيها على عتبة القصر ، تقدم كلمات الجوقة تعليقا غير مقصود على ما يجول في ذهنها ، وهكذا ، وحين تتكلم في النهاية ، نكون نحن مهيئين لفهم المعنى المخفي في كلماتها ، وبذلك نكون مستعدين للكشف الاخير عن دافعها ، الذي يكون اكثر تأثيرا لانه ُأجّل فترة طويلة •

الساعة هي بعد منتصف الليل بقليل ، والفصل هو أواخر الخريف، وقد اتسمت بغروب الثريا ، حين اصبح خطرا عبور البحر • وكان

الحارس يقوم بالواجب منذ بدء السنة ؛ السنـــة العاشرة من الحرب ، والاخيرة وفقا للنبوءة .

انه متعب . ويتوق الى الفكاك (١ ــ ٢) :

لقد دعوت الله أن يخلصني من الشر
طوال سنة من الحراسة طويلة .

وبعد قليل يكرر هذا الدعاء ؛ ولكن مغزاه تغير في أعقاب ما تداخل من أمور ــ فقد أصبح دعاء ؛ ليس من اجل خلاصه هو فحسب ، بل من اجل خلاص البيت من اللعنة المُصْلتة عليه (١٦ ــ ٢١) :

وكلما بدأت أغني او أهَمْهِمُ بلحن
وأقطف من الموسيقى ترياق النوم ،
أبكي دائماً على حالة هذا البيت الكبير ؛
وهو ليس في وضعه السامق كما عُهد عليه .
الا ان الآن ثمة أخباراً مفرحة
تبدد اخيرا الظلام بومضةٍ وتخلصنا !

«الخلاص من الشر» او «من العمل» كانت عبارة من عدة عبارات سبق ان دخلت لغة الحديث العادية من لغة الطقوس السرية التي كانت تعني فيها ، الوسيلة التي كان الصوفي يأمل ان ينال بها حالة السعادة الروحية التي كانت المكافأة للتطهر من شرور الفنائية . وليس للحارس اي نية في هذا المغزى . ولكنها تظهر تدريجيا في مجرى الثلاثية .

والفاتحون نائمون في المدينة المأسورة ، غير عالمين بالكوارث التي تنتظرهم (٣٤٧ ــ ٣٤٩) :

متحررون من السماء المكسوة بالصقيع ؛
مُخلَّصون من ندى السماء ــ آه ما أسعد
ما سيكون نومهم ؛ وهم غير متيقظين طوال الليل !

وبينما يقتل أوريستيس أمه ، تقوم الخادمات الطروادیات ، اللواتي أقنعن أنفسهن بتفاؤل أحمق بأن البيت قد طُهِّر في النهاية ، بإنشاد ترنيمة مستندة . كما سيتضح فيما بعد ، الى طقوس إليوسيسية (حاملات الشراب ؛ ٩٤١ ــ ٩٤٤) :

سبِّحوا الرب عالياً ، وغنوا بصوت مرتفع في البيت أغنية ،
الخلاص من المحنة ومن تبديد الثروة
اللذين أنزلهما الاثنان الشريران الآثمان ،
من الدروب الوعرة الشائكة .

وبعد ذلك بفترة وجيزة ، يكون المطهِّر نفسه بحاجة ماسة الى التطهير (الحاملات ١٠٥٧ ــ ١٠٥٨) ، ويأمره أبولو بالذهاب الى اثينا (الارواح المنتقمة ٨١ ــ ٨٣) :

لأننا هناك ،
بالحكم في التماسك وبكلمات مهدئة ،
سنجد في النهاية طريقا
لتخليصك من هذه الرزايا .

ويلقي الهارب بنفسه ، والايرينات يطاردنه ، امام رحمة اثينا (الارواح ؛ ٢٩٧ ــ ٢٩٨) :

آلا ليتها تأتي ــ انها بعيدة ولكنها تستطيع أن تسمع ــ
وتخلصني من هذه التعاسات •

لقد ابتهل الحارس الى الآلهة • وتبدأ المسرحية الثانية بابتهال آخر، الى هيرميز . الوسيط بين الاحياء والموتى • وفي بداية المسرحية الثالثة، تبتهل الكاهنة الدلفية الى بالاس (أثينا) ، ولوكسياس (أبولو) وآلهة آخرين ، منتهية بزيوس المكمل او المنجز (الارواح ٢٨) • وقد كانت العادة بعد العشاء رفع دعاء شكر من خمرة صرف ، اولا الى آلهة اوليمبس ، ثم الى أرواح الموتى ، وآخيرا الى زيوس (الثالث) ، الذي يسمى ايضا (المكمل) او (المنقذ) • وفي (أغاممنون) ، تروي الجوقة كيف اعتادت الفتاة افيجينيا ، في الايام السعيدة قبل الحرب ، ان تنشد ترنيمة صلاة شكر لأبيها عند أداء هذا الطقس (٢٥٤ ــ ٢٥٨) • الا ان افيجينيا قتلت ، وتبكي الام المنتصرة وهي تقف على جثة قاتلها (١٣٨٤ ــ ١٣٨٦) :

ثم على جسده الصريع
وجهت آنا الضربة الثالثة ،
وكأس شكري الى زيوس جهنم ،
منقذ الموتى •

ويتخذ اوريستيس ، وهو ينوي قتل أمه وعشيقها ، موقف المتأله (الحاملات ٥٧٤ ــ ٥٧٦) :

سيضرب سيفي ويجعل منه جثة ،
وهكذا فان روحا منتقمة لم تعانِ الذبح أبدا
ستشرب جرعتها الثالثة من الدم النقي •

ان الروح المنتقمة هي الايرينة • وبعد معاناة جمة ، يُنقذ اوريستيس (الارواح ٧٥٧ ــ ٧٦٣) :

يا بالاس ، يا منقذ أسرتي ،
لقد كنت منفيا من بلادي ، وأنت
أعدتني الى بيتي ، وسيقول الرجال
مرة أخرى هو آرجيفي ، وهو يسكن
إرثه الأبوي بفضل
بالاس ، وبفضل لوكسياس ، وثالثا
بفضله هو الذي يأمر الجميع ، المنقذ •

ولنعد الآن الى مسرحية (اغامسنون) • لقد فرضت مهمة الحارس عليه بآمال دموية لامرأة (١٠ ــ ١١) هي زوجة أغاممنون (٢٦) ، كلايتيمنيسترا (٨٤) ، التي تحلم الآن بالنصر • وحين تعلن في الفجر بأن طروادة سقطت ، يرفض تصديقها العديد بوصفه حلما عقيما ، وبوصفه عظيما بحيث لا يُصدّق (٢٨٦ ، ٤٩٦) • ولكن ، بعد ان أثبتت صحته، فسيقلب الاعتقاد الآخذ بالتعمق بأنها تعمل من اجل نصر آخر هذا الحلم الى كابوس (٩٦٦ ــ ٩٨٤) • وفي مستهل المسرحية الثانية ستحلم هذه المرأة ، لا بالنصر ، بل بالانتقام (الحاملات ٣٢ ــ ٤١) ، ومرة اخرى سيتحقق حلمها (الحاملات ٩٢٨) • وأخيرا ستصبح الحالمة نفسها حلما، يحث الايرينات الناعسات على الانتقام (الارواح ١١٦) •

ان لهذه المرأة ارادة رجل (١١) • وشخصيتها رجولية (٣٦٣) ، بالرغم من انها نفسها تنكر ذلك بسخرية (٣٦١ ، ١٦٦١ ، الحاملات ٦٦٨ ــ ٦٦٩) • وتعوزها الحشمة التي تليق بجنسها (٦١٨ ــ ٦١٩ ،

٨٤٧ ؛ ٩٣١ ؛ ١٣٧٢ ؛ الحاملات ٦٢٧ ــ ٦٢٨) • ومع ذلك فان سحرها الأنثوي ، حين يعمد الى ممارسته ، شيء لا سبيل الى مقاومته (٩٣٢ ــ ٩٣٤) • وتجري السخرية من قصتها عن النيران باعتبارها نموذجا لحماقة المرأة (٤٨٩ ــ ٤٩٣) ، ولكنها لا تنصرف عن غايتها (٥٩٥ ــ ٥٩٩) • وحين يثير شكوكها اوريستيس المتنكر ، يميل أجيستوس الى استبعادها على اساس انها رعب امرأة خائفة (الحاملات ٨٤٤ ــ ٨٤٥) . ولكن حين تأزف ساعة العمل ، فهي المرأة التي تصرخ : «هاتيني سلاح رجل !» (الحاملات ٨٨٨) •

وعلى النقيض من سيدته ، لا يجرؤ الحارس ان يحلم (١٢ ــ ١٥) • ولكي يبقى يقظا ، فهو يغني ، ولكن اغنيته تتحول الى تفجع على أسرة آتريوس • ومن ثم . وبعد دعائه من اجل الخلاص ، يرى لمع النور • لقد شعّ النور المبارك ، وتبدد الظلام ، وتحولت الدموع الآن الى فرح •

وبعد ان حيّا الحارس النور ، يدعو الملكة الى ان تطلق التسابيح، ويبدأ يرقص فرحا ــ ولكنه ينقطع فجأة ، وقد أوقفه شك غامض ــ ان فرحه في الحقيقة خادع • وفي وقت لاحق في النهار ، سيرى التخيل الملهم لنبيّة الايرينيات وهن يرقصن على السطح الذي رقص عليه (١١٨٥ ــ ١١٨٩) ، وسيسمع تسابيحهن المخيفة (١١٠٥ ــ ١١٠٧) • وسيتحول مرة بعد اخرى هذا الفرح المبتسر الى هواجس كئيبة • وتدخل جوقة الرجال المسنين بثقة كاملة بالماضي ، ولكن ما ان تمضي مدة قصيرة حتى يأخذوا بالبحث عما يهدىء مخاوفهم من المستقبل (٩٩ ــ ١٠٣) • وإذ يعودون الى الماضي ، يتذكرون بداية الحرب التي كانت تبشر بالنجاح ، ولكنهم يتذكرون عندئذ الثمن الباهظ الذي دفع من اجلها : وتضحية افيجينيا ، وهكذا حين يطل الفجر في النهاية ،

يبدو انه يبشر لا بالخلاص الذي دعا من اجلــه الحارس ، وانما بفاجعة أفدح (٢٥٩ ــ ٢٦٩) • وبعد اعلان الملكة ، يبدأون ترنيمة صلاة شكر فرحة من اجل عقاب باريس (٣٦٧) • الا ان الترنيمة تنتهي بقلق علــى أغامسنون (٤٦٥ ــ ٤٧٦) • ويحيي البشير الشمس المشرقة بنشوة مــن الفرح (٥١٣ : ٥٨٠) • ولكنه سرعان ما يرغم على الاعتراف بأن النصر قد باغتته كارثة • ويبذل الشيوخ جهدا كبيرا لتحية أغامسنون بروح تليق بالمناسبة (٧٧٤ ــ ٨٠٠) ؛ ثم يترتب عليهم ان يراقبوا وهم عاجزون عن القيام بعمل ما فيما هو يسير الى داخل الفــخ ، وبعد صراع اخير بين الامل والخوف (٩٦٦ ــ ١٠١٨) يستسلمون برعب آسر الى المحتوم • وهكذا الحال في المسرحية الثانية • فجوقة الخادمات ، الواثقة بالنصر ، تحث الاخ والاخت على الصلاة من اجل الثأر ؛ ولكنهن لا يستطعن بعد ذلك ، وقد فقدن جرأتهن ، ان يرين شيئا غير الكارثة (٤٦١ ــ ٤٧٣) • وفي الوقت الذي ينهمك فيه اوريستيس في مهمته ، يبتهجــن بخلاص الاسرة (٩٣٤ ــ ٩٧٠) ، ولكنهن في ختام المسرحية يسألن بيأس متــى تتوقف أحزانها • ولن ينتهي الحزن الى فرح حقيقي ودائم قبــل انتهاء الثلاثيــة •

وكل هذا كامن في كلام الحارس• فهو بعد ان استبدت به الشكوك• ينشد اللجوء في الصمت (٣٦ ــ ٣٩) :

البقية هي سر ــ ان ثورا ثقيلا مشى
عبر لساني • وهذه الجدران ، لو كانت لها أفواه ،
لقصت حكايات بمنتهى الوضوح • أنا أتحدث الى أولئك
الذين يعرفون ؛ أما الآخرون ــ فأنا أنسى عمدا •

ان اللغز هو بالنسبة لـ «أولئك الذين يعرفون» • وبهذه الكلمات

يختفي الحارس داخل القصر ، ومن ثم نسمع من الظلام ، وكأن ذلك استجابة ، «هلليويا !» ـ صرخة كلايتيمنيسترا بالفرح •

وفي البارادوس (دخول الجوقة) ، وكذلك في الستاتيسمون (القصائد الكورسية) ، يبدأ الشاعر بالرجوع بأذهاننا عشرة أعوام الى بداية الحرب • وهما معا يؤلفان المقطع الكورسي الاطول في عمله الراهن ، وفي الستاتيسمونات التالية تكون كل واحدة أقصر من سابقتها ـ وتلك وسيلة تزاد بها سرعة الاداء ونحن نقترب من الأزمة • ونحن مستغرقون في الماضي ننسى الحاضر ، وحين يستأنف التمثيل تسير الحبكة بسرعة بالغة بحيث نقبل بلا جدال مخطط الشاعر الزمني ، الذي تكثف فيه أحداث متباعدة جدا في يوم واحد •

وتقدم البارادوس خلفية لظهور الملكة لاول مرة • ويُشبِّه ولدا آتريوس ، في غضبهما على اغتصاب هيلين ، بنسرين سرق منهما صغيرهما • والتفاوت مدهش ومتعمد • ويستنجد النسران بالآلهة ، الذين يزورون الآثم مع ايرينه (٥٩) • وهنا تخرج كلايتيمنيسترا من القصر وتبدأ بالتقرب بصمت من المزارات المنتصبة امام الابواب • وفي الوقت ذاته ، يعلن الشيوخ ، وهم لا يزالون يفكرون بباريس ، بأن تقرب الآثم عبث • ثم يتحدثون عن انفسهم ، انهم اكبر من ان يستطيعوا القتال، وقد تركوا في الداخل وهم واهنون كالاطفال او كالاحلام العائمة في النهار (٧٩ ـ ٨٢) • وأخيرا يلمحون كلايتيمنيسترا ، ويلتفتون اليها ويسألونها عن أخبارها (٩٩ ـ ١٠٣) • ويترك سؤالهم بلا جواب • وتترك الملكة المسرح بصمت في طريقها الى مزارات المدينة الاخرى • وقد توقعنا ان نسمعها تتكلم ، الا ان الذروة قد أجلت •

واذا كان الشيوخ اكبر من ان يستطيعوا القتال ، فهم ليسوا اكبر من ان يستطيعوا الغناء ، ويغنون الاشارة التي ظهرت من السماء عند

مغادرة الحملة . وقراءة المتنبيء لها . وقد ظهر نسران ، وهما يفترسان أرنبة في المراحل الاخيرة من حملها . والنسران هما الملوك ـ ونلاحظ ان هذين هما الآن المضطهِدون وليس المضطهَدين ـ . والارنبة هي طروادة ، التي كتب عليها ان تسقط في السنة العاشرة . شأنها في ذلك شأن الارنبة التي كان يجب ان تولّد في الشهر العاشر . الا ان آرتيميس ، إلاهة الولادة وحامية الحيوانات البرية . تُجرح مشاعرها وتطلب التعويض بقربان آخر . وكان الجزء الاول من تفسير المتنبيء على درجة كافية من الوضوح ، الا انه يبدو الآن وهو يتنبأ بغموض بأشياء لا يفهمها حتى هو نفسه (١٦١ ـ ١٦٣) :

الباني الطبيعي للصراع ، العداء الذي لا يخاف احدا ، لا يزال هناك ، الغدر الذي يلازم البيت ، انه يتذكر ، ينتقم ، لموت طفل !

وعند هذه النقطة ، يقطع السرد السلس المتدفق بتأمل بطيء جاد في سيادة زيوس ، الذي سن القانون القائل ان على الانسان ان يتعلم الحكمة بالمعاناة (١٨٦ ـ ١٩١) :

زيوس ، الذي قرر بأن على الانسان
ان يتعلم بالحزن ، وعبر الالم
ان يجد طريقه الى الحكمة .
وحين يهبط السبات العميق ،
تحزّ الآثام المتذكّرة القلب المخدوش بوخزات جديدة
وما من حكمة سارة تبدو في داخله .
وقاسية هي الرحمة التي توزعها القوى الخالدة ،
دليلات الروح البشرية .

ان المثل الهِسْيودي القديم القائل ان المعاناة تعلم الانسان العقل ، والـــذي كان مجــرد تحذير الى الانسان الــذي يطمح بإفراط ، قد حُمِّل هنا بقيمة جديدة وايجابية .

وحين تستأنف القصة ، يصبح الايقاع مكبوحا ومتوترا . العاصفة تهب ، أغاممنون يضطرب ، الاسطول يتبدد ، صوت الإله نطق ، الى ان يسوق الملك ، دون ان يتوقف ليطلب اذن الكاهن ، طموح ملكي في ان يقتل طفلته هو ، مخمدا صرخاتها المنذرة بالشر :

لقد أُنجزت مهمة الكهانة .
لأن العدالة تعاقب اولا ، ومن ثم تذكِّر بدرسها .
ان الغد لا بد أن يأتي ، وسيحل حزنه هنا حالا ،
لذا دعونا ألا نبكي اليوم .
وسيكشف امره واضحا كالفجر .

وأثناء هذه الكلمات (٢٦٠ ــ ٢٦٦) ، تظهر كلايتيمنيسترا مـــرة اخرى على عتبة القصر ، وهي تقف ووراءها ماضي حياتها .

ومجددا ، ما الخبر ؟ وفي هذه المرة تصمم على ان تجيب (٢٧٦ ــ ٢٧٩) :

خبر سار ! مليء جدا ، كما يقول المثل القديم ،
ألا فليبزغ الصباح من رحم الليل !
ولكم أن تسمعوا بخبر يفوق ما تأملون .
الخبر هو هذا : اليونانيون استولوا على طروادة !

وفي نهاية الحوار ، تسأل في اي وقت سقطت المدينة ، وتجيب (٢٩١) :

في الليلة التي أنجبت هذا النهار الطالع •

ان لغتها مصطبغة بعشرة أعوام من التفكير الطويل بطفلتها القتيلة • ومن ثم ، وقد ضاقت ذرعا بسائليها ، تنفجر بسورة من الخطابة المزخرفة بإسراف . تتعقب اتجاه الانوار التي شعَّت عبر بحر ايجه • وكالشمس، او القمر ، او المُذنَّب . يبزغ الضياء من الظلام ، وفيما هو يقفز من ذروة الى ذروة يبدو وهو يغير شكله، منقضا على سطح القصر كصاعقة • ثم، بمزاج أهدأ ، تصف الملكة ما تتصور حدوثه في طروادة • الاسرى يبكون على موت أولئك الذين أحبوهم ، والفاتحون يتمتعون بالراحة • لقد انتصر اليونانيون ، ولكن عليهم ان يحترموا مقدسات المدينة المفتوحة • والواقع انهم ، كالفرس الذين سلبوا اتيكا ، لم يحترموا هذه المقدسات • وكما فعل المتنبيء كالاخاس (١٣٦) ، ترفق كلايتيمنيسترا نبأها السار بتحذير (٣٥٣ ــ ٣٥٦) ، تضيف اليه تهديدا مبطنا بحجاب خفيف :

واذا أتوا خالين من الذنوب أمام الآلهة ،
فان ظلامة الموتى قد تصبح
مهذبة ، الا اذا وقع حادث مفاجيء •

وترسم الستاتيسمون الثانية مقارنة مفصلة حاذقة بين باريس وأغاممنون • فباريس ، الذي شجعته الثروة ، يزداد تيها وبذلك يستجلب غيرة الآلهة • وتثير روح (الاقناع) او (الاغراء) آماله ، وتجعله طائشا ، وبذلك تغريه بارتكاب عجرفة مكشوفة تؤدي بشكل مباشر الى سقوطه • وكل هذا ، كما رأينا ، تقليدي • اما اصالة القصيدة فهي تكمن في المهارة التي تسرح بها هذه الافكار التقليدية • وكما قال (هيدلام) :

انها تبدأ بتسبيحة شكر واثقة بعد الانتصار ، وفي الوقت

الذي تبلغ فيه النهاية تكون قد غرقت تدريجيا في أعمق كآبة الخوف من شر مرتقب • وتكون النتيجة قد حققتهـــا المهارة البارعة في الانتقالات ، التي تحملك من شاطيء الى آخر ، من فكرة الى فكرة ، بجرأة وسرعة ، كانعكاسات ذهن سريع •

ان التأمل الاستهلالي بالخطر الموروث في الازدهار المفرط (٣٨١ ــ ٣٩١) هو في الظاهر تعليق على مصير باريس ، بالرغم من ان العبارات العامة المصوغ بها تدفع الى تفسير اوسع • فمصير أولئك الذين يدوسون على المقدسات المحرمة (٣٨٢ ــ ٣٨٤) يعيــد الى الذاكرة تحذيـــــر كلايتيمنيسترا (٣٥٣ ــ ٣٥٤) ، ويذكّرنا سلطان (الاغراء) المُجبر (٣٩٦ ــ ٣٩٧) بخطيئة أغاممنون (٢٣٢ ــ ٢٣٣) ، وصلـــوات الآثم التي لا تخطيء بأذن صاغية (٤٠٦) هي مألوفة ايضا (٦٩ ــ ٧١)• وروح (الاغراء) مجسدة في هيلين ، التي اغرت باريس وشعبـــــه وأوقعتهما في شرك الخراب (٤١٣ ــ ٤٢٤) ، وحزن عليها مينيلاس (٤٢٥ ــ ٤٣٤) • وكما هو ، الذي حرم من الثروة ، لم يُترك له الا حلم (٤٢٩ ــ ٤٣٤) ، فان جميع اليونانيين الذين ارسلوا أحبتهم الى الحرب يعوضون بجـِـــرار لحفظ رماد الموتى ورماد جثث مُحرقة (٤٤٥ ــ ٤٥١) • ويغمغم الناس استياء من لوردات الحرب الذين أمروا بإراقة كل الدماء هذه (٤٥٦ ــ ٤٥٨) • وهكذا ، فبحلول نهاية الستاتيسمون ، يكون انتباهنا قد حُوّل خلسة • وفي البداية (٣٧٩ ــ ٣٩٥) :

خرٌ مُسْقطا على يد زيوس ، لقد قيل حقا ،
وبكل خطوة واضحة وسهلة الاقتفاء •••
لا غَوث هناك لمن ، بعد ان اتخم بالذهب ،
رفس أمامه بغرور مفرط المزار العظيم للعدالة اليقظة •

كان هذا باريس . الا انه الآن أغاممنون (٤٦٨ ــ ٤٧٦) :

الارواح المنتقمة السوداء تنتظر ،
وحين يزداد رجل ما عظمة بالحظ ، لا بالعدل ،
وبتغيير مفاجيء في الحظ ،
تضنيه حتى تحيله الى ظل
وتتلفه حتى الهلاك ، فمن سينقذه ؟
ان الافراط في الشهرة خطر .
وبعين غيور ، سيحرقه الإله زيوس بومضة .

ويختتم الشيوخ كلامهم بالاشارة الى المقطع الاخير ــ دعاء يستذكر من البداية (٣٨٩ ــ ٣٩١) بأنهم قد يسمح لهم بأن يعيشوا الحياة الوسط، لا فاتحين (مثل أغاممنون) ولا أسرى (مثل كاساندرا) .

وبلغة تعكس بهزء صورة خطابها التحذيري ، يعلن الشيوخ عن شكوكهم في قصة كلايتيمنيسترا (٤٨٢ ــ ٥٠٧) ، التي لا يدحضها الا وصول بشير من الجيش . وبدموع فرح تنهال من ذكريات مريرة عن الحرب ، يُحيي آلهة ارض آبائه ، التي لم يكن يأمل قط في رؤيتها مرة اخرى ، ويأمر الشيوخ باعداد استقبال يليق بسيده (٥٣٠ ــ ٥٣٥) :

الذي هو بمعول زيوس العادل
هدم طروادة وخرب ديانها ...
الابن العظيم لآتريوس ، السيد ، الملك ، المبارك .

«لا تُسَمِّ انسانا مباركا الى ان يموت» . كان هذا هو المثل . وفي سَورة من الانفعال ، اطلق البشير على سيده ذات الصفة الجارحة التي سبق ان استخدمتها كلايتيمنيسترا بخبث متعمد (٣٤٨) . ثم تأتي لحظة

احراج ، حيث سمح الشيوخ خطأ بورود اشارة غدر في البيت ، الا ان استفهامات البشير القلقة تهمل جانبا : «والآن فمن المفرح ان اموت» (٥٥٥) • وفي خطابه الثاني يكون اكثر عمقا في تفكيره • واذ يتذكر مشاق الحرب والرفاق الذين لم يعودوا ، يتداعى ، ويستجمع قواه ، ويتداعى وبجهد يستجمع قواه مرة اخرى • ولم يكد يسترد هدوءه حتى يظهر مرة اخرى شخص الملكة النذير بالشر على باب القصر • وبدلا من ان تعده بالهدية المرتقبة لنبئه السار ، تعلن بأنها ليست بحاجة اليه — انها سترحب بسيدها بنفسها ، حيث هي «وفية كما تركها ••• شديدة على الاعداء ، وهي ذاتها في كل شيء آخر» (٦١٢ — ٦١٤) ؛ وبعد تلميحات اخرى مليئة بالتهديد الى نواياها السرية تنسحب فجأة الى داخل القصر • ويعود البشير بخيبة امل الى الشيوخ ، الذين ، بتغيير غير مؤات للموضوع ، يستفهمون عن مينيلاس • والآن فقد حل دوره هو ليجيب عن اسئلة غير سارة • ويضطر الى ان يكشف بأن الاسطول بددته عاصفة . وينتهي المشهد بكآبة عميقة ، يحاول عبثا ان يبددها (٦٧٦ — ٦٧٧) :

والآن ، اذا كان اي من أولئك الاخرين حيا ،
فلماذا ، يجب ان يحكموا بأننا نحن اموات وهالكون •

ان مينيلاس مكتوب عليه ان يبقى ، اما أغاممنون فليس كذلك •

وتستأنف الجوقة الموسيقى البطيئة التأملية ، التي سمعناها في الستاتيسمون الاول (١٧٠ — ١٩٣) • وموضوعها هو : هيلين ، المأخوذ من وسط الستاتيسمون الثاني (٤١٣ — ٤٢٧) ، والذي يعاد ادخاله بحذق بعد أخبار مينيلاس • ومن المقرر ان تكمل المقارنة الآن بين باريس

وأغاممنون بمقارنة اخرى بين هيلين وكلايتيمنيسترا • وكما أغرت هيلين باريس ، فسوف تغري أختها أغاممنون • لقد كانت اشبه بشبل اسد ربّاه راع ، في البدء حبيبة الكبار والشباب ؛ وفي البدء رقيقة ومغرية، ولكنها في النهاية (٧٤٦ ـ ٧٤٨) :

بإرشاد الغضب الشديد لزيوس
اصبحت وكأنها روح انتقام في مناحات عرسية •

ان اختها واقفة مرة اخرى عند باب القصر ؛ وهي متهيئة لاستقبال أغاممنون • والشيوخ يستمرون وكأنهم في حلم ، او كالعرّافين لا يدرون معنى ما يرون (٧٦٢ ـ ٧٦٥) :

انظروا : كلما يأزف الوقت المحدد ،
فان غمامة ليل اسود ، روح انتقام لا سبيل الى مقاومتها ،
هول كارثة سوداء ، تدلت متجهمة داخل القصر !

ثم الاستنتاج . الذي تدمج فيه استنتاجات الستاتيسمونيين السابقين وتعزز (٧٦٧ ـ ٧٧٣) :

وأين هي العدالة ؟ انها تنير الكوخ المسوَّد بالدخان ،
حيث تجد التواضع •
وعن الابراج المذهبة للأيدي الملوثة
تدير عينيها نحو منزل الانقياء بقلوبهم ؛
وهكذا ، دون ان تعتبر السمة الزائفة على وجه الثروة ؛
تقود الجميع الى النهاية المحددة •

ويدخل آغاممنون بالعربة الملكية على رأس موكب منتصر . تتبعه عربة اخرى تجلس فيها كاساندرا الاسيرة • ويجيب على تحية الشيوخ . المدروسة في اعتدالها والمصممة لتحذيره من خطره (٨٠١ ـ ٨٠٤) :

أولا ، عليّ أن أحيّي ارض آرغوس هذه
مع آلهتها الرؤساء ، شركائي
في هذه العودة الى الوطن ، كما في الانتقام العادل
الذي انزلته بمدينة برايام •

ومع هذه الكلمات ، تنزل العدالة ، وهي دافع الثلاثية الرئيسي ، من الاوركيسترا الى المسرح • وبسخرية غير مقصودة ، يربط الملك معا سقوط طروادة وعودته هو الى آرغوس ، باعتبارهما معا من حكم السماء • ويسلّم بتحذير الشيوخ وكأنه متحوّط للامر فعلا ، ولكنه ، وهو آمن بالاحساس بعظمته ، يصرفهم بعد ذلك (٨٤٢ ـ ٨٤٥) :

اما الآن ، وقد عدت الى بيتي الملكي ،
فسيكون عملي الاول تحية الآلهة
التي قادتني من هذا المكان وتعيدني سالما الى الوطن •
النصر يلازمني ؛ فلترقد هي آمنة !

وتقف كلايتيمنيسترا صامتة بانتظار فرصتها • وغرضها هو ان تغريه بارتكاب تصرف مكشوف من تصرفات الغرور سيرمز الى الإثم الذي هو على وشك التكفير عنه • وهذا هو مغزى النجود المطرزة المقدسة التي تجعله يدوسها •

ويخاطب الناس المتجمعين ، متجاهلا اياها • وترد هي بمثل ما فعل• ولم يكن يوجد ابدا اي حب بين هذين الاثنين • وتبدأ ببطء ، بلغة

باردة وباهتة ، حيث تصف حظ الزوجة ، التي تترك بمفردها في البيت• وتتحدث ايضا عن مخاوفه على سلامته ، بالرغم من انها تعني في سريرتها توقها الى موته • ومن ثم ، وبنقلة غير ملحوظة الى مخاطبة مباشرة ، تعذر غياب اوريستيس ، وبعدها ، وبنبرة عالية ، تؤكد مجددا حبها ، وتصبح لغتها اغنى ومليئة بالحياة اكثر • وبعد تصعيدة هائلة من الملق، تتكدس فيها صورة من المغالاة على اخرى ، تأمر خادماتها بأن ينشرن ثوبها الارجواني على قدمي سيدهن (٨٩٦ ــ ٩٠٤) :

والآن ، ايها الحبيب ،
انزل من العربة ، ولكن لا ترسخ
في الارض هاتين القدمين اللتين وطأتا طروادة •
أسرعن ، يا خادماتي اللائي عينتهن
ليكسون هذا الدرب بالنجود الممدودة •
هيئن طريقا من أغطية أرجوانية
حيث تدله العدالة الى بيت لم يأمل برؤيته
وهناك البقية ، حيث يقضي بالعدل قلق نومنا الذي لم يهزم
كما تقضي الآلهة •

ان هذا هو ردها على تحديه • والنقطة الفاصلة في الثلاثية تتكون: (سيتحالف الصراع مع الصراع في القتال ، والحق مع الحق) (الحاملات ٤٥٩) • وقد سبق ان علمنا من الجوفة ان هذه ، قاعــدة الثأر ، ليست عدلا ، الا ان جيلا آخر لا بد ان يمضي قبل ان تكتشف أسرة آتريوس هــذا •

وتقف الملكة وراء معروضات الثروة الرائعة، توحي بالاغراء • وتتجه

كل الابصار الى أغاممنون •

وبشكلية فاترة ينوه بخطابها ويرفض اطراءها (٩١٦) : «اكرميني كرجل ، وليس كإله» • ورفض ان يقع في الاغراء ، وفشلت خطتها • وبعد ان قادنا الكاتب المسرحي داخل مشهد الذروة ، يعود بنا الى حيث انطلقنا ويبدأ مرة اخرى •

وتغير كلايتيمنيسترا أسلوبها • وتتخلى عن التنميق وتتجادل معه• انها تفهم شخصيته وتستغل ضعفه • وحججها هي حجـــج امرأة ، غير منطقية ولكنها ذكية • وهي أسرع من ان يلحق بها • وتوحي بالاذعان لسلطانه (٩٢٢) ، وتنتزع منه موافقة مشروطة (٩٢٤ ــ ٩٢٥) ، وتحرك غروره (٩٢٦ ــ ٩٢٧) ؛ وحيث يبدأ بالضعف تأخذ بالتملق اليه (٩٣١ ــ ٩٣٢) :

أغا : ليس من شأن المرأة ان تتحرق الى القتال •
كلايت : حسنا ، فليهب المنتصر انتصارا !

ان مهنة الرجال هي الحرب ، والنساء هن للترويح عنهـــم • واذ يكونون واثقين من تفوقهم فهم يجدون متعـــــة في مداراة النزوات الانثوية • ويتردد أغاممنون :

أغا : هل تقدرين انتصارا كهذا ؟
كلايت : مغراة ، ومغلوبة بحرية ، ومع ذلك منتصرة !

لقد انتصرت • «وبكلامها المعسول جدا حملته على الاذعان ، وبملق من شفتيها أرغمته» • وبعد ان يأمر بفك صندله ، لانــه على وشك ان يطأ الارض المقدسة ، يلفت الانتباه الى كاساندرا الاسيرة ، وبوقاحــة باردة يطلب الى زوجته ان ترحب بمحظيته • ومن ثم ، وما أن يمشي على

الارجوان المقدس حتى ينطلق مجددا دفق التخيلات ، موحيا بأخطـــار الوفرة ؛ والدم الذي يوشك ان يراق ؛ ودم فتاة أريق قبل عشرة أعوام. ويأتي أغاممنون كنجم الصيف بعد برد الشتاء الطويل (٩٦١ ــ ٩٦٣) :

وبالمثل ، حين يستخلص زيوس من الكرمة البِكر
خمراً ، تملأ البرودة المنعشة البيت في النهاية
(لأن من الجذور الحية أقامت الاوراق الطرية
ظلة ترحيب تحجب الشِعرى اليمانية المحرقة) ،
واذ يتكامل الانسان ينتقل الى بيته .

المسرح الآن خالٍ ، باستثناء الشخص الصامت الجالس في العربة. والموسيقى البطيئة تبدأ مرة اخرى (٩٦٦) ، وهي الآن متوترة ومشؤومة. وموضوع الستاتيسمون هو الخوف ، الذي اجتث الامل ، ويجـــري التعبير عنه بلغة العِرافة . وحين تتوقف الموسيقى ، نجهل ما سيقع بعد ذلك : هل نسمع صرخة الموت من القصر ام صوت كاساندرا ؟ ووسط دهشتنا تعود عندئذ كلايتيمنيسترا للظهور عند باب القصر . وجديــر بالاشارة ان المسرحيين اليونانيين ، المتمسكين بالموضوعات التقليدية ؛ لم يستخدموا عنصر المباغتة الا قليلا . الا انهم احيانا ، بعد ان يطبعوا في أذهاننا بإصرار شعورا بالمحتوم ، يقدمون تحولا مفاجئا الى الموقف الذي لم يكن بالامكان توقعه .

كانت كلايتيمنيسترا قد أصرت على ان تشارك خليلة زوجها موته . ومرة اخرى تمارس ملكات اقناعها ، تساعدها هذه المرة الجوقة ، التي بعد ان أخضعت بالرعب تتصرف وكأنها في غيبوبة . وحين تتحدث ندرك انها تستخدم لغة الطقوس السرية . وبتهور ينطـــوي على تجديف ،

تتصور كاساندرا وهي مرشحة للتلقين ، وتتصور نفسها الكاهنة التي تترأس القداس ، والقتل الوشيك الوقوع طقسا مقدسا .

الا ان ضحيتها الثانية تعرف ما هو قادم ، واذ تتجاهل التضرعات والتهديدات على حد سواء، فهي لا تتكلم ولا تتحرك. اما كلايتيمنيسترا فليس لديها وقت لتضيعه ، وتعود الى داخل القصر .

وبعد توقف طويل ، نسمع أنينا خافتا . انها كاساندرا تتوسل الى أبولو . ومن ثم ، وبطوفان هذياني من النبوءة ، تغني الاطفال الذين ذبحوا منذ فترة طويلة ، وترى القتل الذي يرتكب في الداخل ، وتسمع الايرينات ينشدن فرحا وتراهن يرقصن على السطح ، وأخيرا ، وبحزن مرير تبكي موتها وزوال أسرة برايام . وحين تزول عنها الغيبوبة ، تفسر اغنية الايرينات ــ انهن يحتفلن بخطيئة آتريوس . وتمضي لتروي كيف ألهمها أبولو فن التنبؤ (١١٧٧ ــ ١٢١٢) . وفجأة يعود التواجد : اطفال ثايستيس يظهرون امام عينيها ــ هذه هي الجريمة التي ينتزع أجيسثوس العقاب عليها . ثم تخبر الشيوخ بهدوء بأنهم ، كالإيبوبتاي ، على وشك ان يتفرجوا على موت آغاممنون (١٢١٣ ــ ١٢٥٤) ، الا ان الشيوخ حائرون ــ انهم لا يستطيعون ان يفهموا (١٢٥٢) . وفجأة يعود التواجد. واذ تتنبأ مرة اخرى بموتها هي ، تتكهن بعودة المنفي ، الذي «لكي يثأر لأبيه سيقتل امه» (١٢٨٠) . وبتضرع اخير الى برايام وأولاده تقترب من الباب ، ولكنها تتلوى مصابة بالرعب ، ثم تقترب مرة اخرى ، ولكنها لا تزال تترنح ، حيث تبقى تردد تأكدها من مجيء العقاب (١٣١٦ ــ ١٣١٩) ، وكلماتها الاخيرة حزن عميق لمصيرها ولمصير أغاممنون ، الاسير والآسر ، العبد والملك ، كلاهما يواجههما موت واحد .

وبعد ان مضت ، يلفت انتباهنا الى أغاممنون (١٣٣٤ ــ ١٣٣٦) :

اياه اعطت السماء سقوط طروادة ،
وهو يدخل بيته مهللا به كإله •

وتظهر هذه الكلمات ان عودة أغاممنون الظافرة تعتبر كيموساً • وتأليهه هو موته •

وأثر المشهد بكليته هو ان نركز على كاساندرا الاشفاق الذي ربما كنا بخلافه قد تعاطفنا مع أغاممنون ، وأن توضع جريمة كلايتيمنيسترا في علاقتها بالماضي والمستقبل ، وأن توسع الذروة بتأخير التمثيل •

ويجتمع الشيوخ في همسات قلقة ، ولكنهم لا يفعلون شيئا • وهذا ينطبق ووجهة النظر المثالية لكبار السن ـ حكماء في الرأي ، ضعاف في الحركة ـ الا ان الغرض الفني من الحوار هو تخفيف التوتـــر لكي نستجيب لذروة المسرحية التي لم تأت بعد • وفي نهاية الحوار ، وحين يقترب الشيوخ من القصر ، يكون الوهم المقصود هو انهم يقتحمــون القصر فعلا ويكتشفون المشهد الذي سيلي • وتفتح ابواب المسرح على مصاريعها ، حيث تكشف عن مشهد او لوحة : جثتا آغاممنون وكاساندرا ممددتان على الثوب الارجواني الملطخ بالدماء ، وكلايتيمينسترا تقــف عليهما • وتصف بابتهاج كيف لقي زوجها مصرعه ، بعد ان وقع في فخ ثروته هو ، والآن فهي حرة اخيرا لتعلن دافعها (١٤١٥ ــ ١٤١٨) :

لكي يطرد العواصف ،
وكما لو كانت نعجة التقطها من قطعانه
التي لا تنقطع ثروة أصوافها الثلجية عن التكاثر ،
قتل دون مبالاة طفلته ، التي ولدتها بألم ، أعز أحبائي •

اصبح الكشف عن شخصية كلايتيمنيسترا الآن كاملا • ففي مجرى

عشرة أعوام تحول حبها لوليدتها البكر الى كره للرجل الذي أساء اليها، وتكرست طبيعتها العاطفية كلها للثأر • ومع ذلك فقد كان هذا الكره نتيجة الحب • وجريمتها مروعة ، ولكن دافعها يكفي لشرحها • والسبب الذي حدا بأسخيلوس ، على النقيض من هوميروس ، الى ان يجعل منها العنصر الرئيسي في القتل هو الآن واضح • فالرجل الذي قتل طفلتها يجب ان يموت على يدها فقط • اما ان لأجيسثوس عداوة خاصة مع أغاممنون فأمر لا يهمها ، وهي حين تذكر عشيقها فليس بوصفه شريكا ، وانما بوصفه حاميها بعد الفعل (١٤٣٥ ــ ١٤٣٨) •

وببطء يتحول استنكار الشيوخ الممزوج بالارتعاب الى حزن • وتصبح كلايتيمنيسترا هي الاخرى اكثر هدوءاً ، معلنة بأنها حين فعلت هذا فقد كانت اسيرة الروح المنتقمة ، الدايمون الوراثية للاسرة ، التي طلبت ان يكون الدم بالدم (١٤٧٦ ــ ١٤٨١ ، ١٤٩٨ ــ ١٥٠٥ ، ١٥٢٨ ــ ١٥٣١) • وبالنسبة لها ، كان القتل طقس تطهير ضروريا ، قربانا كاملا تطهرت به العائلة من جنونها الوراثي ، والآن وبعد ان أنجزت مهمتها فكل ما تطلبه هو ان تعيش بسلام (١٥٦٧ ــ ١٥٧٦) • بيد ان ذلك لم يكن رأي الشيوخ الذين ردوا حجتها عليها (١٥٦٢ ــ ١٥٦٣) :

ان القانون لا يزال باقيا ، ما دام زيوس حاكما ،
الإثم يجب ان يعاقب ــ انه أمر •

وبهذا المشهد تكون الخاتمة (١٥٧٧ ــ ١٦٧٢) شيئا مكملا ومغايرا• فاذا كانت كلايتيمنيسترا متمتعة بصفات الرجل في قوة غرضها ، فان أجيسثوس جبان له قلب امرأة • انها تظل نبيلة رغم فسوقها ، الا انه محتقر كليا • ولقد كان هناك رعب واتهام معا في موقف الشيوخ منها ، الا ان الكلام الطنان الحاقد لمحدث النعمة هذا يجعلهم يحتدمون غيظا ،

ويدفعهم الى تضرع متّسم بالتحدي (١٦٤٦ ــ ١٦٤٨) :

آه ، هل يرى بعد اوريستيس نور الحياة ،
فلعله يعود بمؤاتاة الحظ الى بيته ، ويبرهن
على انه الملك المنفذ حكم الاعدام بكليهما ؟

ان عواطفنا هي فعلا مع المنفي البعيد . وتهجم اجيسثوس الفظ ، الذي وضع فيه الكاتب كل كرهه للنظام الاستبدادي ، يجعلنا نشعر ، قبل كل شيء ، بأن هذه لم تكن الا جريمة لا معنى لها وشنيعة . وتبدو كلايتيمنيسترا ايضا ، بينما هي تصغي بصمت ، انها تحمل ذات الشعور. واذ تضايق وتكبت ، فهي تدعو الى السلام . الا ان الشيوخ يَبقون يتحدونها حتى النهاية . وسيُنكر عليها السلام . ويبقى الخلاف غير محلول .

لقد صُوّر مصير أغاممنون بشكل شبكة الصيد ، التي نشرت اولا على مدينة طروادة ومن ثم اصبحت حبلا جالبا للمصائب ، رمزا لثرواته المفرطة ، التي وقع في فخها وذُبح . ولذا تُصوَّر كلايتيمنيسترا في المسرحية التالية على شكل حية تذبحها نفسها ، بعد ان خنقت النسر في وكره وتركت فراخه يتضورون جوعا ، الحية التي كانت هي قد ولدتها. وفي المسرحية الاخيرة ، يصبح اوريستيس خِشفا او أرنبا طائرا ، تتعقب مسالكه كلاب الجحيم . وبصرف النظر عن هذه الاشكال الرئيسية ، تتسم مسرحية (أغاممنون) بإسهاب في التخيلات العارضة . الشمس والقمر ، النجوم والفراغات ما بينها ، البحر بثرواته التي لا تفنى والغارق حينا في هدوء منتصف صيف ، وحينا يثيره غضبا البَرَد والبرق ، وثلوج الشتاء التي تسقط ميتة فيها الطيور ، والحبوب المتبرعمة ، والكروم الناضجة ، والحصاد وقطف الاعناب ، وقبل كل شيء : النيران التي

تتلظى عبر الظلام وتتلاشى في الفجر : كامل موكب الطبيعة يُعرض كخلفية لتناقض الانسان مع الانسان • وعلى النقيض من هذا ، ستكون صورة مسرحية (حاملات الشراب) أقل اسرافا وأكثر قتامة : غابة بلوط ضامرة ، نيازك ، تنانين وهئولات البحر • الا ان الالوان البراقة ستعود في نهاية مسرحية (الارواح المنتقمة) ، عندما تتحول لعنات الايرينات الى اشعة شمس ونسمات عليلة ، جالبة زيادة مثمرة الى الغلال والمواشي والناس •

ان الفترة الفاصلة بين وقوع المسرحيتين الاوليين ليست مذكورة ، ولكن من الواضح ان عدة سنوات قد مرت بينهما • فالصبي الذي ارسلته كلايتيمنيسترا من البيت ، وهو الآن رجل شاب ، شجاع ، ورع وطموح ، قد عاد الآن سرا الى آرغوس ، يصحبه بيلاديس ، ابن مضيفه في فوكيس • ويسمع ، وهو واقف في الفجر عند قبر ابيه ، صرخة مفاجئة • وبينما تسير المسرحية ، ينبلج الفجر غير ملحوظ • وبحلول الوقت الذي تكون مهمته فيه قد أنجزت ، سيعود الغسق مرة اخرى ، واذ يعود منفيا ثانية ، سيهرب من البيت تتبعه أرواح امه المنتقمة •

وكما من قبل ، يقع المطلع في جزئين ، تقسمه هذه المرة الصرخة الآتية من القصر ، وهي صرخة ارتعاب على النقيض من «هلليويا !» المفرحة التي سُمعت جوابا على الحارس • والنص مبتور بشكل مشوه، ولا بد ان يستعاد مضمون ما هو مفقود في ضوء الاعتبارات المُستشفة من بقية المسرحية • وهناك نقطتان تُعطَيان بصورة خاصة في تعاقب الفصول اهمية بحيث يمكننا ان نتأكد من انهما قد أشير اليهما سلفا على الاقل هنا •

فأولا ، ان اوريستيس تسلم امرا صريحا من أبولو بأن يثأر لأبيه بقتل أمه وعشيقها (٢٦٨ ــ ٣٠٤ ، ١٠٢٧ ــ ١٠٣١) «من أراق دم

انسان ، فسيريق دمه انسان» (٣١١ ــ ٣١٣ ، ٤٣٤ ــ ٤٣٦ ؛ ٦٤٥ ــ ٦٤٨ ، ٨٣٥ ــ ٨٣٧) • وهذا القانون ، الذي سبق ان استشهدت به كلايتيمنيسترا والشيوخ ، الاولى تبريرا لقتل أغاممنون ، والآخرين توقعاً لمقتلها ، حَظي الآن بمصادقة إلهية • واذا تقرر ان يُدان اوريستيس بالقتل في الزمن القادم ، فلا بد ان يشاركه إثمه أبولو ، الذي لم يعده فقط بالعفو عنه لاطاعته امره ، وانما هدده بأقسى العقوبات ان عصاه (٢٧٥ ــ ٢٩٥) • وليس لأوريستيس خيار : فهو وكيل الآلهة ، وهو اذ يعلم هذا يواجه مهمته بثقة • وهكذا فنحن متهيئون لصراع الثلاثية الاخير ، الذي سيصبح فيه العداء بين الام والابن حالا عداء بين آلهة السماء وآلهة الجحيم ، مؤثرا في رفاهية الجنس البشري كله •

وثانيا ، ان موت الآثمين الاثنين ضروري لتطهير الاسرة من الإثم • وأنصار اوريستيس يعتبرونه مطهِّرا او منقذا عُين بصورة إلهية (١٥٩ ــ ١٦٣ ، ٨٦٥ ــ ٨٦٧ ، ١٠٤٤ ــ ١٠٤٥) • والشيء الذي لا يتنبأ به لا هو ولا هم، هو ان عليه ، بتطهير الاسرة ، ان يتولى مسؤولية تلوثها بنفسه (١٠١٥) •

وبعد ابتهال الى هرميز والى روح ابيه ، يضع اوريستيس خصلة من شعره على الضريح ، وعندئذ نسمع الصراخ : «صرخة خوف عميقة متكررة» (٣٤ ــ ٣٥) • وهو يرى الآن مجموعة نساء ، متشحات بالسواد ، يأتين من القصر ، واذ يثيره مرأى اخته وهي تسير بينهن منحنية بحزن ، يناشد اسم زيوس (١٨ ــ ١٩) :

يا زيوس ، هل لي أن أثأر
لموت ابي ! دافع وقاتل عني !

النساء يلطمن صدورهن ويمزقن شعورهن في مناحة شرقية • وكانت

الملكة رأت أحلاما سيئة ، عبر فيها الموتى عن غضبهم ، وأرسلت هؤلاء الخادمات بعروض استرضاء الى ضريح زوجها • ولكن ما ان يكون الدم قد أريق ، فلا شفاء له (٤٧ ، ٦٩ ــ ٧٣ ؛ مقارنة : أغاممنون : ١٠٠٤ ــ ١٠٠٦) ، ولا مهرب من العدالة ، التي تزور البعض في هــذه الحياة ، والآخرين في (المطهر) او (الجحيم) • وكلايتيمنيسترا مكتوب عليها ان تموت ميتة عنيفة ، وسيُنقَذ قاتلها ، بشق النفس ، من أرواحها المنتقمات وهن يسحبنه الى العذاب الابدي • وباختصار ، تكتشف النساء عــن هويتهن : انهن أسيرات مــن نهب طروادة • وهن يطعــن أسيادهــن اضطرارا ؛ أما وِدادهن فهو محفوظ للمنتقم ، حين يأتي •

وبالرغم من ان ايليكترا هي اكبر سنا من اخيها ، الا انها لم تزل غير فتاة لم تكدر طبيعتها الرقيقة بعد نشأتها غير السعيدة • وهي لا تستطيع ان تطلب بركة من ابيها للزوجة التي قتلته ، ولكن لم يخطر ببالها ان تبتهل من اجل الانتقام الى ان توحي به اليها الخادمات • وحتى في ذلك الوقت فهي مترددة في الاستجابة ، والتفكير بخباثة أمها تدفعها لا الى الغضب بل الى ابتهال بأن تمنح طهارة قلب اكبر •

وتكتشف اثناء ابتهالاتها عند الضريح خصلة الشعر ، الذي يشبه شعرها ؛ وتفكر حالا بأوريستيس • وتلاحظ الآن في الارض صفين من أثر قدمين ، يمتدان الى خارج المقبرة • وتغرس قدميهــا في الاول ، وتكتشف انهما يساويان قدميها • واذ هي تتمزق بين الامل والشك ، تتبع آثار القدمين خطوة فخطوة الى المكان ، غير المعروف لديها ، الذي يقف فيه اخوها ، واذ تقترب اليه تصرخ حائرة مدهوشة (٢١٠) : «ايــة كروب هنا ، اية مواهب ممزقة !» • وكأن هذه الكلمات موجهة اليه وهي تنبؤ غير سار •

اوريستيس يتقدم ، وايليكترا تتراجع مرتعبة • ويكشف لها عــن

نفسه • ولا تستطيع باديء الامر ان تصدقه • وبمزحة رقيقة يعنفها ، وفي الوقت ذاته يقدم دليلا على هويته ــ الغنوريسماتا او الرموز ، وهــي ثوب كانت قد غزلته له قبل ان يترك البيت ــ وتنسى ايليكترا كل شيء عدا سعادة هذه اللحظة ، وهي تقف وجها الى وجه امام الأخ الذي ، بعد ان حرمت من الاب والأخت وأبعدت عن أمها ، اغدقت عليه في غيابــه كامل الاخلاص الممزوج بالحب • الا ان اوريستيس قلق فعلا من الخطر الذي وضعهما فيه التئام الشمل ، وتذكره الجوقة فورا بالمستقبل (٢٤٢ ــ ٢٤٤) :

ثق بشجاعتك ، ولسوف تستعيد
امتلاك ارث ابيك ، لو فقط وقفت
القوة والحق الى جانبك ، ومعهما ثالث ،
اعظم الجميع ، زيوس المنقذ •

ويستجيب اوريستيس حالا :

زيوس ، زيوس ، انظر الى حالنا ، تأمل
فراخ النسر المتيتمة من ابيها ،
الذي طوته الحية القاسية بين لفاتها
وسحقته حتى الموت •

وبإيمان مطلق بالوحي الدلفي ــ «أبولو لن ينكث وعده» (٢٦٨) ــ وبتصميم تام على الاطاعة ، يبدو في نهاية المشهد جذلا تقريبا في ثقته •
والانشودة عند الضريح التي تلي ذلك هي من الناحية الفنيــة (ثرينوس) او تفجع ، درسنا أساسه الطقسي في الفصل الحادي عشر •

وهي مثل رئيس‍ للطريقة التي رفع بها اسخيلوس الطقس البدائي الى مستوى الفن الدرامي •

وقصائد سوفوكليس الكورسية هي دائما ذات صلة ، وتخدم اغراضا درامية ؛ ولكن لا توجد عادة داخل كل قصيدة الا حركة قليلة• فالجوقة تعلّق ، تتوقع ، تشير الى مثل أخلاقي او تناقض ، ولكنها ، بصورة عامة ، لا تسهم بشكل مباشر في تقدم الحبكة • ومن جهة اخرى فان القصيدة الاسخيلوسية هي في ذروتها ديناميكية الى درجة عالية • فهي تتحرك وتنمو داخل نفسها • وحركة المسرحية راكدة ، ولكن حين نصغي الى الموسيقى نشعر بأن شيئا يحدث داخل أذهاننا • وقد سبق ان مررنا برائعتين من روائعه من هذا النوع ــ الستاتيسموتتان الاوليان في مسرحية (أغاممنون) • الا ان الانشودة عند الضريح التي يترتب علينا الآن ان نتأمل فيها هي اكثر بروزا • فهي ، كهاتين ، تعكس ثورة في موقفنا الذهني ، الا انها ، وقد وضعت لصوتين بالاضافة الى الجوقة ، تقدم مجالا للمسرحة اوسع • وكل من الاجزاء الثلاثة هو دراما صغيرة بحد ذاته ، اذ يتبادل المشاركون ردود الفعل تجاه بعضهم الآخر ، وينمو من تغيرات مواقفهم النفسية المتوالية كل‍ بالغ التعقيد والحيوية • واذا قارناه مع ابتهال داريوس في مسرحية (الفرس) ، وجدنا درجة مذهلة من تقدم الفنان • وهناك تتأثر بتعويذات الشيوخ السحرية وبظهور الشبح رداً عليهم ، الا ان هذه التأثيرات خارجية وتكهنية ــ اذ ليس هناك اي شيء درامي بطبيعته في الانشودة نفسها • وهنا استغنى الكاتب الدرامي عن السحر ، ويبقى الشبح غير منظور • ومع ذلك فنحن نشعر ، حين نصغي الى ابتهالات الاخ والاخت ، بروح ابيهما تدخل يبطء قلبيهما • ان الحركة داخلية كليا ، ومع ذلك فهي لهذا السبب بالذات اكثر اثارة وتأثيرا •

يبدأ اوريستيس وايليكترا بتفجع لمـوت ابيهما (٣١٤ ــ ٣٢١ = ٣٣١ ــ ٣٣٨ ، ٣٤٤ ــ ٣٥٢ = ٣٦٢ ــ ٣٧٠) ، الا ان هذا التفجع ، وتيجة التحريض المستمر من الجوقـة (٣٠٥ ــ ٣١٣ ، ٣٢٢ ــ ٣٣٠ ، ٣٧٤ ــ ٣٧٨) يتحوّل الى دعوة متقدة ، تشارك فيها الجوقة ، الـــى معاقبة القتلة (٣٧٩ ــ ٣٩٨) • وفي الوقت نفسه ، اذ تلاحظ الجوقـة اثر تحريضها في الاثنين الآخرين ، تأخذ ثقتها هي بالتزعزع ، وتنهشها الشكوك (٤٠٦ ــ ٤١٦) • ثم تأخذ ايليكترا زمام المبادرة ، مستعيدة آلامها هي والاساءة الى جثة ابيها (٤١٧ ــ ٤٢١ ، ٤٢٨ ــ ٤٣٢ ، ٤٤٣ ــ ٤٤٨) • وتتيجة لذلك ، يندفع اوريستيس ، الذي شعر نفسه بفزع عابر (٤٠٤ ــ ٤٠٨) ، الى تجديد تصميمه (٤٣٣ ــ ٤٣٧) ، وتعود الجوقـــة الآن الى الهجوم • حيث تنضم الى ايليكترا في حثّه على التحرك (٤٣٨ ــ ٤٤٢ ، ٤٤٩ ــ ٤٥٣) • وهكذا يؤتى بنا الى الذروة الثانية ، التي يصرخ فيها الثلاثة جميعا بالثأر مرة اخرى (٤٥٤ ــ ٤٥٨) • ولكـــن الجوقة تفقد عندئذ ثقتها مرة اخرى (٤٦١ ــ ٤٦٣) ، وتقطع الانشودة بتفجع على المعاناة المقبلة لأسرة آتريوس (٤٦٤ ــ ٤٧٣) • لقد كانت هي اول من رفع صرخة الدم (٣١١ ــ ٣١٢) وأملتها على الآخرين (٣٨٥ ــ ٣٨٨) • والآن فهي تبكي على ما فعلت • انها نهاية جميلة ، وموسيقية في مفهومها اساسا •

الموسيقى تتوقف ، والانشودة تبلغ نهايتها • وعلى يد فنان أقـــل نضجا ، كان الابتهال سينتهي هو الآخر هناك، الا ان اسخيلوس لا زالت عنده تكفيلة" او مقطع ختامي • فالإبن والبنت يبقيان الى جانب القبر ، واذ يتصاممان عن تفجع الجوقة المشحون بالتطير ، يواصلان الدعوة الى الثأر ، ولكن وحيدين • وقد ارتفعت لعنة آتريوس من القبر لتعيش مرة اخرى فيهما •

وآثرُ ذلك في اوريستيس هو لتأكيد تصميمه . فبعـد ان يسمع بتفاصيل كلايتيمنيسترا ــ حيث حلمت بأنها ولدت حية رضعت مـن ثديها حليبا مزيجا بالدم ــ يفسره بتأكيد لا رحمة فيه (٥٤٦ ــ ٥٤٨) :

اذن من المؤكد ، وقد اعطت تلك الهولة حياة ،
انها لا بد ان تموت ميتة عنيفة ، وأنا
سأتحول الى تنين وأقتلها .

ومن الآن فصاعدا ، يكرس كامل تفكيره لتنفيذ المؤامـرة بنجاح ، بالرغم ، كما سنرى، من انه سيتردد مرة اخرى .

اما الاثر في ايليكترا فهو تحويلها . فالفتاة التي كانت حتى الـى زمن قريب لا تستطيع تقريبا حتى ان تحمل نفسها على الابتهال للقصاص تفخر الآن بأنها ستتكشف عن متوحشة وقاسية على غرار أمها (٤٢٠ ــ ٤٢١) . وتحت ضغط اللعنة السلفية التي لا سبيل الى مقاومتها اصبحت هي كلايتيمنيسترا ثانية ، وبالعكس ، يجوز لنا ان نستنتج بأنـه مضى وقت كانت فيه كلايتيمنيسترا بريئة براءتها هي . وقد أساء جميع النقاد المعاصرين تقريبا فهم شخصية ايليكترا في هذه المسرحية ، والسبب هو : عدم ادراكهم بأن الشخصية الانسانية تتغير مع بيئتها .

وبعد ان يشرح اوريستيس خطة عمله ، يعطي تعليماته الاخيرة الى الخادمات (٥٧٩ ــ ٥٨٢) :

أوصيكن بلسان متحفظ جيدا ،
الصمت في أوانه ومناسبة الوقت في الكلام .
والبقية هي لعيني رفيقي وحده ،
ليشرف على اختبار السيف هذا .

وعبارة (الصمت في أوانه) هي واحدة من تلك العبارات التـي دخلت الكلام المتداول من لغة الدين ؛ ويكمن اصلها في يمين السريـة المفروضة على المرشح للتلقين في ايليوسيس • وكما رأينا . ففي مرحلة تالية اصبح الملقَّن (ايبوبتيس) ، اي واحدا ممن يقبلون فـي الطقوس السرية المؤداة في (قاعة التلقين) ويشرفون على تلقين الآخرين (الفصل السابع) • وهكذا قبلت الخادمات هنا في سر المؤامرة . الا ان تنفيذها سر اكبر ليس لهن الاطلاع عليه • اما الفعل نفسه ، الذي سيقع داخـل القصر ، فان اوريستيس هو الذي ينفذه تحت اشراف بايلاديس الـذي سيلاحظه بأتنباه ويحرسه •

واذ تبحث الجوقة في بشاعة جريمة كلايتيمنيسترا . التي لا مثيل لها في تاريخ الخبث النسوي ، فهي تستعيد ايمانهـا بالمنتقم (٦٤٥ ــ ٦٤٨) :

هناك يأتي ليمسح بدم جديد
الدم العتيق ابن ،
مطيعا غرضا قاتلا لروح انتقام مبهمة •

الوقت الآن ساعة متأخرة من المساء • اوريستيس يقترب من القصر، يصحبه بايلاديس متنكرا بزي بائع فوكيسي • ويطلب التحدث الـى شخص ما مسؤول «امرأة ، او ، على نحو اكثر ملاءمة ، رجل» (٦٦٠)• وخطته هي ان يقتل أجيستوس اولا • وما ان بدأ يتكلم حتى تظهـر كلايتيمنيسترا ، سيدة البيت الفعلية ، بشخصها ومعها ايليكترا ، التـي تعمل وفقا لتعليمات اخيها (٥٧٧ ــ ٥٧٨) •

وتخاطب الملكة القادمين الطارئين بتحفظ محفوف بالحذر • وهي على استعداد لتكريمهما ، ولكن اذا كانت مهمتهما مما يتعامل به الرجال

فسوف تستدعي رجالا • ويسلم اوريستيس رسالته ، معلنا موته هو ، وتدعم ايليكترا هذا التضليل بتفجع زائف (٦٨٧ ــ ٦٩٥) :

يا لعنة هذا البيت الحزين التي لا تقهر ،
ما أوسع رؤيتك ! حتى الذي بدا
حسن الترتيب . آمنا لا يصله الاذى
اسقطته انتِ بسهام من بعيد ،
وتركتيني وحيدة . محرومة من كل الذين احببتهم •
والآن آوريستيس ــ الذي فكر بحكمة
بالا تطأ قدماه المستنقع ،
الآن ذلك الامل الوحيد للشفاء
الذي ربما كان سيطرد التظاهر الشرير
داخل هذا القصر . سجّليه غائبا •

ان هذه الكلمات تحتوي سخرية مزدوجة • واليكترا تخبر أمها بأن تعتبر اوريستيس ميتا ، بالرغم من انه في الحقيقة يقف امام عينيها ، وهي تفعل هذا دون ان تنطق فعلا بالكلمة المشؤومة • ولكنها ، بالنسبة للمشاهدين ، تنقل معنى أعمق • فقد كان اوريستيس قد تملكته في النهاية لعنة آبائه • وكان حكيما في ابتعاده : وستكون عودته تحطيمه• وإذن لن تكون وحدتها بعد ذلك خيالا •

ويستمر اوريستيس في ذات الستار من المراوغة الخبيثة ، طالبا المعذرة عن حمله النبأ المحزن ومؤكدا في الوقت نفسه تصميمه على تنفيذ المهمة التي تعهد بها • وتجيب كلايتيمنيسترا بترحيب متحفظ بالمثل ، ولكنها تكشف عن فرحها بالنبأ : اذا صح ، بتوبيخها ايليكترا توبيخا ممزوجا بالسخرية والاغاظة ، حيث تأمرها كما لو كانت عبدة

بخدمة الغريبين (٧١١ ـــ ٧١٤) • وطوال هذا الحوار المتوتر ، يكـــون موقفها من الغريبين موقف ارتياب عميق • ولكنها لا تشك في ايليكترا: وهذه هي مصيبتها • وهي بمعاملتها كعبدة ، مكنت نفسها منها •

وخطوتها التالية هي ان تنقل رسالة الى اجيسثوس ، تطلب اليه ان يعود فورا وان يجلب حرسه الخاص المسلح • والرسول الذي تختاره هو مربية العائلة العجوز التي كانت قد تركت لها حرية التصرف لما ارتابت في شيء ولمكنت بذلك سيدتها من دحر المؤامرة • ولكنها وهي فـــي طريقها تصادف الجوقة ، التي تأمرها بأن تسلم الجزء الاول من الرسالة وان تحجب الثاني • وهذه المربية ثرثارة ومغفلة ورقيقة ، الا ان ذكرياتها عن الطفل اوريستيس درامية بشكل دقيق ، حيث الغرض المقصود منها تحذيرنا من الاستقبالات المفرطة التي سيرحب بها اوريستيس عن قريب، واعدادنا لِلَّحظة التي ستتوسل فيها أمه طالبة الرحمة (٨٩٥ ـــ ٨٩٧) :

آه فلتبق يا ولدي ! يا طفلي العزيز فلتكن عندك رحمة
بهذا الثدي حيث في نعاسك منذ زمن طويل
كانت لثتاك الخاليتان من الاسنان تستدران لبن الحياة !

وفي الستاتيسمون السابق ، غنت الجوقـــة خبث كلايتيمنيسترا ، اما الآن فهي تبتهل لنجاح المنقذ الذي ارسلته السماء والذي سيذبــــح الوحش • واريستيس منهمك في سباق عربات ، وجائزة انتصاره هـــي إرث آبائه • لقد نسيت الجوقة مخاوفها وحثته على ألا يبدي اية رحمة (٨٢٩ ـــ ٨٣٦) •

ويظهر أجيسثوس استجابة لدعوته الى الحضور • وهو يميل الى عدم تصديق نبأ وفاة اوريستيس ، الا ان ذلك ليس لانه يشك فـــي الرسولة ، بل لان الخبر على درجة من العظمة بحيث لا يصـــدق • واذ

يركبه الغرور والثقة بنفسه ، يسير باستقامة الى داخل الفخ • ويـزداد الاهتياج ، وبينما تنتظر الجوقة النتيجة تنطـــق بابتهال نهائي للنصر (٨٠٥، — ٨٦٧) :

لا يزال الكثير جدا معلقا ، ووحيدا هو يذهب ،
اوريستيس الشبيه بالإله ، واثنان هما عدوّاه
ألا فلتسلم بأنه متوجه الى الفتح !

ونحن نتذكر المثل القديم الذي كان على شفتي أغاممنون وليس في قلبه : «اكرميني كرجل ، وليس كإله» •

وفي الوقت الذي لا تزال فيه المسألة متأرجحة ، تنتحي الخادمـات جانبا ، خائفات من ان يلحقن ضررا بأنفسهن في حالة الهزيمة (٨٧١ — ٨٧٣ ؛ مقارنة : ٧٧ — ٧٩) • ثم يأتي الخادم الى الباب ، مبديـا ذات التردد ، ولكنه الآن مشير للنجاح (٨٧٤ — ٨٧٩) • وينادي مأوى النساء لتقديم العون ، الا ان الابواب مغلقة • وهذا من عمل ايليكترا (٥٧٧ — ٥٧٨) • ثم يتوقف ليتأمل • فاذا كان اجسثيوس ميتا ، ترتب عليـه ان يستعد لتغير في السادة • وصرخته الثالثة هي استدعاء للعدالة أقل منها دعوة للنجدة :

ماذا تفعل كلايتمينسترا ؟
أين هي ؟ والآن يبدو اخيرا ان رأسها
سيلمس الوضم (*) تحت فأس العدالة •

---

* خشبة غليظة يقطع عليها الجزار اللحم (المترجم) •

وأخيرا تأتي : «ما معنى هذا الصياح ؟» • والجواب نبوئي مبهم بشكل قاس : «انه يعني ان الاحياء يقتلهم الموتى» • فأوريستيس ، الذي ذكر انه ميت ـ قتل أجيستوس • ولكنها ترى فورا تحقق حلمها • واذ تجابه الازمة بكل تحديها القديم ، تطلب فأسا ، ولكن قبل ان تستطيع نيلها يجابهها اوريستيس والسيف بيده وجثة أجيستوس عند قدميه • ان هذه هي اللحظة الحاسمة • ويتردد • ويخفض سيفه ويلتفت يائسا الى صاحبه : هل عليه ان يُبقي على امه ؟ ويتكلم بايلاديس للمرة الاولى والأخيرة (٨٩٩ ــ ٩٠١) :

وماذا تكون اذن بعد هذا نبؤات
وعود لوكسياس الجدّية ؟
دع كل الناس يكرهونك الا الآلهة •

وتتوسل كلايتيمنيسترا للابقاء على حياتها • واذ يذكرها ابنها بأجيستوس ، تذكره هي بكاساندرا (٩١٧ ــ ٩٢٠) :

كلايت : لا ، لا ــ تذكر فسقه هو ايضا !
اوريس : لا تتهميه ــ انه من اجلك كدح في الخارج •
كلايت : انه امر صعب على امرأة تفصل عن زوجها •
اوريس : وماذا لولا عمله يبقيها آمنة في البيت ؟

وبعد ان تفشل في اقناعه ، تهدده (٩٢٣) : «إحذر كلاب جحيم لعنة الام !» • ولكن اوريستيس لن يتأثر مرة اخرى • «آه لي ، حملت حية ، لا ابنا» • واذ «تحول الى تنين» ، كما قال هو نفسه ، يسوقها ابنها الى الداخل ويقتلها •

ان الستاتيسمون الاخير ترنيمة غفران صوفي ، نابع مـن الاعتقاد بأن أسرة آتريوس قد ماتت وهي تولد من جديد ، عـن طريق اختبار الدم الذي ينتئذ الآن في القصر ، وبذلك تخلصت من كابوس الخطيئة الذي كلكل عليها زمنا طويلا . وقد سبق ان ابتهلت الجوقـة لتخليص الاسرة من حجابها وان تزين بتاج المجد (٨٠٤ ــ ٨٠٧) :

فلنفرح ونضع تاجا على القصر ،
وليظهر بسرعة
متألقا ، ودودا وحرا ،
من حجاب الظلام المطوّق !

والآن فقد انتهى الصراع ، وأسرة آتريوس منقذة ، ولن تخطـيء وتضل بعد الآن (٩٤١ ــ ٩٤٤) :

سبحوا عاليا ، غنوا أغنية بصوت عال في البيت ،
!الخلاص من البلاء وتبديد الثروة
على يد الاثنين الآثمين الدنسين ،
من الدروب الشائكة الوعرة !

ومن ثم تحيي الجوقة الضوء المبارك وتدعو الاسرة الـى النهوض كآثم جرى تطهيره (٩٥٩ ــ ٩٦٢) . وستصير كاملة عما قريب ، وسيرى ساكنو القصر ، الذين تحول بكاؤهم الى فـــرح ، الغاصبين مهزومين كالعامة المغلوبة من غير الملقنين (٩٦٣ ــ ٩٦٩) .

ان احد طقوس الديانة الصوفية يوصف على النحو التالي :

في ليلة معينة يوضع تمثال على اريكة ويحزن عليه بصرخات

أسى موزعة الاعداد • ثم ، بعد ان يكونوا قد اكتفـــوا من تفجعهم الزائف . يجلب ضوء الى الداخل • وعندئـذ تدهن حناجر جميع اولئك الذين بكوا من قبل الكاهـــن ، الذي يهمس عندئذ بتمتمة بطيئة :

تشجعوا ، ايها المتصوفون . لأن ربكم منقذ :
الخلاص من الشر سيكون لكم •

وقد سبق ان هللت الجوقة لخلاص الاسرة وحيّت النور ، وأخيرا فهي تغني (٩٦٧ ــ ٩٦٩) :

مع الخط المؤاتي وقد انبسط بعينين يرى بهما بالعدل
لجميع أولئك الذين يبكون
سيخضع الاجانب في الداخل مرة اخرى •

حلّ الليل ، وبينما الجوقة تنشد ترنيمة الخلاص هذه ، تفتح ابواب القصر على مصاريعها ، كاشفة عن لهب ضوء المشعل ، الذي يُشاهَـد فيه اوريستيس ، المنقذ ، واقفا على اريكة ، ممددة جثة أمه •

ان الكثافة المضفاة على الذروة بهذا التوازي المستمـــر مع طقس ايليوسيس لا بد ان تكون قد تركت انطباعا عميقا في جميع أولئك الذين كان ذلك الطقس بالنسبة لهم رمز ايمان حي • ومما يتميز به اسخيلوس هو ان التوازي لا يتعزز بالتماثل بقدر ما يتعزز بالتضاد • فقـد بلغت معنويات الجوقة المرتفعة ذروتها تماما في الوقت الذي كانت فيه علـى وشك الانغمار في خيبة الفأل والكارثة •

وينشر اوريستيس امام الجميع ، الثوب الارجواني الذي عرض فيه

هذا الوحش ، الذي كان يوما ما أمه ، جثة ابيه ، ليروه كدليل سيحميه يوم الحساب • الا ان الجوقة مملوءة فعلا بالشكوك ، ويأخذ اوريستيس هو الآخر يفقد ثقته (١٠١٤ ـ ١٠١٥) • وبينما يصبح الصراع اعنف ، ويكشف عن الاشارات الاولى للجنون الآخذ بالاقتراب ، يذكّر نفسه بأمر ابولو ويعلن عن نيته في البحث عن ملجأ في دلفي • وتتذكر الجوقة، وان كان ذلك لم يعد نابعا عن اي اعتقاد ، طبيعة منجزاته البطولية (١٠٤٤ ـ ١٠٤٥) :

انت منقذ ارض آرغوس ،
وبضربة خفيفة قطعت رأسَي تنينين •

وبينما الجوقة تتحدث ، يلمح اوريستيس الايرينات (١٠٤٦ ـ ١٠٤٨) :

ما هؤلاء النساء ؟ انظروا اليهن ، شبيهات بفرغونات ، (*) ،
متشحات جميعا بالسواد ومضفورة شعورهن بلفّات
من حيات متلوية !

يبدو الامر وكأن مجموعة جديدة من الهولات كانت قد ولدت من دم التنينين اللذين ذبحهما • وتستغل الجوقة يأس اسم ابولو ، الذي يتسم الآن ، بقدر ما اتسم اسم اوريستيس نفسه في نهاية مسرحية

---

* في الاساطير اليونانية ، الفرغونات اخوات ثلاث مكسوات الرؤوس بالافاعي بدلا من الشعر ، وكان كل من ينظر اليهن يتحول الى حجر .
(المترجم)

(أغاممنون) ، بوعد بقدوم الخلاص (١٠٥٧ ــ ١٠٥٨) :

انك سوف تُطهَّر ! ان لمسة ابولو
ستنقذك من هذه الكوارث !

وفي مسرحية (اغاممنون) ، يجـــد الحارس والبشير والجوقة ، انفسهم ، في قصيدة بعد اخرى ، مجبرين ، كما لو كان ذلك بقوة خفية معينة ، على التحول من الفرح الى الخوف الآخذ بالتعمــق باستمرار ، وبهذا الايقاع المتكرر يُضفى دافع هائل على الحبكة . ومن ثم ، وحين يكون كل شيء مُعَدّاً للأزمة ، تؤجل الحركة بذريعة بعد اخرى ، الى ان يبدو التأجيل بلا نهاية . ومع ذلك ، فان الضغط المتراكم على درجة من السعة بحيث لا ينفرج معها التوتر ابدا . والنتيجة هي ان الذروة ، حين تأتي ، تكون تقريبا اكثر مما نستطيع احتماله . اما حركة مسرحية (حاملات الشراب) فهي مختلفة . فهي تعتمد على تضادات متكررة فــي المزاج ، تلعب فيها الجوقة الدور الرئيسي . وحين تكون ايليكترا في حيرة من امرها ، تملي الجوقة صلاة للانتقام . وحين يحتضن اوريستيس اخته بعد سنوات من الغياب ، تذكره الجوقة بإرثه . وعندما يبكــي اوريستيس وايليكترا بجانب القبر ، تصرخ الجوقة مطالبة بالانتقام . وحين يصمم اوريستيس وايليكترا على الثأر بلا رحمة ، تبكي الجوقة للعنة آتريوس . وهذه هي الحركة الاولى للمسرحية . وبعد ذلك تخف درجة الحركة ، ثم تزداد سرعتها مرة اخرى . وفي آخر المشاهد ، وحين يكون الانتصار قد أزيل في جو من الرعب واليأس ، تنتقل الجوقة في تعاقب سريع من الفرح الى الشعور بالفزع ، ومن الفزع الى الثقة المزعزعة والتعزي اليائس . وهذا التفاعل الدائم المتغير للمواقف النفسية المتضاربة هو أشبه بقطعة محكمة من طباق لحنيّ يعزف فيه لحنـــان رئيسيان ،

متغيران باستمرار ، في فقرتين تصعيديتين طويلتين احداهما مقابـــل الاخــرى •

ان موضوع الثلاثية ـــ مقتل اغاممنون ونتائجه ـــ يعالج في المسرحية الثالثة بشكل يصبح معه شيئا اكثر من ذلك بكثير • ويجري توسيـــع وإغناء مغزاه الـــى ان تبدو تقلبات أسرة آتريوس عنـــد استعراض ماضيها وكأنها ميدان معركة التقدم البشري • ولا يزال مصير اوريستيس يهمنا ، الا ان مستقبل البشرية بصورة عامة هو مرتبط به الآن • والمسألة هي ليست مجرد ما اذا كان يجب غفران جريمة قتل الام ، ولكن ما اذا كان يجب ان ينجح الجنس البشري في صراعه نحو نظام اجتماعـــي جديـــد •

ان أطراف النزاع على مصير اوريستيس هم ابولو والارينيات • وأبولو هو (مفسر) زيوس (١٧ ـــ ١٩) ـــ وكان ذلك تقليديا • وهـــو يزعم بأن شهادته لا جدال فيها ، لانها تأتي من زيوس (٦١٩ ـــ ٦٢١) • وقد كان مبدأ العصمة الدلفية مألوفا في اثينا في القرن الخامس ، الا انه كان يقاوم من قبل الديموقراطيين الاكثر تقدما ، الذين رأوا انه كـــان يستخدم لدعم موقف تجاه المجتمع القائم الذي اعتبروه رجعيا • وعلى ذلك ، فقد كان المواطنون الاثينيون ، بوصفهم متفرجين في مدينـــة دايانيسيا ، مستعدين ليروا المبدأ معرضا للتبرئة والاثبات وليروه بالمثل معرضا للتحدي • وفي الواقع ، ففي المسرحية ، تصادق على ادعاء ابولو في النهاية اثينا ، ولكن ذلك في ظروف تزيد من سمعتها هي وليس من سمعته ، وليس الا بعد ان يكون كامل مركزه قد تحدته الايرينيات •

واذا استنجد ابولو بزيوس ، استنجد خصومه بالمويرات (الإلاهات الاقدار) الذين هم وزراؤهن (٣٩٢ ـــ ٣٩٦) • وبخاصة ، فقد كلفـــوا بمهمة معاقبة أولئك الذين ارتكبوا جريمة اراقة دم الاقرباء (٣٣٥ ـــ ٣٣٩) • ولذلك فقد زعموا بأن ابولو ، بمعارضته لهم ، انما يقضي على

سلطان المورِيات (١٧٢ ــ ١٧٣) اللائي هن أقدم من زيوس • وهـــم يعيدون الى الذاكرة سلوكه في مناسبة اخرى ، حين خدع المورِيات في روح كانت عائدة لهن (٧٣٠ ــ ٧٣١) • وهكذا يكمن وراء العداء بين ابولو والايرينيات خلاف أعمق • وزيوس والمويرات هم على خلاف • وقد ذكرنا في فصل سابق بأن نعت او صفة العبـــادة (مويراجيتيس) او «زعيم المويرات» الذي اطلق على زيوس في اوليمبيا وعلى ابولو فـــي دلفي ، كان يتطابق مع اخضاع الحقوق القبلية لسلطان الدولة (الفصـــل الثالث) • وهذا هو الشكل الذي يعالج به العداء بين الايرينيات وأبولو من قبل أسخيلوس ــ باعتباره رمزا للتناقض بين العرف القبلي المتعلق بجريمة القتل واعادة تنظيم القانون المتعلق بهذه الجريمة ، التي حققت في ظل حكم الارستوقراطية • ويطرح حل التناقض طرحـــا متميزا ، ليس فقط باعتبار انه خضوع طرف للآخر ، بل توفيق بين الاثنين • وفي نهاية الثلاثية ، سيعاد منح الايرينيات ، في الظروف الجديدة التي خلقتهـــا الإلاهة اثينا ، الامتيازات القديمة التي سعى ابولو وراء تجاوزها •

والمسألة اذن هي هذه • الايرينيات يقفن الى جانب النظام القبلـــي للمجتمع ، الذي كانت فيه القرابة ، المنحدرة عن طريق الام ، رباطا أوثق من الزواج ، وكان يعاقب فيه قتل القريب وفورا وبصورة قاطعة بحرمان القاتل من الحماية القانونية • وكما سنرى بعد قليل ، فان موقفهن من هذه النقاط مبيَّن بشكل صريح • ومن جهة اخرى ، فان ابولو ، الذي كان الاثينيون يعبدونه بوصفه «أبوياً» (باترويوس) ، يعلن قدسيـــة الزواج وأولوية الذكور • وتدور المسألة حـــول مصير اوريستيس • والمحنة التي ألقي فيها تعكس صراع الولاءات المنقسمة المميز للفترة التي كان يجري فيها تغيير النسب لغرض الخلف والإرث المصاحبين له من جهة الام الى جهة الاب • وستسجل تبرئته ابتداء النظام الجديد الذي سيبلغ أوجَّه في الديموقراطية •

ان الايرينيات : باضطهادهن اوريستيس لقتله أمه ، يؤدين وظيفة اللعنة السلفية : التي تبدأ جذورها ، كما بينا في الفصل الثاني ، من حياة العشيرة البدائية • الا ان هذه الوظيفة ، بتطابقها مع التوازي مع العبادة الصوفية التي تتخلل كل الثلاثية ، توصف من ناحية الدور المخصص لهؤلاء الإلاهات بوصفهن «ملائكة العذاب» في مثاوي الاموات الاليوسيسية والاورفيوسية • انهن بنات (الليل) ووزيرات قاضي الموتى الاكبر ، الذي يخصص لكل نفس حصتها من السعادة او العذاب • وهن يهددن ضحيتهن بلغة تذكرنا باليورينوموس الخفي ، وهو عفريت جهنمي «له بشرة سوداء مزرقة ، وكالذباب الذي يحط على اللحم ، يكشر عن أسنانه ، ويجلس على جلد نسر ممدود» ، كان يلتهم لحم الموتى ، ولا يترك منها شيئا الا العظام • اما المكان الذي يقترحن ان ينفذن فيه ارادتهن فهو مكان (٣٨٩ ــ ٣٩٠) ــ

يُمنع عنه الآلهة
بشَرَكُ تعفنٍ مظلم ، منطقة دروب وعرة ــ

شبيهة ببراري المستنقعات الإيليوسيسية والأورفيوسية التي يتيه فيها الانسان ويهلك • وهناك سوف «يقيم مأدبة للاشرار» (٣٠٢) ، حيث يتخلى عنه الجميع ولا يعرف «في اي مكان من الصدر يكمن الفرح» ــ فرح الملقنين في (الفردوس) • وبالطريقة ذاتها ، تتطابق الرحلة الطويلة الملتوية التي يقوم بها اوريستيس في طريقه الى اثينا بعد تطهره في دلفي مع تشرد الروح بحثا عن الخلاص • وكما ذكر (تيرني) ، فان التطهير «لا يمنح فورا الخلاص المتوق اليه طويلا ؛ انه يعطي فقط ، كلا من المتصوف وأوريستيس ، معرفة الطريق الصحيح الذي يؤدي الى مقر الحكم ، وضمان حكم في صالحه» • وبالتالي ، ففي الوقت الذي يقدم

فيه الى المحاكمة ، تكون محكمة الاريوباغوس قد اصبحت محوطة بكل أبهة ورعب مقر الحكم في مينوس ، التي وقفت فيها الايرينيات ينتظرن بفارغ الصبر ليأخذن عنوة الروح الخاسرة حالما يكون الحكم قد صدر عليها • واضافة الى هذا ، فكما كان الاورفيوسي يُعلَّم بأن يعلن طهارته كحق له في الخلاص او الانقاذ ــ «من الطاهرة أنا اجيء ، ملكة الموتى الطاهرة» ــ يعلن اوريستيس لدى وصوله الى ضريح (اثينا) (٢٧٦ ــ ٢٩٨) :

بعد أن عُلِّمت في مدرسة الالم ، فقد تعلمت
الاوقات والفصول التي يكون فيها من الصواب
أن ألازم الصمت ومتى اخرج عليه ؛ وفي هذه المسألة
أمرني مرشد حكيم بأن أتكلم •
ان الدم الذي على يديّ غطّ في نومٍ عميق ،
لقد غسلتُ لوثة قتل الأم •••
والآن ، بشفتين مطهرتين وموقّرتين
ادعو للدفاع عني ملكة هذه البلاد •••
ألا ليتها تأتي ــ انها لا تزال تستطيع ان تسمع من بعيد ــ
ومن هذه التعاسات تخلصني !

وأخيرا ، وبعد ان تنتهي المحاكمة ، يعاد قبوله فــي البطن (٦٥٩) وبذلك يصبح «إرجيفياً مرة اخرى» (٧٦٠) • ويثبت تطهيره على انــه انبعاث • فقد توفي ويولد مرة اخرى •

ان المشهد الافتتاحي يُعَدّ امام معبد ابولو في دلفي • وبعد ان تنهي الكاهنة ابتهالاتها تدخل المعبد ، ونسمع بعد ذلك فورا صرخـــة ارتعاب • وبالرغم من ان معنى هذه الصرخة لا يزال مجهولا لدينا حتى

الآن ، الا انها تسقط على الاذن كإشارة مصير ، مرعبة ومع ذلك مألوفة. وقد صممت الافتتاحيات الثلاث للثلاثية وفقا لخطة مشتركة .

وتعود الكاهنة ، وهي نصف مشلولة من الخوف ، وتصف ما رأت. ثم يكشف داخل المعبد في لوحـــة ـ اوريستيس متشبث بالحرم ، الايرينيات غافيات على العروش ويقف عليهن شخص ابولو الآمر . الإله يؤكد للمتضرع اليه بأنه سيفي بعهده معه (٦٤ ، مقارنة : ٢٣٢ ـ ٢٣٤) ويأمره بالذهاب الى اثينا . ويبدأ السائح رحلته ، وبحراسته هيرميز ، دليل الارواح . ويبقى ابولو ، شاهدا صامتا على ما سيأتي بعد ذلك .

ويظهر شبح الام القتيل. وتختار خطواتها بين الايرينيات الممددات، تذكرهن بتعنيفات مريرة بقصدهن المنسي . وهذه هي المرأة التي حلمت بالنصر عند سقوط طروادة ، وبالعقاب عند عودة اوريستيس . والآن ، وحيث تحلم بها أرواحها المنتقمة ، يستيقظن بصرخات ممزوجـة بالأنين ويزحفن الى نور الشمس فلا يجدن الا وقد فرت فريستهن . ثم يلمحن ابولو ، ويُشرن بأصابع اتهام الى السارق . وفي خطاب مملوء بالتنديد العنيف ، يأمرهن بالخروج . وموقفه مفرط في الانفعال بحيث لا يكون معه نهائيا ، وبالمقابل فان موقفهن مدروس من حيث ضبـــط النفس والتماسك ، فهن لا يندذن ، وانما يتحاججن معه . وتتسم محاججتهـن بالاتساق . فهن يضايقن اوريستيس بموجب الصلاحيات الممنوحة لهن (٢٠٨ ـ ٢١٠) ، وهن لم يضايقن كلايتيمنيسترا لان الدم الذي اهرقته لم يكن دم قريب (٢١١ ـ ٢١٢) ، وهن لا يأبهن بقدسية الزواج . ومن جهة اخرى ، فليس جواب أبولو متسقا ، اذ هو محاولة للتوفيق بين مبدأين متناقضين . فهو يستخدم قانون العقاب ليديـن كلايتيمنيسترا (٢٠٣) ، وقانون التطهير ليحمي اوريستيس (٢٠٥) . ولكن اذا كانت كلايتيمنيسترا قد خسرت حياتها بقتلها زوجها ، فقـد خسر اوريستيس حياته بقتله امه . وموقف ابولو انتقالي . فهو تحدى النظام القديم ،

ولكن ليس من شأنه بناء النظام الجديد (٢٢٤) •

ويتغير المشهد . ونجد انفسنا عند ضريح للإلاهة اثينا في مدينة اثينا • وخلال الفاصلة ، يكون اوريستيس قد تجول في كل مكان (٧٥ ــ ٧٧) ، وهو يدعي الآن ان تكفيره عن خطيئته كأمل ويبحث عن ملجأ لدى الإلاهة التي ستقرر مصيره •

الا ان الايرينيات لا زلن يتعقبنه • انهن يتجمعن حواله ، ويأخذن بالرقص . وبغناء اغنية القيد ، التي ستكبله كأرواح المحكوم عليهم بقيود لا يمكن كسرها (٣٣٢ ــ ٣٣٤) :

ترنيمة الجحيم التي تعزف بلا لحن ،
الانشودة التي تقيد الروح بالأغلال ،
التعويذة التي تشوي الجسد وتحيله رمادا •

ونحن نتذكر رؤيا كاساندرا (اغاممنون : ١١٨٥ ــ ١١٨٩) :

فوق أعلى سطح البيت تقيم ابدا
جوقة منشدين أصواتهم منكرة ، يغنون اغاني شريرة ؛
وهم سكارى بإفراط ، صوناً لحياتهم ،
بدماء بشرية ، لا يزال يقيم هؤلاء المتهتكون ،
الذين لا يستطيع احد طردهم: هؤلاء الارواح المنتقمة الفطرية•

وتشاؤم الشيوخ الآرجيفيين (أغا : ٩٨٠ ــ ٩٨٢) :

لا أزال اسمع لحن موسيقى بلا أوتار ،
مناحية متنافرة من الارواح المنتقمة ، انشودة بلا توجيه
تنشد جماعيا في هذا الصدر المرتجف !

وصرخة الحارس (آغا : ٢٢ ــ ٢٤) :

يا ضوء الفرح ، الذي يحيل وميضه الليل نهارا .
مرحبا ، يا ايذانا مشعا برقصات انتصار لا تحصى !

وبصرف النظر عن اللازمات ، التي تؤلف العنصر السحري في الانشودة ، تشرح الايرينيات مرة اخرى الاساس الذي تستند اليه صلاحياتهن • فأوامر (المويرات) الخالدات (٣٣٥ ــ ٣٣٦) فرضت عليهن حين جئن الوجود لاول مرة (٣٤٨) مهمة تحقيق الانتقام من أولئك الذين اراقوا دماء الاقرباء (٣٥٦ ــ ٣٥٧) • وأوريستيس ممدد وهو مرتعب ومصاب بالاعياء ، كأرنب (٣٢٧) يجبن بلا حراك بينما تطبق عليه كلاب الصيد لقتله •

وبالنسبة لشعراء الديموقراطية ، كانت الإلاهة (اثينا) ، الابنة التي أحبها زيوس اكثر من سواها ، ووليدة الاب الذي جاء بها الى الوجود، اعظم من ابولو • فقد كان التجسيد الالهي لمثلهم العليا : الشجاعة في المعارك ، التي مكنتهم من دحر الفرس ، والمهارة في فنون السلم ، التي جعلت من مدينتهم اروع مدينة في اليونان ، وقبل كل شيء ذلك الحس في الاعتدال وضبط النفس (سيبفروسيني) الذي كان يتفق تماما مع مطامح الطبقة الوسطى كما تجسدت في الدستور الذي أسس بعد الاطاحة بالنظام الاستبدادي • وكانت وسيطة وصانعة سلام على نحو بارز ، ولها موهبة في الخطابة الواضحة المقنعة ، التي بدت ، في مدينة كان توسيع الحقوق الانتخابية فيها قد جعل فن الكلام امام الجمهور سمة سائدة للحياة الاجتماعية ، شرطا حيويا للحضارة الانسانية • وكما قال ايسوكريتس :

ان قوة اقناع الواحد للآخر هي التي رفعنا بها انفسنا فوق

مستوى البهائم . وأسسنا المدن ، وشرعنا القوانين ، واكتشفنا الفنـون •

وفضلا عن ذلك :

ان مدينتنا ، بعد ان وجدت اليونانيين يعشون بلا قوانين فـي مجتمعات مشتتة ، يضطهدهم الطغاة او يهلكون في الفوضى ، خلصتهم من هذه الشرور اما بأخذهم تحت حمايتها وإما بتقديم نفسهـا مثلا • ويتضح الكثير جدا من ان آولئك الذين وجهوا آقدم تهم القتل أجـروا المحاكمات في قضاياهم وفقا للقانون الاثيني ، راغبين في تسوية خلافاتهم بالعقل بدلا من العنف •

ان هذه ، طبعا ، اشارة متعددة الى محاكمة اوريستيس ، وتظهـر كيف ان اعمال اسخيلوس افادت في صياغة التقاليد الاتيكية • وهـذه هي الروح التي اخذت بها الإلاهة اثينا الآن على عاتقهـا مهمة قيادة الجنس البشري من البربرية الى المدنية • وفي نظر الفيثاغورسيين يقوم دستور الكون على علوية (العقل) على (الحاجة) ، التي يحققها (الاقناع)• واذا ترجمت هذه المباديء الثلاثة الى لغة الميثولوجيا فهي تكون زيوس والموريات وأثينا • وعلى ذلك ، ان اثينا هي التي سوف تفرض الآن ، دون عنف ، على وكلاء الموبرات ارادة ابيها •

انها تواجههم برباطة جأش هادئة ورفيعة ، مختلفة جدا عن الغضب العاطفي الذي تميز به ابولو • وهي تصغي الى أقوالهم باحترام مؤدب • ولا تشدد لهجتها الا حين يجادلون في قضيتهم ، حيث ترفض الاقتراح لامكان حسم القضية بالرجوع الى طريقة المحاكمة العنيفة البدائية بأداء القسم (٤٣٢ ــ ٤٣٥) • وتقبل الايرينيات الزجر ، ويعربن عـن استعدادهن لامتثال قرارها (٤٣٧ ــ ٤٣٨) • وبالعدالـة ذاتها ، تلتفت بعدئذ الى اوريستيس ، الذي يعلن بأنه قد سعى وراء اللجوء اليهـا

بوصفه شخصا مطهرا فعلا ، ويتوسل اليها هو ايضا ان تحكم في القضية (٤٧١ ــ ٤٧٢) • وبرضا الطرفين معا ، يعتمد القرار الآن عليها : الا انها تمتنع عنه فورا • فالمسألة هي أخطر من ان يصدر فيها حكم مميت ، وهي مملوءة بعواطف بحيث لا تقدر على مواجهتها بمفردها • وللمتضرع حق في حمايتها ، ولكن اذا خُيِّبَت آمال مطارديه فسوف يفرّجون عن استيائهم بشعبها (٤٨٥ ــ ٤٩١) :

ولكن فليكن ذلك ، لما كان الامر قد بلغ هذا الحد
فسأعين قضاة لجريمة القتل ،
محكمة مكونة بشكل دائم •
وفي الوقت ذاته هاتوا أدلة وشهودا
كمعاونين للعدالة محلّفين ، ومن ثم ، وبعد ان اختار
افضل ابناء شعبي ، سأجيء
لاصدر حكما صحيحا في القضية الماثلة •

وبهذه الكلمات تتنبأ بتأسيس محكمة الاريوباغوس ، المقرر ان تكون رمز النظام الجديد • ولذلك النظام تتضح فعلا سمة واحدة • فحتى هذا الوقت كان يجري عقاب القاتل بصورة اعتباطية ، ولكنه من الآن فصاعدا سيحاكم امام محلفين من أقرانه •

وستكون مهمة هؤلاء القضاة ، طبعا ، النظر في قضية اوريستيس• ولكن يبدو ان اثينا ذهبت الى انها تأمل ان تجد فيهم وسيلة لحل النزاع الإلهي ايضا : اي ان تأسيس المحكمة الجديدة سوف يحقق مصالحة الايرينيات • ونحن ننتظر النتيجة لنرى كيف يمكن ان يكون هذا •

لقد كان اصل مجلس الاريوباغوس موضوع روايات متنوعة ،

اختار منها اسخيلوس تلك التي خدمت غرضه على افضل وجه • وقد أسست المحكمة اثينا لغرض محاكمة اوريستيس ، وكان متهموه الايرينيات ، وقضاته لجنة منتخبة بالقرعة من قبل المواطنين الاثينيين • وادعى الاثينيون بأن مدينتهم كانت اول مدينة تقيم القوانين ، وبأن القوانين المتعلقة بالقتل كانت اقدم وأفضل قوانينهم ، وبأن محكمة الايورباغوس كانت هي الاكثر احتراما واستقلالا ومهابة من بين جميع مؤسساتهم القانونية • وكانت «المشرف على جميع الاشياء» و«حارسة القوانين» • وكانت في رعايتها «الودائع السرية التي يكمن فيها انقاذ المدينة» • وكانت مكلفة بالمحافظة على الاعتدال والسلوك الحسن ، على اساس المبدأ القائل ان الحكم الصالح يعتمد ، لا على كثرة التشريعات القانونية ، وانما على صيانة العدل داخل قلوب الناس • انها كانت جادة ودقيقة ونزيهة • وفي جيل تالٍ ، يعتبرها ايسوكريتس فضيلة من فضائل أجداده انهم كانوا بطيئين في مسخ مؤسساتهم السلفية ، اذ منعهم عن ذلك احترامهم لمجلس الاريوباغوس •

كان هذا هو التقليد المرتبط بالمحكمة المقرر الآن انشاؤها • ومن الواضح انه تقليد محافظ ، ويعاد تقديمه تفصيلا في المسرحية • وتزعم الايرينيات (٥٢٠ ــ ٥٣٤) :

ان هناك اوقاتا يكون فيها الخوف حسنا ؛
أجل ، عليه ان يراقب باستمرار
وهو مبوأ عرشا داخل الروح •
ان الشدائد ضرورية ايضا لتعلم التواضع •
مَن مِن أولئك الذين لم يُبقوا أبدا
رهبة صادقة داخل قلوبهم ،
بشرا كانوا ام مدنا ،

سيبدون احتراما للحق ؟
اختر حياة مستبد او حر ،
ولكن مقيدة بسيادة القانون • وهذه وتلك
يدبّرها الإله ، ومع ذلك فهو يعين العادي والبارع في كل الاشيـــاء •

وبعد هذه المجاهرة بالايمان من الايرينيات ، فليس أمام اثينا صعوبة تذكر في البرهنة على ان محكمتها الجديدة مصممة تماما لتحقيق اهدافهن التي لن تتعرض اذن للخطر ، كما يتصورن ، ببراءة اوريستيس • وهي الآن تعطي توجيهها الى القضاة قبل ان يدلوا بأصواتهم (٦٨٤ ـــ ٧١٣) :

يا اهل اثينا ، اسمعوا قانوني
في محاكمة سفك الدم الاولى هذه •
ابدآ ستبقى هذه المحكمة العظيمة مهيمنة
بين ابناء ايجيوس •••
هنا الاحترام
والخشية الفطريان ، المبوآن عرشا بين شعبي ،
سيمنعان أيديهم عن الشر ليلا ونهارا ،
فليمتنعوا فقط عن العبث بالقوانين •••
انني آمر ابناء شعبي بأن يجلّوا ويؤازروا
الوسط بين المستبد والعبد ،
وبألا يطردوا الرعب كليا ،
اذ اي انسان سيكون مستقيما دون خوف ؟
واذا احترمتم هذا القانون الاعلى ،
فسيكون لديكم من اجل الارض والمصلحة العامة

حصن للانقاذ ...

انني أؤسس

هذه المحكمة العظيمة لحماية شعبي ،

جادةً ، سريعة الغضب ، نزيهة ،

وساهرة ابدا على أولئك الذين ينامون .

ومما له مغزى كبير هو ان اسخيلوس كان عليه ان يحدد موقفه من المحكمة بهذه العبارات بعد اشهر قلائل فقط من تجريدها من جميع وظائفها الخاصة باستثناء صلاحيتها في قضايا القتل ــ وهو اصلاح أثار اكبر معارضة بين المحافظين ، وهي معارضة كانت على درجة من السعة بحيث ان قائدها (افيلاتيس) اغتيل بعد فترة وجيزة . ولما كانت اثينا تؤسس المحكمة لغرض صريح هو لمحاكمة القاتل اوريستيس ؛ ولما كانت في اشارتها الافتتاحية الى اعضائها تصفهم بأنهم «قضاة القاتل» (٤٨٦) ، فان من الممكن الاستنتاج بأن اسخيلوس قد سلم بتقليص صلاحيات المحكمة ، وهو يستعيد ماضي هذه الاحداث . الا ان اصراره على الاحترام الذي تستحقه وبصورة أخص على المبدأ القائل بأن الاثر الردعي للقوانين هو جانب اساسي من الوسيلة ، التي كما رأينا هي مبدأ الديموقراطية الاساسي ، يوضح بجلاء بأنه كان ، وذلك على الاقل في نهاية حياته ، معارضا لسياسة الديموقراطيين الراديكاليين المتقدمة .

وقد رأينا ان اثينا تجابه ادعاء الايرينيات ، بأن تبرئة قاتل الام ستؤدي الى الفوضى واللاقانونية ، بإسباغها على المحكمة طابعا تكون معه اهدافهن متطابقة مع اهدافها ومضمونة جدا حتى النهاية ، وأبعد ما تكون عن الخطر . انها سلبتهن الحجج التي كن يعتمدن عليها ، وكل ما يتبقى ان تفعله هو ان تدعوهن الى قبول الرئاسة الالهية للمحكمة

الجديدة • واذ ندرك دافعها الحقيقي ، يتكشف امامنا احتمال جديد ، يؤدي الى خاتمة الثلاثيـــــة • اما حاليا فنحن منشغلون بمحاكمـــة اوريستيس •

لقد عادت اثينا . مصحوبة بقضاتها المختارين ، ولربما كان عددهم عشرة او اثني عشر قاضيا، ويتبعهم مواطنو مدينة اثينا ، الذين هم تواقون لمشاهدة اول محاكمة قانونية في تاريخ الانسان ؛ وفي الوقت ذاته يظهر آبولو ليدلي بشهادته لصالح المتهم •

ووفقا لاجراءات المحكمة الفعلية ، تبدأ الايرينيات بتوجيه ثلاثـة اسئلة الى اوريستيس : عما اذا كان قد فعل ما هو متهم بفعله ، وكيف، ولماذا • وهذا يعني ان القضاة سينظرون ليس في الفعل نفسه فقط ، بل كذلك في الظروف والدافع • ومن المقرر ان تستبدل التغييرات التلقائية المميزة للاخلاق البدائية بقوة التمييز •

ويتقدم الاستجواب بسرعة الى النقطة التي أجل فيها النقاش سابقا في المسرحية (٦٠٧ ــ ٦٠٨ ؛ مقارنة : ٢١١ ــ ٢١٢) • ثم بعد خطـــوة زائفة (٦٠٩) سيصححها ابولو فيما بعد ، يلتفت اوريستوس الى حاميه، متوسلا اليه ليعلن ما اذا كان فعله صائبا (٦١٤ ــ ٦١٦) • اما أبولو ، الذي يكون دوره بالنسبة لأوريستوس هو دور مفسر (٦١٢) ، اي كاهن معيّن في اثينا للاشراف على تطهير القتلة ، فيتقدم لمجابهته الثانية مـــع الايرينيات ويعلن بنبرات جريئة وعالية بأن فعلـــه كان صائبا (٦١٧ ــ ٦١٨) • الا انه سرعان ما يكتشف بأن الدفاع عن هذه الحجة ضد سرعة البديهة الحادة لدى خصومه ليس امرا سهلا • ومحاولته الاولى ، وهي الرجوع الى سلطة زيوس ، عقيمة ، لان الاستئنافات لدى السلطة غـير مجدية حين يتواجد نزاع سلطات • وهكذا يعاد بنا الى المحنة التي بدأ بها الخلاف ــ اوريستوس ثأر لأبيه بجلب العار على أمه (٦٢٥ ــ ٦٢٧ ؛

مقارنة : ٢٠٢ ــ ٢٠٣) • ويقوم أبولو بمحاولة ثانية • وهو يدّعي بأنه لما كان قتل أغاممنون جريمة . فان اعدام القاتلة لم يكن جريمة • وهذا دفاع قائم على القتل المبرَّر ، حيث يحاول التمييز بين أفعال متشابهة في النتيجة ولكنها مختلفة في الدافع • الا ان الايرينيات يُجِبنَ بتعليق لاذع هو ان هذا الدفاع يصدر بشكل رديء عن الناطق باسم زيوس ، الذي قيّد بالسلاسل أباه نفسه كرونوس (٦٤٣ ــ ٦٤٥) • ويرد ابولو غاضبا بأن السلاسل يمكن فكها ، الا ان الدم ما ان يراق حتى يستحيل استرداده • الا ان هذه . كما تسرع الايرينيات الى ذكره ، هي ذات الجريمة المتهم اوريستيس بها •

وبحلول هذا الوقت يبدو واضحا ان ما من تقدمٍ يمكن احرازه ما لم يعثر على حل للمحنة التي جوبهنا بها منذ البداية • الى اي من الوالدين يدين الابن بالواجب الاول ؟ الايرينيات ينتصرن للأم • أما ابولو ، الذي سبق ان حث على ان الرابطة بين الام والابن ليست اكثر قدسية من الرابطة بين الزوج والزوجة ، فهو يذهب الآن الى أبعد من ذلك ويعلن بأن الطفل ينتسب الى الاب بشكل اقوى مما ينتسب به الى الام (٦٦٠ ــ ٦٦٤) • وهذه الحجة ليست مرتجلة : انها مبدأ الأبوة الفيثاغورسي • وفي هذه المسألة ، التي ذكرت الآن اخيرا بشكل واضح، يكمن جوهر القضية برمتها •

اذن لماذا تعطي اثينا صوتها المرجّح الى اوريستيس ؟ السبب هو انها تعطي الاولوية للذكور على الاناث ، للزوج على الزوجة (٧٣٧ ــ ٧٤٣) :

ان الحكم النهائي مهمة متروكة لي ؛
وعلى ذلك يضاف هذا الصوت لصالح اوريستيس •

ما من أم ولدتني ، وفي جميع الامور
عدا الزواج فأنا ، وليدة ابي في الحقيقة ،
أثني على الذكور من كل قلبي .
ولهذا السبب لن اعطي اهمية كبيرة .
لامرأة قـُتلت لانها قتلت زوجها المخلص وسيـّد بيتها .

وما كان بالمستطاع ان يذكر السبب بوضوح اكثر ، وهـو يمس النقطة الحاسمة موضوع البحث . وفي مسألة الأبوّة تؤيد اثينا موقف ابولو ، وبذلك تضع المبدأ الاساسي لقانون الارث الاتيكي ، الذي لم تقيد فيه فقط حرية الزوجة بشكل ضيق لصالح الزوج ، بل لم تعتبر الام من الاقرباء اطلاقا وذلك بقدر ما كان الامر يتعلق بانتقال الملكية . واذا تساءلنا لماذا جعل الكاتب نتيجة المحاكمة تدور حول العلاقات الاجتماعية بين الجنسين ، فالجواب هو انه اعتبر اخضاع النساء ، وبشكل صحيح جدا ، شرطا للديموقراطية لا غنى عنه . وتماما كما أدرك اريستوفـان وأفلاطون بأن الغاء الملكية الخاصة سينطوي على تحرير المرأة ، فقد أدرك اسخيلوس بأن اخضاع المرأة نتيجة حتمية لتطور الملكية الخاصة .

ان التفسير الواضح لكلمات اثينا لا تتطلبه فقط طبيعة المسألة التي بلغت فيها المحاكمة ذروتها ، وانما هو يدفع بالمحاكمة الى خاتمتهـا الكاملة والصحيحة. والنقاد الذين حيـّرهم قرار متناقض جدا مع افكارنا عن تطبيق القانون ينسون انه في الوقت الذي ارتكبت فيه هذه الجريمة لم تكن توجد اية قوانين وانما مجرد عقوبات إلهية متنوعة ومتناقضة ، وان قرار اثينا يؤلف حكما على ذات النقطة التي كانت تتنازع فيها . وهذا هو كل ما يـُحتاج الى ذكره عن الماضي ، الا ان المستقبل سيكون مختلفا . فقضية كهذه لا يمكن ان تنشأ مرة اخرى ابدا ، لأن المجـرم

سيحاكم من الآن فصاعدا امام محكمة قانونية • ان عهد القانون قد بدأ• وحين كنا تتابع طالع اوريستيس ، فقد كنا في الواقع نراقب نمو القانون عبر مراحل التطور الاجتماعي المتعاقبة • وجريمة القتل ، التي كانت تعتبر اصلا أذى ينبغي ان يعوض عنه من قبل اقرباء المجنى عليه ، وبالتالي تلوثا ينبغي التكفير عنه بفتاوى الكهنة الارستوقراطيين ، هي الآن جريمة يجب ان تعرض لحكم لجنة من الناس معينة بصورة قانونية • وقد حُلَّ التنازع بين العرف القبلي والامتياز الارستوقراطي في الديموقراطية • وهكذا ايضا فان مبدأ أقدمية الذكور ، الذي هو الآن مصادق عليه رسميا بوصفه اساس الديموقراطية ، يصحبه الاعلان بأن ثروة المجتمع هي الآن موزعة توزيعا عادلا (٩٩٧) • وفي النزاع بين الايرينيات وأبولو على مصير اوريستيس، والعداء بين زيوس والمويرات، الذين يجب ان توفق ما بينهم الآن اثينا ، نرى ، كما كانت منعكسة في السماء ، العملية الارضية او الدنيوية التي بدأت بالقبيلة البدائية وانتهت بظهور حالة كان عامة الناس قد استردوا فيها بشكل جديد المساواة التي حرموا منها خلال حكم الارستوقراطية •

وبالنسبة لجميع النقاد الذين افترضوا بأن المسألة موضوع البحث هي مجرد مسألة أخلاقية ، كان الاساس الذي تقيم عليه اثينا قرارها حجر عثرة • وقد كان من السهل على الكاتب ان يجعلها تقول انها ستصوت لصالح اوريستيس باعثمن الرحمة او الانسانية (فيلانثروبيا)، لان ذلك كان احدى صفاتها التقليدية • ولكنه اختار ألا يقيم قرارها على هذه الاسس ، وهذا يجعل الاسس التي يقيمه عليها هو اكثر اهمية ومغزى • ولربما تتساءل عما اذا كانت توجد صحة او معقولية ، ولو أوليّة ، في الافتراض الذي سلم به هؤلاء النقاد • فهل يمكن ان يبرأ شخص في الثأر لأبيه بقتل أمه بأمر من الإله ؟ لو كانت الثلاثية قد

جعلت معتمدة على هذا التخمين العقيم لصعب ان يكون هؤلاء أقل حيرة مما هم عليه الآن • وأسخيلوس لم يكن مهتما بحل لغز لا يمكن حله •

ان مغزى التبرئة ليس من الناحية الاساسية اخلاقيا اطلاقا ، وانما هو اجتماعي ، ويقدم الجواب عن سؤال كان بارزا في أذهاننا منذ بداية الثلاثية • ما هي العدالة ؟ هل هي حكم الثأر العائلي ؟ هل هي قانون الدم بالدم ؟ وهل تسمح بالتبرئة ؟ وهل تكمن في الفعل ام في الحافز ؟ ان كل هذه الاعتبارات كانت قد طرحت ، ولذلك فنحن مضطرون الى البحث عن جواب الشاعر النهائي •

بالنسبة لأفلاطون ، الذي اعتبر العالم المادي صورة غير واقعية للمثال الاعلى وسعى الى تثبيت المجتمع البشري على اساس الهيمنة الخالصة التي تمارسها طبقة مترفة ، كانت فكرة العدالة شيئا مطلقا لا يتغير عبّر عن نفسه سياسيا في المبدأ القائل : «على الاسكافي ان يلازم مهنته في ترقيع الاحذية» • وأعلن قائلا : «عندما تنجز كل طبقة في الدولة الوظيفة المخصصة لها ، وتنصرف الى شؤونها الخاصة بها ، فان هذا هو ما يجعل الدولة عادلة : هذه هي العدالة» • وكان هذا هو المفهوم المثالي ؛ الا ان الماديين اتخذوا وجهة نظر مختلفة كليا ، يمكن استيضاحها من ابيقور ؛ الذي كان يعارض بشدة كامل نظام الهيمنة الطبقية المتجسد في دولة المدينة في عصره :

> لم توجد ابدا عدالة مطلقة ، وانما مجرد اتفاق يتم التوصل اليه في اتصال اجتماعي ، يختلف من مكان الى مكان ومن وقت الى وقت ، لمنع ايذاء انسان على يد انسان آخر ••• وكل تلك العناصر فيما يعترف قانونا بأنه عادل ، تملك تلك الصفة بقدر ما تبرهن ضرورات الاتصال الاجتماعي على انها مناسبة

ومفيدة ، سواء كانت هي ذاتها لكل انسان ام لم تكن . واذا تبين ان قانونا ما هو متناقض مع ضرورات الاتصال الاجتماعي، فهو يكف عن ان يكون عادلا . واذا كانت الضرورة المعبر عنها في القانون تتطابق فقط لفترة مع ذلك المفهوم ، فهو بالرغم من ذلك عادل لتلك الفترة ، وذلك طالما كنا لا نتعب انفسنا بعبارات فارغة بل ننظر الى الحقائق ليس الا .

ان فكرة ان العدالة نسبية يمكن استقصاؤها في الفكر الديموقراطي في القرن الخامس . وهكذا ، عرّف (ثراسيماخوس) العدالة بأنها «مصلحة الانسان القوي» . وبالرغم من ان هذه الفكرة قد شوهها افلاطون في كتابه (الجمهورية) بفظاظة ، الا ان من الواضح ان ما قصده ثراسيماخوس هو ان العدالة هي مصلحة الطبقة الحاكمة . وجدير بالملاحظة ان جميع هؤلاء المفكرين ، وبضمنهم افلاطون ، اعتبروا العدالة مسألة علاقات اجتماعية ، وان مفهوم افلاطون المطلق يتطابق مع مركزه هو بوصفه فردا من طبقة رغب ان يرى سلطتها مؤبدة .

ماذا كان اذن موقف اسخيلوس ؟ انه كان من أوائل الفيثاغوريسيين، ديموقراطيا معتدلا . وكان افلاطون ، هو الآخر ، متأثرا بالفيثاغورسية تأثرا عميقا ، الا ان فيثاغورسيي زمنه ، وذلك في اليونان ذاتها على الاقل، كانوا قد انحازوا صراحة الى الرجعية — وهو مصير التقدميين المعتدلين المألوف عندما يكون الصراع الطبقي قد تقدم الى ما وراء النقطة التي يخدم عندها مصالحهم — وفي منتصف القرن الخامس كانت المسائل التي ستنقسم عليها الديموقراطية الاثينية لا تزال غير ناضجة . وعلى ذلك ، فقد كان اسخيلوس ، بوصفه فيثاغورسياً ، اقرب الى هيبوقراط منه الى افلاطون ، وبالرغم من انه كان منغمرا في تقاليد ايليوسيس الصوفية ،

الا انه لم يكن صوفياً في موقفه من المجتمع ، لانه لم يكن بحاجة الى طلب اللجوء من واقع كانت مطامحه قد تحققت فيه • وإذن ، لو طلب اليه ان يحدد فكرته عن العدالة ، فمن الممكن أن نستشعر انه كان سيجيب بكلمة واحدة : الديموقراطية • وهذا الجواب كامن في معالجته قصة اوريستيس • فالقاتل يبرأ باستنجاد بالحاجة او الضرورة التاريخية ، وتنتهي الثلاثية بإبرام عقد اجتماعي جديد ، هو عادل لانه ديموقراطي •

ان اوريستيس قد أبرىء ، الا ان التعادي بين الآلهة كان لا يزال بانتظار الحل • وقد سبقت الاشارة الى طبيعة التسوية التي اقترحتها اثينا . ولا يزال علينا ان نرى كيف ستحققها •

وكما وقفت الايرينيات الى جانب العداء الدموي (قاعدة المجتمع القبلي) وأثينا الى جانب المحاكمة بالمحلفين (قاعدة الديموقراطية) ، يقف ابولو الى جانب ممارسة التطهير ، الذي شرحنا اصله في الفصل الخامس• وعلى ذلك ، يمثل ابولو في هذه الثلاثية حكم الارستوقراطية مالكة الاراضي ، الوسيط بين القبيلة البدائية والدولة الديموقراطية لأثينا المعاصرة • وبعد الاطاحة بالنظام الاستبدادي ، كان عقاب القاتل قد انتقل الى السيطرة الشعبية الى جانب الارخونات ، الذين كان يعين من بينهم اعضاء محكمة الاريوباغوس • الا ان ممارسة التطهير استمرت ، كما استمر اخذ المفسرين الذين يؤدونه من صفوف اليوباتدريين • وقد احتفظت طبقة النبلاء القديمة التي ، كما تتذكر ، كان ينتسب اليها أسخيلوس نفسه ، بوظيفتها الطقسية الى جانب الموظفين المنتخبين شعبيا الذين كانوا قد تولوا تطبيق القانون • واضافة الى هذا فقد استمر خضوع الانتخاب لمنصب المفسّر لمصادقة البشير الدلفي• وهكذا، سيحتفظ ابولو ، في الديموقراطية التي أسستها اثينا ، بالسيطرة على المفسرين •

وهذا هو دوره في النظام الجديد •

وفي محكمة الاريوباغوس كان المدعي والمدعى عليه معا يلتزمان بقول الحقيقة بقسم يدعوان فيه عليهما وعلى بيتيهما وعائلتيهما بالخراب، كعقاب على اليمين الكاذبة • وكان هذا القسم يؤدى باسم (السيمنايات)، وهن ثالوث من الإلاهات المعبودات في كهف على منحدرات الاريوباغوس بوصفهن الإلاهات اللواتي يترأسن المحكمة • ولم يبحث اطلاقا اصل السيمنايات بحثا تاما، ولكن يبدو واضحا انهن كن، كما كانت الهوريات، والخاتيريات ، وأرواح آرغوس المنتقمات والايرينيات انفسهن، منحدرات من الارواح السلفية الأمية من ذات نوع الموريات ، اللواتي بحثنا في اصلهن في الفصل الثالث • وكان اسخيلوس نفسه واعيا بشكل واضح الى حد ما بهذه الصلات ، لان ما يقوم به هو انه يجعل اثينا تقنع الايرينيات بالتوحد مع هؤلاء السيمنايات ، وبذلك يقبلن رئاسة المحكمة، وهن بمظهرهن الجديد سيبقى عليهن ان ينزلن عقوبات بالحانثين باليمين حيث كان هذا واجبهن منذ بدء العالم (٩٣٣ ـ ٩٣٨) • وهذا هو دورهن في النظام الجديد ، الذي هو ليس جديدا بمعنى انه يحل مكان النظام القديم ، بل بمعنى ان تناقضات النظام القديم تمزج فيه ويوفق ما بينها ـ توحيد المتضادات في الوسط •

ان مغزى هذا الحل على درجة كبيرة من الوضوح بحيث يمكن الافتراض على نحو معقول بأن الكاتب نفسه كان واعيا بشكل مباشر بآثاره الاجتماعية والسياسية باعتباره شيئا متميزا من الشكل الرمزي الذي يصاغ به • وهناك نقطة واحدة فقط قد يوجد فيها تباين بين تفسيره والواقع • ففي الواقع التاريخي ، كانت محكمة الاريوباغوس ، التي طرحها وكأنها مؤسسة على يد الإلاهة اثينا عند تدشين الديموقراطية، مؤسسة قديمة يعود عهدها الى النظام الملكي الاتيكي البدائي • وكانت

هي مجلس الزعماء الذي أسس وفقا للروايات الاتيكية في عهد ثيسيوس . ومن ناحية تاريخية ، يوجد هنا ارتباك ولا شك ، ولكنه ارتباك من السهل قبوله لأغراض الدراما الخيالية . واضافة الى هذا فهو يُفسَّر بسهولة برواية القرن الخامس ، التي اشرنا اليها في فصل سابق (ص ٦١) : وهي ان مؤسس الديسوقراطية الاثينية هو ثيسيوس . وأما ان المؤلف قد تأثر بهذه الرواية فهو يبدو من وصفه للنساء والاطفال الذين يشاركون في الموكب في نهاية الثلاثية بوصفهم «عين ارض ثيسيوس» (١٥٢٥ ـ ١٥٢٦) . وهذا التفاوت الجانبي لا يقلل كثيرا من الاستكناه التاريخي العميق الذي تتميز به الاوريستية ، والذي لا يفهم فيه فحسب التطور التاريخي على انه عملية عضوية ، اي تناقض متصاعد للتوترات المتراكمة التي تندمج اخيرا في وحدة جديدة ، وانما تفهم فيه بشكل واضح بعض الخواص المميزة الاساسية للمجتمع القديم .

وفي البداية يعمي الانفعال الايرينيات عن رؤية فوائد عرض اثينا . الا ان اثينا لا ينافسها احد في قوة اقناعها (٧٩٧ ـ ٧٩٩) :

فلأقنعكن بالعدول عن هذا الجزع الشديد .
اتتن لسن بمغلوبات ، فان مسألة المحاكمة
حسمت بتصويت متعادل .

وتكرر الايرينيات لعناتهن ، وهن غير متأثرات بها . وأثينا ، التي لا تزال هادئة ، تكرر دعوتها (٨٣٥ ـ ٨٣٦) :

هدئن نزوات الغضب المرير السوداء ،
أقمن معي ، واقتسمن جلالتي .

وتخلي التهديدات مكانها لليأس العاجز ، وتتكلم اثينا مرة اخرى (٨٨٦ ــ ٨٩٢) :

كلا ، اذا كان جلالة (الاقناع) المقدس
اي شيء بالنسبة لكن ، فلم اذن ، تقمن معي
حيث ان بمستطاعكن ان تمتلكن هذه التربة
تصاحبكن بعدل اعلى الاحترامات •

وهذه هي الروح التي أغرت اغاممنون بارتكاب الجريمة والتي رأينا انها قد انتقمت منه ومن اطفاله ، والتي اغرت باريس بأن يغرق العالم في الحرب ؛ والتي تجسدت في هيلين ومن ثم في كلايتيمنيسترا، واستدعيت لدعم اوريستيس عندما تآمر لقتل أمه • والآن ، فان الروح ذاتها ، المتجسدة في اثينا ، تضع نهاية لآلام الاجيال الثلاثة (٩٧١ ــ ٩٧٦) :

أحمد كل الحمد عين الاقناع ،
التي نظرت باستحسان الى همس شفتي
وأنا أكافح لتهدئة هذه القوى
التي ابعدت ذات مرة وهي غاضبة ،
الا ان زيوس الذي هو سيد الكلمة البليغة قد هيمن ،
وفي النهاية نحن ننتصر في التباري على البركات •

والايرينيات ، المتمرسات منذ سحيق الازمان في لغة اللعنات فقط ، تصيبهن الحيرة اولا في البحث عن كلمات يعبرن بها عن تغير موقفهن ، وهكذا تتعلم «مغنيات الشر» هؤلاء اغنية جديدة (٩٠٤ ــ ٩٠٧) :

اغنية نصر كامل ؛ ومن الارض والبحر
ومن السماء فوقهما لعل نسمات لطافا تهب
وتطوف، وهي تتنفس اشراقة الشمس، من ساحل الى ساحل.

واذ يتعلسن بسرعة ، تستنزل المهتديات زخة من دعوات بالبركات على الناس الذين هددن بتدميرهم . فهن يدعون الى ان تبارك الشمس والارض شعوب اتيكا ، اشارة الى المصالحة الراهنة بين القوى العليا والسفلى ؛ والى ان تحسى أزهار الربيع المتفتحة من العواصف ، اشارة الى «الروح التي تسكت الرياح» اي (هيودانيموس) التي تعبد على منحدرات اكروبوليس ؛ والى ان تتضاعف المواشي والقطعان بفضل الإله الماعز (بان) ، الذي يمكن ان يشاهد ضريحه حتى الآن على المنحدرات ذاتها ، حيث يقع تماما فوق المسرح الذي كانت تمثل فيه المسرحية ؛ والى أن تستخرج معادن الارض الثمينة ، اشارة الى مناجم الفضة في لوريون ؛ والى ان يُعثر على زوج وبيت لكل بنت من بنات اثينا ، والى ان يُربّى ابنها ، وهو متخلص من لعنة الصراع المدني ، في جو من الوداد وحب الخير ، وأن يتعزز المجتمع بأكمله بروابط وثيقة كتلك التي كانت قد وحدت سابقا ابناء العشيرة .
لقد ذابت لعناتهن الى دعوات بالبركات ، وانتصرت اثينا . ولكنها وهي في انتصارها ، تقدم تحذيرا ، حيث تذكر شعبها بأن على الحانث باليمين ان يبقى في خشية من هؤلاء الإلاهات (٩٣٦ ــ ٩٣٨) :

انه يقاد الى هؤلاء ليحاكم ،
ولسوف تخنق تفاخره المتكبر في التراب
ضربة اللعنة الصامتة .

وحين كانت الايرينيات يهددن ، كانت اثينا تحاول التهدئة ، امـا الآن ، وحين تدعو الايرينيات بالبركات ، فان اثينا تحذّر • والامر أشبه بثنائي ، يقلد فيه الصوت الاعلى او الرفيع الصوت القراري او الخفيض، بعد ان يكون القرار قد أشغل اللحن الرئيسي •

ومنذ بداية القرن ، كانت قد نست في المدينة وضواحيها طبقة مـن الاجانب المقيمين (ميتويكوي) ، الذين جذبتهم فرص التجارة ، والذين كان من سياسة الحكومة تشجيعهم ، بالرغم من انهم كانوا محرومين ، بوصفهم اجانب ، من الحقوق المدنية ومن الطقوس العامة لدين الدولة• ومع ذلك ، ففي المهرجان القومي في الباناثينايا ، ومرة واحدة في السنة، كان لا يسمح لهؤلاء الاجانب بالمشاركة فقط ، وانما كانوا يمنحون ايضا أوسمة شرف خاصة • وكانت ذروة المهرجان تأتي في ليلة ذكرى ميلاد اثينا . حيث كان يحمل ثوب زعفراني اللون ، تغزله نساء المدينة ، الـى الاكروبوليس في موكب من المشاعل ، تقوده فرقة من الايفوبوي تختار لهذه المناسبة وتصحبه صيحات «هلليويا !» من جميع المواطنين ، رجالا ونساء ، شيبا وشبانا ، ويعلق هناك الثوب على تمثال اثينابولياس ، إلاهة دولة المدينة • وفي هذا الموكب ، واظهارا للغرض من المهرجان وهو اعلان السلام والشعور الودي تجاه جميع الذين كانوا يعيشون تحت حمايـة الإلاهة ، كان يلبس الاجانب المقيمون ملابس ارجوانية اللون ، ويصحبهم خفراء خاصون •

ووافقت الايرينيات على ان يصبحن مشاركات للإلاهة اثينا فـي الاقامة ، ومقاسمات ومالكات للارض مشتركات ، وعلى ذلك فهن يتخذن الآن لقب (ميتويكوي) (١٠١٢ ــ ١٠١٩) ، حيث يقبلن شعور المواطنين الودي ويعرضن شعورهن بالمقابل • وكان المزاج السائد في المهرجان الباناثيني هو الفرح ــ وليس انشاء الباخوسيين المتهتك ، بـل السرور

العميق ، المقيد . والوقور تقريبا ، اي ثمن الحزن والمعاناة ــ ولذلك تغني الايرينيات (٩٩٧ ــ ١٠٠١) :

الفرح لكم . الفرح بثروتكم المقدّرة بالعدل ،
الفرح للناس جميعا ، مباركين
بحب العذراء . التي تجلس
الى جانب عرش ابيها .
لقد تعلمتم الحكمة اخيرا .

وعند هذا تدخل مجموعة نساء الى الاوركيسترا وهن يحملن مشاعل مضاءة وثيابا أرجوانية اللون . وفي الوقت نفسه ترد اثينا التحية (١٠٠٤ ــ ١٠١٠) :

والفرح لكُنَّ بالمثل ! أسير أمامكن
الى الغرف المعدّة اريكن الطريق ،
مقودة بأضواء الخفيرات المقدسة .
هيّا معي ، هيّا ، ودَعنَ القرابين المهيبة
تسرع بكنّ فرحا الى بيوتكن في الارض .

وتكرر الايرينيات تحيتهن ، وتشكرهن اثينا مرة اخرى (١٠٢٢ ــ ١٠٣٢) :

أشكركن على كلمات التبريك هذه ،
والآن ، وبوهج المشاعل الرائعة المتألقة
أقودكن الى بيتكن تحت الارض ،
يخدمكن حراس مزاري ،

وبشكل محكم تماما . وللتلاقي
ينبغي أن تشخص كل عيون شعب ثيسيوس ،
هذه المجموعة من الوصيفات الوسيمات
والنساء المتزوجات والمبجّلات في السن
زيّنوهن جيدا بملابس ارجوانية اللون ،
ودعن هذه المشاعل المتوهجة تدل على الطريق
لكي يثبت شعور هؤلاء المقيمين الودّي .
في شجاعة ابنائكن الرجولية .

وعند هذه النقطة تأخذ فرقة الشبان مكانها في صدر الموكب. وترتدي الايرينيات ثيابهن الجديدة ; وفي ضوء المشاعل يخلي اللـون الاسود مكانه للون الارجواني . ووهج النور هذا وعيد الالوان همـا رمزان لائقان معا للاحتفال بانتهاء مشهد كانت الانوار توقد فيه مرة بعد اخرى ليس الا لتغرق في الظلام ، وكنا قد حدقنا فيه برغبة في مشاهد الرداء الارجواني الملطخ بالدماء .

ويبدأ الموكب بالتحرك ، وتدعو نساء الحرس الايرينيات الـى مصاحبتهن (١٠٤١ ــ ١٠٤٤) :

القلب الرؤوف والعطوف على شعبنا ،
هنا ، يا ايتها المقدسات ، هنا بسعادة ،
اتبعن المصابيح التي تضيء الطريق .
ألا فلتنشدن في النهاية ، هللويا !

وهذه «الهللويا !» رفعتها اولا كلايتيمنيسترا جوابا على الحارس ، وسمعتها كاساندرا من الايرينيات على عتبة البيت، ورفعتها كلايتيمنيسترا مرة اخرى على جثة زوجها ، ورفعها اصدقاء اوريستيس على جثتها هي.

والآن ، وهي تـسمع للمرة الاخيرة ، فهي تعني ان روح الانسان قـد انتقلت عبر المعاناة الى الفرح الحقيقي والدائم • وفي كلمات الثلاثية الختامية يجري تذكيرنا بالتناسق الجديد في السماء ، الذي تحققت عن طريقه هذه التغيرات في الارض — ان زيوس والموريات متصالحون •

والشاعر ، بادخاله هذا للسوكب الباناثيني ، أخرج قصته من ظلام الزمن السحيق الى النور المتألق لأثينا عصره • انهـا بدأت في الماضي البعيد والبربري ، وهي تنتهي هنا والآن • وكأنه في ختام الثلاثية قـد دعا مشاهديه الى النهوض من مقاعدهم والاستمرار في الدراما مـن النقطة التي تركها عندها •

وختاما ، فلأذكره بتجربة شخصية • ففي اليونان اليوم ، تتمتـع المسرحيات القديمة ، المترجمة الى اللغة الحديثة والمخرجـة في المسارح القديمة ، بشعبية هائلة ، وتجتذب في بعض المناسبات اكثر من عشرين الف مشاهد • وفي عام ١٩٦١ ، ألقيتُ محاضرة عن الاوريستية فـي اكبر مسرح عصري في اثينا ، حيث يسع الفاً وأربعمائة كرسي ، علـى جمهور يتألف من الفي شخص ، واستنتج العديد بأن المحاضرة مكررة مرتين • وقد صورت بمقتطفات ، بما فيها الخاتمة ، قدمتها الممثلـة الشهيرة (أباسيا باباثاناسيوس) وأعضـاء آخرون من فرقـة مسرح (بيرايوس) ، تصحبها موسيقى من السيـد (رونديريس) • وقد دل الاستحسان والتصفيق الصاخبان اللذان استقبلت بها الخاتمة ، والنور الذي تألق في العديد جدا من الوجوه المخضبة بالدموع ، علـى ان اليونانيين يستجيبون الى النداء المعاصر لشاعرهم الاعظم بعمق اليـوم كالعمق الذي استجابوا به قبل اربعة وعشرين قرنا • فليكونوا قضاته ، اليوم كما من قبل •

-١٦-

المسرحيات السابقة

كانت (الفرس) التراجيدية الثانية في رباعية كانت أولاها مسرحية (فاينيوس) وثالثتها مسرحية (كلوكوس بوتنايوس) ، وتبعتها مسرحية ساتيرية تسمى (بروميثيوس بيركايوس) • وتظهر هذه العناوين انه لم يوجد استمرار في الحبكة ، سواء أوجد ام لم يوجد اي تناسق في المعالجة • فقد عالجت كل مسرحية موضوعا مختلفا • وهذا هو اذن أقدم مثل معروف عن الرباعية غير المترابطة •

وقد اخرجت في عام (٤٧٢) قبل الميلاد ـ وهو العام الذي سبق نفي ثيميستوكلس ـ وقبل اربعة أعوام من ذلك ، كان (فرينيخوس) قد أخرج مسرحية تسمى (فوينيساي) عن موضوع الانتصار في سالاميس ، ولربما كان مع ثيمستوكلس بوصفه خوريغوساً له • ومما له مغزى بهذا الصدد اذن هو انه عندما شرح اسخيلوس الموضوع نفسه في مسرحيته

(الفرس) فقد كان خوريغوســـه بيريكليس الالكمايوني ، زعيـــم الديموقراطية اليونانية المقبل • وفي هذا الوقت كان بيريكليس شابا ، لا يتجاوز العشرين كثيرا ، وأحد أنصار كيمون ، الذي كانت عملياتـــه البحرية في آيونيا ترسي أسس الامبراطورية الاثينية• ويمكن الاستنتاج ان اسخيلوس ايضا دعم سياسة كيمون ، وهذا ينسجم مع الادلة الاخرى على انه كان ديموقراطيا معتدلا •

تبدأ المسرحية بمقطع طويل من جوقة الشيوخ الفارسيين ، الذيـــن تركوا في بيوتهم ينتظرون أخبار الحرب ، كما ترك الشيوخ في مسرحية (اغامسنون) • وريعان الرجولة الآسيوية ، المشتق من جميع مدن الشرق الغنية بشكل خيالي ؛ هالك • وهذه الكلمة ، المكررة باصرار ، تحمل في اليونانية ذلك المعنى المشؤوم وهو ان قوة آسيا وثراءها ميتان ، ولـــن يعودا • والشيوخ قلقون ، وزوجات وأمهات العاصمة الفارسية يحصين الايام • وقد سبق ان وصلهم خبر عبور الدردنيل ــ وكيـــــف أجبر زركسيس الملك الشاب إله البحر على تنفيذ امره بمد عوامـــات عبر المضيق ــ والى ذلك الوقت كانت قوة فارس لا تقهر ، ولكنها لم تجابه ابدا من قبل أخطار البحر : فهل من الممكن ان تكون الآلهـــة الشديدة الغيرة تقوم باستدراجها الى الدمار ؟ ان هذه نذير الشر التي تجعل العديد من العرائس يبللن أفرشتهن الزوجية المهجورة بالدموع •

وتكشف أم الملك ، آتوسا ، وهي على عتبة القصر ، بأن حلما قد أقضّ نومها ، ويبدو انه يعني بأنه في الوقت الذي سيطر فيه ابنها على آيونيا ، فان اليونان ستحطم النير • ورداً على اسئلتها القلقة يخبرهـــا الشيوخ بأن اثينا تقع على مسافة بعيــــــدة في مغرب الشمس ، وبأن الاثينيين ، الذين لا يخدمون اي طاغية ، سبق ان برهنوا على روحهـــم القتالية • ولا تدخل هذه الاجوبة اي ارتياح على أم ابن غائب •

ويجلب رسول متقطع الانفاس خبرا من سالاميس • وينفجر الشيوخ في عويل وهم يسمعون بالكارثة التي ستجعل من اسم اثينا الكريه خالدا الى الابد • ثم تطلب الملكة ، التي سيطرت على حزنها ، اسماء الناجين والقتلى • زركسيس لا يزال حيـــا ، الا ان آرتيمباريس وداداكيس وتيناجون ـــ ويعدد الرسول واحدا بعد آخر جميع تابعي الملك الذيـــن ماتوا ميتة رجل شجاع في المعركة • وقد نهبت مدينـــة اثينا ، الا ان رجال اثينا أحياء • وقد بدأت الكارثة عندما قامت روح منتقمة متنكرة بزي اثيني بخدع زركسيس وحمله على الاعتقاد بأن العدو كان على وشك الفرار (الفصل الثالث عشر) • وبعد وصف المعركة ، التي هي بطبيعـة الحال ، كما يزعم ، رواية شاهد عيان ، توبخ الملكة الشيطان الـــذي أغرى الاسطول وجره الى دماره ، وتتويجا لحزنها تسمع كيف أهلـك البرد والمجاعة القسم الاعظم من الجيش المتراجع •

ويواصل الشيوخ عويلهم ، مقارنين تهور الملك الشاب القاتل مـع حكمة ابيه ، وحين تعود الملكة بقرابين لضريح زوجها ، يتقمصـــون شخصية المجوسي الفارسي ، وهم ينشدون رقية او تعزيما لاستحضـار الارواح ، حيث ينهض شبح داريوس استجابة له من الارض ليسأل عن المصيبة التي اقلقت راحته • وتكرر الملكة له خبر سالاميس • وبعد ان يدين الربط بين طرفي الدردنيل باعتباره عملا ينطوي على الغرور ويثير غيرة السماء ، يعلن بأن سالاميس هي ليست النهاية ، متنبئا بإبـــادة الجيش الفارسي في السنة التالية • وعندما يذهب ، يغني الشيوخ ترنيمة مديح للملك المتوفى الذي رفع فارس الى العظمة ووسع امبراطوريتها من بحر الى بحر ، الا انه امتنع بحكمة عن محاولة المزيد • وفي نهاية الترنيمة يظهر زركسيس نفسه ، وهو ممزق في حزنه ، أشعث الشعر ، ممـــزق الثياب ، وتنتهي المسرحية بمناحة شرقية •

ان الموضوع الرئيسي في المسرحية ، اضافة الى الشعور الوطني الذي يحركها بأكملها ، هو الفكرة القائلة ان الثروة تخلق الغرور ، الذي تعاقب عليه الآلهة . وهذا ، كما رأينا ، هو التقليد الارستوقراطي القديم الذي رتبه اسخيلوس بصورة منهجية وفصّله ، مطورا معانيه الكامنة ومغنيا اياه بالصورة المرتبطة به ، الا انه لم يضف ، من الناحية الاساسية، اي شيء جديد . وتبدأ المسرحية بمقدمة ديناميكية تضع مقدمة رائعة لدخول آتوسا ، ونحن نحمل بالدافع ذاته الى أمام ، حيث الاسلوب المنمق الجذل في خبر الرسول . ولكن الجزء الاخير من المسرحية يفتر قليلا بالرغم من ان استحضار داريوس مؤثر من الناحية المسرحية . وأما من حيث مضمونها الفكري ، فالمسرحية أقل غنى من الأخريات . وقيمتها الفريدة هي انها تحتفظ لجميع الاوقات ، في شعر شاهد عيان ، بروح الشعب الأثيني خلال كفاحه ضد الاحتلال الفارسي ــ وهي ذات الروح التي أظهرها في ايامنا نحن .

اما مسرحية (سبعة ضد طيبة) ، التي اخرجت بعد خمس سنوات ، فقد سبقها مسرحية (لايوس) ومسرحية (يوديبيس) ، وتبعتها مسرحية (سفينكس) . ومن سوء الطالع انه من المشكوك فيه ما اذا كان الشكل الذي تتوافر به لدينا صحيحا او سليما . ومعظم دارسي أسخيلوس متفقون على ان المشهد الختامي بين البشير وأنتيغون مَنحول ، حيث أضيف في وقت كانت اعمال سوفوكليس ويوريبيدوس عن الموضوع ذاته قد جعلت من الصعب تجاهل مصير أنتيغون ، كما كان أسخيلوس قد فعل ذلك . ومن المحتمل على الاقل ان تكون هذه الخاتمة المنحولة قد أبعدت شيئا ما آخر .

كان لايوس ملك طيبة ، وقد تسلم وحيا من دلفي يأمره بأن «ينقذ الدولة بأن يموت بلا ذرية» . وتتذكر عبارات الوحي بشكل صريح في

المسرحية المتبقية . وهي تعني ان خير المجتمع يعتمد على سلوك الملك الذي يحكمه ــ وهي فكرة بدائية بحثناها بصدد الوظائف السحرية للنظام الملكي القديم (الفصل السابع) ــ كما تعني تناقضا بين مصالح الدولة ومصالح السلالة الحاكمة . وبوصفه ملك طيبة ، كان على لايوس ان يموت بغير ذرية ، ولكنه بعمله هذا كان سيتوقف عن الوفاء بالتزاماته بوصفه زعيم عشيرته . وعلى ذلك ، وهو «مغلوب بحماقة أقربائه» ، أصبح ، عن طريق جوكاستا ، أباً لإبن هو اوديبوس . وبعد أن يولد الطفل ، يتملك الخوف والديه ويتخليان عنه ؛ الا ان اوديبوس شبّ غير معروف عند والديه . واذ يعود الى طيبة شابا يجهل اصله ، يصادف أباه في الطريق من طيبة الى دلفي ، ويتنازل معه ، ويقتله . ثم ، وبعد ان يقرأ لغز السفينكس ، يعلن ملكا مكان لايوس ويتزوج الملكة الارملة . وبعد مضي بعض الوقت ، اكتشف الزوجان الملكيان حقيقة علاقتهما . وعند سوفوكليس ، يأتي الاكتشاف من طاعون عام نجم عن الجريمة المضاعفة التي ارتكبها اوديبوس . واذا استخدم اسخيلوس ، كما يبدو ذلك راجحا ، الرواية ذاتها ، فان ذلك قدم مظهرا لعمل الوحي وللمبدأ القائل ان صالح الشعب كان مودعا في شخص الملك . وبعد اكتشاف العلاقة شنقت جوكاستا نفسها . وقلع اوديبوس عينيه ، وأسره ولداه ، ايتيوكليس وبولينيكيس ، في سجن القصر . وفي يوم ما ، وعند تناول الطعام ، قدم الى اوديبوس ولداه فخذا بدلا من الكتف ، الذي كان (الجيراس) او الجزء المخصص للملك . واذ أغضبته هذه الاهانة ، لعنهم، ودعا عليهم بأن يقتسموا إرث ابيهم بالسيف . وبعد وفاته تنازع الشقيقان على الارث ، وفرّ بولينيكيس الى آرغوس ، حيث عاد بعد فترة وجيزة، كما فعل الطاغية هيبياس ، ليسترد إرثه بقوة الاسلحة الاجنبية . وهذه هي النقطة التي تبدأ عندها المسرحية المتبقية .

ان ايتيوكليس يعتبر نفسه ربّان الدولة • وفكرة سفينة الدولة هذه ، التي تتكرر طوال المسرحية ، يراد منها ان تعني بأن السفينة ستنجو من العاصفة طالما احتفظ الربّان برباطة جأشه • وبعد ان أبلغ ايتيوكليس باقتراب الغزاة من آرغوس ، يستدعي الناس للدفاع عن وطنهم الأم ، ثم ، بعد ان يسمع تقريرا من احد الكشافة عن خطة هجوم العدو ، يبتهل الى الآلهة من اجل النصر :

يا زيوس ، والارض ، ايتها الآلهة التي تحرس هذه المدينة ،
وأنت ، ايتها الارينية ، لعنة ابي الجبارة ،
تلطفوا على شعبي هذا ، اليوناني الكلام ،
بألا يقتلع من مآويه وبيوته
وبألا ينحني تحت نير العبودية !

والايرينية تعتبر هنا روح الملك السلفية ، ويعني التلميح الى شعب طيبة بأنه يوناني الكلام (والحقيقة فقد كان العدو طبعا يتكلم اللغة ذاتها) بأن علينا ان نعتبر الحملة ضد طيبة في ضوء الغزو الفارسي •

وبعد ان اسرع الملك الى الاشراف على التحصينات ، تمتلأ الاوركسترا بجوقة من النساء اللواتي استبدّ بهن الرعب ، وأخافتهن فكرة ان تكون الآلهة قد تخلت عن المدينة • ويرجع الملك لاعادة النظام وهو متضايق ولكن غير فاقد رباطة جأشه • واذ يوبخهن بعنف على انعدام ثقتهن ، يبتهل بسخرية بألا يتزوج ابدا امرأة في السراء او الضراء ــ وهذه نقطة مهمة بالنسبة للنتيجة ، لانها تعني بأنه غير متزوج ــ وتوضح النساء الخائفات بأن آذانهن مملوءة بجلبة العربات ، ويرد الملك بحدّة :

ثم ماذا ؟ ومتى انقذ بحّار يوما
سفينته من الغرق في الاعصار
بالهروب من الدفة الى المقدمة ؟

وبعد ان نجح اخيرا الى حد ما في تهدئتهن ، يعود الى مهمته في تنظيم الدفاع . وهناك سبعة ابواب او مداخل الى المدينة ، وسيعين سبعة قادة ، بضمنهم هو نفسه ، لتحصينها . وفي الوقت ذاته توجه النساء ترنيمة الى الآلهة ، يتوسلن اليهم فيها بألا يتخلوا عن متعبديهم ، ولا زلن يضربن على وتر الرعب والاهوال التي تقع في مدينة مفتوحة. وفي هذا ، ايضا ، يستنجد الكاتب بشكل واضح بذكريات الاحتلال الفارسي .

والى هذا الحد كان تسيير الملك للأمور باعثا على الاعجاب . واستعداداته العسكرية مهيأة بشكل جيد ، وقد احتفظ برباطة جأشه بالرغم من ان عدم انضباط غير المقاتلين هدد بعرقلة خططه . وقد هدّىء روعنا بحيث كدنا ان ننسى ان هذا القائد القدير هو تحت لعنة . اما الايرينية فهي نائمة .

الهجوم هو الآن على وشك الوقوع . قادة العدو يتخذون مواقعهم ، وكل واحد منهم في مدخل ، واذ هم يفعلون ذلك يوصفون بالتفصيل من موقع ملائم للمراقبة من قبل احد الكشافة لكي يعين الملك مدافعا مقابل كل واحد من المهاجمين . وعلى النقيض من قادة العدو ، الذين يتباهون بشكل صاخب ، ويتحدّون الرب والانسان على حد سواء ، يجيب الملك بتأكيد ثقته بعدالة قضيته .

لقد حطمت الآن خمسة من أبواب المدينة . وتجري مهاجمة السادسة من قبل المتنبيء (أمفياروس) ، الذي شجب بولينيكيس لحمله السلاح

ضد بلاده . ويتنبأ بموته هو في الحملة المشؤومة التي شارك فيها على الضد من ارادته وحكمه • ويجيب ايتيوكليس :

واأسفاه ، اي طالع شرير في الحياة الفانية
يوحد تقيا مع الآثمين !
وأسوأ الاشياء جميعا ، مهما يكن الواجب فيها ،
هي الرفقة الشريرة • انها لا تحمل ثمرا
انها غلة جنون تحصد في الموت
لعله لن يتحرك نحو الهجوم ،
ليس خلواً من شجاعة او روح جريئة ،
بل عالما بأنه يذهب ليلقى حتفه ،
فلو تحققت نبوءات ابولو ،
من يتكلم بالحق ، وإلا فليحتفظ كل بهدوئه •

واذ تذكر اسماء قادة العدو واحدا بعد آخر ، تتبعها اسماء أعدائهم، ندرك برعب متزايد بأن الشقيقين قد احتفظ كل منهما بالباب السابع لنفسه • وايتيوكليس هو وحده يجهل الامور ، ثم ، حين يدرك الحقيقة، تكون اللعنة السلفية مستيقظة فيه مرة اخرى ، مربكة احساسه بالصواب والخطأ :

يا سلالة اوديسيوس الجديرة بالرثاء ،
اخيرا انزلت لعنة أبينا ،
مفتونة ، مقرفة ، وكريهة •

ويرمى اسم (العدالة) ، الذي نقشه بولينيكيس على درعه ، على أسنانه :

أنا أضع ثقتي في العدالة ، وأنا نفسي
سوف اقاتله ــ وأي مناهض عادل كهذا ؟
ملك ضد ملك وأخ ضد اخ •

اما الآن فهو دور النساء في الدعوة الى العقل ، ويدعــون عبثا • وايتيوكليس مسّه الجنون :

لقد اندلعت لعنة اوديبوس •
صادقة جدا تلك الرؤى التي حكيت سلفا في الليل
كيف ينبغي ان نقتسم تركة ابينا !

وفي الوقت الذي يستمر فيه القتال في المعركة ، تراجع الجوقة كامل تاريخ اللعنة منذ الوقت الذي تحدث فيه ابولو الى لايوس الى اللحظة الراهنة ، ثم يأتي رسول بخبر الانتصار :

لقد انقذت الدولة ، الا ان الارض شربت دماء
شقيقين ملكيين ، ذبح كل منهما على يد الآخر •

لقد مات ايتيوكليس وبولينيكيس بلا ذرية • وقد دفنت الان الروح السلفية للسلالة المالكة ، لان السلالة ذاتها منقرضة • وقد حـُقق الوحي المعطى الى لايوس •

وفي محاولتنا تفسير المغزى العام للخاتمة ، يعوقنا وجود تناقضات سببها تحريف النص ، كما ان العناصر المنحولة ليس من السهل دائمـــا تحديدها • الا انه يبدو واضحا ، وكما قال اسخيلوس ، ان نهاية القصة كانت تتسم بانحراف بارز عن الرواية الملحمية ، التي كان قد سار عليها حتى الآن • ووفقا لتلك الرواية فقد كان للاخوين معا ابناء ، وان ابــن بولينيكيس قد ثأر لأبيه بحملة ثانية ضد المدينة ، حيث اسفرت عـــن

تدميرها • وهو بإنهائه القصة بموت الاخوين قلّص نطاقها من اربعة أجيال الى ثلاثة . وبذلك كيّفها لشكل الثلاثية • وبالطريقة ذاتها فقد اتى بخاتمة تبقى فيها الدولة على قيد الحياة في الوقت الذي تلاشت فيه العشيرة ؛ وبذلك صوّر مضامين الوحي الكاملة • فالملوك الطيبيون كانوا تحت لعنة سلفية انزلت مصائب متتالية بالشعب كما انزلتها عليهم انفسهم. ولذلك فمن الضروري ان يستبدل نظام الملكية البدائي . الذي تنطوي عليه اللعنة السلفية ، بتنظيم الدولة الاعلى ، الذي تفقد فيه العشائر هويتها في المواطنة المشتركة • وبسبب حالة النص ، فان هذا التفسير هو بالضرورة تخميني ولربما كان ناقصا. ولكن اذا كان من الناحية الاساسية صحيحا ، فهو يعني ان اسخيلوس كان يتجه فعلا نحو النظرية العامة عن اصل الدولة التي صاغها بعد تسع سنوات في الاوريستية •

ان اسطورة (آيو) سبق ان بحثناها في فصل سابق ، حيث ذهبنا الى ان امتداد هيمان البطلة الى مصر كان نتيجة ربطها بإيزيس المصرية ، إلاهة الأمومة والخصب (الفصل الثامن) • اما كيف ومتى طورت هذه السمة من الاسطورة فذلك ما لا نعرفه • ولربما قد نشأت في اساطير ديميتير الدينية الصوفية التي تظهر عليها ، في كل من آرغوس وايليوسيس ، علائم تأثير مصري ، او لربما أدخلها أوائل الفيثاغورسيين، الذي يمكن ان يقتفى في تعاليمهم الصوفية التأثير ذاته • وكان تأثيرها هو وضع أسطورة آيو في علاقة مع أسطورة اخرى ـ قصة بنات دانييس ـ لم تكن لها معها اية علاقة اصلية •

كان دانييس وايجيبتوس أخوين ، منحدرين من ايفابوس ، الابن الذي أنجبته آيو لزيوس في مصر • وكان لدانييس خمسون بنتا ولايجيبتوس خمسون ابنا • وقد حاول ابناء ايجيبتوس التزوج من بنات عمهم ، الا ان بنات دانييس رفضن وهربن الى ما وراء البحار ، الى

آرغوس بإدعائهن بأنهن منحدرات من آيو ، فقد وجدن باديء الامــــر حماية من مطارديهن ، الا انهن آرغمن في النهايـــة على التزوج منهم • وانتقاما من ذلك ، وبأمر من ابيهن ، فقد قتلن أزواجهن ليلة الزفـاف جميعا ، باستثناء واحدة هي (هايبيرمنيسترا) التي اصبحت ، بإبقائها على حياة زوجها ، جدة عليا لسلسلة شهيرة من الملوك • ويستفاد مما تذكره احدى الاساطير ، ان هايبيرمنيسترا قدمت للمحاكمة لعصيانها امر ابيها ثم أبرئت • ويستفاد من أسطورة اخرى ان أباها نفسه قد قاضـــــاه ايجيبتوس ، الذي جاء من مصر لهذا الغرض ، وأن العداء أنهي بتوسط لينكيوس ، الذي كان قد تزوج هايبيرمنيسترا • وقد ذُكِر ان دانييس قد جعل من تربة آرغوس التي كانت حتى ذلك الوقت قاحلة ، تربـــة «حسنة الإرواء» ، اي ، على ما يمكن افتراضه ، انه ادخل ممارسة الري • وآطلقت احدى بناته ، أميمونا ، اسمها على جدول في مستنقعات (ليرنا) ، حيث ذبح هرقل ، اشهر المتحدرين مـن آيو . العـدار (*) الليرني • ويقال ان (الدانايدات) ، او البنات التسع والاربعين اللواتي قتلن آزواجهن ، كفّرن عن جريتهن في الجحيم بصب الماء الى الابد في أباريق مثقوبة •

ويبدو ان قتل ابناء ايجيبتوس على أيدي عرائسهم يستند الـــى تشوش في الروايات • وكانت العادة في آرغوس ، كما في سبارطة ، أن تلبس العروس ملابس رجل • وكـــان من عادة الرجال في مهرجـــان الهايبريستيكا الارجيفـــي ان يلبسوا ملابس نساء ، وأن تلبس النساء ملابس رجال • وكما بيّن (هاليداي) ، يرتبط تبادل الملابس الجنسيـة ارتباطا خاصا بالتلقين ، والزواج والحداد ، وعلى ذلك يجب ان يفسر

(*) افعوان خرافي له تسعة رؤوس اذا قطع واحد نبت اثنان (المترجم).

بأنه يرمز الى تغير الهوية الذي هو ضروري من اجل ان يولد الفرد من جديد • ولكن هـــــذا يصعب ان يكون كافيا لتفسير السبب في ان الدانايدات كنّ على هذه الدرجة من الاسترجال بحيث قتلن أزواجهن • وقيل ان نساء آرغوس كن قد حملن يوما السلاح وأبَدنَ قوة من الغزاة الاسبارطيين في معركة مذكورة في جواب دلفي يبدأ بالكلمات «عندما ستقهر الاناث الذكور» • واذا كانت هذه حكاية شعبية ، وهذا هو مـــا يبدو الامر عليه . وليس رواية تاريخية ، فقد تكون لها علاقة مـــــا بالاسطورة ، لان هناك دلائل ــ لا ينكر انها ليست واضحة جدا ــ على ان الدانايدات كن يعتبرن محاربات • الا ان ما هو اكثر قربا من صميم الموضوع هو أسطورة نساء ليمنوس • فعندما نزل الارغونوتيون على تلك الجزيرة . وجدوها «محكومة بنساء» في ظل الملكة (هيبيسيبلي)، لان جميع نساء الجزيرة . باستثناء هيبيسيبلي ، التي ابقت على حياة ابيها (ثوس) . كن قبل ذلك بقليل قد قتلن آباءهن وآزواجهن • وقد فسر هذه الاسطورة (باخوفين) على انها تشير الى شكل ما من النظام الأمومي ، وان جريمة النساء الليمنوسيات تشبه شبها وثيقا جريمة الدانايدات • الا ان من غير الحكمة الالحاح على التفاصيل اكثر من هذا ، ولربما كـــان اقصى ما يمكن ان نقوله هو ان كلتا الاسطورتين نبعتا من تغيرات في مركز النساء الاجتماعي • والسؤال الذي يعنينا فورا هـــو كيف فسَّر اسخيلوس قصة الدانايدات ، وهنا نحن نقف على اساس أرسخ •

ان الرباعية التي كرسها لهذا الموضوع بدأت بمسرحية (المتضرعات)• وكانت التراجيديتان الاخريان هما (اجيبتوياي) و(الدانايدات) • امـــا المسرحية الساتيرية فكانت (أميمونا) •

كانت الدانايدات (اللواتي يؤلفن الجوقة) قد نزلن في آرغوس ، يصحبهن ابوهن • وبعد ابتهال الى زيوس ، إله المتضرعين والغرباء ،

يُعلِنّ الاصل الارجيفي لجدتهن العليا آيو ، ويتوسلن الى الآلهة ان يسحقوا مطارديهن بالرعد والبرق قبل ان يستطيعوا جلب سفينتهم الى الميناء • وفي الستاتيسمون التي تلي ذلك ، يكرر هذا الابتهال بشكل مكثف • ويطلبن من ايبافوس : «الرجل العجل» المولود من آيو ، وقوة زيوس الغامضة : معاقبة مطارديهن على صلفهم ، معلنات بأنه اذا خذلهن زيوس فسوف يناشدن زيوس الآخر : زيوس الموت ــ وبكلمة اخرى، سوف يقتلن انفسهن ــ وفي ذات الوقت لمح دانييس مجموعة من الآرجيفيين يقتربون ، فيأمر بناته بأن يأخذن مكانهن كمتضرعات عند المذابح المقدسة • ويعلن ان ابناء عمهن في سعيهم وراء هذا الزواج القَسري انما هم آثمون ، ويذكرهم بان على الآثم ان يقدم حسابا يوم الدينونة الى زيوس الموتى •

واذ يستجوبهن ملك آرغوس ، تكشف المتضرعات عن تحدّرهن من آيو ، زاعمات بذلك انهن من سكان آرجيف ، ويشرحن سبب هروبهن • ويناشدنه الحماية ، حتى ولو كانت قد تعني الحرب ، لان العدالة معهن ، ويضفن الى هذه المناشدة تهديدا مؤداه انه اذا حُرِمنَ من العدالة فسوف يشنقن انفسهن عند المذابح • واذ يجابه الملك هذا الخيار بين الحرب والتدنس يحتفظ بقراره الى ان تتوافر له فرصة لاستشارة شعبه •

ومرة اخرى تتضرع الدانايدات الى زيوس ، مذكرات اياه بإسهاب بتشرد آيو واكتمالهن في ولادة ايبافوس • ومن الواضح ان غرضهن هو اقناع زيوس بهذه الطريقة لانهاء تشردهن نهاية سعيدة بالمثل ، ولكنهن يتجاهلن المغزى الاعمق للمقارنة وهو ان آلام آيو تنتهي بزواج قسري من عاشقها •

ويعود الملك معلنا بأن اجتماعا للشعب قرر منح المتضرعات الحماية•

وقد أجيز القرار بموافقة شكلية برفع الايدي ، وهـــو مصاغ بعبارات قانونية مصممة للتذكير بالشروط الخاصة التي كانت تمنح بموجبها حقوق الاقامة للاجانب في اثينا المعاصرة • وتدعو الدانايدات بالبركات علـى المحسنين اليهن . الا ان ايحاء بصراع قادم يجـــري اثناء ابتهاجهن ، ويختتمن الدعاء بالتذكير بأن من واجب الابناء تكريم آبائهـــم ، وهو اشارة الى الامر الذي سوف يتسلسله في النتيجة من ابيهن •

وفي هذه المرحلة يلمح دانييس السفينة المطارِدة وهي تقترب من الميناء ، ويسرع الى المدينة طلبا للمساعدة • وبناته يائسات • ويصرخن: «المرأة لا شيء اذا تركت وحيدة ، وليس لديها ميل الى القتال او قدرة عليه» • وفي النتيجة سيكذّب هذا المثل • وبينما هن يرجون المـوت مفضلات اياه على الزواج ، يظهر بشير من ابناء ايجيبتوس ويأخـــذ بسحبهن من شعورهن • ويعترضه ظهور الملك مرة اخرى ، الذي يـرد على ادعائه بتملك الهاربات المشروع بالقول بأنه مرتكب لجريمة تدنيس المقدسات وبأنه لم يحترم الاصول القانونية المفروضة على الاجنبي في مثل هذه الظروف • وينسحب البشير مهددا بالحرب • وتبارك المتضرعات منقذهن مرة اخرى ، ويذكرهن ابوهن بالحاجة الى ان يتصرفن تصرفـا لائقا بالنساء في وطنهن الجديد • واذ يخرجن ، تمتزج ابتهاجاتهـــن بشكوك مؤداها بأن الزواج الذي تخلصن منه قد يفرض عليهن فـــي النهاية • ويؤدين ابتهالهن الاخير بلحن اكتسب مغزى دراميا بارتباطـه في المقاطع الاولى من المسرحية بفكرة مفادها ان زواجا كهذا سيكـون اسوأ من الموت • وواضح من هذا ومن دلالات اخرى انهن لم ينجحن في كسب ارادة زيوس الى جانبهن :

ـ هل هذا هو حقا غرض زيوس •••

ـ من يستطيع ان يستبين طريقه من متاهة الأجمة ؟
مظلمة هي في كل مكان ،
مسحوبة حتى على ظلمة (الليل) ، مظلمة امام الباحث الفاني •
ورغم انها تسقط أرضا سبع مرات
فستنهض مرة اخرى ، اذا تحققت ارادة زيوس
صعب البحث فيه هو عقله
مجهولة مغطى بالظلام ، طرق ملتوية في الغابة غير المطروقة•

ولماذا تعارض الدانايدات الزواج من ابناء عمهن ؟ ليس السبب هو ان خاطبيهن متعجرفون وعنيفون • ولم تظهر هاتان الخصلتان الا نتيجة رفضهن ، كما ينبغي ان تتذكر بأن التعارض في هذه المسرحيـــة بين استقامة النساء وخبث الرجال سيعقبه في المسرحية التالية عمل انتقامي اعنف • ومعارضة الدانايدات ذات طبيعة اكثر واقعية وتحددا : انها تقوم على اساس ان الزواج غير شرعي ، مدنس ـ اي ما نستطيع وصفه بأنه سفاح القربى ـ ومن الراجح اذن ان يكون الجواب عن سؤالنا كامنا في تاريخ الزواج اليوناني • والآن ، ففي القانون الاتيكي ، لم يقتصر الامر على مجرد عدم وجود مانع من الزواج من ابناء العم او الخال او العمة او الخالة ، وانما كان هذا الزواج يفرض بشكل قاطع في بعض الظروف ، التي شرحناها في الفصل الثاني عشر • فاذا ورثت بنت ، كما كانت تفعل ذلك في حالة عدم وجود ابناء ، كان يدعي بحق الزواج منها أقرباء ابيها الاقربون ، اي اخوته وأبناؤهم • ولم يكن يوجد ما يمنع الاب من ان يهب وريثته الحالية بهذه الطريقة قبل ان يموت • وبالتالي ، فان الزواج الذي اقترحه ابناء ايجيبتوس هو فعلا مسموح به وصحيح ، وسيصبح حقا قانونيا ما ان يموت دانييس • وبنات دانييس ، بهروبهن من مصر الى

آرغوس ، يحاولن بشكل واضح التملص من التزاماتهن • وهذا هــو الضوء الذي كان سينظر فيه حتما جمهور معاصر من المشاهدين الــى النزاع • واضافة الى هذا ، فواضح ان الكاتب كان حريصا على ان يطرح النزاع ني هذا الضوء ، لان من السمات المثيرة جدا في المسرحية هــي كثرة الاشارات الى اجراءات وتعابير القانون الاتيكي المعاصر •

والملك نفسه غير مقتنع بالاسس التي ترفض المتضرعــات الزواج بموجبها • فهو يقول : «اذا كان ابناء ايجيبتوس أسيادكن بموجب قانون البلاد ، ويدعون انهم أقرباؤكن المباشرون ، فمن ذا الذي يرغب فــي معارضتهم ؟» • وهذا المقطع ، بإشارته الواضحة الى قانون الوريثــة الاتيكي ، يوضح نية الكاتب بجلاء • كما يوحي ايضا بأن قانونا مماثلا كان يعتقد انه موجود في مصر •

وكان من مميزات الزواج المصري ممارســة الزواج بين الاقارب الأدنين بصورة واسعة ، ولاسيما في العائلة المالكة • وتوجد عدة شواهد مسجلة ، من هذه الفترة وفترات سابقة ، على الزواج من اخت او ابنة اخ • والى هذا ، يتفق علماء الآثار المصرية على ان هذه العادة نشأت عن الرغبة في الحفاظ على التوارث او الارث ، اللذين كانا ينتقلان معــا بصورة جزئية عن طريق النساء ، اي في النسب من الاناث • وكما رأينا، فان هذا هو الدافع الذي يكمن وراء قانون الوريثة الاتيكي • وسيكون من الخطأ ، طبعا ، الاستنتاج ، كما فعل (ريجواي) ، بأن للنزاع فــي مسرحية (المتضرعات) اية علاقــة بالتنازع بين الإرث من جهة الام والإرث من جهة الاب • وفي هذه المسرحية لا اثر لذلك • ومــع ذلك ، فان التماثل الذي ذهب اليه اسخيلوس بين الممارستين الاثينية والمصرية في هذه المسألة صحيح ، لان القانون الاتيكــي حدد ، في الظروف الخاصة بالوريثة ، زيجات من ذات النمط ولذات السبب ، كما حددها

القانون المصري • فالوريثة يجب ان تتزوج من قريب ابيها الاقرب •

وقد رويت قصة الدانايدات مرة اخرى من جانب اسخيلوس في مسرحية (بروميثيوس مقيّدا) ، حيث يقول انهن طلبن اللجوء الى آرغوس «هاربات من الزواج العائلي من ابناء العم» • والآن ، فهذه هي بالضبط الاسس التي يبرر بموجبها ابناء دانييس الزواج في مسرحية (المتضرعات) ـ فهم يدّعون بأن بنات دانييس هن لهم بالحق لانهن بنات عمهم ـ وعلى ذلك فواضح ان النساء يرفضن الزواج لذات السبب الذي يطالب به الرجال ـ لانهم من ذات العائلة ـ والمسألة تدور حول الزواج داخل الاسرة •

وكل ما هو ضروري لاكمال وجهة نظرنا هو ان نبين ان المسألة ذاتها تثبتها الدانايدات انفسهن بوضوح مماثل • والصعوبة هنا هي ان نص المسرحية محرّف جدا • ولكن بالامكان التغلب على هذه الصعوبة بالنصوص التي اقتبسناها توّاً لارشادنا •

وفي ابتهالهن الى زيوس في بداية المسرحية ، تعلن الدانايدات بأنهن هربن من مصر «اشمئزازا من زواج الاقارب الحرام من ابناء ايجيبتوس الحمقى الثرثارين» • وهذه هي الصورة التي اعاد بها (هيدلام) القطعة، مقابل (ويلاماوتيز) . الذي ذهب الى انها تعني ان الدانايدات يرفضن الزواج «لانهن ولدن لتحاشي الرجال» • ويؤيد تفسير هيدلام التعبير المتطابق تقريبا الوارد في مسرحية (بروميثيوس) الذي يتجاهله ويلاماوتيز •

ويقوم الملك باستجواب الهاربات • ويسأل: «ما هو طلبك اليّ ؟» • والجواب : «ان أُنقذ من الاسترقاق لابناء ايجيبتوس» • اما لماذا تعتبر الدانايدات الزواج من ابناء عمهن بمثابة استرقاق فسيظهر في الوقت المناسب • «هل لأنك تكرهينهن ، ام انك تعنين انه حرام ؟» •

ان المعضلة الاساسية تكمن في الاجابة عن هذا السؤال ، ومن سوء الطالع ان النص هنا محرّف ايضا . ويمكن الخيار بين تفسيرين . الاول هو هذا : «من سيعترضن على أسياد أحبوهن ؟» . والثاني هو هذا : «من ستشتري قريبا ليكون سيدها ؟» . ويمكن القول ردا على الاول بأنه يعني بأن الاعتراض على الزواج ليس لانه حرام ، وانما لمجرد ان الخاطبين غير مقبولين شخصيا . وهذا الرأي تناقضه مقاطع اخرى في المسرحية . واضافة الى هذا . وكما سنرى بعد قليل ، فهو لا يقدم نقطة انطلاق مرضية لملاحظة الملك التالية . وأنا مقتنع بأن التفسير الثاني صحيح . فالدانايدات يكرهن الزواج لانه حرام . وهو حرام لأن ابناء ايجيبتوس يسعون للزواج داخل الاسرة . لغرض الإرث الذي يرافق هذا الزواج . وتأكيدا لهذا الرأي ، يمكن ان نضيف ان ذات النقطة تماما يهتم بها يوربيديس في مقطع حيث تعطي (ميديا) ، التي هجرها (جيسون) : موقف المرأة من مركز الزوجة الادنى : «ان علينا ان نشتري الازواج بالنقود وأن نقبلهم سادة لاجسادنا» . هم يأخذون نقودنا ، ونحن نصبح عبداتهم .

لماذا ، اذن ، يكون الزواج داخل الاسرة مساويا للاسترقاق بالنسبة للنساء ؟ ان هذه النقطة تشرحها الدانايدات ردا على ملاحظة الملك التالية . فهو يقول : «ومع ذلك ، فبهذه الوسيلة تتضاعف الثروة الفانية» . تماما : ان الطريق الى تجميع الثروة هو ابقاؤها «في العائلة»، ولا يمكن تحقيق ذلك الا بإبقاء الوريثة «في العائلة» . وملاحظة الملك هذه تتوجه بشكل مباشر الى صميم المسألة ، وتدل على ان اسخيلوس فهم الاساس الاقتصادي لقانون الارث الاتيكي فهما صحيحا . ولا تستطيع الدانايدات ان ينكرن قوة هذا الادعاء ، الا ان ما يفعلنه هو الاشارة الى تأثيره في وضع النساء . «نعم ، وحين تتدهور الامور ، فان

الطلاق سهل !» . وبموجب قاعدة الزواج الاباعدي ، حيث كان الزوج والزوجة ينتسبان بالضرورة الى عشيرتين مختلفتين ، كان بامكان الزوجة، في حالة قيام مصاعب زواجية ، ان تلجأ الى اقربائها لحمايتها . ولكن حين تتزوج المرأة فردا من عشيرتها ، فان اقرباءها هم اقرباؤه وسينحازون اليه ضدها .

والسبب في ان هذا التفسير ، الذي هو اجمالا تفسير (ريدجواي)، لم يجد قبولا عاما يكمن في سوء فهم يتعلق بطبيعة الفن الاسخيلوسي. والنقاد الذين يحكمون في الشعر اليوناني من وجهة نظرنا نحن ، والتي تقف في معظمها بمعزل عن المشاكل الاجتماعية ، لان النظام الاجتماعي الذي نعيش في ظله هو نظام نخجل جميعا منه بوعي او غير وعي ، هم مرتبكون ليس بشكل غير طبيعي في العثور على شاعر معترف بعظمته يكرس فنه لعرض موضوع غير شعري جدا في الظاهر كمركز المرأة في المجتمع المعاصر . الا ان النقص يكمن في انفسهم . وفي نظر اسخيلوس، كان الصراع الاجتماعي وسيلة التقدم الانساني ، وكان احد الاشكال التي اتخذها ذلك الصراع ـ التنازع بين الجنسين ـ صفة جوهرية ، كما أدركها ، للانتقال من البربرية الى المدنية . كما ليس هذا كل شيء . ففي نظره ونظر معاصريه ، كان الصراع لا يزال مسألة حية . ولو لم يكن الامر كذلك ، لما كتب يوريبيديس مسرحية (ميديا) واريستوفان مسرحية (ليسيستراتا) . وكمسألة قانونية فقد حلتها قوانين صولون ، ولكن لا بد ان يكون قد تواجد العديد من معاصري اسخيلوس الذين كان أجدادهم قد عرفوا صولون . وحين نعود الى الدول اليونانية الاخرى ، الاقل تقدما من اثينا ، نجد ان المسألة ذاتها ـ اي قانون الوريثة ـ كانت لا تزال موضع صراع . ويكتب ارسطو ، مناقشا سبب الاضطرابات السياسية ، فيقول :

وبصورة عامة غالبا ما تورط المنازعات بين النبلاء كامل الدولة . كما في هيستيايا بعد الحروب الفارسية ، عندما تنازع شقيقان على تقسيم ميراثهم ، يؤيد احدهما القضية الشعبية لان شقيقه لم يبرز كشفا واضحا عن ثروة ابيه ، بينما وقف الآخر ، لكونه غنيا ، مع حزب الاغنياء ... وفي ميتيلينا ، أدى نزاع على وريثة الى سلسلة من المصائب ، بما فيها الحرب مع اثينا . وكان مواطن ثري ، هو تيموفانيس ، قد خلف بنتين ، حاول دوكساندروس دون طائل ان يزوجهما من ابنيه ، واذ رفضت محاولته أثار حربا اهلية وحرض الاثينيين ، الذي كان هو ممثلهم الرسمي . وفي فوكيس ، كان نزاع على وارثات بين مناسياس، والدِمانسون ، ويوثيكريتيس ، ابن اونومارخوس، هو الذي أشعل (الحرب المقدسة) .

اما وقد أدركنا الطبيعة الاجتماعية للمسألة ، فان بامكاننا ان نتعرف على جانبها الاخلاقي . دون وجود خطر سوء الفهم . وعن هذه النقطة يقول (دي . اس . روبرتسون) :

ماذا قصد اسخيلوس بالثلاثية ككل ؟ لا بد انه أثار مشكلة اخلاقية معينة شعر انها اساسية . وأنا لا استطيع ان أعتقد ، مع ريدجواي، بأن هذه كانت مسألة الزواج الاباعدي. وبقدر ما استطيع تتبع فكرة (المتضرعات) (وأنا لا أدعي لوجهة نظري اي شيء جديد) ، يبدو ان المسألة الفعلية هي حق النساء في رفض ارغامهن على الزواج . وكره الدانايدات للزواج يقصد منه في الحقيقة ان يكون متعصبا ... ولكنه مبرر من الناحية

الاساسية • وجريمة ابناء ايجيبتوس هي تصميمهم على فرض انفسهم على عرائس غير راغبات فيهم •

واذا كانت هذه هي جريمة ابناء ايجيبتوس ، فقد كانت جريمة فرضها في اثينا الديموقراطية نص صريح في القانون ؛ وكان يرتكبها بصورة منتظمة معاصرو الكاتب باعتقادهم الملائم لمقتضى الموقف وهو انهم بعملهم هذا كانوا يخدمون في وقت واحد الآلهة والدولة ومصالحهم انفسهم • ولم يدرس روبرتسون جيدا المعاني الضمنية لرأيه ، ومن المفيد ان نلاحظ ان تفسير المسرحية هذا ، الذي لا يزال التفسير الاكثر قبولا بصورة عامة ، يختل عند نقطة لها ذات طبيعة تفسير الاوريستية التقليدي (ص ٢٧٠) • ففي كلا التفسيرين فصلت المسألة الاخلاقية عن اطارها الاجتماعي • ويثير تأثير الملكية الخاصة في أخلاق الملاكين مسائل يحجم النقاد المعاصرون غريزيا عن استكشافها ، ولذلك «لا يستطيعون ان يعتقدوا» بأنه اساسي • ومع ذلك ، ففي نظر اسخيلوس ، الذي عاش في أوج الديموقراطية القديمة ؛ كان اخضاع النساء ليس عادلا فحسب ، بل مفضلا على الحرية التي تمتعن بها سابقا • وفي جميع مراحل المجتمع يكون قانون الاخلاق السائد هو في الوقت ذاته انعكاسا وتبريرا للنظام الاجتماعي القائم • والسبب في ان المصريين اعتبروا الزواج من أخت الشخص حقا وصحيحا هو ببساطة ان الملكية الخاصة في مصر كانت قد تطورت بشكل جعل من هذه الزيجات شيئا مفيدا • وفي حالة اسخيلوس فان الاساس الاجتماعي لأحكامه الاخلاقية واضح على نحو استثنائي ، لانه كان هو نفسه واعيا به • وعمل شاعر من هذا القبيل يطرح بالضرورة مصاعب امام أولئك الذين لم يحللوا علاقتهم ذاتها بالمجتمع المعاصر •

ان الدليل المتبقي لا يكفي لتبيان اكثر من الخطوط العامة لبقية

الثلاثية • ولكن اذا كان تفسيرنا للمسرحية الاولى صحيحا ، فـــان الخاتمة التي تجنح اليها الدراما واضحة فعلا الى حد ما • ولربما وقع اغتيال العرس في المسرحية الثانية ، والمحاكمة في الثالثة • وقد احتفظ بأبيات قليلة من خطاب الافروديت في مسرحية (الدانايدات) :

السماء الصافية تتوق بحب الى ان تجرح الارض ،
والارض العاشقة تتوق بالمثل الى ان تتزوج ،
ومن العريس السماوي تنزل زخات
على العروس ، التي تثمر للبشر
المواشي الراعية وحبوب ديميتير ،
وبنداوة نفيسة تنضج الفواكه
لاكتمال الخريف • وفي كل هذا لي نصيب •

ان هذه الكلمات نطقت بها ولا شك إلاهة الحب تبرئة لهايبير منيسترا التي كما تخبرنا مسرحية (بروميثيوس) ، دفعها الحب الى الابقاء على حياة زوجها • وأفروديت بالنسبة الى هايبيرمنيسترا كأبولو بالنسبة الى اوريستيس • والابنة التي اختارت الوفاء لزوجها على الاخلاص لأبيها لها ما يبرر عملها قانونا ، وبهذا الشكل فان مفهوم الزواج ، الذي ينطوي على اخضاع المرأة للرجل ، يرسخ رسميا •

وينجم عن هذا ان المتهم او المدعى عليه في المحاكمة كان حتمـــا هايبيرمنيسترا وليس دانييس • وهذا لا يعني ، كما يفترض روبرتسن، ان اسخيلوس اعتبر اخواتها اما بريئات بشكل واضح ، وإما ممن لا يمكن الصفح عنهم بشكل جلي • فقد كـــان الصراع بين الدانايدات وخاطبيهم ليس نزاعا بين الحق والباطل ، وانما بين حقين ، احدهمـــا

قديم والآخر جديد • وبطبيعة الحال ، فان تبرئة هايبيرمنيسترا تدين اخواتها ضمنا ، وسيكون هذا ، في رأي روبرتسن ، «خاتمة غير مقنعة» • ولكننا ، قبل كل شيء ، لا نستطيع التأكد من انها كانت الخاتمة ، لان الاصرار في المسرحية الاولى على فكرة مقاضاة الموتى يوحي باحتمال ان تكون الثلاثية قد اختتمت بإشارة الى مصير الدانايدات في العالم الآخر • وعلى اية حال فان الشيء المهم هو ليس ادانة الاخريات اللواتي تصرفن ، كالإيرينيات ، وفقا لمبدأ لم يستبدل الا الآن ، وانما تبرئة هايبيرمنيسترا ، التي تُبرّأ ، كأوريستيس ، باللجوء الى الضرورة التاريخية •

وقد رأينا في نهاية الاوريستية ان النظام القديم الذي مثلته الايرينيات لم يُلغَ فحسب ، وانما كُيِّف وأدمج في النظام الجديد ، وان اثينا قد ضمنت بهذه الطريقة مودّتهن • والآن ، ووفقا لما يذكره هيرودوتس ، فقد جلبت الدانايدات الى اليونان من مصر احدى عبادات ديميتيرا الصوفية • وبعد الغزو الدورياني ، اختفت هذه العبادة من معظم انحاء البيلوبونيس ، ولكنها بقيت في أركاديا ، وفي اثينا ايضا ، حيث ألفت اساس مهرجان الثيسموفوراي ، الذي كان مخصصا للنساء • وقد جُلب الانتباه الى هذا الدليل لاول مرة منذ اكثر من قرن ، الا ان المشرفين على تحرير اعمال اسخيلوس قد تجاهلوه ، ويعود الفضل في اعادة تأكيد اهميته الى روبرتسن ، الذي يلاحظ بصواب بأنه «قياسا على (الارواح المنتقمة) ، فلربما توقعنا ان نجد الحل النهائي ممثلا على يد اسخيلوس في اقامة مؤسسة دينية ما تصون كرامة النساء» • وعلى ذلك ، يذهب الى ان هذه الثلاثية انتهت بمؤسسة الثيسموفوراي، كما انتهت (الاوريستيه) بتأسيس محكمة الاريوباغوس• وليس هناك من شك يذكر في ان هذا الرأي صحيح • فقد وُفّق بين النساء ومركزهن المتغير بتأسيس مهرجان تمتعن فيه بحقوق خاصة •

وأكثر من هذا، فليس من غير المحتمل ان تكون الكلمة (ثيسموفوروس)، التي هي من نعوت ديميتير ، تشير الى مؤسسة الزواج • وبالرغم من ان هذا امر مختلف فيه ، كما يقول روبرتسن ، الا ان من المؤكد ان هذا النعت قد فسر بهذا الشكل من قبل الكتاب اللاتينيين • ومهما يكن من امر ، فقد كان للمهرجان مغزى آخر ما كان اسخيلوس ليغفل عنه • انه كان في جوهره ، كما بيَّنَت ذلك (جين هاريسن) ، عملا من اعمـــال السحر الزراعي ، وفي الروايات الاتيكية كانت ديمتير هي التي ادخلت فن الزراعة ، عن طريق عباداتها السرية • وقد سبق ان لاحظنا ، وفقـا للرواية الارجيفية ، ان الداناايدات كن يرتبطن بإدخال الري ، وعلى ذلك اذا كانت هذه الثلاثية قد انتهت بتأسيس الثيسموفوراي فبإمكاننا التأكد بأن اسخيلوس انتهز الفرصة ليؤكد ما كان في الحقيقة انجازا للجنس النسوي وحدثا تاريخيا بارزا في تقدم الجنس البشري المادي •

مراجـع

Halliday, W.R. ‹The Hybristika›. Annual of the British School at Athens, Vol. 16.

Ridgeway, W. Origin of Tragedy. Cambridge, 1910.

Robertson, D.S. The Problem of the Supplices. Classical Review, Vol. 38.

-١٧-

بروميثيا

قيل يوما ان بروميثيوس هو القديس حامي البروليتاريا •

وكان بروميثيوس هو الذي وهب الانسان هدية النار ، التي كان قد جلبها من الشمس مخزونة في ساق من نبات الشمّار • وهذه هي النواة البدائية للاسطورة ، التي يمكن اقتفاء أثرها في هذا الشكل او في أشكال اخرى في جميع انحاء العالم • وهي ذكرى شعبية اصيلة من اقدم الذكريات ، واحدى اكثر الخطوات ثورية في تقدم التقنية المادية• وقد وصف اهميتها بهذا الصدد (جوردن تشايلد) وصفا جيدا حيث يقول :

في التاريخ التطوري القصير نسبيا الذي تسجله الرمم المتحجرة لم يحسّن الانسان معداته الموروثة بتغيرات جسدية

يمكن استبيانها في هيكله العظمي . ومع ذلك فقد كان قادرا على تكييف نفسه لنطاق من البيئات اوسع مـن كل مخلوق آخر تقريبا ، وعلى ان يتكاثر بشكل لامتناهٍ اسرع مـن اي صنو قريب آخر بين الثدييات العليا . وان يتغلب على الدب القطبي والارنب البري والصقر والنسر في حركاتها الخاصة . وعن طريق سيطرته على النار ومهارته في صنـع الالبسة ، والبيوت ، يستطيع الانسان ان يعيش وأن يزدهر ، وهو يفعل ذلك ، من المنطقة القطبية الشمالية حتى خط الاستواء . وفي القطارات والسيارات التي يصنعها ، يستطيع الانسـان ان يبز أسرع الارانب البرية او النعامات . وفي الطائرات . يستطيع ان يحلق اعلى من النسور . ومع التلسكوبات يتمكن ان يرى أبعد مما تراه الصقور . وبالاسلحة النارية يستطيع ان يصرع حيوانات لا يجرؤ نسر على التصدي لها . ولكن النار، الملابس البيوت ، القطارات . التلسكوبات والبنادق، ليست ، وهذا ما يجب ان نكرره ، جزءاً من جسد الانسان . فهو يستطيع ان يتركها ويهملها ساعـة يشاء . انها ليست موروثة بالمعنى البايولوجي ، الا ان المهارة اللازمة لانتاجها واستخدامها هي جزء من ارثنا الاجتماعي ، اي نتيجة تقليد متراكـم عبر عدة قرون ، ومنتقل ، لا بالدم ، بل عبر الكلام والكتابة .

وفي أسطورة بروميثيوس ، اصبحت أولى خطوات التقدم التقني هذه رمزا للبقية . والنار تعبر عن الاساس المادي للمدنية . وهذا هـو العنصر الدائم الوحيد في الاسطورة . اما العناصر الاخرى فهي تتفاوت، لان لهذه الاسطورة تاريخا خاصا بها ، حيث يعاد تفسيرها باستمـرار

وتكيّف مع التطورات الجديدة في العملية التي تكون هي رمزا لها •
وكما رأينا ، كانت المراحل العليا من هذه العملية معتمدة على انقسام المجتمع الى طبقات غير متساوية اقتصاديا ــ الى طبقات كانت تقوم بالعمل الفعلي للانتاج وطبقات كانت تتمتع بالثروة والفراغ بهذا الشكل• وقد خلق هذا الانقسام بين الحكام الحاجة الى تبرير مركزهم الامتيازي، وبين المحكومين شعورا بالخيبة نابعا عن احساسهم بأن ثرواتهم وأوقات فراغهم لم تكن تساوي انتاجية عملهم المتزايدة • ولم يعد كافيا شكل الاسطورة البدائي ، الذي اقتصر على تسجيل اعتزاز المجتمع في نجاح صراعه الجماعي ضد بيئته المادية ، لانه كان قد برز الآن من الصراع بين الانسان والطبيعة الصراع بين الانسان والانسان • وعلى ذلك فقد كان معقدا ومفصلا •

لقد كان فلاحو (هيسيود) جياعا ومضطهَدين • ولماذا كان محكوما عليهم ان يكدحوا كدحا شاقا جدا وألا يتمتعوا الا بالنزر القليل ؟ لان الانسان كان قد اقترف إثما بحق أسياده • وكان الجنس البشري قد عاش زمنا ما بسعادة ، بلا مرض او عمل او حاجة الى كسب عيشه بعرق جبينه • وكان ذلك عهد (كرونوس) ، عندما كانت الارض غير المزروعة قد أخرجت من باطنها اشياء طيبة، تمتع بها الناس جميعا بصورة مشتركة• وبالطبع ، ففي تلك الايام كانوا قد امتلكوا هبة النار • وقد انتهت هذه الاحوال السعيدة نتيجة مسؤولية الاثم الذي ارتكبه بروميثيوس ، الذي حاول ، في مأدبة للآلهة ، ان يغش زيوس بالحصة الخاصة التي كانت مستحقة له • وعقابا على هذه الجريمة ، حرم زيوس الانسان من النار• وردّ بروميثيوس على ذلك بسرقتها من السماء واعادتها الى الانسان • وعندئذ خَوزَقه زيوس على صخرة ، حيث كان يعذبه نسر يزوره كل يوم ليفترس كبده ، الى ان حرره هرقل • وفي الوقت نفسه بقي الجنس

البشري يمتلك هبة النار ، ولكن أضيفت اليها هدية اخـرى : باندورا وعلبتها . التي حين أزيل غطاؤها نشرت في العالم الكدح والحـزن والمرض وعددا كبيرا من المصائب • ويقول هيسيود لمستمعيه : وهكذا ، لولا بروميثيوس . الذي استفز الآلهة وحملهم على قطع موارد عيش الناس ، «لكنتم قادرين على ان تنجزوا بسهولة في يوم واحد عملا يكفي لاعاشتكم سنة واحدة ، وعلى ان تعلقوا سكان سفينتكم في زاويـة المدخنة ، وعلى ترك حقولكم عاطلة» •

وهكذا ، ففي نظر فلاحي هيسيود ، كان بروميثيوس ، الرائد في فتح الانسان للطبيعة ، قد أنزل الى مرتبة مجرم عادي • وقد تعقد التقدم المادي بالصراع الطبقي بشكل أدى ، بالنسبة لهم ، الى تقليص مجموع السعادة البشرية بدلا من توسيعها • وكان هذا هو الشكل الـذي اتخذته الاسطورة في ظل الارستوقراطية • الا ان ذلك الشكل لم يكن نهائيا اكثر مما كانت عليه الارستوقراطية •

ان قصة بروميثيوس ليست مذكورة في القصائد الهوميرية ، كما لم تعالج ، على حد علمنا ، في الشعر الغنائي او الكوراسي • وهي لم تكن القصة التي تجتذب أفراد الارستوقراطية • وفي مدوناتنا ، فان شارحها بعد هيسيود هو اسخيلوس نفسه • ولكن في الوقت الذي كان تفسيره من خلقه هو الى حد كبير ولا ريب ، الا انه يحتوي سمات تركيبية معينة تمتد جذورها بشكل واضح الى تعاليم الاورفيوسيين الصوفية • ففي بداية الثلاثية ، يصف بروميثيوس نفسه بأنه مبعَد عن صحبة الآلهـة وبأنه على وشك ان يعاني كربا سيستمر ألوف السنين • وتوصف عذاباته طوال المسرحية الاولى بالاشارة الى فكرة (أنانكا) او (الحاجة) ، وفي نهايتها يلقى في الجحيم ، حيث يُرفع ثانية الى الارض في مطلع المسرحية الثانية • وأخيرا ، وبعد ان استمرت كفّارته فترة بلغ مجموعها ثلاثين الف

عام ، يعاد قبولـــــه في اوليمبيس . وهذا هـو «دولاب الضرورة» الاورفيوسي : الدورة التي تقود الروح من اللاهوت الى الولادة والموت ومن ثم ترجع بها الى اللاهوت . وعلى حد تعبير ايمبيدوكليس :

ان هناك وحيا من (الضرورة) ، امرا من الآلهـة ، قديما وأزليا ومختوما بإيمان كبيرة، بأنه كلما كان واحد من الارواح، الذي حصته هي طول الايام ، قد لوث يديه بإثم بالدم او اتبع التشاحن او حنث بيمينه ، فسوف يطرد مـن منازل المباركين عشرين الف فصل ، حيث يولـــد طوال الفترة بكل أحوال الاشكال الفانية ، مستبدلا طريقا متعبا بآخر ...
وأحد هؤلاء هو انا الآن ، منفيا وشاردا من الالهة ،
لانني وضعت ثقتي في التشاحن الاحمق .
أوّاه ، يا بني الانسان ، المحرومين بمرارة ، هذه هي
الزفرات والصراعات التي ولدتم منها !

ولكنهم يظهرون في النهاية بين الجنس البشري أنبياء وشعـــراء وأطباء وأمراء . ومن ثم يصعدون آلهة ، مرفوعين الى درجة الشرف ، متقاسمين مع الآلهة الاخرين مسكنا ومائدة مشتركين ، متحررين مـن تعاسات الفناء وبلا نصيب منها ، وغير مثقلين . واستنادا الى هـــذه الخلفية ، تبدو آلام بروميثيوس الاسخيلوسي وهي آلام الانســـان نفسه ، المطرود من السماء الى الشقاء والموت ، والمكتوب عليه في ذات الوقت الانبعاث .

لقد كانت عبادات بروميثيوس قليلة وغير هامة . وفي اثينا ، كان يتعبد في الاكاديمية الى جانب الإلاهة اثينا وهيفيستوس ، اللذين كانا

مرتبطين ارتباطا وثيقا بالصناعات اليدوية التي كان الانسان قد تعلمها من سيطرته على النار • وكان الثلاثة يكرّمون جميعا بسباقات المشاعل ، التي كان يخوضها الايفيبوي من نقطة معينة خارج المدينة الى احـــد المذابح داخلها . حيث كان الغرض من ذلك تجديد النار المقدسة • وفي الاصل : ربما كانت هذه السباقات اختبارات تلقين ، شبيهة بسباقات المشي في اوليمبيا •

وكان بروميثيوس قد انقذه هرقل ، وهو شخصية اكثر بروزا فـــي الاساطير والديانات معا ، وآكثر تعقيدا مما يمكن بحثها تفصيلا هنا • وكان هرقل ابنا لزيوس من الكمينا ، التي هي من سلالة آيو ، وقـــد ارسل الى العالم ليطهره من الهولات البدائية لمنفعة الانسان • وكان من آخر أعماله الهبوط الى الجحيم ، التي أعد نفسه لها بالتلقين فـــي ايليوسيس ، وبعدها صعد الى السماء حيث تزوج (هيبا) ، ابنة هيرا • وهنا ، ايضا ، نستطيع ان نلمس آثار التعاقب الصوفي القائم علـــى الصراع ، الموت ، والتأليه •

واذ نعود الى مسرحية (بروميثيوس مقيـــدا) ، فان السؤال الاول الذي نسأل انفسنا هو اين يريد الشاعر ان تكمن عواطفنا في التضاد بين الخصمين ؟ انه سؤال حيوي ، لان الاجابة عنـــه تكشف بالضرورة الكثير عما هو في الشاعر ونقّاده معا• واذا كان قراء المسرحية العصريون قد أجابوا اجابات عن هذا السؤال تتفاوت تفاوتا شديدا فليس ذلك ، كما سنرى ، لان هناك اي غموض في المسرحية ذاتها ، وانما لانهـــم اضطروا ان يكشفوا ، في مسألة حاسمة جدا كمسألة التمرد على النظام القائم ، عن موقفهم بالذات من المجتمع المعاصر • وهكذا عبر (ماهافي) عن نفسه كما يلي :

لقد كانت السيادة الاستبدادية هي مثل اليوناني الاعلى ؛ وقد اعتقدت معظم الامم بأنها ليست متوافقة فحسب مع منزلة (الاب) الكبير الذي يحكم العالم بل متطابقـة معها • وما من اثيني ، مهما كان تعاطفه مع بروميثيوس ، كان يفكـــر بلومه بسبب فرضه سلطته وتحطيمه كل مقاومة لارادته •

ان ما فعله (ماهافي) هو اغماض عينيه عن التقاليد الديموقراطية ، وطرحه مثل (ماهافي) الاعلى وكأنه مثل اليوناني الاعلى ــ مثـــال الارستوقراطية الانكليزية ــ الايرلندية الاعلى ، كما صاغه فرد آخر من الطبقة ذاتها . وهو (إدموند بيرك) :

ان النظام الجيد هو اساس جميع الاشياء الجيدة • ولكي يكون الشعب قادرا على الاكتساب ، فان عليه ان يكون سهل القياد مطيعا ، بلا خنوع • وينبغي ان يكون للقاضي احترامه وللقوانين سلطانها • ويجب ألا يجد مجموع الناس مبادىء الخضوع الطبيعي عن طريق الحـــذق او الدهاء بعيدة او مستأصلة من أذهانهم • وعليهم ان يحترموا الملكيـة التي لا يستطيعون المشاركة فيها • وعليهم ان يكدحوا ليحصلوا على ما يمكن الحصول عليه بالكدح • وحين يجدون ، وذلك ما يرونه بصورة عامة ، ان النجاح لا يتناسب مع الجهد ، فيجب أن يُلقَّنوا عزاءهم في الحصص الاخيرة للعدالة الازلية •

انني لا أزال أتذكر ارتياعي حين طلب الي ، بعد قراءة المسرحيـة لاول مرة ايام الدراسة ، أن أقبل وجهة نظر (ماهافي) ، وأتذكر العون والتشجيع اللذين استمديتهما من كلمات (شيلي) المشجعة : «الا انني في

الحقيقة كنت أبغض خاتمة تراجيدية على درجة بالغة من الضعف كخاتمة التوفيق بين البطل ومضطهِد الجنس البشري» • وفي وقت لاحق سندرس معالجة شيلي للأسطورة ، وسنرى اين ولماذا اختلفت عن المعالجة الاسخيلوسية • ولكن ، بقدر ما يتعلق الامر بالمسرحية الاولى من الثلاثية ، كان حدس شيلي سليما — فهناك زيوس هو «مضطهد البشر» ونصيرهم «العدوّ الغادر» • والسبب في ان شيلي اقترب الى الحقيقة اكثر مما اقترب منها الباحثون المختصون الكلاسيكيون ، الذين درسوا الادلة على نحو اكثر تدقيقا بكثير مما فعله هو ، هو ان شيلي، شأنه في ذلك شأن اسخيلوس نفسه ، كان ، ما لم يكونوا هم عليه : شاعرا ثوريا •

ان زيوس طاغية وحكمه هو حكم طغيان • ونحن نعرف هذا من وزرائه ، الذين هم فخورون بهذا الطغيان (١٠) ، ومن بروميثيوس ، الذي يشجبه (٢٨٣ ، ٣٢١ ، ٣٧٣ ، ٧٦٢ ، ٧٨٢ ، ٩٤١ ، ٩٧٤ ، ٩٨٨ — ٩٩٠ ، ١٠٢٨) ، ومن حوريات البحر اللواتي يأسفن بشدة له (٢٠١) ، ومن إله البحر ، الذي يذعن له (٣٢٦) • وهذه الحقيقة لا نزاع فيها ، والسؤال الوحيد هو كيف اراد الكاتب المسرحي ان يفسرها جمهوره •

لقد راجعنا تاريخ النظام الاستبدادي في اثينا في فصل سابق ، حيث رأينا كيف اصبح الطابع التقدمي لمرحلته الاولى عند استعراض ماضيه مُعَمّى بالاتجاهات الرجعية التي تكشّف عنها في النهاية (الفصل السادس) • كما رأينا ان هيبياس المنفي كان يقف الى جانب الفرس ، حين كان على الاثينيين ان يواجهوا انزالا فارسيا في ماراثون• ووجد الديموقراطيون الاثينيون ، حتى بعد ان أزيل الخطر الفارسي ، ان من الضروري ان يظلوا متيقظين دائما لخطر احتمال قيام ارستوقراطي

متنفذ ، من الميلتياديين او الالكيباديين ، بمحاولة للحصول على المركز الذي كان هيبايس قد خسره • وكانت النتيجة هي ان مفهوما عن الحكم المطلق تقليديا نما في القرن الخامس في اثينا وهو متحل بجميع الصفات التي كان الناس قد عانوها في هيبياس • وفي النهاية ، وبسبب من تجارب مماثلة في اماكن اخرى ، وبسبب من التأثير المهيمن الذي مارسه كتاب اتيكيون في تطور الفكر ، فقد اصبح هدا التقليد ثابتا • وهكذا يصف هيرودوتس الحاكم المستبد بأنه عديم المسؤولية ، وله جنوح خطر نحو الغرور ، وشكوك في خيرة مواطنيه ، وقبل كل شيء فهو عنيف ، مغتصب للنساء • ويكرر ثيسيوس حججا مشابهة في نزاعه مع البشير من آرغوس في مسرحية يوريبيديس (المتضرعات) • فالطاغية هو قانون بالنسبة لنفسه ، وهو يبتر كبار مواطنيه اذا شاء كما يبتر أطول سنابل القمح (ووفقا ، كما يخبرنا هيرودوتس ، للنصيحة التي كان يعطيها فعلا طاغية الى آخر) ، وأخيرا ، لا يستطيع الآباء صيانة بناتهم من اغتصابه •

وكان كتاب التراجيديا سريعين طبعا في تحويل هذا التقليد الى شيء مفيد درامياً • ففي مسرحية (انتيغونا) مثلا ، تعلن البطلة بمرارة ان من امتيازات الحكم الاستبدادي ان يفعل ويقول ما يشاء • وفي مسرحية (الفُرس) ترفع (آتوسا) ابنها المهزوم فوق متناول التأنيب الشعبي مع تذكرة لها مغزاها وهي انه غير مسؤول امام شعبه • وفي مسرحية (اوديبوس تيرانوس) ، وكما بيّن (شيبارد) ، يجري ابراز صفات الملك بشكل ينذر بالشؤم ، بعدد من تلك التلميحات التي وان كانت في معظمها ضمنية ، الا ان جمهورا ، كان قد جعله اسخيلوس يألف هذا الاسلوب ، قد قيّمها بسهولة •

ان الوزيرين اللذين عينهما زيوس لحراسة بروميثيوس الى مكان حجزه هما (القوة) و(العنف) ، حيث يرمز الاول الى قوته ، بينما يعبر

الثاني عن الطريقة التي يمارسها بها • وهو يوصف بأنه قاس (٢٠٢ ، ٣٠٤) ، وعديم الشعور بالمسؤولية (٣٤٠) ، وغير دستوري ، لا يعترف بأية قوانين غير قانونه : وقانون لنفسه (١٥٩ ، ٤١٩ ، ٢٠٢ — ٢٠٣) ، وهو متشكك بأصدقائه — وهي صفة توصف بصراحة بأنها صفة الطاغية المميزة (٢٤٠ — ٢٤١) — وعنود ولا يتأثر بالاقناع (٣٤ ، ١٩٩ — ٢٠١ ، ٣٤٩) • وفوق كل ذلك ، فهو يكشف عن اغتصابه في معاملته لآيو (٧٦١ — ٧٦٣) • وقسوة هذه القصة ليست مغطاة بشعر غنائي ، كما هو الحال في مسرحية (المتضرعات) • بل على العكس ، فالشاعر يبدو حريصا على ان يملأ جمهوره ، كما هو شأن حورياته ، بالشعور بالاشمئزاز • فقد حاول زيوس الاقناع اولا ومن ثم التهديدات لاخضاع الفتاة الشقية لإرادته • وهذه هي الطريقة التي كان يتوقعها منه بروميثيوس ، وهي نموذج خاص بالطاغية • وعلى ذلك فليس هناك من شك في الجهة التي كانت عواطف الجمهور الأثيني قد اتجهت اليها حتما — او ، في الحقيقة اي جمهور شعبي — حين ينهي تنبؤه بمعاناة آيو المقبلة بصرخته المنفعلة (٧٦١) :

انت ترين كيف يتصرف
تجاه الجميع على حد سواء ، طاغية لا انساني ، قاس •

ولهذه الادلة ، فمن الواضح تماما ان أولئك النقاد الذين يستطيعون اصدار حكم ضد البطل الذي تجاسر على التمرد على هذا الاستبداد الفظ قد تأثروا بعوامل مستقلة عن نية الكاتب •

ان وصف وتحليل بروميثيوس اكثر تعقيدا • ففي المشهد الافتتاحي، ينظر شخص (العنف) الشرير الى السجين بصمت • ووزير (القوة)

يهاجمه بإهانات فيما يحث هيفيستوس على مهمة ربطه ، ولكنه لا يخاطبه بصورة مباشرة الى ان يوجه اليه سخريته المهنية الاخيرة (٨٢ ـ ٨٧) . وهيفيستوس وحده تملؤه الشفقة . وهو يعترف بجريمته ، التي تأثر بها في الحقيقة بوجه خاص بوصفه إله النار . ومع ذلك فهو ينسى خسارته في التعاطف مع المتعذبين او المعاقبين . وبروميثيوس صامت .

ان رأفة هيفيستوس هي رأفة القريب بالقريب (١٤ ، ٣٩) . والشعور ذاته هو الذي يدفع زيارة حوريات البحر (١٣٠ ـ ١٣١) ، ويتظاهر به ابوهن (البحر) (٣٠٥ ـ ٣٠٦) ، الذي ينصح بالاعتدال ، ولكن علـــى اساس من الخضوع للسلطـــة يميزه كنمط من المتقلبين او المطيعين ، ويصرفه بروميثيوس باحتقار مغطى بأدب . ولم تقل الحوريات شيئا في حضور أبيهن ، ولكنهن يرغمن بعد مغادرته على الاعتراف بأن التعاطف لديهن ايضا يمازجه استنكار . والى هنـــــا تمت السيطرة على غضب بروميثيوس . ولكننا نشعر اثناء حواره مع آيو بالغضب يتصاعد فيه ، وحين تغمر ضحية العدو موجة من الالم المبرح المفاجـــيء ، يكون رد الفعل مباشرا . وتنحني الحوريات ، وهن مروّعات مرتعبات ، فـــي استسلام يائس . ومن جهة اخرى ، يقذف بروميثيوس خصمه بخطاب مملوء بالشجب والتحدي الطائش . ومع ذلك فهو لا يفقد تعاطفنا ، لان هذا التغير في الموقف يتطابق مع رد فعلنا نحـــــن تجاه قسوة زيوس الظاهرة في منظر آيو . وتحتج الحوريات ، ولكنه لا يسمع نداءاتهن . ويصل هرميز بطلب حاسم هو أن يكشف السر الذي يهدد به هيمنـــة سيده . ومع ذلك ، فحتى هرميز ، حين يدرك حالة السجين العقلية ، ينضم الى الحوريات في محاولة مخلصة للتحاور معه لإقناعه . الا ان بروميثيوس ، الذي تلقى اهانات (القوة) بسكوت ، يهاجم هرميز نفسه بإهانات ، وفي تحقيق درامي لابتهاله (١٦١ ـ ١٦٨ ، ١٠٨٣ ـ ١٠٨٦) ،

يُلقى في هاوية الجحيم • والتأثير المتناقض للمشهد الاخير في الجمهور منعكس بأمانة في موقف الجوقة ، التي هي في الوقت الذي تستنكر فيه بشدة ، كما يفعل ذلك هرميز ، انعدام ضبط النفس لدى السجين ، ترفض مع ذلك التخلي عنه •

وهكذا ، فان المسرحية تنتهي بإخفاق تام في الوصول الى حل • حاكم الآلهة هو طاغية ، وراعي الجنس البشري عنّفه اصدقاؤه لتجاوزه حدود الاعتدال • وغضب زيوس هو مرض ، وعدم انضباط بروميثيوس هو مرض • وهذا المجاز ، الذي يقصد به طبعا ان يوحي بالامل في شفاء قادم ، يتكرر مرة بعد أخرى طوال المسرحية • ان العالم متنافر ، ولا يستطيع تقويمه الا تغيير في كلا المتخاصمين •

وفي الوقت الذي يصر فيه اسخيلوس على طبيعة حكم زيوس الاستبدادية ، فهو حريص على ان يطبع في أذهاننا في البداية ، وعلى ان يذكرنا بصورة متواصلة ، بأن قوته جديدة • وهو يعرض العالم لا كما هو عليه الآن ، بل كما كان عليه في البداية • وفي مجرى ثلاثين الف عام ، سيتصالح الخصوم ، بعد ان علمتهم التجارب • وهذا هو ما يخبرنا به في وقت مبكر من المسرحية بروميثيوس نفسه ، الذي لم تكدر رؤيته بعد العاطفة (٢٠٦ ــ ٢٠٨) • وفي وقت لاحق ، واذ ينسى نبوءته هو ، لا يستطيع ان يتنبأ بأي شيء مقدور لعدوه غير الخراب (٩٣٩ ــ ٩٥٩) • الا ان الحقيقة تعود للظهور في محاورته الاخيرة مع هرميز (١٠١١ ــ ١٠١٤) • واذ يجري تذكير بروميثيوس بسعادته المفقودة ، تندّ عنه صرخة حزن عفوية ــ «آه لي !» ، حيث يستغلها هرميز بسرعة:

«آه لي !» ــ تلك هي صرخة لا يعرفها زيوس •

وعند ذكر اسم عدوه ، يعود بروميثيوس ويتمالك نفسه :

ان الزمن سيعلّم كل شيء ، بينما هو يطعن في السن •

ولكن هرميز مستعد مرة اخرى بجوابه الحاد :

نعم ؛ لا يزال عليك انت ان تتعلم اين تكمن الحكمة •

وبهذا التلميح الى مبدأ الحكمة عن طريق المعاناة ، فان الاشارات المتناثرة الى تغير وشيك الوقوع في كلا الخصمين تجمع سوية بصورة لها دلالاتها البالغة في نهاية المسرحية •

وواضح ، اذن ، ان كلا الخصمين سيتعلمان في النهاية عن طريق التجربة • ولكن هذا بطبيعة الحال هو أبعد ما يكون عن القول بأنه ما كان على بروميثيوس ان يفعل ما كان قد فعله • وصحيح ان الحوريات يصحن بأنه قد ارتكب اثما ، بعد ان هزهن تطاوله حين يسمعن بسرقته النار • ولكن اذا كان الامر كذلك ، فهو إثم انقذ البشرية من الفناء • واذا بقي اي شك آخر في موقف الكاتب من هذه النقطة ، بددته روايـــة البطل لنتائج إثمه بالنسبة لمصير الانسان (٤٥٨ ــ ٥٢٢) :

اصغوا الآن الى آلام البشر ،
الذين غرست فيهم ملكة العقل ،
أولئك الذين كانوا يوما كالطفل بُكماً وبلا ادراك •••
في البدء ، وبعيون للرؤية ، كانوا يرون عبثا ،
وبآذان للسمع ، كانوا لا يسمعون شيئا ، يتلمسون
حياتهم في خدر أشبه بحلم ، ودون مهارة
في النجارة او صنع الآجر ، كالنمل
يقبع في ثقوب ، غير متمرسين في علائم تفتح الازهار
والثمار والصقيع ، ومن يوم الى يوم

يكدّون دون احتياط للغد ؛
الى ان رسمت انا مدارات النجوم المعقدة ؛
واخترعت الرقم : تلك الاداة
البالغة الروعة ، والابجدية ،
اداة التاريخ وسجل تقدمهم ؛
وروّضت الحيوانات على الكدح في النقل والعمل العادي
وشددت خيول الغنى الطافرة ،
وهي طوع الزمام ، الى العربات ؛
وبنيت مركبات بغير دواليب
لها اجنحة من كتّان لتحملهم فوق المحيط غير المطروق ...
ولا يزال هناك مزيد من الامور المثيرة للاعجاب
في مستودع تخيلي ،
وهذا قبل كل شيء . وحين صرعهم المرض ،
وهم لا يملكون علاجا عشبيا ليعطوه
بشكل مراهم وجرعات ، تلّفت قواهم المهملة
في جهل يثير الكآبة ،
الى ان ركّبت لهم أدوية رقيقة
لاسلحهم في الحرب ضد المرض ...
وأخيرا ، من سواي يستطيع ان يفخر بأنه فتح
بيوت كنوز الارض الخفية الغنية
من الحديد والنحاس والبرونز : والفضة والذهب ؟
هذا هو سجلي . خذوه باختصار :
ان بروميثيوس أنشأ كل فنون الانسان .

ان كل هذا يعود ، كما تبين ذلك تفاصيل هذا المقطع ، الى تقليد الفيثاغورسيين — وهو نفس التقليد الذي استشهدنا به استنادا الى رواية هيبوقراط عن اصل الطب (الفصل الثاني عشر) ؛ والشيء المثير فيه هو ماديته الجريئة • وقد كان مزج المادية بالصوفية هذا ، الذي سبق ان لاحظناه في أعمال اسخيلوس ، سمة مميزة لاوائل الفيثاغورسيين بشكل واضح • ونجده مرة اخرى في ايميدوكليس ، الذي لم يمنعه اهتمامه العميق بإحياء الممارسات والمعتقدات السحرية من تقديم اسهامات ملموسة للعلم • وأما كيف وفّق الفيثاغورسيون هذين الجانبين مع تعاليمهم ، فذلك ما لا نعرفه • الا انه يبدو واضحا انه بينما كان الاول مأخوذا عن الحركة الاورفيوسية ، التي كانت حركتهم وليدة لها ، فقد كانوا مدينين بالثاني لنشاطهم السياسي في المرحلة الاولية من الثورة الديموقراطية ، ومنهم نقل عن طريق هيبوقراط والسوفسطائيين الى ديموكريتوس وابيقور •

ان الشكل الصوفي الذي غطى به اسخيلوس هذه الاسطورة لا يخفي مغزاها الاساسي — بل بالعكس ، فقد أعيد تفسير الاسطورة بحيث يجسد المبدأ الذي تقوم عليه وهو ان التقدم حصيلة الصراع — واذا كان بروميثيوس قد أخطأ ، فلأن الانسان عرضة للخطأ ما دام هو يسعى • وأبطال اي نظام جديد يسيئون حتما الى النظام القديم • واذا كان على بروميثيوس ان يعاني ، فلأن الانسان نفسه قد عانى في مجرى تقدمه • ولولا المعاناة لأعوزه الحافز الى الاختراع • والحقيقة التي كان كل من اسخيلوس وهيبوقراط يسعى ، بطرق مختلفة ، للتعبير عنها ، كانت حقيقة ادركها في الممارسة الانسان البدائي منذ اولى مراحل تاريخه ، وقد صاغها في النهاية ابيقور بالكلمات :

ان الطبيعة البشرية تعلمت بدافع قوة الظروف الصرفة ،

وتسلّم هذه الدروس العقل البشري ، ونقّاها وأكملها .

ان فكرة التقدم البشري التي عبر عنها اسخيلوس هي ليست اذن بعيدة جدا عن موقف المادية الجدلية الحديثة :

الى ان نحصل على معرفة قوانين الطبيعة ، التي تتواجد
وتعمل مستقلة عن أذهاننا ، فنحن عبيد «الضرورة العمياء» .
وحين نكسب معرفتها ، نكسب الهيمنة على الطبيعة .

ان الذكاء ، موهبة بروميثيوس ، قد جعل الانسان حرا ، لانه مكّنه من ان يستوعب ، وبذلك أن يكبح ، قوانين الطبيعة . والحرية تتكون من فهم الضرورة .

ولا تحتوي مسرحية (بروميثيوس) الا قدرا ضئيلا جدا من الحركة، ومع ذلك فهي درامية بشكل مكثف . ومن الناحية الفنية ، فهي أنضج المسرحيات المتبقية . وتبرهن على ان اسخيلوس قد اصبح في أواخر حياته سيدا مطلقا في صنعته . ولذلك فهي جديرة بالتفحص بشيء من التفصيل من هذه الناحية .

ان المسرحية تحتوي ثلاث فواصل بارزة . الاولى هي في نهاية الбارودوس (٢٠٨) بعد تنبؤ بروميثيوس الاول بالمستقبل ، الذي يحملنا، دون كشف الخطوات المتوسطة ، الى المصالحة النهائية ، وفي ذات الوقت يسمح بسقوط الاشارة الاولى الى سره . والفاصلة الثانية تأتي في نهاية القصة الثانية (٥٤١) ، حيث يمتنع عن الادلاء بهذا السر ، الذي ، كما يوحي الينا ، من المقرر ان يكون وسيلة خلاصه . وتأتي الثالثة في نهاية القصة التالية (٩١٢) ، بعد ان يكون قد تنبأ بالمجيء الفعلي لمنقذه . وهذه الفواصل تقسم المسرحية الى اربع حركات . ففي الاولى ، يكون بروميثيوس مُسمّرًا على الصخرة ، وفي الثانية ، يروي تاريخ الآلهة

والناس والماضي ، وفي الثالثة ، يتنبأ بالمستقبل ، وفي الرابعة ، يُلقى في الجحيم •

ولكل من هذه الحركات تركيب داخلي خاص بها • ويقع كل منها في ثلاثة أجزاء ، باستثناء الثالثة التي تقع في مجموعتين ثلاثيتين من هذا النوع • واضافة الى هذا ، ففي كل مجموعة ثلاثية تتواجد علاقة عضوية بين الجزئين الاول والثالث ، اما الثاني فهو يأخذ شكل استطراد او توسيع • وهكذا ، ففي الحركة الاولى يعاقب بروميثيوس من قبل اعدائه ، ويلقي مناجاته ، وتزوره صديقاته ، حوريات البحر • وفي الثانية ، يروي قصة الحرب بين الآلهة وخدماته هو لزيوس ، وتقاطعه زيارة إله البحر ، ثم يأخذ يروي خدماته للانسان • وفي القسم الاول من الحركة الثالثة ، تظهر (آيو) وتتوسل اليه أن يكشف مستقبلها ، ويطلب من الحوريات ان تروي قصة ماضيها ، ومن ثم ، وبعد ان يتنبأ بروميثيوس بتشردها الى حدود آسيا ، يلمح الى سقوط زيوس وخلاصه هو • وفي القسم الثاني ، يواصل نبوءته الى حد توجهها الى مصر • وعندئذ ، واثباتا لصدقه ، يعود الى ماضيها (مكملا بذلك قصتها هي) ، وأخيرا يتنبأ بمصيرها النهائي ومجيء منقذه • وفي الحركة الرابعة ، يلمح مرة اخرى ، وبشكل اكثر صراحة ، الى سره ، الذي يعلن الآن انه سيحقق سقوط عدوه • ويحاول مبعوث زيوس عبثا ان ينتزع منه سره• ويُلقى بروميثيوس في الجحيم •

ولنرجع الآن الى القصائد الكورسية ، التي هي حلقات متكاملة في هذا التطوير • ففي البارودوس ، تبدي الحوريات تعاطف الآلهة (١٦٩ — ١٧٠) : ويمضي بروميثيوس في سرد خدماته للآلهة • وفي الستاسيمون الاول (٤١٣ — ٤٥١) يغنين الرأفة بالجنس البشري : ويسرد بروميثيوس خدماته للانسانية • وفي الستاسيمون الثاني (٤١٣ — ٤٥١) يغنين بؤس

الانسان ويقارن وضعه الحاضر بسعادة يوم زواجه : وتظهر آيو ، انسانا. يائسا بلا عون . يطاردها خاطب متوحش (٧٦٥ ــ ٧٦٦) • وموضوع الستاسيمون الثالث (٩١٣ ــ ٩٣٨) هو الحكمة ، وهذا يعدنا للمشهد الاخير . الذي ينغمس فيه الى هرميز في نداء المتعذب لينتهج سبيل الحكمة •

وهكذا فان موضوع الحركة الاولى هو تقييـــد بروميثيوس ــ الحاضر • وموضوع الحركة الثانية هو تاريخ الماضي• وموضوع الحركة الثالثة هو مصير آيو وميلاد هرقل ــ المستقبل • والحركـة الرابعة ، بزيادتها للعقوبة . توازن الحركة الاولى • ومع ذلك ، ففي المسرحيـــة برمتها تتناسج خيوط الحاضر والماضي والمستقبل هذه بدرجة من المهارة بحيث يدفع اتباهنا عند كل نقطة تحوّل بتأكيد متزايد على المستقبل • وينتهي خطاب (القوة) الافتتاحي بتصريح بأن بروميثيـــوس يجب ان يتعلّم بالمعاناة قبول حكم زيوس الاستبدادي (١٠ ــ ١١) ، بينما ينتهي خطاب هيفيستوس الذي يليه بفكرة مؤداها ان الطاغية نفسه سوف يغير، في مجرى الوقت ، اساليبه (٣٥) • وستطور الفكرتان معا في البارودوس (١٨٠ ــ ٢٠١) • وفي منتصف مهمته يطلق هيفيستوس صرخته المتقدة : «واحسرتاه . بروميثيوس ! انني ابكي عليك» (٦٦) • ويأتي رد (القوة) العنيف في خاتمة المشهد ، حيث يعاد توجيه اتباهنا الى المستقبـــل (٨٥ ــ ٨٧) :

نحن دعوناك إله الحكمة • انها أكذوبة •
انت بحاجة الآن الى كل حكمتك لنفسك
لتتخلص من هذا العمل الفني الرائع •

ومرة اخرى ، سيجري الرد على هذه الاهانة الوداعية في نهايـة

الحركة الثانية . حيث يسمح لنا بلمحة من المصالحة الاخيرة التي يرحب بها كلا الخصمين (٢٠٢ ــ ٢٠٨) .

ويعاد بنا على نحو سريع مفاجيء الى الماضي (٢٠٩) . وبطلب من الحوريات . اللواتي يتوسلن اليه «ليكشف جميع الامور» ، يبـــدأ بروميثيوس كشفه بتردد . وفي وقت لاحق . وبعد ان هزتهن جرأته ، تحرص الحوريات على تغيير الموضـــــوع (٢٧٧ ــ ٢٧٨) . اما الآن فبروميثيوس هو الذي يصر على مواصلة كشفه ، حاثًا اياهن علـــى الاصغاء الى بَوحه بالمستقبل (٢٨٨ ــ ٢٨٩) . ثم تأتي الفاصلة : زيارة إله البحر . وبعد مغادرته يستأنف الكشف ، مؤديا الى نهاية الحركـــة الثانية . حيث تجري مساءلته بإلحاح وتوق عن السر الذي ألمح اليه في نهاية الحركة الاولى . فيتراجع بروميثيوس ، رافضا ان يبوح به (٥٣٨ ــ ٥٤١) :

كلا . فكِّرن في أمور أخرى .
انوقت الكلام عن ذلك لا يزال بعيدا جداء انه يجبان يُكتم .
ذلك هو سري ، الذي اذا كُتم بإحكام
فانه يحتوي املي الاكيد في الخلاص .

واستئنافا للحديث ، لقد رأينا ان خطب المسرحية الافتتاحية تنهـي بتوجيه انتباهنا الى المستقبل ، معجلة بذلك بخاتمة مشهد التقييـــــد والذروة في نهاية الحركة الاولى ، اي الخطاب الاخير من البارودوس . وقد بدأت الحركة الثانية بإعادتنا الى الماضي . ولكننا ، في نهاية الجزء الاول من أجزائها الثلاثة ، وعلى نحو اكثر تعمدا في نهاية الجزء الثالث، نهتم مرة اخرى بالمستقبل . ثم يأتي مشهد آيو ، وهو على درجة مـــن

التقسيم بحيث يبرز المستقبل على نطاق أوسع : المستقبـــل ، الماضي ، المستقبل ؛ المستقبل ، الماضي ، المستقبل • ومن هنا التأثير الهائل للتنبؤ بمجيء هرقل (٨٩٧ ــ ٨٩٩) ، وهو اشبه بهدف انشدّ اليه الكشـــف برمته ، الذي يُقطع مرة اخرى بصورة مفاجئة ، ومن ثم يُتوج في مطلع الحركة الاخيرة (٩٣٩ ــ ٩٥٩) باكمال ذلك الحافز الآخر ، السر المحتوم، الذي كان علامة ذروة الحركة الاولى ثم الحركة الثانية • وقد عولجت قصص بروميثيوس وتوقعاته بتمكن فني من الموضوع بحيث يركز كامل انتباهنا في خاتمة المسرحية على النتيجة •

ان تلك النتيجة فقدت ، الا ان بعض الاجزاء الهامة من المسرحيـــة الثانية ، «بروميثيوس طليقا» ، ظلت على قيد الحياة •

بدأت المسرحية بدخول جوقة التيتانات (الجبابرة) • وقد مرت عدة ألوف من السنين ، وأعطت بذلك وقتا لعدة تغيرات ، على الارض وفي السماء • وبروميثيوس لا يزال موثقا الى صخرته ، ولكنه أعيد مـــن الجحيم الى ضوء النهار • ويصف الجبابرة رحلتهم من سواحل البحر ، حيث الشمس تطفيء ظمأ خيولها بعد كدحها اليومي ، الى حدود اوربا وآسيا • وهم اخوة بروميثيوس ــ ولذلك فهم مرتبطـــون به بأواصر أوثق من تلك التي انتزعت الشفقة هيفيستوس وجلبت إله البحر وبناته الى صخرة حبسه الانفرادي • وفي الحرب ضد كرونوس ، كانوا قـــد وقفوا الى جانب النظام القديم ، وعقابا على هذه الجريمة ألقاهم زيوس هم وكرونوس في الجحيم • اما الآن فقد اطلق سراحهـــــم ، كما ان كرونوس ، وهذا ما نستطيع افتراضه وفقا للاسطورة ، قد نقل الآن الى بيته الجديد في (جزر المنعم عليهم) • وقد تعلم زيوس ان يمزج قوتـــه بالرحمة • وما من ريب ان الجبابرة يقصون هذه الاحداث على شقيقهم• ولا يسعهم الا ان يتركوا تأثيرا عميقا في نفسه • ولكـــن بروميثيوس ،

كما هو في بداية المسرحية الاولى ، صامت .

لقد بقيت كلماته الافتتاحية في ترجمة لاتينية قام بها شيشرون . فهو يناشدهم ان يشهدوا على كربه . واذ تخزه قيود قاسية ويعذبه النسر الذي توقع هرميز ، مجيئه ، يشتهي الموت الذي يحرم منه . والحديث يتميز باستغراق المتكلم في ألم جسدي كما تتميز أحاديثه في المسرحية الاولى بعدم اكتراثه به . وليست هناك كلمة واحدة عن منقذه . ولا كلمة عن سره . وهو يتوق الى الموت . وفي المسرحية الاولى ، التي مثلت زمنا كانت فيه ارادة زيوس أضعف من إلاهات الاقدار (٥٣١ — ٥٣٤) ، كان قد تحدى زيوس ان ينزل اسوأ ما يستطيع ، معلنا بتحد بأنه مكتوب عليه ألا يموت (١٠٨٦) . والآن فهو يتفجع على بقائه حيا بإرادة زيوس نفسه . ومضمون ذلك هو ان زيوس وإلاهات الاقدار قد تقاربوا اثناء الفاصل . فالقديم والجديد يجري التوفيق بينهما .

ولا بد ان تكون المشاهد التالية قد اطلعت الجمهور على التغيرات التي وقعت في الفترة بين المسرحيتين . الا ان من الراجح في هذه المناسبة ان الرواية هو ليس بروميثيوس نفسه ، الذي يصعب ان يكون في وضع يسكنه من معرفة ما حدث ، وانما الجبابرة الذين يمكن ان نفترض بأنهم يروون لمصلحة شقيقهم كلا من اوجه التقدم التي آحرزها زيوس في توطيد سلطانه والرحمة التي بدأ يشمل بها اعداءه السابقين . وفي المسرحية الاولى عرفنا بأنه لولا تدخل بروميثيوس لدمّر زيوس الجنس البشري . الا اننا يمكن ان نكون متأكدين بأن اية نية من هذا القبيل قد تم التخلي عنها ، والسبب ، كما سنرى ، هو ان اكبر ابنائه سيرسل قريبا الى الارض لتحسين نصيبهم . وهكذا ، اذا بقي بروميثيوس مسترسلا في عناده ، فان دافعه لا يمكن ان يظل الخوف على مستقبل الجنس البشري ، وهو لا يمكن ان يكون الا استياء من مظالم

سابقة . واذا اخذ الجبابرة ينصحون اخاهم بتمهيد الطريق لاطلاق سراحه بتسليم السر الذي يطلبه منه زيوس . داعين ، كإله البحر ، الى الحكمة وضبط النفس (٣٢٥ ــ ٣٢٦) ، فان نصيحتهم . على العكس من نصيحته ، لن تكون غير نبيلة : انهم سيحثونه على الاذعان لعدوه القديم ، ليس لمجرد انه يحكم العالم ، بل لانه يحكمه الآن حكما حسناء كما ليس بمقدور بروميثيوس ان يجيب ، كما أجاب الحوريات ، بأن النصح يأتي شرا من أولئك الذين لا يعانون انفسهم متاعب (٢٧٩ ــ ٢٨١) ، لان آلام اخوته لم تكن بحال من الاحوال أقل هولا من آلامه. ومع ذلك ، وبسبب نصيحة اخرى ، علينا ، كما اعتقد ، ان نفترض بأن بروميثيوس يرفض دعوتهم . انه لا يستطيع بعد ان يقنع نفسه بأن «يسحب كلماته العنيفة» ، بكشف سره قبل اطلاق سراحه .

وفي مخطوطة اسخيلوس الميديسية ، تتضمن قائمة الشخصيات الدرامية التي تتصدر مسرحية (بروميثيوس طليقا) إسمَي (جي) ، إلاهة الارض ، وهرقل . ولما كان معروفا ان هرقل ظهر في (بروميثيوس طليقا) ، فمن المتفق عليه بصورة عامة ان كلا الاسمين قد حشرا خطأ من قائمة اخرى ، كانت قد اعطت شخوص المسرحية الثانية او شخوص المسرحيتين معا .

وكانت إلاهة الارض تعتبر تقليديا أقدم آلهة اليونان وفي بعض الجوانب اكثرهم وقارا ومهابة ، فهي اصل كل الاشياء وترد اليها كل الاشياء ، وينبوع الحكمة ، الذي استلهم منه جميع المتنبئين ، الآلهة والبشر . وكانت هي أم بروميثيوس . وكانت هي التي توجه اليها بمناجاته الافتتاحية ، ثم ، في نهاية المسرحية الاولى ، طلب اليها ان تشهد على ما يعاني من حَيف . ومنها علم بمجرى الحرب المحتوم في السماء، وبناء على نصيحتها اتخذ دور زيوس . وكانت هي التي أخبرته مسبقا بمجيء منقذه ، وهي التي أعلمته بسره .

وقد لاحظنا فعلا كيف أكد في المسرحية الاولى كل من هيفيستوس وإله البحر قرابتهما من الاسير ، وكيف يزوره في بداية المسرحية الثانية أقرباء أقرب من هؤلاء ، ابناء الارض • وتعقب زيارتهم زيارة من إلاهة الارض نفسها ، تلك الزيارة التي ستكون علامة ذروة دافع مطروح في بداية الثلاثية • وبامكاننا ان نستنتج بأن غرضها مشابه لغرضهم : تقديم تعاطفها اليه ؛ وفي ذات الوقت حثه على حكمة الخضوع • ويضاف الآن صوت أمه الى توسلات بقية اقربائه ، متوسلة اليه ان يخفف من تعنته وأن يزيل العائق امام خلاصه •

ان سره هو هذا • اذا تزوج زيوس من (ثيتيس) ، فسوف تنجب له ولدا سيطيح به • والآن ، وكما تروي الاسطورة التي سجلها كتاب لاحقون ، كان زيوس يطارد فعلا ثيتيس عندما ثناه عن ذلك كشف السر • وهكذا فان الموقف مثير جدا • وما على بروميثيوس الا ان يصمد فترة اطول قليلا حتى يكون سقوط عدوه مؤكدا • ومن جهة اخرى ، تناشده آمه بأن يخضع ، قبل فوات الاوان ، لا لمجرد ان يحقق اطلاق سراحه هو ، وانما ليمنع سقوط زيوس الذي ، بعد ان لم يعد الطاغية الحقود الذي كان يسعى وراء ابادة البشر ، اخذهم برعايته فعلا عند ولادة هرقل • ويُطلب من بروميثيوس لا ان يجبن امام خصمه ، بل ان يضحي بكبريائه في سبيل ذات الجنس الذي سبق ان ضحى من اجله ما هو اكثر من ذلك بكثير •

وما يتعلق بالطريقة الفعلية للافشاء ، ينبغي ان نلاحظ بأنه لما كانت إلاهة الارض عالمة ايضا بالسر كما يعلم به بروميثيوس نفسه ، فان كل ما تحتاجه هو اذنه بإفشائه • وما من حاجة هناك ليجتاز شفتيه • ثم ، اذا كانت هي عازمة على مثل هذه المهمة ، فسوف تستغل المناسبة لتحث زيوس على تخليص بروميثيوس مقابل تخليصه هو بالذات • وأي

وسيط يمكن العثور عليه اكثر تأثيرا من الإلاهة التي هي خالقة وجود زيوس نفسه والتي ساعدته في هيمنته من بين جميع الكائنات المخلوقة، والتي هي : اضافة الى ذلك : تجسيد لـ (الحق) ؟

وهذه هي النقطة التي يرضخ عندها بروميثيوس على ما أعتقد • الا ان كَرْبا واحدا آخر ينتظره • فبعد مغادرة امه : يسمع اندفاعة اجنحة، ونحن نتذكر الرعب الذي انتظر به مجيء حوريات البحر ، وكيف اسرعن الى تطمينه • اما هذه المرة فان مخاوفه تقوم على اساس سليم • فها هو النسر يعود الى وليمته • ويركز بروميثيوس نظره في الاتجاه الذي يقترب منه• ومن الاتجاه الذي يقترب منه • ومن الاتجاه المعاكس يظهر محارب، مسلحا بقوس وحَرْبة ومرتديا جلد الاسد المشهور • ويسحب قوسه ، وبدعاء الى آبولو ، الذي هو هديته : يرمي النسر ويسقطه • وبعد ان يتعرف بروميثيوس على منقذه ، يحييه بوصفه «ابنا محبوبا لأب كريه» • ونستطيع الافتراض انه أتبع هذه التحية بنداء الى هرقل ليحرره من الأسر وفقا لمصيره • الا ان هرقل : الذي عرف الآن من هو المتعذب ، ربما يكون مترددا الآن في مساعدة العدو اللدود لأبيه • وسيشرح بروميثيوس عندئذ بأنه سبق ان ازال العقبة الرئيسية امام تصالحهما ، وسيعيد ولا شك الى الذاكرة الخدمات التي أسداها قبل عدة قرون الى جدته العليا في ذلك المكان بالذات • واضافة الى هذا ، فهو يستطيع ان يوجهه في أسفاره ويعلمه مسبقا بما يخبئه له المستقبل عند انتهاء آلامه • وهو حريص الآن على ان يسمح لمنبع النبوءة بالتدفق ، الذي فتحه لآيو بتردد كبير ، وذلك فقط اذا لبى طلبه بالمقابل • وهرقل «يشفق على المتضرع» • وسيتنبأ بروميثيوس بمستقبله ، وبالمقابل سيطلق هرقل سراحه • واتفاق من هذا النوع ، مماثل للصفقة التي عقدها بروميثيوس مع آيو والحوريات (٨٠٤ ــ ٨١١) ، سيمكن الكاتب من تأجيل ذروة

التحرير الفعلي الى نهاية المشهد •

ان الاجزاء المتبقية تكفي للبرهنة على ان تشردات هرقل ستمتد الى الشمال والغرب، كما غطت تشردات آيو حدود العالم الشرقية والجنوبية• والنبوءتان متكاملتان ، اذ هما تغطيان كامل سطح الارض • وبصورة خاصة ، نحن نعرف من مصادر اخرى ان بروميثيوس هو الذي دل هرقل على حديقة التفاح الذهبي وأفهمه كيف يحصل على التفاحات الذهبيات بمساعدة (اطلس) ، الذي قدّمنا اليه في المسرحية الاولى • كما نعرف ايضا ان الكاتب شرح في المسرحية الثانية اصل مجموعة النجوم الثابتة المسماة (هرقل الراكع) • ففي قتال البطل مع الليغيوريين وهو في طريقه الى حديقة التفاح الذهبي ، نفدت اسلحته وأرغم على الركوع • وهذا يعني ان بروميثيوس تنبأ بأنه تخليدا لذكرى هذه المعركة ، فإن صورة هرقل ، شأنها في ذلك شأن صور الابطال الراحلين الآخرين ، سوف توضع بعد موته بين النجوم • اما وان الامر كذلك ، فمن العسير جدا ان تكون النبوءة قد انتهت بالبحث عن التفاحات الذهبيات ، او حتى بآخر مشاق البطل وهو النزول الى الجحيم ، وبلا تلميح ما الى مصيره الاخير : صعوده الى السماء • ولا بد ان تكون قد اوصلت الى خاتمتها المعقولة في تأليه البطل ، انسجاما مع التنبؤ لآيو ، الذي انتهى بولادته •

ان بروميثيوس قد انجز الآن حصته من الاتفاق ، وقد بقي ان ينجز هرقل حصته • ويصعد البطل على الصخرة ويمزق ما صنعته يدا هيفيستوس •

ونحن لا زلنا ننتظر نتيجة بعثة (الارض) الى زيوس ، كما تتذكر ايضا ان زيوس اعلن ، في ختام المسرحية الاولى ، عن طريق مبعوثه ، بأن آلام بروميثيوس لا يمكن ان تنتهي ما لم يجد إلها آخر ليسلم اليه

خلوده بدلا عنه (١٠٥٨ ــ ١٠٦١) • وإذن فمن المحتمل ان يعود هرميز الى الظهور • وهو يعلن قبل كل شيء بأن وساطة (الارض) كانت ناجحة• وبإفشاء السر فقد أزيل سبب الجريمة ، بالرغم من ان المحتمل ان تكون المصالحة الشكلية لم تتحقق بعد ، لاسباب ستبدو بعد قليل • واضافة الى هذا ، فمن المحتمل ان ينقل زيوس جزءاً من استيائــــه الى ابنه ، الذي . كما هو متوقع منه ، خلص السجين بلا رضــــاء الاب (٧٩٧) • ويقال ان هرقل ربط نفسه بشجرة زيتون ــ ولربما كان ذلك اشارة الى شجرة الزيتون التي غرستها الإلهة (اثينا) في الاكاديمية في مدينة اثينا• ويبدو ان الدافع وراء هذا العمل كان رغبته في تفادي غضب ابيه بربط نفسه نيابة عن السجين • وهذه النقطة مهمة دراميا ، لانها تقدم نقطــة انطلاق للمسرحية الثالثة • وبأسلوب الثلاثية المألوف ، فان كل صعوبة تذلل بخلق صعوبة اخرى • وأخيرا ، لا بد ان يجــد السجين بديلا • وعند هذه النقطة يتقدم هرقل ويبين بأنه قد جرح من غير قصـــــد القنطور (*) كايرن ، الذي ، وهو يعاني ألما لا يرجى شفاؤه ، يتمنى ان يموت ، ولكنه لا يستطيع • وإذن فليتنازل عن خلوده بدلا مــــن بروميثيوس • ويتقبل عرضه ، ويغادر هرقل ، بتبريكات جميع الحاضرين، لينجز بقية مصيره التاريخي •

وإذا تأملنا الوضع الذي تركنا فيه الكاتب ، لرأينا انه كما أثارت النبوءة لآيو في المسرحية الاولى املا لم يستوف الا بتحقيقه فـــــي المسرحية الثانية ــ اي مجيء هرقل ــ فان النبوءة لهرقل قد أثارت الآن املا لا يقل اهمية في تنائجه ، اي تأليهه • وستظل أذهاننا في قلق الى

(*) القنطور : كائن أسطوري نصفه رجل ونصفه فرس . اما (كايرن) فهو ، في الاساطير اليونانية ، اعقل قنطور ، ومشهور بمعرفة الطب ، وكان ممن علمهم هرقل نفسه (المترجم) •

ان نطمئن بأن هذا ، ايضا ، قد تحقق • وعلى ذلك فمن الصعب مقاومة الاستنتاج بأن حبكة المسرحية الثالثة كانت تتعلق ، لا بمجرد اعـادة بروميثيوس الى اوليمبس ، بل بمستقبل هرقل • وقد اصبح مصيرا البطلين متلاحمين ، وفي خاتمة المسرحية الثانية كان اهتمامنا قد حوّل الى حد ما الى الاخير •

وقبل ان نترك مسرحية (بروميثيوس طليقـا) ، فلنقارن تركيبها ، بقدر ما يمكن استرداده ، مع تركيب مسرحيـة (بروميثيوس مقيدا) • فصمت بروميثيوس في مطلع المسرحية الاولى يوازنه صمته في مطلـع المسرحية الثانية • وزيارة إله البحر في المسرحية الاولى تعادله زيـارة الإهة الارض في الثانية • وتعادل بنات البحر ، وهن جوقة المسرحيـة الاولى ، بأبناء الارض ، وهم جوقة المسرحية الثانية • وتقابل تشردات آيو في الشرق والجنوب بتشردات سليلتها فـي الشمال والغرب • وتوازن نبوءة ميلاد المحسن الكبير للبشرية نبوءة تأليهه • وهكذا ، يبدو ان المسرحيتين جرى بناؤهما بذلك التماثل العضوي الذي قادتنا الـى توقعه دراسة اعماله الاخرى •

لقد كان عنوان المسرحية الثالثة هو (بروميثيوس حامـل النار) • ولربما كانت هذه الصفة تشير الى المشعل الذي رآه بوسانياس (ظانـاً خطأً انه صولجان) في اليد اليمنى لتمثال بروميثيوس القديم فـي الاكاديمية ، حيث ، كما لاحظنا مسبقا ، كان الإله يعبد بوصفه واحدا من الآلهة الثلاثة الذين علّموا الانسان استخدام النار وجرى تكريمهـم بسباقات مشاعل سنوية •

وقد سبق ان حققنا شيئا من التقدم بخاتمة الثلاثيـة • فأولا ان بروميثيوس متضرع ، يحاول اعادة قبولـه في اوليمبس • وفـي (الأوريستيه) ، كان المتضرع قد انقذ بتدخل اثينا ، إلاهة الحكمة وراعية

المدينة التي كانت تدعي بالحفاظ على هذه الفضيلة بين الناس • وقد كان لنفس الإلاهة صلة قديمة ببروميثيوس • ونحن نعلم ان بروميثيوس ساعد في ولادتها ، حين وثبت كاملة التسلح من رأس زيوس ، وان الاثنين تعاونا في خلق الجنس البشري • ولكن الاهم هو ان بروميثيوس منح مكانا في الاكاديمية . وهو شرف ما كان بمستطاعه ان يناله بلا رضاء الإلاهة • ومن آلهة النار الثلاثة تعرفنا على الاثنين الاكبرين في مطلع الثلاثية ، وعلى ذلك فانني أعتقد بأننا في الخاتمة كنا قد قدّمنا الى أصغر وأعظم الثلاثة • وهذه الإلاهة هي التي تتوقع الصلح بين بروميثيوس وأبيها وتسبغ عليه درجات الشرف الانسانية التي يستحقها •

وكان هرقل ، قبل نزوله الى الجحيم ، قد زار ايليوسيس بنيّة ان يصبح مُلَقّنا ، ولكنه لم يكن يستطيع رؤية الطقوس الى ان تطهر من دم القنطور • وعلى ذلك فقد طُهّر في (آغرا) ومن ثم جرى تلقينه • كما نعلم ان الطقوس السرية الصغرى لآغرا قد أسستها ديميتر لغرض صريح هو تطهير هرقل بعد ذبح القنطور • وتنتسب هذه الاساطير ، التي حفظها المؤرخان (ابولودوروس) و(ديودوروس) ، الى مسقط رأس اسخيلوس• ولا بد انها كانت معروفة لديه، كما ان من المحتمل جدا ان يكون الكاتبان الاخيران قد اخذاها عنه • وعلى ذلك يبدو ان الشاعر كان هنا ايضا يعمل بغرض داخلي — اي ، ان يبدأ في نهاية الثلاثية سمة اخرى وأكثر اهمية خاصة بالطقوس الاثينية وهي طقوس ديميتير السرية الصغرى •

لقد كان من اسباب عذاب آيو الغيرة من هيرا ، وقد عانت سليلتها الكثير لهذا السبب نفسه • ومع ذلك ، ففي النهاية ، وحين قبل هرقل في اوليمبيس ، فقد اوقع الصلح بينه وبين هيرا ، وتزوج ابنتها (هيبا)، إلاهة الشباب الازلي • والى جانب هذا ، فاذا كان تزاوج هرقل وهيبا يرمز الى مصالحة هيرا مع اسرة آيو ، فهو يرمز بذات الوضوح الى

مصالحتها مع سيدها • وكان عداؤها لآيو وهرقل مدفوعا بغيرة زواجية، كان زيوس فيها السبب الجرمي • وفي المسرحية الاولى رأينا زيوس يطارد بلا رحمة فتاة فانية ، وفي الثانية رأيناه يطارد ثيتيس • اما في الثالثة ، وحين ينضم الى هيرا في مباركة زواج ابنيهما وبنتيهما ، فيقف الاثنان معا حارسين لقدسية الزواج ، وبذلك يسجلان خطوة اخرى في تقدم الانسانية •

وفي البداية ، كان زيوس قد عذب بروميثيوس لانقاذه الجنس البشري • وفي مجرى الزمن ، الذي علّم الاثنين الحكمة ، انقذ بروميثيوس زيوس من الدمار ، وكان هو نفسه قد انقذه ابن زيوس ، الذي واصل ، تحت اشراف ابيه ، عمل بروميثيوس ، مزيلا العوائق عن طريق التقدم البشري • ثم أزيل العداء الالهي في النهاية على يد الإلاهة اثينا ، التي اكملت هدف ابيها برعايتها المدينة التي تقف على ذروة المدنية الانسانية • وهكذا ، وفي خاتمة الثلاثية ، يظهر هؤلاء الثلاثة ـ بروميثيوس ، هرقل ، اثينا ـ معا ممثلين لبدء وتطور واكتمال فكرة الإله ، وموجدين ودافعين ومنجزين لمصير الانسان •

واذا كانت هذه الرؤية الى الثلاثية صحيحة من الناحية الاساسية فهي تعني ان اسخيلوس كان يواصل العمل الذي بدأه هيسيود ، بالرغم من جميع الخلافات العميقة في تفسيرهما للاسطورة • وقد طُعِّمت قصة بروميثيوس الآن بمحتوى فكري يتجاوز كثيرا نطاق الحكاية التي يرويها فلاحو بويوتيا البسطاء • الا ان التقدم الذي يسجله التفسير الجديد على هيسيود ، وهو ليس أقل من تقدمه على النواة البدائية للاسطورة ، لم يكن بالمستطاع تحقيقه الا بتقدم المجتمع نفسه الذي كان يقوم عليه • ولما كان اساس الحياة الانسانية المادي يتوسع ويغتني : فان عمقا وخصبا فكريا دائبي النمو ينجمان عنه • ولكن بما ان العملية

المادية مستمرة ؛ وحيث ان الجديد يكمن اولا داخل القديم ؛ فان التقدم الفكري يأخذ شكل تكييفات متواصلة للافكار التقليدية . وأسطورة بروميثيوس مثل واضح على هذه الحقيقة . وقد كان عمل اسخيلوس في هذا الموضوع معروفا ومحل اعجاب واسع الى درجة انه ربما كان قد ثبت الاسطورة ، اذا كان هناك من شيء استطاع تثبيتها . الا ان هذه الاسطورة لم تكن قادرة على الاستقرار اكثر من العالم الذي عبرت عنه تعبيرا بالغ الروعة . ولذلك فان مما يبعث على الاهتمام ان نرى كيف فسرت فيما بعد قصة بروميثيوس .

والمقطع التالي هو من مسرحية مفقودة وضعها (موسشيون) ، وهو كاتب عدا ذلك غير معروف :

وأولا سأكشف من البداية
الاصل الاول لحياة الانسان .
كان هناك عصر قديم جدا حيث سكن الناس
كالوحوش في كهوف كبيرة ووديان عميقة من الجبال
ونادرا ما كانوا يرون أشعة الشمس ،
لانهم لم يملكوا بعد بيوتا مقببّة ولا مدنا
لها أسوار حجرية محصنة بأمان ،
ولا شفرات محاريث تحرث الارض المعشبة بعمق
وتجعلها تنبت الحبوب ؛ ولا نصلا من حديد
لينبتوا الكروم المثمرة صفا على صف .
كانت الارض لا تزال عذراء بلا طفل ،
واقتات الناس على لحم بعضهم بعضا ،
لان منزلة القانون كانت منخفضة

وكان العنف متوجا عاليا على يد زيوس اليمنى •
ولكن حين حوّل الزمن ، الذي يلد كل الاشياء ،
أسلوب حياتنا البشرية اخيرا ،
سواء عن طريق ابتداع بروميثيوس ،
او عن طريق الضرورة ، او كان المراس الطويل
قد تعلم من دروس الطبيعة ذاتها ،
فقد اكتشف الناس كيف يستثمرون
هدية ديميتير ، واكتشفوا ايضا
قوة سحب دايانايسيس ، ثم بعد ان حرثوا بعمق الارض
بفرق من الثيران ، وأقاموا سقوفا
فوق رؤوسهم ، وأوجدوا المدن ،
فانهم توقفوا عن التوحش وأصبحوا متمدنين •

ولا يقدم هذا المقطع الا الحلقة ، التي قادتنا الى توقعها نقاشنا ، في تطور الاسطورة • فمن جهة ، تنزع الغطاء الاسطوري ، اما الآثار المتبقية منه فهي ليست اكثر من تزويقات شعرية • وأحدها ، وهو الاشارة الى (العنف) ، هو بوضوح تذكير مقصود بمسرحية (بروميثيوس مقيدا) ، حيث يوضح بأن الكاتب قد فسر على نحو صائب نية اسخيلوس في ادخال (القوة) و(العنف) بصفة وزيرين للإله الذي كان في البدء «قانونا لنفسه» • ومن جهة اخرى ، يشير ذكر (الضرورة) بصورة واضحة تماما الى فلاسفة القرن الرابع الماديين • وقد رويت الاسطورة بشكل كانت ستحظى بالقبول لدى اسخيلوس وابيقور على حد سواء •

ودليلنا التالي قطعة درامية اخرى ــ وهي من مسرحية كتبها كريتيس ، عم افلاطون :

كان هناك زمن حكمت فيه الحياة البشرية
بالقوة ، حيث كانت قاسية واعتباطية ،
عندما لم توجد اية مكافأة على الصلاح
وكان الشر يفلت من العقاب • واعتقد
ان الناس وضعوا عندئذ عقوبات
ليجعلوا العدالة هي العليا والغطرسة عبدتها ،
ولكن حتى في ذلك الحين ، ورغم ان القوانين
كبحت الناس عن أفعال العنف المكشوفة
كانوا لا يزالون يرتكبون الآثام سرا
الى ان ملك مفكر داهية بعيد النظر
الذكاء ليخترع آلهة ، قد يخافها
كل الذين فعلوا او قالوا او حتى تصوروا الشر ،
وهكذا أدخل الإله
ليعلم الناس الايمان بروح أزلي
الذي يرى ويسمع بذكائه
ويصغي بانتباه لكل ما يفعل الناس ويقولون •

وهنا نجد انفسنا في جو مختلف • فقد كان كريتيس احد الطغاة الثلاثين الذين اقاموا عهدا ارهابيا في اثينا في السنوات الاخيرة من الحرب البيلوبونيسية (٤٠٤ ق٠م) • وهو ، بوصفه مضادا للثورة نشطا وواعيا طبقيا ، يجاهر علنا بوظيفة «القانون والنظام» القمعية ، ويعترف بصراحة ساخرة بقيمة المعتقد كوسيلة لابقاء الجماهير في جهل وتبعية • وتحليل الفكرة هذا ، الذي اذا نظرنا الى جوهره وليس الى الطريقة التي يعبر بها عنه ، هو سليم ، ربما كان سيهز اسخيلوس • ومع ذلك ، يقال

ان استاذه هو ، فيثاغورس ، قد اعلن بأن الناس ، بعد ان أدركـــوا الحاجة الى العدالة ، قد أوكلوا ذات المهمة الى (ثيميس) في (السماء) و(دايكي) في (الجحيم) و(نوموس) على الارض ، وذلـك من اجل ان يبدو الذين كانوا يرتكبون خطيئة العصيان كمجرمين بحق كامل تركيب الكون • ثم ان اسخيلوس نفسه كان قد بشّر بأن الإله ، والانســـان كذلك ، هما حصيلة تطور ، حيث كانت العمليتان متماثلتين تماثـــلا وثيقا • واضافة الى هذا ، فحين نسمع بأن وظيفة القانون هي التخويف، فانما نتذكر بالكلمات التي وضعها اسخيلوس في فم اثينا عندما اقامت عهد القانون في (الاوريستيه) ـ «اي انسان سيكون مستقيما بـــلا خوف ؟» • وقد اوصلنا عمل اسخيلوس الاخير الى نقطة في تاريـــخ اثينا تنكشف فيها المساواة في الحقوق وأمام القانون لانصار كليسثينيس من الطبقة الوسطى بوضوح متزايد بوصفها اداة تستخدمها تلك الطبقة لغرض صيانة مركزها الامتيازي المفروضة بالقوة •

ونعود الى بروميثيوس لنقول ان قصة خدماته للانسان يرويهـــا ايضا افلاطون في تفسير جديد يجريه على لسان (بروتوغوراس) فـــي الحوار الذي يحمل هذا الاسم • ويمكن تلخيصه على النحو التالي :

ان المخلوقات الحية صنعتها الآلهة من التراب والنــــار • وبعد ان خلقت ، قام بروميثيوس وايبميثيوس (وهو نقيض لإله الحكمة ، تجاهله اسخيلوس ولكنه يعود الى هيسيود) بمنحها ملكاتهـــا الملائمة ، حيث اعطياها الحوافر او الاجنحة او المآوي تحت الارض ، بحيث يكون لكل نوع وسيلة للدفاع عن النفس ، وغطياها بالفرو والجلود للاحتماء مـــن البرد ، وقررا بأن يكون البعض فريسة الآخرين الطبيعية ، وضمنا في الوقت نفسه بقاءها بجعلها ولودا على نحو استثنائي • وكل هذا فعلــه ايبميثيوس بتوجيه من ابيه ، الا انه وجد في نهاية مهمته بأنه كان قد

أنعم سهواً بكل الملكات المتوافرة على الحيوانـــات ، دون ان يترك للانسان شيئا • واذ جابه بروميثيوس هذه الصعوبة ، اعطى الناس النار، التي سرقها من مالكيها ، هيفيستوس وأثينا ، وبالتالي فقد حوكم بسبب السرقة • ولأن الناس قريبون من الآلهة ، فقد تميزوا من الحيوانـــات الاخرى بايمانهم الفطري بالإله وبقدرتهم على الكلام • وقد بـــدأوا يصنعون الملابس والاحذية ، ويبنون البيوت ويحرثون التربة ، وأخيرا، ولإتقاء الحيوانات ، فقد شيدوا المدن • الا ان من سوء الطالع ، وبعـــد التجمع في المدن ، ان بدأ المواطن يفترس المواطن• وهكذا ، وبعد ان خشي زيوس احتمال هلاك الجنس ، امر هرميز ان يمنحهم هديتين همـــا الخجل والعدل • وحين سئل زيوس عما اذا كانت هاتان ستعطيان بـــلا تمييز او ان تخصصا لاشخاص مختارين من أمثال المتخصصين فـــي الصناعات اليدوية ، أجاب : «فلتُعطيا للجميع بصورة مشتركة ، وأعطهم ايضا قانونا مني هو ان كل انسان لا يمكن ان تكون له صفة الخجـــل والعدل سيحكم عليه بالموت بوصفه عدوى في المجتمع السياسي» •

ان وضع هذا التفسير على اتفاق مع كريتيس في موقفه من العدالة والقانون ، ولكنه يظهر عمق نظر أبعد في الاعتراف بـــأن الصراع بين الانسان والانسان ــ الصراع الطبقي ــ لم يبدأ الا ببدء حياة المدينة ، وهو يضع بحذر اعتقاد الانسان بالإله الى زمن أبعد في ذات اصـــل وجوده • وعلى النقيض من اسخيلوس ، فان حكم العالم الإلهي ثابت ومستقر ، ويُنقل الفضل في التقدم البشري من بروميثيوس ، الـــذي يكون دوره ثانويا ، الى زيوس الكلي الحكمة والقدرة والثابت •

ولننظر كيف بدت هذه الاشياء بالنسبة للاصناف الدنيا • فقد كان (فيليمون) مسرحيا هزليا من القرن الرابع ، وكان ، كأكثرية المسرحيين الهزليين في ذلك الوقت ، اجنبيا مستوطنا ، وليس مواطنا اثينيا • وكان

فيليمون هو الذي قال :

ان للعبد لحما بشريا كلحمنا .
والحقيقة : ففي الطبيعة وُلد كل الناس آحرارا .

وهذا هو ما قال عن مواهب بروميثيوس الذي كان قد رفع الانسان فوق مستوى الحيوانات الضارية :

ثلاثا مباركة وسعيدة الوحوش
التي ليس لها فهمٌ في هذه الاشياء ، ولا تساؤل ،
ولا زيادات ضارة اخرى ــ
ان قانونها هو طبيعتها الخاصة ،
الا ان حياة الانسان هي اكثر مما يستطيع تحملها ــ
انه عبد الاوهام ، انه اخترع القوانين .

وقد شُرح بإسهاب رأي مماثل من قبل دايوجينيس الكلبي ، وهو فيلسوف شعبي ، يشير الى وجهة نظره الاجتماعية شجبه المحاضرات التي القاها افلاطون على شبان اغنياء في الاكاديمية ، حيث وصفها بأنها «مضيعة للوقت» ، كما تشير اليها ملاحظة يقال انه أدلى بها في ميغارا، حيث رأى خرافا محمية من الطقس بستر جلدية ، بينما كانت ظهور الاطفال عارية فقال : «انه لأفضل ان تكون خروفا لميغاري من ان تكون ابنه» .

وقد اعلن دايوجينيس ان الترف هو الذي جعل حياة الانسان أتعس من حياة الحيوانات . فالحيوانات تشرب الماء ، وتأكل العشب ، وتتجول عارية طوال العام ، ولا تدخل بيتا او تستخدم ناراً ابدا ، وهكذا ، وما لم تذبح ، فهي تعيش في العراء فترة السنوات التي حددتها لها الطبيعة

في صحة وقوة بلا حاجة للادوية او الاطباء • ومن جهة اخرى ، فـــان الناس ملتصقون بالحياة وبارعون في اطالتها الى درجة كبيرة بحيث ان معظمهم لا يصل ابدا عمرا سويا ويعيش مثقلا بأمراض متعددة بحيث لا يمكن ذكرها • ولا يكفيهم ان الارض تزودهم بأدوية طبيعية ــ بل لا بد لهم من الجراحة والكي ــ وما ان تجمعوا فـــي مدن ، حتى بدأوا يرتكبون ابشع الجرائم ضد بعضهم الآخر ، وكان هذا كان هو الغرض من تجمعهم • وعلى ذلك فقد نهم قصة كيف عوقب بروميثيوس على يد زيوس لاكتشافه النار على انها تعني ان هذا كان اصل ونقطة بـــدء الترف والتنطس الانساني ، لأن زيوس . كما قال دايوجينيس ، لم يكره الجنس البشري ولم ينكر عليه اي شيء كان في صالحه •

لقد اصبح بروميثيوس الآن مُحدَث نعمة عوقب بحق للهدية التي لا تعتبر نعمة بل لعنة • ويعود بنا رأي دايوجينيس فـــي الآثار المفسدة للحياة المتمدنة الى هيسيود ــ انها الحكاية الخرافيـــة لعصور الانسان المتتالية ، وكل منها اكثر انحطاطا من الاخير ، في شكل جديد ــ وهي تبين ان الصراع في زمانه بين الاغنياء والفقراء في دولة المدينة المتدهورة قد أثار الوعي الانساني بعمق كما أثاره الصراع القديم بين مالك الارض والقـــن •

وسيكون مهمة باعثة على الاهتمام ومفيدة تعقّب تاريخ هـــذه الاسطورة في اعادة تفسيراتها المتوالية عبر العصور الوسطى نزولا الى زمننا • ولكن للوقت الحاضر لا بد ان يكون كافيا اختتام الموضـــوع ببعض ملاحظات عما خلق منها الشاعر (شيللي) •

ان (جلبرت مَري) ، الذي اعتقد بأن «التقليد القوي في النـــوع الممتاز من الشعر اليوناني ، كما هو في الشعر الجيد في كل مكـــان تقريبا ، كان تجنب الامور غير ذات الصلة والمزعجة في الحياة المعاصرة»، ولم يستطع ان يرى «اي دليل على اية اشارات سياسية» في الاوريستيه،

قد لاحظ «ان مما يثير الاستغراب ان يخلق شيللي قصيدة رائعة كهذه من مادة مفرغة جدا من الاثارة كمجرد تنافس بين الشر الصرف والخير الصرف» • وحقا سيكون ذلك مثيرا للاستغراب لو كان صحيحا • الا ان شيللي ، عى العكس من اسخيلوس ، كان معتادا على كتابة مقدمات لقصائده بقصد شرح الموضوع الذي كانت تدور عليه • وفي مقدمته لقصيدة (بروميثيوس طليقا) كتب ما يلي :

نحن ندين لكتاب العصر الذهبي لأدبنا ، الكبار بالايقاظ الحماسي لذهن الجمهور الذي حطم شكل الديانة المسيحية الاقدم والأكثر اضطهادا • نحن ندين لميلتون بتقدم وتطور الروح ذاته • لقد كان ميلتون المحترم ، وليذكر هذا دائما ، جمهوريا ، وباحثا جريئا في الاخلاق والدين • وان لنا مبررا للافتراض بأن كتاب عصرنا الكبار هم رفاق وطلائع تغير ما غير متصور في وضعنا الاجتماعي او الآراء التي تدعمه • ان سحابة الفكر تفرغ برقها الجماعي ، وان المساواة بين المؤسسات والآراء آخذة الان بالعودة ، او هي على وشك ان تعاد •

واذا كنا حريصين على معرفة ماهية هذه المؤسسات التي وجدها شيللي متناقضة مع آرائه ، فما علينا الا ان نقرأ قصيدته : (قناع الفوضى ـ كتبت بمناسبة المذبحة في مانجيستير) :

انها أن تعملوا وأن يكون لكم أجر
لا يكفي الا للابقاء على الحياة من يوم ليوم
في أطرافكم ، ولتسكنوا في شبه زنزانة
من اجل الطغاة
وهكذا فأنتم لهم مصنوعون ، لتكونوا

أنوالا ومحاريث وسيوفا وحرابا
بإرادتكم او بغير ارادتكم تسخرون
للدفاع عنهم وإنعامهم •

لقد كان هذا التناقض اكثر اهمية . وأيضا اكثر اقلاقا ، من «مجرد تنافس بين الشر الصرف والخير الصرف» ، كما كان دراميا بطبيعته ، لانه انطلق انطلاقا مباشرا من الصراع المعاصر • ولا يستطيع ان يقدّر الغضب الذي يتقد في تحدي بروميثيوس الا الذين درسوا فظاظة ورياء ونفاق الطبقة الحاكمة في ذلك الوقت كما تكشف عنه قوانينها الخاصة بالتسييج والالعاب ونظامها المتعلق بدفع أجور العمـــال الزراعيين من الضرائب المحلية ونظامها الخاص بدفع بضائع للعمال بدلا من أجور نقدية ، والذين يقفون حيثما كان سيقف شيللي ازاء الآلام التي هي ليست أقل شأنا ، والتي هي النصيب المشترك لأكثرية الجنس البشري اليوم :

ايها الشيطان . انني أتحداك ! بذهن هادىء ثابت ،
كل ما تستطيع ان تنزله أدعوك ان تفعله ،
الطاغية القذر للآلهة والجنس البشري معا ،
ان مخلوقا واحدا فقط لن تخضعه •

وفي حياة شيللي ، كان أواخر الفلاحين الانجليز قد طردوا مـــن حقولهم المشتركة الى الدروب ، ومن هناك حشروا في الملاجىء والسجون ومصانع القطن ومناجم الفحم ، حيث عملوا ، رجالا ونساء وأطفالا ، في ظروف لا تزال متماثلة في مناطق من أمثال جامايكـــا وجوهانسبرغ وبومباي • وكانت فترة الثورة الصناعية هي التي اغنت الاغنياء وأفقرت الفقراء ـ تلك الفترة التي كانت الطبقة الصناعية منهمكة اثناءها فـــي الاطاحة بامتيازات اوليغاركية مالكة للارض متفسخـــة ، بينما كانت

البروليتاريا الجديدة تتعلم ببطء والم كيف تنظم نفسها للتحرك ، بالرغم من الجوع والقذارة واضطهاد الشرطة .

وكان اسخيلوس ديموقراطيا معتدلا ، كان قد رأى الصراع الطويل بين ملاك الاراضي والنجار ينتهي في النظام التوافقي ، متميزا بالغاء الامتيازات الارستوقراطية وشمول كامل المواطنين بالحقوق السياسية . الا ان من الضروري التذكر بان هذا الاتفاق كان مدينا باكتماله الى انه كانت توجد طبقة اخرى لم تكن حرة . فالعبيد كانوا بروليتاريا الديموقراطية القديمة ، ولو لم يكونوا عبيدا ، عاجزين عن تنظيم انفسهم وبالتالي عاجزين سياسيا ، لاعقب اسقاط الارستوقراطية مالكة الارض صراع بينهم وبين اسيادهم . ولم يكن اسخيلوس قادرا على اعتبار الثورة الديموقراطية دمجا او اتحادا بين الاضداد معبرا عنه بتصالح زيوس وبروميثيوس ، الا باستثناء هذه الطبقة من مفهومه عن الديمقراطية بالذات .

وكان شيللي فردا من القسم الاعلى من الطبقة الوسطى كان قد حول ولاءه الى البروليتاريا . ولكن هذه لم تكن بروليتاريا مستعبدة، انها كانت حرة وتطالب فعلا بحق التصويت . ولم يكن يوجد بين هذه الطبقة والرأسماليين اي مجال للحل الوسط ، لان مصالحهما كانت متناقضة ، وهذا ما جعل قبول الاستنتاج الاسخيلوسي امرا مستحيلا على شيللي . وقد كان حتما عليه ان يتمرد على فكرة المصالحة بين البطل ومضطهد الجنس البشري . اما عن بديله ، فحتى في تلك الايام الاولى كان يوجد البعض ممن رأى بوضوح تقريبا بأن الحل الممكن الوحيد هو نزع ملكية الطبقة الحاكمة على يد الطبقة التي كانت قد حرمتها من الملكية . الا ان شيللي ، بسبب من عدم نضج البروليتاريا ، التي نادرا ما كانت واعية مستقبلها في ذلك الوقت ، وبسبب من وجهة نظره الخاصة التي هي وجهة نظر الطبقة الوسطى ، والتي لم يكن قد تخلص

منها كليا ، جفل من فكرة العمل البروليتاري • ولذلك ، فان جوبيتره يُطاح به ؛ ولكن ليس الا بالقوة الخفية للمقاومة السلبية •

وانصافا لشيللي ـ ينبغي ان نضيف انه بينما كان اسخيلوس يحتفل بثورة سبق ان رآها متحققة ، لم تكن ثورة شيللي في هذا الوقت اكثر من امل بالمستقبل ؛ وهكذا بقيت طوال قرن •

مراجـع

Childe, V.G. Man Makes Himself. London. 1936.

Mahaffy, J.P. History of Classical Greek Literature. London, 1880 .

Burke, E. Reflection on the Revolution in France. 4 ed. London, 1790 .

Lenin, V.I. Materialism and Empirio - Criticism. London, n.d.

-١٨-

بعد اسخيلوس

يسجل آخر اعمال اسخيلوس نقطة انعطاف في تطور التراجيديـــا اليونانية • فأولا انه يختتم عملية التوسع والتنسيق التي كانت قد بدأت عندما تشكلت الرباعية لاول مرة • وعند هذه النقطة ، تتوقف الرباعية عن التطور وتنقسم الى أجزائها المكوّنة • وتستمر المسرحية الساتيرية، ولكن بحيوية آخذة بالتناقض • والوحدة الجديدة هي التراجيديـــا المنفردة، التي اصبحت الآن قائمة بذاتها • وهكذا ، فعلى يد سوفوكليس (٤٩٥ ــ ٤٠٥ ق•م) ويوريبيديس (٤٨٠ ــ ٤٠٥ ق•م) ، ارتد الشكل الفني الى مرحلة سابقة من تطوره ، ولكن هذه التراجيديا المنفردة تتميز في ذات الوقت بسمات معينة يمكن ردها الى الوظيفة المميزة للمسرحية الثالثة من الثلاثية الاسخيلوسية • ولذلك فهو ليس مجرد ارتداد الـى نمط على مستوى اعلى •

وثانيا ، ان الفن لم يطور الا في هذه المرحلة ما اصبح يعتبر في النهاية واحدة من صفاته المميزة الرئيسية • ووفقا لأرسطو ، لا بد للحبكة التراجيدية من ان تتألف من تحول من الطالع الحسن الى السيء • ولا ينطبق هذا المبدأ الا بصورة محدودة جدا على عمل اسخيلوس ، لان الخاتمة الاعتيادية لثلاثيته كانت تحولا في الاتجاه المغاير • وإذن فمن هذه الناحية لا يزال عمله قديما ، محتفظا بالتسلسل البدائي للمسرحية الدينية ، التي كان موت الإله فيها يعقبه نشوره •

ولا يمكن تفسير هذه التغيرات التركيبية في الفن الا بالرجوع الى عوامل خارجية • ولذلك ، وقبل ان ننتقل الى اعمال سوفوكليس ويوريبيديس ، علينا ان نتوقف لنتأمل في التطورات التي كانت تقع في المجتمع الاثيني •

ان المعطيات الخاصة بسكان اتيكا في القرن الخامس قبل الميلاد على درجة من النقص والغموض بحيث لا تسمح بأكثر من تقدير تخميني • وبالنسبة لفترة الحروب الفارسية فان كل ما يمكن قوله هو ان عدد المواطنين ربما كان أقل مما كان عليه عند اندلاع الحرب البيلوبونيسية ، وان عدد الاجانب المقيمين والعبيد كان بالتأكيد أقل بكثير • ووفقا لاحدث التقديرات ، كان يوجد في عام (٤٣١ ق٠م) ١٧٢٫٠٠٠ مواطن على الاقل ، بضمنهم نساؤهم وأطفالهم ، و٢٨٫٥٠٠ اجنبي مقيم على الاقل ، ولا اكثر من ١١٥٫٠٠٠ عبد • وهذا يعني ان العبيد كانوا يتجاوزون فعلا نصف عدد السكان الاحرار ، وان ما يزيد قليلا عن ربع اجمالي عدد البالغين كانوا يملكون حق التصويت •

وقد اصبح عمل الأرقاء واحدا من اكثر الحقول انتاجية بالنسبة لاستثمار رأس المال • فقد ملك (نيكياس) الف عبد ، استأجرهم للعمل في المناجم • وملك (هيبونيكيس) ستمائة عبد ، استخدمهم للغرض

ذاته • ومن عدد العبيد المستخدمين في المناجم ، فان كل ما نعرفه هو ان اكثر من عشرين الف قد هربوا في عام (٤١٣ ق٠م) الى الاسبارطيين، ومن المحتمل ان معظم هؤلاء كانوا عمال مناجم • كما استخدم العبيد بأعداد كبيرة في قلع الصخور والنقل •

وبما ان عرض العمال الارقاء قد ازداد ، فقد انخفض الطلب على العمال الاحرار ، الامر الذي كان من نتائجه هو ان العامل الحر كان اما عاجزا عن العثور على عمل وإما ، اذا لم يجد عملا ، كان مضطرا الى العمل في ظروف هبطت به الى المستوى الاقتصادي الذي كان عليه العبد • وإزاء هذه المنافسة المدمرة لم تكن للمستوطن اية حماية ، لانه لم يكن يملك اي حق مدني ، وبالتالي فقد انحط الاجانب الفقراء الى مركز يصفه ارسطو بأنه «عبودية محدودة» • الا ان وضع المواطن كان مختلفا • فالطبقات الدنيا استخدمت حقوقها السياسية التي كسبتها حديثا لترغم الدولة على اعاشتها بغير ان تعمل اطلاقا • وفي غضون السنوات العشرين ، من (٤٥٠) الى (٤٣٠) قبل الميلاد ، وفي ظل زعامة (بيريكليس) ، جرى تبني وتوسيع مبدأ الدفع على الخدمات العامة ، بما في ذلك الحضور في المحاكم القانونية ، باعتبار ذلك سياسة للدولة دائمة • وكانت نتيجة ذلك هي انه كان في نهاية تلك الفترة اكثر من عشرين الف مواطن ــ اي ما بين ثلث ونصف مجموع المواطنين ــ يعالون بشكل او آخر على حساب الدولة • وكان هذا هو الثمن الذي به احتفظ بيريكليس بدعم الشعب •

ومن اين اتت الاموال ؟ ان حقيقة ان هذه السياسة نفذت بلا معارضة فعالة تكفي للبرهنة على ان العبء لم يقع على الاغنياء • وقد اتى جزء من هذه الاموال من الضرائب الجمركية على التجارة والضرائب المأخوذة من الاجانب المستوطنين ، الذين تركزت التجارة في أيديهم •

كما اتى جزء آخر من الامبراطورية التي كانت قد خلقتها اثينا الآن بتحويل ائتلاف المدن الحرة الذي نظمته لغرض حرب التحرير ضد فارس قبل حوالي ثلاثين عاما . وقد قدر الايراد الداخلي في هذه الفترة بأربعمائة طالين (*) ، حيث كان يحصل معظمه من ضرائب من النوع الذي اشرنا اليه قبل قليل ، ولربما كان متوسط التقدير السنوي للجزية المأخوذة من الدول التابعة اربعمائة وستين طالينا . وهكذا كانت ثروة المجتمع يديرها جزء منه كان له الدور الاقل في انتاجها . وقد اصبح مواطنو اثينا طبقة ذات دخل ثابت ، تعيش متطفلة على عمل الآخرين .

وبطبيعة الحال ، لم تفعل هذه الاجراءات اي شيء لتستأصل اتجاه الثروة نحو التركز في جبهة واحدة من المجتمع ، ذلك الاتجاه الذي هو طبيعي في اي اقتصاد قائم على الملكية الخاصة ، وبالتالي فهي لم تعمل الا على توسيع أوجه اللامساواة التي صممت لازالتها . وقد تضخم سكان المدينة ، الذين كانوا يطعمون بحبوب رخيصة مستوردة من ملحقات اثينا في الخارج ، بتدفق الفلاحين بصورة مستمرة من الريف الاتيكي ، الذين لم تعد الزراعة تدرّ عليهم اية أرباح ، بسبب منافسة الحبوب الاجنبية . وهكذا فان الطلب على المواد الغذائية المستوردة لم يزد الا مع العرض . وبالطريقة ذاتها ، فان العديد من المواطنين المفقرين الذين حاولت الدولة التخلص منهم باسكانهم في الخارج في اراض مستولى عليها من الدول المفتوحة وجدوا ان المربح بيع ممتلكاتهم

(*) (الطالين) : وحدة نقدية يونانية قديمة كانت تقدر قيمتها بوزن معين من الذهب او الفضة . وقد تفاوتت قيمتها بتفاوت الازمنة والامكنة، الا انها كانت كبيرة في العادة ، حيث يقدر وزن اصغرها بحوالي سبعة وعشرين كيلوغراما (المترجم) .

والعودة الى اثينا • ولم تستطع الدولة الابقاء على نفسها على هـــذا الاساس الا بالتوسع المستمر • وكانت قد سارت على طريق أدى بصورة حتمية الى الحرب • وكان اقوى دعاة هذه السياسة هم بطبيعة الحـال الراديكاليون ، الممثلون لجميع أولئك الذين كانوا يكافحون من اجل الحفاظ على مستوى معيشتهم ضد خطر الاسترقاق المتزايد • وعلى ذلك فقد كان الديموقراطيون المتقدمون هم الذيـــن اصبحوا الآن اكثر الاستعماريين تحمسا • وقد أذعن المواطنون الاغنياء طالمـــا لم تُمس دخولاتهم الخاصة ، ولكنهم لم يكونوا متباطئين في التحرك حين تمردت الامبراطورية• وقبل نهاية الحرب بفترة قصيرة، وحين كانت الامبراطورية تتداعى ، أطيح بالديموقراطية واستبدلت بنظام حكم كانت سياسته «أن يضمن للوظائف المدنية العليا اشخاصا لهم كفاءات خاصة ، وأن يحتفظ بامتيازات الكومونويلث للاثينيين الذين بمقدورهم التمتع بها ، وان ينكر اي حق في القرارات السياسية على أولئك الذين كان يعوزهـــم رصيد من الملكية ملموس في المجتمع» ــ وبكلمة أخرى ، فبدلا من ان يتنازل الاغنياء عن ثرواتهم فقد استهدفوا تقييد الفقراء بحرمانهم مـــن الحقوق المدنية ، التي كانت هي حمايتهم الوحيدة من منافسة العمـال الارقـاء •

هكذا كانت التناقضات المستعصية التي حطمت الديموقراطيـــة الاثينية نفسها عليها • والدستور الذي أوجد في بداية القرن باســم المساواة قد اطاحت به في النهاية الطبقة التي كانت قد أوجدته باســم اللامساواة • والطبقة التي كانت قد وثبت الى السلطة استنادا الـــى ادعائها بأن الدولة يجب ان يحكمها أولئك الذين ينتجون ثرواتها رأت الآن دخلها غير المكتسب يهدده منافسون يطالبون بالعائدات من الضرائب المفروضة على التجار ومن استغلال عدد كبير من الارقاء • وصرخـــة

الحرية ، التي كانت قد اطلقت بحماس ضد الغزاة الفرس ، قد اصبحت طنينا فارغا ؛ لان السياسة التي دافع عنها بيريكليس ، بالرغم من انه ربما غطاها بكلمات معسولة ؛ كانت تعني بأن الحرية يجب الحفاظ عليها في الداخل عن طريق كبتها في الخارج . لقد حولت الديموقراطية الى نقيض الديموقراطية .

لقد أثارت هذه التناقضات في الوعي الانساني شعورا كامنا بالصحو من الوهم وبالخيبة ، حاول الهروب منه بصياغة أفكار هدفها نشر ستار على الواقع : فكرة ان اثينا كان مقدرا لها ان تكون «مدرسة هيلاس» (اليونان القديمة) ؛ وفكرة ان العبد كان طبيعيا أدنى من الرجل الحر ؛ وقبل كل ذلك فكرة الـ (سوفروسينا) . فضيلة الاعتدال وضبط النفس ، تلك التي كانت مجسدة في الإلاهة اثينا . وفكرة السوفروسينا هي القاعدة الارستوقراطية القديمة «الافراط لا شيء» في قناع جديد ، ولكن بفرق واحد . ففي الاسطورة الارستوقراطية ، كان الرجل الذي يسعى للكسب بإفراط يحرق لا غير بصاعقة زيوس . وما كان يحدث للرجل الذي كانت مطامحه او رغباته تقوده الى ما وراء حدود السوفروسينيا هو انه كان يحصل على النقيض مما كان يسعى وراءه . وهذه الفكرة ، التي تصبح من القرن الخامس فصاعدا عنصرا سائدا في الفكر اليوناني ، لا بد من ردها الى اصلها .

ان التناقضات الاجتماعية التي بلغت ذروتها بعد الثورة الديموقراطية كانت مستعصية الحل ، لانها كانت موروثة في نظام قائم على الملكية الخاصة ، وكان نمو الملكية الخاصة هو الذي أوصلها الى ذروتها عن طريق الثورة الديموقراطية . واضافة الى ذلك ، فان ما سهّل وعجّل نمو الملكية الخاصة هو تطور النقود . ويقول ارسطو ، في بحثه هذا الموضوع ، الذي هو واحد من أبرز ما في كامل مجموعة آثاره بسبب

عمق بعد نظره ، ان وظيفة النقود الاصلية كانت تسهيل عملية التبادل ـ البيع من اجل الشراء . وطالما كان استخدام النقود محصورا بهذا الغرض، فقد كان محددا بكونه مجرد وسيلة لغاية : تلبية الاحتياجات الفورية . واستخدام النقود هذا (وهنا تبدأ افكاره الاجتماعية دورها) يعتبر طبيعيا وعادلا . ولكن ما هي الا فترة قصيرة اصبحت بعدها النقود مستخدمة لغرض جديد : الشراء من اجل البيع . فالتاجر يشتري بثمن رخيص ليبيع بثمن غال . وأصبح الحصول على النقود غاية بذاتها ، وبهذا الشكل فهو لا حد له . والحقيقة ذاتها صيغت في العصر الحديث من قبل ماركس :

> ان تبادل السلع البسيط (البيع من اجل الشراء) هو وسيلة لتنفيذ عملية تقع خارج مجال التبادل ، وسيلة لتحديد القيم الاستخدامية ، لغرض اشباع الحاجات . ومن جهة اخرى ، فان تبادل النقود كرأس مال هو غاية بحد ذاتها ، لان توسع القيمة لا يمكن ان يحدث الا داخل هذه الحركة المجددة باستمرار . وبالتالي ، فليس لتداول رأس المال اية حدود .

ان هذا ، في الواقع ، هو ما كان قد قاله صولون في بدء الثورة النقدية الاثينية : «ليس للثروة حدود» . واضافة الى هذا ، وكما يذكر ارسطو ، فلاسباب مختلفة ، كالانخفاض في قيمة النقود ، يمكن ان يؤدي السعي وراء الثروة لذاتها الى عكس المقصود : فما ان يكدس الانسان النقود الا ليجد نفسه مثل ميداس يتضور جوعا وسط ذهبه .

وفي ظل الارستوقراطية المالكة للارض ، كانت العلاقات بين الفلاح ومالك الارض بسيطة وواضحة . فقد دفع الفلاح الجزء الاكبر من

انتاجه الى سيده . وكانت هذه العلاقة معبرا عنها في الصيغة البسيطة ، الافراط لا شيء . الا ان العلاقات الاقتصادية اصبحت ، بتطور النقود، معقدة وغامضة على نحو متزايد . وكان المنتج يأخذ بضائعه الى السوق فلا يجد شيئا امامه سوى ان بضائعه لا يمكن بيعها ، لأن آخرين كانوا قد انتجوا من نفس البضائع اكثر مما كان يوجـد مشترون لابتياعها . وكان المضارب لا يضع رأسماله في مشروع صناعي الا ليجد ان ازمـة نقدية ، كان هو قد أسهم دون وعي بالتعجيل بها ، قد سرقت منه الارباح المتوقعة . وكان يجد نفسه ضحية عملية تقع خارج فهمه وسيطرته .

وحين ادخلت النقود لاول مرة . فقد اعترف بها كقوة جديدة مقدر لها ان تزيد من سيطرة الانسان على الطبيعة بدرجـة لا سابق لها . «الانسان هو نقد» : هكذا كان قول مواطن من احدى أوائل الـدول اليونانية التي سكت النقود . وما من شيء لا تستطيع النقود شراءه ، وما من شيء لا يمكن ان يكونه الرجل الذي يملك نقودا . الا ان هذه القوة سرعان ما اعتبرت متناقضة المضامين . وكما كتب سوفوكليس :

ان النقود تكسب الصداقة والشرف والمكانة والسلطة ،
وتضع الانسان قريبا من عرش الطاغية المغرور .
كل المسالك المطروقة وغير المطروقة من قبل
تتسلقها الثروة الخفيفة الحركة ، حيث الفقراء
لا يستطيعون ابدا ان يأملوا في تحقيق أمنية القلب .
ان رجلا مشوّه الخلقة بالطبيعة وعيّ الكلام
ستجعله النقود حسنا في العين والأذن .
ان النقود تكسب الرجل صحته وسعادته ،
والنقود وحدها تستر الظلم .

وهكذا نجد نفس الشاعر يشجب النقود لانها اساس كل الشرور :

من بين كل الاورام الخبيثة السائدة في العالم
فان اسوأها النقود • فالنقود تطرد الناس من بيوتهم ،
تنهب المدن الكبيرة ، وتدفع الذهن النزيه الى
الممارسات المخزية والكفر والجريمة •

لقد عاد الاختراع ليبتلـــــي المخترع • واذ وسعت النقود مجال عملياتها ، متغلغلة في كل مناحي حياة الانسان بتأثيرها التخريبي ، فقد اخذ الناس يدركون بأن هذا العبد الاصفر قد اصبح سيدهم • وبما ان عملياتها كانت تقع خارج سيطرتهم ، فقد كانوا لا يستطيعون تفسيرها الا باتخاذها مثلا اعلى باعتبارها قانونا كليا • ومن هذا الوقت فصاعـــدا يجري في الادب اليوناني التقليد المتواصل القائل بأن السعي المفـرط لا وراء الثروة فحسب ، بل وراء الصحة والسعادة وجميع الاشيـــاء الجيدة والمرغوب فيها بحد ذاتها ، يمكن ان يخلق أضداد هذه الامور • وكما قال ايسوكريتيس ، ان الناس الذين حصلوا على ثروات كبيرة لا يمكن ان يخلدوا الى القناعة ، وانما يجازفون بما يملكون عن طريـــق سعيهم وراء المزيد • وكما قال (باكخيليديس) ان روح الغـــرور او الافراط لا تهب الانسان ثروة جاره الا لتغطسه في هاوية المصائب • وكما قال (هيبوقراط) ان أحوال الرفاه الجسدي المفرطة خطرة لانها لا يمكن ان تبقى مستقرة • وقال اسخيلوس الشيء نفسه عن الصحـــة والسعادة :

اذا حَسُنَت صحة الانسان اكثر من الحد الوسط اللازم

فسرعان ما ستتجاوز حدود المرض ، الذي يقف
جارا ملاصقا ، بينهما جدار رقيق •
وهكذا يفعل انتقال الحياة ،
الذي تسرع به نسمة رخاء ،
فتتحطم على صخور الكارثة •

وقد لقيت الفكرة صياغتها الادق والاشمل في كلمات افلاطون : «في الفصول ، في النباتات ، في الجسد ، وفي المجتمع المتمدن قبل كل شيء ، يسفر التصرف المفرط عن تحول عنيف الى نقيضه» •

وقد كان اسخيلوس قادرا على ان يستوعب الديموقراطية وهي في عنفوانها • وقد عكس مفهومه عن التقدم ، بأنه نتيجة للصراع ، انجاز الثورة الديموقراطية الايجابي • الا ان وجهة نظره اخذت بالتوقف عن طابعها التقدمي في سنواته الاخيرة ، عندما حث مواطنيه على تـــرك قوانينهم بلا تغيير • ولم يستطع ان يدرك ان توفيقه بين الاضداد لم يكن الا معادلة مؤقتة كان لا بد ان تنشأ عنهـــا متضادات جديدة • وهكذا بدأ المد بالانحسار • وعلى يديه ، كانت الجوقة التراجيديـــة لا تزال تحتفظ بشيء من وظيفتها البدائية : حيث كانت مصممـــة لاثارة وتنظيم الموقف الذهني المناسب للفعل التالي • وعند سوفوكليس ، تفقد صفتها الديناميكية هذه • وعند يوريبيديس ، تنحو الى ان تكـــون فاصلة موسيقية لا علاقـــة لها بالاداء • وبالمثل ، انقسمت الثلاثيـــة الاسخيلوسية الى مجموعة من التراجيديات المنفردة ، ولم يظل التوفيق الا في ذلك الشكل الضامر من استخدام إله تنزلـــه على المسرح اداة ميكانيكية لانقاذ البطل او حل العقدة ، وهو خاتمة وجيزة ليست لها اية علاقة عضوية بالحبكة • وكان مركز الاهتمام قد انتقل من التوفيق الى

التضاد . وفي ذات الوقت فقد ظهر شخص البطل المأساوي في شكلـه الناضج : رجل طيب تدمره ارادته الذاتية . وهذا التحول فـي طالعـه يتحقق استنادا الى مبدأ البيريبيتيا ، الذي يعرّفه أرسطو بأنه «تحول الفعل الى نقيضه» . فالبطل يجلب لنفسه الكارثة بقيامه بعمل يؤدي الى عكس ما كان قد انتوى . ومأساته اذن هي مأساة المجتمع الذي خلقه .

ان مبدأ البيريبيتيا يمكن ، بطبيعة الحال ، تقصّيه في اسخيلوس. فقد أضاع زركسيس امبراطوريته لانه أفرط في الرغبة في اكتساب اكثر مما ينبغي ، والظروف التي لقي فيها ايتيوكليس مصرعه كانت من صنع يديه. الا ان عمى زركسيس ليس الا مظهرا للغرور الذي يسبق السقوط، وبالرغم من ان الوضع الذي يجد ايتيوكليس نفسه فيه هو ليس ما توقعه. الا ان لديه فرصة الانسحاب وتحديد اختياره بعلم تام بالعواقب . ففي هذه المسرحيات ، اذن ، لا يزال المبدأ بدائيا . ولكي نراه في ذروته ، علينا ان ننتقل الى اجمل اعمال سوفوكليس .

لقد رفع سوفوكليس التراجيديا المنفردة الى مستوى من الكمال الفني يضارع في سموه الثلاثية الاسخيلوسية ، وان مما يجعل هـذا الانجاز اكثر بروزا هو انه قد اختار باستمرار مصدرا لعمله ذات الاساطير التي سبق ان مَسرحها سابقه ؛ وهو أبعد ما يكون عن محاولة اجتناب المقارنة مع اسخيلوس . وكما كيّف شكل الفن لوجهة نظره بالذات ، فهو ، باعادة تفسير محتواه ، جعله خاصا به كليا . والى جانب هذا ، فلأن تفسيره الخاص كان جديدا ، فقد كان في وضع يمكنه من استغلال عمل اسخيلوس ، الذي كان ، طبعا ، مألوفا لدى جمهوره ، برجوعـه بشكل متعمد اليه لكي يوفر تأثيرا ما او يشير الى مغايرة معينة . ولا بد من استيعاب تام لهذا المبدأ لفهم سوفوكليس . وحيث ان عمل اسخيلوس المقابل قد اندثر ـ مثلا مسرحيته (اوديبيس) ومسرحيته (فيلوكتيتيس) ـ

فان تقديرنا للمسرحيات السوفوكليسية عن هذه الموضوعات هو ناقص بالضرورة • الا اننا لحسن الحظ نملك في (ايليكترا) مسرحية تغطي بالضبط ذات الاساس الذي تقوم عليه مسرحية (حاملات الشراب)• وكما قال (هيدلام) منذ عدة سنوات : «في ايليكترا سوفوكليس ، تكاد ألا توجد اية لمسة لا يسكن العثور عليها بشكل او آخر فعلا فياسخيلوس»•

وبالنسبة لسوفوكليس ، المتأهل في (الاوريستيه) ، كان السؤال الذي طرح نفسه : ماذا حدث لإيليكترا ؟ كان اسخيلوس قد بيَّن ، عن طريق اللعنة السلفية ، كيف ان فتاة بريئة حولت الى كلايتيمينيسترا ثانية• ولكنه تركها عند هذا الحد لان خطة ثلاثيته تطلبت تركيز انتباه الجمهور على نتائج اطاعة وحي أبولو بالنسبة لأوريستيس • ولم يكن سوفوكليس مهتما بحل منطويات الوحي او استنتاجها ، حيث يذكرها وفقا لذلك ، وبتغاير مع اسخيلوس يلفت النظر ، بعبارات تلقـي على اوريستيس مسؤولية تفسير الوحي على انه امر بقتل أمه • وبهذه الوسيلة ، تستبعد بدقة المسألة اللاهوتية ، التي كانت بالنسبة لاسخيلوس جوهرية • وبهذا الشكل ايضا ، فهو ليس مهتما باللعنة السلفية ، او ، بالاحرى ، فقط بالواقع الذي هي رمز له ـ اي بتأثيرات التربية والبيئـة في السمات الشخصية لشاب وأخته •

وفي حالة اوريستيس ، فان وظيفة اللعنة يؤديها (المرشد) ، الذي يرافقه في العودة الى آرغوس • وهذا الشيخ المفعم بالحيوية والقاسي القلب ، الذي كان مسؤولا عن اوريستيس منذ ان أبعد عن وطنه وربَّاه لغرض مرسوم للمهمة التي ينهمك فيها الآن ، هو تجسيد ملائم للمصالح السياسية للعائلة المالكة • وهو الذي ، بعد ان يدل الفتى على قصر آبائه الغني ويدربه على تفاصيل المؤامرة ، يأمره بخشونة بالخروج عن الطريق عندما يسمع أخته تبكي في الصباح الباكر ، وهو الذي يقطع تنهدات

فرح الاثنين البائسين حين يلتئم شملهما بسعادة برهةً من الوقت • وهو يدرك بأن اكبر المهام التي يواجهها ، بالرغم من كل تدريباته ، ان يضغط على هذا الفتى الرقيق القلب بحيث يضعه على حافة قتل أمه • ويتوضح في المسرحية بجلاء بأنه لولا يقظته المستمرة وتدخله في الوقت المناسب لانتهت المؤامرة بالفشل • وفي كل هذا نرى تطورا لاحدى الوظائف التي خصصها اسخيلوس لجوقته • ومن السمات التي يتميز بها سوفوكليس هي ان هذا العنصر الديناميكي يحوّل الى احد الممثلين •

ان الفرق بين اوريستيس وايليكترا هي انه بينما كان سلوكه قد أملاه في الواقع عليه أسلوب تربيته ، فان سلوكها هو اختيارها الخاص ، حيث احتفظت بعنادٍ به امام معارضة هائلة • وهي ، اذ تتسم بالصمت الغاضب والتحدي بالتناوب . ولا تكف مطلقا عن شجب القتلة وتذكرهم دائما بالامل الذي علقت عليه كل شيء — مجيء اوريستيس — تتعرض لكل الاهانات والاذلال وتعيش في تعاسة وقذارة كالعبد ، متحصنة باعتقادها بأنها لا تستطيع ان تبقى وفية لذكرى ابيها الا برفض التساوم• وعلمها بأنها بقيامها بذلك انما تُرغم على التصرف بشكل تخجل نفسها منه هو عذاب لها • ولقد كان شعورها بالترفع ، الذي يجعل من المستحيل عليها ان تغفر قتل ابيها ، قد ورطها في موقف يكون فيه الترفع مستحيلا • انها تدرك التناقض بنفسها ، الا انه لا مهرب منه • وحين ترجوها اختها (خريسوثيميس) ان تكون متعقلة ، ترد بحدة بأن تعقلها خيانة لأبيها • وخريسوثيميس هي الشيء الذي اختارت ايليكترا عمداً ألا تكونه — واحدة كانت قد قررت «ان تطيع أسيادها في جميع الامور من اجل ان تكون حرة» • وهذا التلميح الى المثل الذي استشهد به اسخيلوس في (حاملات الشراب) : « ايها العبد ، أطع أسيادك على

صواب او خطأ» . يعبر عن جوهر المحنة . أخت تتمتـــع بحياة حرة لان لها روح عبد، والاخرى تعامل وكأنها عبد لانها ترفض الخضوع. وعلى ذلك ، فحين تحذرها جوقة اصدقائها بأن امعانها في موقفها لا يمكن ان يؤدي الا الى مصيبة مهلكة ، فهي لا تنكر ذلك ، ولكنها تصر على ان موقفها قد فرضته عليها الضرورة الصرفة . واذ تجابهها أمها ـــ وهـــي امرأة حجَّر قلبها النجاح دون اي شعور بالخجل (بالرغم من انها نفسها ستشعر بألم خاطف عند خبر وفاة ابنها . مبينة بأن لفسادها ، هو الآخر، تاريخا) ـــ تصبح غاضبة وعدوانية اللهجة . وتقول لها : «انك تعترفين بأنك قتلت ابي» . «اي شيء يمكن ان يكون اكثر انزالا للعنة الابدية، مبررا كان او غير مبرر ؟» . وبالنسبة للجمهور ، فان الجواب عن هذا السؤال هو على درجة من الوضوح بحيث يترك ليتحدث عن نفسه في تعاقب المسرحية . والاتهامات التي توجهها ايليكترا الى أمها تتردد بشكل بغيض كالحجج التي تسعى كلايتيمنيسترا لتبرر بها قتلها لزوجها ، حيث تجعلنا نشعر بأن ما عليه الام يمكن ان تصبح عليه البنت . والحقيقة ، يبدو ان ذات الشعور يؤرق ايليكترا نفسها ، لانها تقول :

بالرغم من انك لن تصدقيني ، فمن كل هذا
انا خجلة ـــ انا ادرك انه خطأ ،
على النقيض من نفسي . لقد دفعتني اليه
آثامك وكرهك لي .
ان العار هو معلم للعار .

لقد وضعت تفصيلا خطة العمـــل التي اتفـــق عليها اوريستيس ومرشده ، ولكنها حين وضعت موضع التطبيق كادت ان تتحطم برمتها

بطاريء غير متوقع • وفي (الحاملات) ، حين يسلـــم اوريستيس خبر موته هو ، تعلم ايليكترا انه زائف ، لان هويته سبق ان كشفت لها • ويقلب سوفوكليس ترتيب هذه الاحداث • فالمرشد لا يجرؤ على السماح لأوريستيس بأن يكشف عن نفسه سلفا ، لانه لا يثق به ، ولذلك فهو مضطر الى ان يترك للصدفة تأثير الخبر في الفتاة التي اعلنت بأن املها في اخيها هو الشيء الوحيد الذي يمكنها من الاستمرار فـي الحياة • والمرشد ، بطبيعة الحال ، غير مبـال بمشاعر ايليكترا ، ولكـــن اوريستيس ليس كذلك • ولو كان يمتلك خيالا ومبادرة اكبر ، لكان قد تنبأ بهذا الطاريء ، الذي يأخذه في الواقع هو ومرشده على حين غـرّة •

والخبر هو ان اوريستيس قتل بسقوطه من عربته عندما كان متقدما في المرحلة الاخيرة من سباق في الالعاب البيثية في دلفي • وهذا هـو سائق العربة الاسطوري في مسرحية (الحاملات) ، الذي يخوض مـرة اخرى سباقه بتوجيه ابولو (الفصل الخامس عشر) • الا ان سوفوكليس يعطي الموضوع اتجاها جديدا بتذكيرنا عن طريق جوقته بالقصة ، التي تجاهلها اسخيلوس ، المتعلقة بسباق بيلوبس في اوليمبيا • وندرك ، ونحن تتذكر هذا ، وفي الوقت الذي نصغي فيه الى السيرة الطائشة لآخر أبطال أسرة بيلوبس ، بأنه محكوم عليه بالهلاك •

وهذه هي النقطة التي يُدخل عندها سوفوكليس الفكرة الرئيسية لاكتشاف خصلة الشعر التي وضعها اوريستيس على ضريح ابيه ، كما ان خريسوثيميس ، وليس ايليكترا ، هي التي تكتشفها • ولكنهـا حين تجلب الخبر المبهج الى اختها ، تُقابل بتأكيد تام بأن اخاهما قد مات • وفي ذات الوقت ، فكرت ايليكترا ، وهي تبذل كل ما لديها من قوة ارادة لاستعادة رباطة جأشها بعد تحطم املها الوحيد ، بالطريقة اليائسة

المستقلة ، وهي قتل اجيسثوس نفسه ، التي تدعو الآن اختها لمساعدتها فيها • وطبيعي ان خريسوثيميس لن تصغي الى دعوة من هذا القبيل ـ حيث ان ذلك ، كما تقول هي بصواب ، جنون ـ وهكذا تعلن ايليكترا، التي كان يصعب ان تتوقع اي جواب آخر ، بأنها ستقوم بالمحاولة بمفردها ؛ اذ ان اسوأ ما يمكن ان تسفر عنه هو موتها هي • وفي هذا الوقت نشاطر شعور خريسوثيميس والجوقة بأنها مريضة عقلياً •

ويظهر اوريستيس متنكرا ، حاملا جرة يفترض انها تحتوي رماد جثته • وهذا ، ايضا ، جزء من الخطة المعدة سلفا ، اذ ان الهدف منها هو دعم الرسالة التي سبق تسليمها في حالة فشلها في حمل الآخرين على التصديق بها • وتضم ايليكترا الجرة الى صدرها وتنفجر في مناحة • وهذا اكثر مما يستطيع احتماله اوريستيس • واذ يضرب بتعليماته عرض الحائط ، يخبر ايليكترا ، التي كانت تتمزق في طوفان من اليأس المنفعل ، بأن الاخ ، الذي لا يزال يمسك برماده بين يديه ، يقف امامها• وقد كان من الحماقة ان يفعل هذا ؛ ليس لانه يعرّض المؤامرة للخطر ، بل لان هذه الضربة الاخيرة تحمل أخته على الجنون • فلقد سمعت قبل دقائق معدودات بأن أخاها ميت ، وفي مجابهتها هذا الموقف فقدت آخر ما فيها من قوة • والخبر بأنه ليس ميتا بعد كل ذلك شيء اكثر مما تستطيع احتماله • وتلقي نفسها بين ذراعيه ، ثم ، وهي تنتزع نفسها ، تنادي الجميع بأعلى صوتها بأن اوريستيس قد عاد • ويجاهد اخوها عبثا لتهدئتها ، ولا ينقذ الموقف الا (المرشد) الداهية ، الذي ، وهو ينتظر حتى تنتهي نوبتها الهيستيرية ، يبقى يراقب باب القصر عن كثب •

لقد حلت الآن الازمة • فقد دعي للمجيء أجيسثوس ، الموجود الآن في الريف • وكلايتيمنيسترا موجودة في البيت • ويدخل اوريستيس ، مصحوبا بمرشده • وبعد ان يذهبا ، يوجد ستاسيمون

تصير تصفهما فيه الجوقة ، التي لا تظهر من بعد النظر الا قليلا في هذه المسرحية كما هو شأنها في مسرحية (الحاملات) ، تصفهما بأنهما «كلبا صيد لا سبيل للفرار منهما على اثر الجريمة» ، حيث تذكرنا لفظا ووزنا معا بمقدمة الستاسيمون المقابل في مسرحية (الحاملات) • وتسمع صرخات امرأة : «آه ، لقد طُعنت !» وترد ايليكترا صائحة : «اضرب ، اذا كانت لك القوة ، مرة اخرى !» •

وينقل جسد الام الى الخارج ، وقد نشر عليه غطاء • ويعود اجيسثوس • وكان قد سمع بنبأ موت اوريستيس ، فهو متلهف الى دليل عليه • ويشير الابن والبنت الى الجسد الراقد عند الباب • ويطلب اجيسثوس منهما ان يناديا كلايتيمنيسترا • وفي ذات الوقت يتوجه الى الجسد ويرفع الغطاء • ويقول القاتل مبتسما : «ألم تعرفي انك أخطأت في تسمية الحي كما لو كان ميتا ؟» • وأجيسثوس هو الذي يكلفه سوفوكليس بقراءة هذا اللغز : «من المؤكد ، لا بد ان يكون اوريستيس هو الذي يخاطبني ؟» • ويطلب ان يؤذن له بقول بضع كلمات ، الا ان ايليكترا تتدخل : «من اجل الله كفى كلاما • اقتله حالا وألق جسده في الحقول» • واذ يؤمر اجيسثوس بدخول البيت ، يواصل المراوغة ، آملا بشكل واضح ان يمسك بأوريستيس بغفلة منه • وبعد شيء آخر من المزاح ، يدخل ، ويتبعه اوريستيس ، وتبقى ايليكترا على المسرح وحيدة، بينما تنهي الجوقة التراجيديا بالكلمات : «يا بذرة أتريوس ، بعد كثير من المعاناة ، ظهرت بحرية ، بهذه المغامرة التي اكملت» • وتعيد هذه الكلمات الى الذاكرة الستاسيمون الاخير من مسرحية (الحاملات) ، حيث جرى التهليل لخلاص العائلة في غمرة من الابتهاج السيء التوقيت•

ولكي نظهر التأثير الكامل لهذا المشهد الاخير ، فسيكون من الضروري ان ندرسه بالتفصيل ، مبينين كيف ان كل بيت تقريبا ينبض

بذكريات اسخيلوس • ولكن ربما قلنا ما فيه الكفاية للتدليل على الطريقة التي تبناها الكاتب المسرحي • وحين نكون قد فهمنا ذلك ، فمن المستبعد اذ نجابه خطر الوقوع في الخطأ الفاضح وهو افتراض ان سوفوكليس تصور فعلا ان هذين المخلوقين التعيسين كان لهما ما يبرر قتل أمهما • وصحيح انه لا يخبرنا بصراحة بأن الشيء التالي الذي حدث هو ان اوريستيس رأى الايرينيات . الا ان السبب هو انه لا يرغب في صرف انتباهنا عن شخص ايليكترا الصامت • وبقدر ما يتعلق الامر بمستقبل اوريستيس ؛ فهو يترك الجمهور ليتوصل الى استنتاجاته الخاصة من الاوريستيه • ولكن ماذا يخبيء المستقبل لايليكترا ؟ لقد حُقق أملها . وظفرت بخلاصها ؛ ولكن النتيجة هي الوحشة المطبقة :

آه يا لعنة هذه الأسرة الحزينة ، التي لا تقهر ،
ما أوسع رؤياك ! حتى ذاك الذي بدا
حسن التدبير ، آمنا بعيدا عن متناول الاذى ،
صرعتِه بسهامك من بعيد ،
وتركتني وحيدة ، محرومة من كل من أحببتُ •

وليس صدفة ان كان (شيبارد) ، الاختصاصي المعاصر الاول الذي شرح هذه المسرحية شرحا صحيحا ، هو ايضا اول من أخرجها على المسرح ، ذلك ان فن سوفوكليس في اخراج المسرحيات ، حيث تفوق فيه شيء لا يمكن النفاذ اليه • كما ليس من باب الصدفة ، بالرغم من تفسير شيبارد ، ان يستمر سوء فهم المسرحية ، لانها من بين جميع التراجيديات اليونانية تطرح ذلك الشعور بالتناقض الذي هو جوهر التراجيدية الناضجة ، في اشد أشكالها حدّة وحتمية • وقد كان

بمقدور سوفوكليس ومعاصريه احتماله ، ولكنه أعسر من ان تهضمه ثقافتنا المصابة بسوء الهضم • اما عن أولئك الذين يحاولون اللجوء الى الرأي القائل ان سوفوكليس اعتبر الاغتيال مجرد قتل مشروع ، فينبغي القول بأنهم كانوا متصامين عن سماع نداءاته الى حاملات الشراب ، وبأنه ليس من حقهم ان ينسبوا الى سوفوكليس ميلهم هم انفسهم وذلك من اجل حل سهل لمشكلة لا تحل • وقد حاول آخرون ، بفجاجة أقل ولكن دون نجاح اكثر ، ان يجدوا حلا وسطا ما ، او نقطة متوسطة بين ايليكترا وخريسوثيميس ، ستمكنهم من القول بأن البطلة فشلت بشكل ما في ان تفعل ما كان عليها ان تفعله • الا ان هؤلاء النقاد (الذين يسكن ان نسألهم عما كانوا سيفعلون انفسهم في هذه الظروف) غير عالمين ، على ما يبدو ، بأنهم يحاولون نفس مهمة التوفيق بين الاشياء التي يستحيل التوفيق بينها والتي فشلت فيها ايليكترا ببطولة عظيمة • ليس هناك مخرج ، وهنا تكمن التراجيديا — تراجيديا ذات طبيعة عاطفية متقدة تسك بها ذات ممارستها لحيويتها في ملزمة تسحقها •

ولنعد الآن الى مسرحية (اوديبوس تيرانوس) ، التي اعتبرها ارسطو نموذج جميع الاساطير اليونانية •

كان (لايوس) و(جوكاستا) ملك وملكة طيبة • وكان (كريون) شقيق جوكاستا • وتقع الى جنوب طيبة كورينث ، والى الغرب يقع مَوحى ابولو الدلفي ، المقام في خلجان باراناسوس ، الذي كانت منقوشة على معبده الكلمتان : «اعرف نفسك» • وقد ولد للايوس وجوكاستا ابن هو اوديبوس ، الذي تنبأ الوحي بأنه مقدر عليه ان يقتل اباه وأن يتزوج أمه • وبدلا من ان تربي جوكاستا طفلا كهذا ، فقد سلمته الى احد الخدم مع اوامر بأن يتركه ليهلك في التلال • امسا

الخادم ، الذي كان راعيا ، فقد اشفق عليه ، وأعطاه الى راع آخر من كورينث ، حيث اخذه هذا معه الى بيته . وكان ملك وملكة كورينث بلا انفال ، وربياه كطفل لهما .

وبعد عشرين عاما تقريبا عُيِّر اوديبوس الشاب من جانب احد اصحابه بأنه ليس الابن الحقيقي لأبيه . وقد استشار والديه المزعومين في ذلك ، حيث حاولا تطمينه دون كشف الحقيقة . واذ لم يقتنع بتطميناتهما ، قصد اوديبوس الى دلفي واستشار الوحي . وكان الجواب الوحيد الذي حصل عليه اعادة للنبوءة القديمة ، التي يسمع بها الآن لاول مرة . واذ قرر ألا تطأ قدماه كورينث مرة اخرى ابدا ، فقد اخذ طريقه الى طيبة .

وفي هذا الوقت كان سكان طيبة قد أصابتهم الآثار المدمرة التي أنزلها السفينيكس ، الذي فرض عليهم جزية يومية من الارواح البشرية الى ان يمكن العثور على شخص ما ليقرأ اللغز الذي طرحه عليهم . وكان لايوس في طريقه الآن الى دلفي لاستشارة الوحي . وكان يسوق عربة، وكان احد مرافقيه خادمه ، الراعي . واذ صادف اوديبوس فقد حاول ارغامه على الخروج عن الطريق . ونشب عن ذلك نزاع . وضرب لايوس اوديبوس بسوطه . ورد اوديبوس عليه ضربته وقتله . وقتل المرافقين ايضا جميعهم باستثناء الراعي ، الذي هرب وجلب معه الى طيبة الخبر المرعب بأن الملك قتلته عصابة من اللصوص .

وواصل اوديبوس رحلته حيث وصل الى طيبة ، وكان اول عمل قام به هناك هو تخليص السكان بحل لغز السفينيكس . وكان الحل ، كما رأينا ، هو (انسان) . وعرف اوديبوس نفسه . ومع ذلك فهو لم يعرف بعد نفسه : اذ ما زال عليه ان يتعلم . وأعلنه السكان المتنون ملكا عليهم . وعند هذه النقطة ، فان الراعي ، الذي شخّص في منقذ

طيبه قاتل سيده ، ولكنه قرر الاحتفاظ بالحقيقة لنفسه ، حصل على اذن الملكة بقضاء بقية حياته متقاعدا في التلال • وتزوج الملك الجديد الملكة الارملة •

ومرت عدة أعوام ، وولد لهما اطفال • ثم اصابت الطيبيين مصيبة اخرى ، وكانت هذه المرة احد الاوبئة • وقرر اوديبوس ألا يخذلهم ، فأرسل كريون لاستشارة الوحي • وكان الجواب هو ان الوباء سيتوقف عندما يكون قاتل لايوس قد طُرد • وبدأ اوديبوس فورا بالبحث عن المجرم المجهول بينهم ، الذي حكم عليه باللعنة • وكان يوجد شخص آخر عدا الراعي عرف الحقيقة ، وقد قرر ، كالراعي ، ان يبقيها مكتومة، وكان ذلك هو المتنبيء العجوز (تيريسياس) • وقد استجوبه اوديبوس فرفض الاجابة • ونفد صبر اوديبوس واتهمه بخيانة طيبه • وهنا نفد صبر تيريسياس هو الآخر ، وندد بأوديبوس بوصفه القاتل • وقد استشاط اوديبوس غضبا ، واتهم تيريسياس بأن كريون قد أغواه على قول الزور ، كما اتهم كريون بالتآمر على العرش • وانتهى النزاع بتدخل جوكاستا التي اخبرت زوجها ، جوابا عن اسئلته ، بما كانت قد سمعته عن مقتل لايوس ـ بأنه قتل على الطريق الى دلفي على يد عصابة من اللصوص • الطريق الى دلفي ـ تذكر اوديبوس • ولكن عصابة من اللصوص ـ لقد كان اوديبوس يسافر وحده • وأكدت له جوكاستا بأن النقطة الثانية يمكن اثباتها بإحضار الناجي الوحيد ، الراعي العجوز المقيم في التلال • وهذا ما أمرها اوديبوس بالقيام به ، املا في ان تؤدي شهادته الى تبرئته •

وعند هذه النقطة ، يصل رسول من كورينث حاملا خبرا مفاده بأن ملك تلك المدينة قد مات وان اوديبوس هو وريثه • وكان اوديبوس الآن في ذروة حظه ـ فهو ملك مدينتين • وأعلنت جوكاستا بأن الخبر

برهان على ان النبوءة القديمة كانت مزيفة ، لأن أباه كان قد مـــات ميتة طبيعية • واذ تأكد اوديبوس من ذلك فقد أصر بالرغم من ذلك على ألا يعود ابدا الى كورينث خشية التزوج من الملكة • ويبيّن الرسول ؛ وهو يتوق هو الآخر لتطمينه بهذا الشأن ؛ بأنه ليس ابنهـا الحقيقي ، وانما هو لقيط •

وفي ذات الوقت ، كان الراعي العجوز قد وصل وشخـّص فورا في الرسول من كورينث الراعي الذي كان قد التقاه منذ زمن بعيد فـــي التلال • وقد حاول جاهدا ان يتملص من اسئلة الملك ، الا انه أرغم على الاجابة تحت وطأة تهديده بالتعذيب • وظهرت الحقيقة فـي النهاية : وعرف اوديبوس نفسه • وأسرع الى داخل القصر ، حيث اقتلع عينيه بدبابيس زينة من جسد أمه الهامد ، التي سبق ان شنقت نفسها :

آه ، أجيال البشر !
انني أعتبر حياتكم عدما •
ما من هالك
يملك من السعادة اكثر من هذا :
أن يظهر وأن لا يكون ، ومن ثم ، بعد ان ظهر ، أن يخفق •

ومنذ بدء المسرحية ، ما من شيء تغير موضوعيا ، ولكن كل شيء تغير ذاتيا • وكل ما حدث هو ان اوديبوس اصبح يعرف ما هو ، بصرف النظر عما ظهر عليه • وهو ينهي الحياة كما بدأها : منبوذا • ولم تكن الفاصلة الا ظاهرية • ومع ذلك ، اذا كان الظاهر هو الوجود ، فان هذا المنبوذ ، الذي اصبح ملكا ، وهذا الملك الذي اصبح منبوذا ، قد اصبح مرتين نقيض ما كان عليه • وقد حدثت هذه التحولات على الضد

من نية الشخص المعني : ومع ذلك عبر الوسيلة غير الواعية ، فقـــد تخلص الوالدان من الطفل ليتجنبا النبوءة . والراعي أنقذه مدفوعـــا بالشفقة عليه ، وكانت النتيجة هي انه شبّ جاهلا أبويه . وحين ران الشك على ابوته ، استشار اوديبوس الوحي ، وحين كشف الوحي عن مصيره . سعى للهروب منه باتخاذه طريقه الى طيبة . وقتل اباه دفاعا عن النفس . وحين شخصه الراعي ، لم يقل شيئا ، وتركه حرا ليتزوج أمه. وحين طلب الوحي طرد القاتل ، قاد اوديبوس البحث وتعقب كل دليل الى ان جلب وجها لوجه مع نفسه . وما كان تيريسياس ليشجبه لو لم يشجب هو تيريسياس . وكانت تُهمَته لتيريسياس وكريون غير مبررة. وحدّته هنا كانت هي الخطأ الذي سبَّب سقوطه . ومع ذلك لم يكـن هذا الخطأ الا الاسراف في اعظم خصاله : حماسه فـي خدمة شعبه . ثم ، اخيرا ، ان الراعي العجوز ، الذي استدعي لينفي التهمة بأنه قد قتل اباه ، قد أفاد بتصرفه الرسول الكورينثي ، الذي اثبت ، بمحاولتـــه تخليص اوديبوس من خشية الزواج من أمه ، بأن ما كان يخشاه قـــد ارتكبه فعلا . وهذا التحول المستمر في النوايا الى أضدادها ، الذي استمر الى الكارثة بدقة حلم اوتوماتيكية ، هو الدافع الذي يحكـــم المفهوم برمته . وأديبوس سوفوكليس هو رمز للتعقد العميق الجذور الذي خلقه في أذهان الناس التحول غير المتوقع والمبهم لنظام اجتماعي مصمم لاقامة الحرية والمساواة الى اداة لهدم الحرية والمساواة .

ان هذه المسرحية تختلف عن مسرحية (ايليكترا) في ان الازمـــة يعقبها خطاب ختامي ، يبلغ ذروته في الالتماس الذي يوجهه الشخص المعاني الى ابنائه :

يا صغاري ، من بين الكثير

مما ربما اخبرتكم به ، هل بمستطاعكم ان تفهموا
خذوا هذه النصيحة الوحيدة : فليكن دعاؤكم ان تعيشوا ،
حيث القَدر المعتدل من الحظ ،
حياة ستكون افضل مما كانت عليه حياة ابيكم •

وبطبيعة الحال فان الغرض من هذه الخاتمة هو التخفيف من التوتر الهائل الذي تخلقه الازمة ، وهي تخدم ذلك الغرض بوجه كامل • الا ان التخفيف الذي تحدثه ، كما كان مقصودا ، عاطفي صرف • فقوة اوديبوس مستفرغة • واذ هزمته وسحقته قوة لا سبيل الى مقاومتها وخرقها . صنعت من طينته الشبكة التي اصطادته بها ، فان روحه الجريح يسعى غريزيا وراء اللجوء الى العبارات البسيطة الفارغة المعاني التي تعلمها في طفولته •

لقد جاء سوفوكليس من عائلة ارستوقراطية ، وفي حياته الواعية قَبِلَ وجهة نظر طبقته التقليدية • وهذا ما يظهره دعمه الفعال للدستور المعادي للديموقراطية الذي وضع قيودا على حق الانتخاب في السنوات الاخيرة من الحرب البيلوبونيسية (٤١١ ق•م) • كما يظهره موقفه من المَوحى الدلفي ، الذي كان يعاديه الديموقراطيون بسبب سياسته الرجعية • وفي مسرحية (اوديبوس) ، كما في مسرحية (ايليكترا) ، يتحاشى المسألة الدينية . مصرا على ان الوحي المُعطى الى لايوس هو التفسير المُسبغ على ارادة ابولو من قبل وكلائه البشر ، الذين هم ليسوا معصومين • وبطبيعة الحال ، فبالنسبة اليه لا تكون تلك المسألة ذات علاقة من الناحية الدرامية • الا ان حقيقة انه اختار ، على النقيض من اسخيلوس ويوريبيديس ، ان يجعلها غير ذات علاقة تدل على انه سلّم بوجهة نظر ابولو الارستوقراطية ، او على الاقل انه لم يكن مستعدا

لتحديها . وصحيح ايضا انه قَبِلَ الموقف التقليدي ، الذي كان يتحداه فعلا يوريبديس ، من العبيد والنساء . وقد كانت هذه التحيزات الاجتماعية قيودا بالتأكيد ، وأكثر قسوة عنده مما عند اسخيلوس ، لان طابعها الحقيقي كان آخذا بالظهور على نحو متزايد ، الا ان من الخطأ الافتراض بأنها كانت تؤلف أسس تفكيره . فهو ، بوصفه واحدا أذعن لامتيازات طبقته ، كان ملزما بقبول القيم الاخلاقية المصممة لحمايتها . الا ان الناحية التي اختلف فيها عن بقية أفراد طبقته ، الاقل موهبة ثقافيا ، كان في احساسه العميق بالتناقضات التي انطوت عليها تلك القيم . وهذا هو التناقض الذي شذّ به في فنه . وقد كان أقل وعيا بكثير من اسخيلوس بعلاقته بالمجتمع ، ولكن هذا ، طبعا ، لا يعني بأن العلاقة كانت أقل التحاما بأي حال من الاحوال ـ انها كانت مجرد سلبية لا ايجابية . والحقيقة ، فقد كان هذا من بين الاسباب التي تفسر انه كان قادرا على التعبير عن التناقض برمز متطابق كل التطابق مع الواقع كتراجيدية اوديبوس .

لقد كان يوريبيديس ، كما كان اسخيلوس ، واعيا وعيا ايجابيا بعلاقته بالمجتمع . الا ان عمله لهذا السبب بالذات كان مختلفا اختلافا جوهريا ، لان المجتمع كان قد تغير . واذ كان قد تربى منذ طفولته على الافكار الديموقراطية للحرية والمساواة ، فقد أفزعه ان يراها مزدراة من الواقع . وقد رأى انحلال دين الدولة نتيجة انقسام المصالح بين المتعبدين الآخذ بالتعمق ، ورأى تفسخ الحياة العائلية في أعقاب اخضاع النساء، ورأى الآثار المفسدة للمعنويات الناجمة عن العدوان الاستعماري، الذي شنّ باسم الديموقراطية . وقد تجرأ حتى على تحدي شرعية التمييز بن الحر والعبد ، وبذلك عرّى الشر المستحيل اصلاحه الذي اخذ منذ هذا الوقت فصاعدا ينخر في مقومات المجتمع القديم ـ اي

شرط نموه وانحلاله معا • وهذا هو مردّ فرديته الصريحة ، والتضارب التأملي في تفكيره ، والتنوع التجريبي لأسلوبه •

وبوصفه ديموقراطيا ، فقد وجه ، في مسرحية (آيون) ، شجبا لاذعا للاحتيال اللاوجداني الذي أدامت به طبقة الكهنة الدلفيين سيطرتها على الجماهير • وبوصفه عقلانيا ، فقد اعلن بشجاعة ، في مسرحية (جنون هرقل) ، بأن لوثة جريمة القتل لم تكن ، في غياب المسؤولية الاخلاقية، الا لوثة جسدية • الا انه ، كبقية العقلانيين ، لـــم يدرك بأن شرور المجتمع لا يمكن ابدا شفاؤها بالرجوع الى العقل ، لان اصلها يكمن لا في الجهل او عدم التنوّر ، وانما في التناقض بين المصالح • ولذلـــك فليس عجبا انه عاد في أواخر حياته الى الصوفية • وفي مسرحيتـــه (هيبوليتوس) ، وهي من المسرحيات الاولى ، لم يَبدِ تعاطفا يذكر مع أسلوب الحياة الاورفيوسي • الا ان موقفـــه تغير في مسرحيـــة (الباخوسيون) ، التي كتبها قبل فترة قصيرة من وفاته في ماسيدونيا ، حيث كانت عبادة دايانايسيس لا تزال باقية في شكلها البدائي المتهتك• وانغمار الصوفي في الملذات شيء جذاب لشخص فكر طويلا وجديا في لغز الواقع ، ولكن دون تحقيق اية نتيجة ايجابية ، ولكنه مقرف فـــي ذات الوقت ، لانه لا يستطيع ان يجبر نفسه على التخلي عن الملكة التي جعلت من الانسان ما هو عليه • وتهرب آغويا وباخوسيثوها مـــن المدينة الى البراري حيث يرقصون ، بالمشاركة مع الآلهة ، رقصاتهم التي تستمر طوال الليل ، ولكنها تعود الى المدينة حاملـــة بين ذراعيها رأس ولدها ، الذي مزقته إربا •

لقد رأينا كيف تدهور مركز النساء في اثينا • ويعطـــي ليسياس صورة عن الحياة العائلية الاثينية في خطابه (عن مقتل ايراتوسثينيس) ، وهي ليست صورة مشرقة • وكل ما كان مسموحا به للزوجة هو العمل

البيتي في صحبة عبيد ، والاخلاص لزوج كان يقضي معظم وقته بعيدا عن البيت وكان حرا في معاشرة نساء أخريات . وكانت النتيجة هي النمو السريع في التسرّي او اتخاذ المحظيات ، والبغاء ، وكذلك الشذوذ الجنسي بين الذكور . وكان هذا النمط السلوكي ، الذي يبدو انه كان منتشرا بين المثقفين الارستوقراطيين بشكل خاص ، تكييفا للعلاقة البدائية بين الصبي الملقن حديثا والشاب الذي كان يشرف على تلقينه ـ وهي علاقة اصبحت ، في ظروف حياة المدينة الاثينية ، جنسية بشكل سائد ـ اما مدى تسمم العلاقات بين الزوج والزوجة بهذه التطورات فيمكن استنتاجه من الملاحظة المنطوية على الارتياح الذاتي التي ادلى بها خطيب اثيني آخر : «اننا نملك بغايا لملذاتنا ، ومحظيات لحاجات أجسادنا اليومية ، وزوجات ليقمن بإدارة البيت لنا وينجبن اطفالا شرعيين» . وأخيرا ، بعد ان انزلت الى هذا الحال لمصلحة الرجال ، أجبرت المرأة بأن تقبله كقسمة من (الطبيعة) . وكان بيريكليس ، الذي طلق زوجته من اجل بغي آيونية ، وبالتالي تشاجر مع ابنه ، الذي نشر عندئذ أخبارا مشينة عن حياة ابيه الخاصة ، قد القى خطبة عامة حثّ فيها أرامل الرجال الذين ماتوا في سبيل اثينا على ان يستفدن على افضل وجه من طبائعهن الدنيا باحتشام بحيث لا يثير التهليل ولا الاستهجان . وكان الموقف من النساء يتطابق مع الموقف من الارقاء . ويتساءل المرء كيف شرح بيريكليس أمورا لآسباسيا التي كانت ، بحكم كونها اجنبية ، غير خاضعة لعوامل عدم الاهلية المعلنة بأنها موروثة في جنسها . ويتساءل المرء كيف كان يشعر افلاطون يوم بيع نفسه كعبد بضربة حظ تعيس . وتذهب القصة الى ان دايانايسيس السيراكوسي ، الذي أمر بالبيع ، أخبره بأنه لن يلحقه اي أذى ، لانه ، وهو رجل عادل ، سيكون مسرورا وان كان عبدا . ومع ذلك ، لم توضع على المحك قدرة الفيلسوف على تطبيق ما

كان يبشر به ، والسبب هو انه كان قادرا على افتداء نفسه لانه كان غنيا:

كل المسالك المطروقة وغير المطروقة من قبل ،
تتسلقها الثروة الخفيفة الحركة .

وكان يوجد مثل اتيكي هو ان المرأة ليس لها ميـل الى القتال او قدرة عليه . وقد عاد (جيسون) مع (ميديا) ، وهي امرأة كان قد وقع في حبها خلال رحلاته . وبعد عودته توقف عن الرغبة فيها . وقـد كانت اجنبية ، وكان اطفاله منها غير شرعيين ، وكان يريد ابنا يستطيع ان يرث منها . ولذلك تزوج من ابنة الملك ، وفي حالة اثارة ميديا للمتاعب فقد اخبرت بأن تغادر البلاد وأن تأخذ اطفالها معها . وأذعنت ميديا ، ولكن ليس قبل ان تقتل العروس وأطفالها هي عن طريق العريس . والحجـج التي يطرحها جيسون دفاعا عن تصرفه هي بشكلٍ ما بحيث تكون مقبولة كليا لدى التقاليد الأثينية . وكما تقول ميديا ، علينا ان نشتري أزواجا بنقودنا وأن نخدمهم بأجسادنا كالعبيد .

وفي عام (٤١٦) ، قدم الاثينيون انذارا نهائيا الى سكان جزيـرة (ميلوس) ، الذين رغبوا في ان يبقوا محايدين في الحرب . ويستفاد مما ذكره (ثيوسيداديس) ، فان هذا هو ما قاله ممثلو اثينا الديموقراطيـة لسكان (ميلوس) :

لما لم تكن اذن غايتنا أن نسليكم بتفاصيل فخمة ــ كيف ،
بعد ان دحرنا الفارسيين كليا ، حق لنا ان تتولى السيادة ،
فسوف تتخلى عن كامل استعراض الكلمات التي لا تجنح نحو
الاقناع ، ونصرّ بالمقابل على ان ترفضوا جميـع الآمال في

اقناعنا باحتجاجات تافهة • ولنضع كل التأكيد على النقاط التي يمكن ان تعتبر لدى كلا الطرفين مقنعة • ولما كنتم انتم مقتنعين بهذا بشدة كإدراكنا انفسنا له ، وهو ان الحاجات المتساوية وحدها في جميع المنافسات البشرية تنتج تصميما متساويا . ومهما تكن الشروط التي يفرض بها القوي الطاعة ، فان الضعيف ملزم بالخضوع لها •

واذ رفض سكان ميلوس الخضوع ، فقد ذبح الذكور البالغون وبيعت النساء والاطفال كعبيد • وفي السنة التالية ، انتج يوريبيديس مسرحيته (النساء الطرواديات) ، مصورا شقاء الاسرى المطبق وصلف الفاتحين الممزوج بالسخرية ، أولئك المكتوب عليهم ان يهلكوا في رحلتهم عائدين الى بلادهم بالبرق والرعد • وهكذا ، وعلى يد يوريبيديس ، تصبح القصة القديسة للحرب الطروادية نبوئية، حيث فقدت اثينا بعد سنوات قلائل امبراطوريتها نتيجة حملتها المهلكة على صقليا •

كان يوريبيديس ديموقراطيا رأى ان الديموقراطية تدفع الى دمارها الذاتي • وهذا هو التناقض الذي يقوم عليه عمله • فقد رأى الشرور موروثة في المجتمع القائم ، وفضحها بشجاعة • وعلى ذلك فقد كان تأثيره تمزيقيا : فقد ساعد على تقويض الصرح الذي كدّ اسخيلوس لبنائه • الا ان هذا التأثير كان ايضا ، وللسبب ذاته ، تقدميا : فقد كان الصرح يتداعى بنفسه •

وبعد الحرب ، دخلت دولة المدينة اليونانية مرحلتها الاخيرة ، وأصبح الفكر الاثيني منقسما انقساما حادا طبقا للانقسام بين القلة التي كانت لها مصلحة في الابقاء عليها والاكثرية التي لم تكن لها هذه المصلحة • ومن جهة اخرى فقد تمسك المثاليون بإيمانهم بدولة

المدينة على حساب قبول مظاهر التمايز الاجتماعي التي اخذت تصبح أقل فأقل انسجاما مع التفكير النزيه • وقد دُفعوا الى انكار صحة الحواس كمعيار او مقياس للحقيقة • وبشروا بأن السعادة تكمن لا في الملذات بل في شيء يسمى «الفضيلة» التي انطوت على التسليم بالالم • وقد جعل افلاطون (٤٢٨ ــ ٣٤٨ ق٠م) الرق اساس دولته المثالية ، وعلى غرار مشاعية ملاك الارض الاسبارطيين المتأخرين • وانطباقا مع نموذجه هذا فقد اصدر قوانين خيالية تقيد بشدة انشطة الرسامين والشعراء ، الذين رأى في تصورهم الخلاق وحسهم الخصب بالامكانات الانسانية خطرا على النظام القائم • وفي ذات الوقت ، ولزيادة أمن طبقته الحاكمة ، فقد رسم نظاما تعليميا غريبا مصمما لتسميم عقول الناس بنشر اكاذيب متعمدة • و(جمهورية) افلاطون اعتراف ضمني بإفلاس دولة المدينة الفكري • وبالمثل ، فان التناقضات التي أوقع فيها نفسه حتى ارسطو (٣٨٤ ــ ٣٢٢ ق٠م) ، وهو الاقل رجعية والاكثر استقامة من افلاطون ، وذلك بتبريره الرق ، هي مقياس لمدى تضرر أمانة الطبقة الحاكمة الفكرية بالابقاء على امتيازاتها • وقد برر اخضاع العبد للحر بالاستشهاد باخضاع المرأة للرجل والجسد للروح • الا ان اخضاع المرأة كان ظاهرة لها ذات طبيعة الاسترقاق ، كما ان اخضاع الجسد للروح ، او المادة للشكل ، كان انعكاسا على صعيد الافكار للانقسام الذي جابهه في المجتمع • وكان أوائل الاورفيوسيين قد أكدوا استقلال الروح كاحتجاج على استعباد أجسادهم • والآن ، فان نفس الانقسام قد استخدم لترويض غير الحر على الخضوع الدائم • ويجري تذكيرنا هنا بمفكري القرن التاسع عشر ، ابتداء من (مالثيس) ، الذي برر ، بقبوله مطالبة اصحاب المصانع بعمل رخيص ، فقر العمال باختراع قوانين الصراع على الوجود وبقاء الاصلح ، وحين أسس استنادا الى هذه

القاعدة (داروين) علما جديدا في البايولوجي اعلنوا نظرياته برهانا نهائيا على ان فقر العمال قانون من قوانين الطبيعة •

وبالعكس ، كان الماديون قادرين على ان يؤكدوا مرة اخرى صحة الادراك عن طريق الحواس ، وان يتمسكوا باعتقادهم بأن السعادة تكمن بصورة رئيسية في اشباع الحاجات المادية ، وذلك بتنازلهم عن نصيبهم في مجتمع لم يعد يتلاءم مع العقل وبالدعوة الى اكتفاء الفرد الذاتي • وقد بشّر ابيقور (٣٤٢ ــ ٢٦٨ ق٠م) بأن العدالة نسبية ، وأنقذ الروح البشرية من التجريدات الميتافيزيقية (حتى آلهته كانت مادية) ، وبذلك فقد أكمل مهمة صياغة (النظرية الذريّة) التي بدأها ديموكريتوس • وكانت نظرية الابيقوريين الذرية تكملة لمذهبهم الفردي • وقد اعتبروا عناصر الكون عديمة الشعور ولا يمكن استثارتها ، لان هذا ، في مجتمع يمزقه الخلاف ، هو ما كافحوا انفسهم ليكونوا عليه • وتعريفهم للذة بأنها غياب الالم يكشف عن اليأس الاجتماعي للارهاصات المحتضرة لدولة المدينة ، الا انه كان يتمتع بقيمة ايجابية في اصرارهم على ان هدف السعي الانساني هو اللذة وليس كبت الذات من اجل فكرة غير ملموسة او وهمية في الآخرة • وهكذا ، فما بين نشوء وسقوط دولة المدينة حل كل من المثالية والمادية مكان الآخر • ففي بداية الثورية المدينية ، وحين كان الاورفيوسيون يعلنون ألوهية الروح ، كان فلاسفة ميليتوس يتمسكون بالفكرة البدائية القائلة ان الروح هي من أنشطة المادة • اما الآن ، وحيث كانت دول المدن اليونانية على وشك الذوبان كبلشورات في الامبراطورية الكوسموبوليتينية ، فقد كان الابيقوريون يعانون الاضطهاد في مساعيهم لتحرير الجماهير من خزعبلات العذاب الجهنمي الذي كان حكامها يخيفونها به • وكان وارث الصوفية الاورفيوسية هو افلاطون ، اما وارث المادية الآيونية فقد كان ابيقور • وفي هذا ، وبالرغم

من محدودياتهم ، كان الايبقوريون على الخط الصحيح للتقدم ، لانهم أدركوا على الاقل بأن «الوجود الاعلى للانسان وهو الانسان نفسه ، وبالتالي يجب ان تدمر جميع العلاقات وجميع الظروف التي يجري فيها اذلال الانسان واستعباده واحتقاره» .

الا انه كانت توجد أسطورة واحدة ورثها الايبقوريون بصورة غير مباشرة عن الاورفيوسيين . فقد رأينا في فصل سابق كيف ان المويـرا (القسمة) حولت ، في أعقاب الانتقال من التملك الجماعي الى الخاص ، الى الآناكا (الضرورة) (الفصل التاسع) . وخلال نضج دولة المدينة ، طورت فكرة الآناكا ووسعت . ولم يكن العبد فحسب تحت سيطـرة سيده المطلقة ومحروما من كل نصيب من فائض انتاج عمله ، وانما كان السيد نفسه ، في ظروف الاقتصاد النقدي ، تحت رحمة قوى كـان عاجزا عن السيطرة عليها ، وهكذا كان الحر ، هو الآخر ، مستعبدا لقوة (الضرورة) العمياء ، التي أحبطت رغباته وهزمت مساعيه . ولكن ، اذا كانت الضرورة عليا ، وتصرفها لا يمكن التنبؤ به ، فـان كل التغيرات تبدو من الناحية الذاتية صدفة . وهكذا ، فالى جانب الآناكا نهـض شخص الـ (تايكي) (الإلاهة الصدفة) ــ الطرفان المتناقضان لذات المفهوم. والاعتقاد القائل بأن العالم تحكمه تايكي او الصدفة يمكن رده عـن طريق يوريبيديس الى بندار ، الذي ذكر بأنها كانت احـدى الموبرات (الإلاهات القسمة) وأقواهن . وخلال القرنين القادمين اصبحت عبـادة تايكي احدى اكثر العبادات انتشارا وشعبية في اليونان .

وكانت هذه بالضبط النقطة التي حقق فيها أبيقور تقدمه البالـغ الاهمية على علم كونيات ديموكريتيس . وكان (بارمينيديس) ، رائـد افلاطون ، قد بشر بأنه لا يوجد فضاء فارغ وبالتالي لا توجد حركة ، وبأن الكون واحد وغير متغير ، وبأن تنوعه وامكانية تحوله الظاهرين

وهم من الحواس • اما ديموكريتوس ، رائد أبيقور ، فكان قد اعاد تأكيد وجود الفضاء الفارغ ونسب صفات (الواحد) البارمينيديسي الى عدد لانهائي من الذرات ، غير القابلة للانقسام ، وغير القابلة للتدمير ، العديمة الوزن ، التي تسقط عموديا عبر الفراغ ، والتي باصطداماتها واتحاداتها تخلق العالم • وكانت النتيجة نظرية ميكانيكية عن الكون الذي يكون فيه كل حدث هو نتاج الضرورة ـ عبد أناكا •

وفي نظر ابيقور ، كانت هذه النظرية ناقصة ، لانها لم تأخذ في الحسبان احدى القدرات او الملكات التي تميز الانسان من الحيوانات الاخرى ـ اي ما نسميه بحرية الارادة • وقد اتفق مع ديموكريتيس ، مخالفا افلاطون ، بأن المادة ، وليس الذهن ، هي الاساس ، ولكنه أدرك بأن الوعي الانساني قادر على التأثير في بيئته ، وبالتالي على السيطرة عليها بتطبيق ما كان قد تعلمه من العلوم • ووفقا لذلك ، فان الذرة ، وهي ممنوحة صفة الوزن في نظريته ، تملك في نفسها سبب حركتها هي • وبالاضافة الى ذلك ، فهي تملك ، الى جانب الحركة العمودية ، حركة مائلة او انحرافا عن الخط المستقيم • وهكذا ، فقد استبدلت في نظامه الضرورة بالصدفة ، آناكابتايكي ، وبهذا الشكل اصبحت الذرة حرة •

وانسجاما مع هذا الانقسام في المجتمع والفكر ، كان يوجد انقسام مقابل في الفن • فنمط الكوميديا القديم ، الذي اكتمل على يد اريستوفان ، والذي كان سياسيا بصورة مكثفة ، انتقل الى كوميديا السلوك، التي يؤلفها بأجمعها تقريبا اجانب مستوطنون ومكرسة لمؤامرات العشاق غير الشرعيين واللقطاء ، الذين يعيدهم الحظ بعد العديد من التقلبات الى ارثهم المفقود • وقد كان الشكل الفني الوحيد الآخر الذي بقي مألوفا في اثينا بعد نهاية الحرب البيلوبونيسية هو القصيدة الحماسية ، التي طوّرت الآن الى عرض موسيقي صاخب يقدم مخدرا

لرغبات الناس غير المشبعة • اما بالنسبة للتراجيديا ، التي كانت بـذات طبيعتها جادة وجماعية في الوقت نفسه ، فلم يكن لها اي مجال فـــي مجتمع ساقته الانقسامات الداخلية الى تلمس الهرب من تناقض كــان مقررا ان يبقى بلا حل الى ان تكون قد استنفدت امكانات العمال العبيد الاقتصادية • وقبل الوصول الى تلك النقطة ، كان ضروريا أن تنفَنحجَ روما الامبراطورية فوق العالم وكأنها مخلوق جبار قدماه من صلصال • وقد أُبقي على المهرجانات التراجيدية ، ولكن مع انتقال في الاهتمام الى الصنعة المسرحية والتمثيل ، واعتماد متزايد على عادات للاساتذة القدماء، ولاسيما يوريبيديس ، الذي كانت فرديته التنبؤئية تستهوي جمهورا فقد ايمانه بالحياة الاجتماعية على نحو اشد بكثير مما كانت تستهويه جماعية اسخيلوس التي عفا عليها الزمن • وبوصفه قوة خلاقة ، فقد توقف فن التراجيديا عن الوجود ، الى ان أعادته الثورة البرجوازية لأوربا الحديثة مرة اخـرى الى الوجود من بين ظروف مشابهة فـــي بعض الجوانب الاساسية لتلك الظروف التي كانت قد سادت في ظل أمراء اثينا القديمة التجار •

مراجـع

Marx, K. Capital, Vol. I. London, 1938 .

-١٩-

الرحمة والخوف

ان تفسير أرسطو للتراجيديا اليونانية يحتوي نقاط ضعف معينة ، بسبب التقييدات الكامنة في موقفه الذاتي من المشكلة . وهو ، انسجاما بالتأكيد مع مبدئه العام عن علاقة المضمون بالشكل ، يعالج تطور الفن وكأنه عملية داخلية كليا دون رجوع الى تاريخ المجتمع الذي كانت جزءاً منه . ولهذا السبب فهو يكتفي بشرح الطريقة التي اتخذت بها التراجيديا شكلها النهائي وبغير ان يشرح سبب اتخاذها ذلك الشكـــل المعين او سبب توقفها عن التطور بعد ذلك . ثم ، ان تفضيله للتراجيديا المنفردة، الذي شاركه فيه معاصروه، والتي أضعف فيها او استبعد عنصر التوفيق، يجعل من الصعب عليه تقدير عمل اسخيلوس : والحقيقة فهو يغفل كل ذكر للرباعية الاسخيلوسية التي ، طبقا لافتراضاته هو ، ربما كانت قد اعتبرت الدرجة العليا في تطور شكل الفن .

وبالرغم من هذه التقييدات ، فلعمله قيمة ايجابية كبيرة تكمن ، اولا، في مفهومه عن الدراما كحصيلة لتطور عضوي ينبغي ان تدرس دراسة موضوعية كالظواهر الطبيعية الاخرى ، وثانيا ، في انتباهه الدقيق الى الحقائق المعروفة . وفي النقطة الاخيرة ، يكشف عن ذات الاهتمام بالتفصيل الذي نجده في اعماله الاخرى ، العلمية والتاريخية ، ولهذا السبب يجب ان نحترس من رفض سرده للوقائع بغير ان يكون لنا سبب وجيه ، حتى عندما لا نستطيع ضبط صحتها . والنظرية المتعلقة بأصل التراجيديا التي طرحت في هذه الصفحات وضعت في مراحلها الاولية على اساس المعطيات الانثروبولوجية في وقت كنت أميل فيه الى قبول تقييم بيكارد ـ كمبرج لكتاب (الشعر) . ولكنني في مجرى دراسات اضافية اضطررت الى ان أسلّم ببطء بأن الاستنتاجات التي كانت تؤدي اليها الادلة كانت بالضبط الاستنتاجات التي كان ارسطو قد صاغها . وقد ثبت ان الرجل الذي كنت أعرض عنه هو افضل اصدقائي. وقد مررت بنفس التجربة تقريبا مع كتاب (السياسة) . وحتى في هذا الميدان ، حيث تكون تصوراته المسبقة طبعا اكثر فاعلية واثارة ، يكشف ارسطو عن نفاذ بصيرة في المؤسسات البدائية ، تثبت دراسة الانثروبولوجيا المقارنة انه أرقى بكثير مما يملكه أولئك المؤرخون الحديثون الذين رفضوا الاعتراف بأنه حجة بهذا الشأن . ولهذه الاسباب أشعر بأن من حقي ان أزعم تأكيدا لحجتي بأنها تتساوق تساوقا وثيقا مع أدلة ارسطو .

ان هناك قولا واحدا مهماً في كتاب ارسطو بقي علينا ان ندقق النظر فيه . فهو يقول «التراجيديا هي محاكاة ... تحدث عن طريق الرحمة والخوف تطهير هذه الانفعالات» . وكان افلاطون قد طرد الشعراء التراجيديين من دولته المثالية لانه اعتبرهم خطرين اجتماعيا .

ويرد ارسطو بأن وظيفة التراجيديا مفيدة اجتماعيا • وتجدر الملاحظة بأنهما يتفقان معا على نقطة واحدة هي : ان وظيفة الشعر اجتماعية •

ويرتبط مفهوم ارسطو عن التطهير او التنقية (كاثارسيس) ارتباطا وثيقا باستخدام هذه الكلمة في الطب • ففي مبدأ المدرسة الهيبوقريطية، المرض هو اضطراب في الرطوبة البدنية ، يؤدي الى بُحران (*) ، حيث تخرج او تطرد المادة المسببة للمرض في حالة الشفاء ، وهدف الطبيب هو احداث البحران في ظروف ستؤدي الى تلك النتيجة • الا ان كلام ارسطو يذهب الى ابعد من ذلك ، متضمنا بأنه قبل التمكن من طرد الحالات المرضية يجب اولا تنبيهها او اثارتها بصورة مصطنعة • ولفهم هذه النقطة يجب ان نردها الى اصلها في المعالجة البدائية للصرع والهستيريا •

لقد كان الصرع معروفا في اليونان بأنه «المرض المقدس» • ويستفاد مما ذكره أريتيوس بأنه سمي كذلك لانه كان يعتقد بأن سببه هو دخول إله او روح في الجسد • اما ان تفسير هذه العبارة صحيح فهو يبدو مما هو مذكور في البحث الهيبوقريطي عن مرض «السحرة والمطهرين والدجالين والاطباء المشعوذين» الذين حاولوا شفاءه «بالتطهيرات والتعويذات» :

اذا قلد المريض عنزا ، او جأر ، او تشنج في الجانب
الايمن ، يقولون ان ام الالهة هي السبب •••
واذا أرغى في فمه ورفس ، فان المرض ينسب الى آريس•
واذا كانت الاعراض مخاوف واحساسات بالرعب ليلا ،

(*) تغير مفاجيء نحو الاسوا في الامراض الحمّية الحادة .

وهذيانا وقفزا من الفراش واندفاعا الى الخارج ، فهي توصف بأنها هجمات هيكاتا او اعتداءات أرواح الموتى •

ان هذا يعني ان المريض «ممسوس» (كاتوخوس) ـ اي ان «إلها فيه» (اينثيوس) •

والتطهيرات الشائعة بين هؤلاء السحرة يصفها الكاتب بأنهـــا تشتمل على الامتناع عن الاستحمام وبعض الاطعمة ، وارتـــداء ملابس سوداء كإشارة الى الموت ومراعاة بعض المحرمات • وحين يكون التطهير قد انجز بصورة ناجحة ، فان النفايات «تدفن في الارض او تلقى فـــي البحر او تحمل الى الجبال حيث لا يستطيع احد ان يمسهـــا او يدوس عليها» • وهذا يعني ان الروح التي مست المريض تطرد عن طريق التطهير• ولا يحدد كاتب هذا البحث طبيعة الجزء الآخر من العملية ـ التعويذات؛ الا ان هذه يمكن ان تدرس بجلاء من مصادر اخرى •

ان طقس (الكوريباتتيين) ، الذين رأينا انه يوجد مبرر لاعتبارهم جمعية سحرية ـ طبية سرية بدائية ، كان يتألف من رقصـــة تهتكية ، مصحوبة بفلوتات وطبول ، حيث كانت تثير في المشاركين ما سيوصف في التعبير الحديث بنوبة هستيريا • والآن ، فقد كان يعتقد بـــــأن للكوريباتتيين القدرة لا على اثارة الجنون فحسب بل على الشفاء منه ، وكان الشفاء يتحقق بذات الطريقة التي تتم بها الاثارة ـ اي بالتعويذات، او الاغاني التي «تغنى فوق» المريض ، كالاغنية التي غنتها ايرينـــات اسخيلوس فوق اوريستيس لاكراهه على الجنون • وفي الـ (كريتون) ، يقول سقراط ، بعد ان يشرح اسباب رفضه الهرب من السجن ، ان هذه الاسباب ترن في أذنيه كموسيقى الفلوت في طقـــوس الكوريباتتيين وتجعل من المستحيل عليه سماع اية اشياء اخرى • وكان تأثير الموسيقى

منوما • وفي كتابه (الندوة) ، يقول (الكيبياديس) وهو يتحدث عن بلاغة سقراط : «كلما اصغي اليه ، يخفق قلبي بقوة أشد مما يخفق في أولئك الذين يشاركون في طقوس الكوريباتتيين ، وتثير كلماته فيّ فيضا من الدموع» • وهنا التأثير منوم وليس هيستيرياً •

ان الادلة المتعلقة بالكوريباتتيين متناثرة وناقصة ، ولكنها بقدر ما تذهب اليه تتفق تماما مع الوظائف الطبية النفسانية للجمعيات السرية البدائية في جميع انحاء العالم • والملاحظات التالية هي من خلاصة للادلة الانثروبولوجية للكاتب (فاليز) :

يحتل الاعتقاد بتسبب المرض عن أرواح تدخل المريض وتعذبه مكانا بارزا بين النظريات البدائية عن المرض• واجراءات العرّاف العلاجية ، بقدر ما هي ليست مادية صرفة ، كاستخراج عظم او حصاة ، موجهة بصورة رئيسية نحو طرد او استعطاف الشياطين او الارواح المسؤولة عن المرض ••••

وتعتقد جماعة الباثونغا بأن المس بالجنون بالشكل الذي يُشخّص به بين أفرادها تسببه أرواح الموتى •••• والاعراض الاولية هي: ازمة عصبية ، ألم متواصل في الصدر ، فُواق ، تثاؤب غير اعتيادي ونحول • واذا قرر العرّاف بعد استشارة العظام العرافية بأن المريض ممسوس ، تطرد الروح بالرُقى والتعاويذ • وفي مجرى سلسلة معقدة من الطقوس التي تلي ذلك ، يعلن المريض في نوبة جنون اسم الروح التي تتملكه••• ويعطى أدوية تعمل كمُقيء ثم يجري الاعلان بأن الروح قد غادرته •

ان الطابع الباثولوجي لهذه الاصابات المرضية التي تعتبرها

الشعوب البدائية دليلا على امتلاك الجسد بأرواح هو على نحو بحيث تعود معه أعراض المرض او الضعف في فترات متكررة تقريبا • ولذلك ليس غريبا ان نجد أولئك الذين يتعرضون لأمثال هذه الازمات العصبية يصبحون معتبرين طبقة مستقلة او منفصلة ـ طبقة لها قدسية خاصة ـ وكان الباثوناغي ، الذي أجريت عليه طقوس طرد الارواح كمهنة ، يصبح نفسه بعد فترة من الاختبار عرّافا ملقنا بصورة تامة وطاردا للارواح • وتصبح المرأة الميلينوية ، التي كانت تحت تأثير الـ Toh (الروح) ، وعندما تكون قد أجريت عليها كامل طقوس طرد الارواح، عرّافة لها سلطات تامة في استدعاء الارواح لمساعدتها في شفاء الآخرين • وبين بعض القبائل السيبيرية ، كان منصب الشامان (*) يجنح الى ان يكون وراثيا ، الا ان الموهبة الفَوطبيعيّة كانت شرطا لازما ، وكان الشامانات يتبنون ايضا الصغار الذين كانوا يبدون لائقين ليخلفوهم ، اي أولئك الذين كانت تبدو عليهم علائم ميل صَرعي او عصابي •••• ومن جهة اخرى ، فحتى حين لم يكن الاستعداد للمرض السابق او أعراضه الفعلية شرطا ليصبح الشخص كاهنا او متكهنا او منجّما ، فغالبا ما كانت فترة الرهبنة تفرض شروطا ما كان يمكن ان تؤدي الا الى حالة عقلية غير طبيعية او مَرَضية • وبين الشوكشي والكورياك والجيلياك ، وخلال فترات الانزواء الطويلة في الغابات ، لم يكن الشامانات يكتفون بتعلم وممارسة فنونهم الحرفية

(*) كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى •

ـ الغناء ، الرقص ، التكلم البَطني وقرع الطبول ـ بل كانوا يتحملون مشاق البرد والجوع التي لم تكن تؤدي الا الى زيادة استعدادهم الطبيعي للهيستيريا •

ان نظرية المسّ لا تنطبق فقط على مظاهر الشذوذ المتقطعة التي تدين لها بنشأتها • ولا يحتمل ان يتوقع من أولئك الذين يتعرضون للنوبات آلا يستغلوا السلطة التي تسبغهـــا عليهم مشاعر الرهبة والرعب التي تثيرها علاقتهم المزعومـــة بعالم الروح • ولكن ، لما كان لا يمكن الاعتماد على ازمة مرضهم في ان تتزامن مع اللحظة التي قد يطلب فيها نصيحتهم او يلجأ فيها الى مساعدتهم عضو الجماعة العادي ، فان المسّ يضاف او يجري احداثه طوعيا بمنبه او حافز اصطناعي ••••

ومن شروط نجاح اية محاولة لطرد الروح الماسة هو ان تجبر على ان تعلن عن طريق فم ضحيتها إما اسمها ، وبذلك تعطي القائم بالعملية سلطانا عليها وفقا لقاعـــدة من قواعد الممارسة السحرية معترف بها بصورة عامة ، وإما رغباتها (وهي عادةً طلب قرابين) التي تجعل معرفتها بالامكان طردهـــا عن طريق الاسترضاء • ولا يحتاج الامر اكثر من توسيع بسيط للرأي القائل بأن هذه الاقوال هي تعبير عن ارادة الآلهة في تحويلها الى طريق للكشف عن المستقبل • وتوجد أدلة كثيرة في حالات المس المسجلة تبرهن على ان هذا ليس رأيا بديهيا او افتراضيا وانما هو يتطابـــق مع الحقائق • والذيـــن يتعرضون للمس بدخولهم طوعيا في حالة انتشاء بناءً على طلب مستشيريهم يحصلون على مركز وسطاء للوحي • وتوجد أمثلة شبه وثيقة تقريبا بكهنة ابولو في دلفي وفي سيبيل في كيومي، في كل جزء تقريبا من العالم •

ان هذا الدليل يلقي فيضا من الضوء على عدة عناصر اساسية في الحياة والفكر اليونانيين ــ العلاقة الوثيقة بين (مانيـــا) «الجنون» ، و(ماتتيكا) «النبوءة» ، والارتباطات النفسيـــة للاساليب الموسيقية ، والطبيعة الاصلية للإلهام الشعري • الا ان ما يعنينا بصورة مباشرة هو مغزاه بالنسبة لطقوس الجمعية الدايانايسيسية •

ويمكن تفسير الموقف البدائي من المس على النحو التالي : ففـــي المرحلة الاولى : كان الصرع والهيستيريا يعاملان كبقيـــــة الامراض الاخرى فقط : اذ كان يجري تعريض المريض لطقس تلقيني ، حيث كان يموت خلاله ويولد مرة اخرى • وكان الجزء الاساسي من هذه العملية هو فعل الطرد او التطهير ، الذي كان يجري عن طريقه اولا ايقاظ الروح التي تسلكت المريض ودفعها الى النشاط ومن ثم طردها • ولا يوجـــد سبب للشك في ان هذا العلاج عن طريق ازالة العقد النفسية بالتحليل النفسي ، ولنستخدم هنا التعبير الفرويدي ، كان ناجحا الى حد كبير ، على افتراض الايمان الضمني من جانب المريض • ولم تكن فكرة المس مقصورة في الاصل على هذين المرضين ، ولكنها اصبحت مرتبطة بهما بشكل خاص بسبب العنف المتميز في أعراضهما وجنوحهما الى التكرار • وبهذا الشكل نشأت طبقة خاصة من الملقّنين ، مؤلفة من اشخاص كان لهم استعداد لنوع العتّه • وكان هؤلاء الاشخاص منظمين في جمعية سحرية ، مؤسسة على غرار تركيب العشيرة • وفي هذه المرحلة ، تصبح الطبيعة البايولوجية لحالتهم معسية على نحو متزايد بالافكار السحرية التي كانت هذه الطبيعة قد خلقتها • وتعتبر ملكة المس علامة على الاتصال بعالم الارواح اتصالا حرا ووثيقا على نحو استثنائي • وبالتالي ، ففـــي سعيهم وراء هذه القوى السحرية ، يكون اعضاء الجمعية مدمنين على احداث الاعراض في انفسهم بصورة اصطناعية ، وبدلا من شفـــــاء

الآخرين منها فهم يدخلون المريض في طريقة حياتهم الخاصة ، التي يُشجع ويربّى فيها المرض لانه يعتبر مفيدا من الناحية الاجتماعية .

وواضح الآن السبب في ان الكوروباتتيين كانوا يشتهرون بأنهم يملكون قوة احداث الجنون والابراء منه معا . انهم كانوا يحدثونه من اجل الابراء منه . ويبرئون منه لغرض احداثه . وتوجد الازدواجية نفسها في عبادات دايانايسيس . ومثال ذلك دايانيسوس باخييوس ، حيث كان يحدث هيستيريا في عبّاده ، الذين كانوا ، بعد ان يتملكهم، يتسمون باسمه ، فيصبحون (باخييوسي) او (باخييوسيين) . ومثال ذلك ايضا دايانيسوس ليسيوس ، الذي كان ينسحب منهم وبذلك كان يعيدهم الى عقلهم السليم . وبالمثل ، تذهب الاسطورة الى ان بنات بروتوس ، اللواتي مسهن الإله بالجنون ، تعقبهم العرّاف ميلامبوس ، الذي طهرهن برقصة متسمة بانتشاء ووجد غامرين وألقى النفايات في احد الانهار . وبهذه الطريقة استرجعن صوابهن ، الا انهن اصبحن بالطريقة ذاتها ملقّنات دايانايسيس . وتبين أوصاف (السباراغموس) الدايانايسيسية ـ مثلا، تمزيق بينثيوس فيمسرحية (الباخوسيون) ـ بان المشاركين كانوا يتصرفون تحت تأثير هيستيريا محدثة بصورة اصطناعية. وبالعكس ، فان جنون هرقل الذي ، كما يرويه يوريبيديس ، يُظهر أعراض نوبة هيستيرية ، يوصف بعبارات مستعارة من حفلات الكوريباتتيين المنهتكة والجمعيات الدايانايسيسية .

ان بروز الهيستيريا والاختلالات العقلية المتصلة بها بين الشعوب البدائية يجب الا تفسر بالقيمة المصطنعة المضفاة عليها نتيجة تضخم السحر . والاصح هو ان التضخم نفسه استجابة للحاجة الى تنظيم اتجاه متواجد اجتماعيا . وهكذا ، كما يذكر (فيليز) ، فان المناطق التي تسود فيها الهيستيريا القطبية الشمالية هي بالضبط تلك المناطق التي تكون فيها

الوظائف الوسيطية الشماليَّة على اعلى درجة من التطور • ويبدو ان الحقيقة هي ان أفراد الجماعة في المجتمع البدائي ، حيث لا يزال تقسيم العمل متخلفا ، هم نسبيا ضعفاء عقليا من حيث الشخصية الفردية وبالتالي يعوزهم الاستقرار لتحمل مظاهر سوء التوافق بين الفرد والمجتمع التي هي الاسباب المعروفة لهذه الاختلالات العقلية • وقد عبر عن هـــذه النقطة تعبيرا جيدا (كودويل) • فبعد ان يبين بأن التناقضات التي يولدها تطور المجتمع تنعكس بالضرورة على وعي الانسان في أشكال من قبيل المشاكل الاخلاقية والاحساسات بالإثم ، يمضي قائلا :

في المجتمع البدائي ، حيث لا يكون الانسان مميزا بعد، وحيث يكون الضمير والوعي بسيطين ومباشرين ومتجانسين بالمثل ، ولهذا السبب يعوزهما العمق والحيويـــة •••• وحين يقع هجوم على هذا الوعي ، فليس هناك تعقد او توازن قوى لتخفيف الضربة ، يكون الانهيار كاملا • والبدائي الذي يقتنع فورا بأنه قد آثم او اصابه السحر سوف يموت فورا ـــ وهذه حقيقة يؤكدها جيدا الانثروبولوجيون الميدانيون • وتنكشف ضحالة وعيه في بساطة انفصامه العقلي او الشخصي، والسهولة التي يمكن بها التعجيل بدفع عقله الى الهيستيريا ، ودرجـــة تأثره العالية والطبيعة الحدية «كل شيء ـــ او لا شيء» لردود فعله العاطفية ـــ وكل هذه أعراض تشير الى حالة عقلية واعيـــة وغريزية اكثر من الحالة العقلية للانسان المميَّز «المتحضر» •

ان هذه الاعتبارات توحي بأن الاستعداد لهذه الاختلالات في القبائل الحديثة قد زاد منه التأثر بالثقافة الاوربية ، التي يشاهـــد

تأثيرها في القضايا المألوفة للبحارة الهنود «الذين يندفعون برغبة في قتل كل من يصادفهم» ، التي تعرض على محاكم الشرطة •

وفي الفصل التاسع ذهبنا الى ان الحركة الاورفيوسية استمدت حافزها من طبقة الفلاحين التي استأصلتها الثورة المدينية • وبعد ان كانت صلات العبادة والقرابة القبلية قد قطعت ، فقد أُعيد خلقها على الصعيد الصوفي في هذه الاخويات الدينية • وقد نُقل شكل العبادة الجديدة عن ثريس ، حيث كانت السمات التهتكية للعبادة الدايانايسية بارزة بشكل خاص • ثم كان بعد ثريس أخصب مركز لنشر الديانة التهتكية هو فريجيا ، موطن (آتيس) و(كيبيلا) ، الإلاهتين الأُمّين للكوريباتيين ، التي كانت مرتبطة بدايانايسيس ارتباطا وثيقا • ثم كانت فريجيا ، بعد ثريس ، المنطقة الرئيسية لاستخراج الذهب والفضة• ولا بد ان يكون تطور هاتين الصناعتين قد أحدث بين القبائل المجاورة، التي كانت تزودهما بالعمال ، ازمة روحية من ذات النوع الذي عجلت به الثورة المدينية بين الطبقة الفلاحية الاتيكية • ويتحدث هيرودوتس عن احدى القبائل الثريسية وهي قبيلة (التروسيين) فيقول :

حين يولد طفل ، يجلس حوله اقرباؤه يندبون للآلام التي لا بد ان يعانيها ويسردون جميع أحزان الجنس البشري• ولكن حين يموت رجل فهم يدفنونه بابتهاج ولهوٍ صاخب ، لانهم يرون انه قد انقذ من جميع تلك الشرور وانه يعيش في سعادة تامة •

ان هذا الموقف من الحياة والموت ليس بدائيا • انه الموقف المميز للديانة الصوفية ، التي درسناها في ايليوسيس • انه صرخة شعب بدائي

أوقـع في دوامة الاستغلال الصناعي •

وكما رأينا ، كانت الاخويات الاورفيوسية مؤسسة على غـــرار الجمعيات الدايانايسية السابقة التـــي ، كما تذهب جميع المعطيــــات الاسطورية الى تبيانه ، كان اصلها في الفترة الميسينية • ولذلك فنحـن نتقب عن اضطراب مماثل معين يفسر ظهور الجمعيات الدايانايسية مـن العشيرة البدائية • ويدل انتشار هذه العبادة الواسع وتناسقها الملحوظ على ان الحاجة التي طورت هي لاشباعها كانت عامة وأساسية • وتوحي حقيقة ان الملقنين ، عدا الكاهن او العرّاف في القمة ، كانوا من النساء بأن اصلها يكمن في التأكيد المفروض على النساء بإلغاء الاعراف القائمة على الانتساب الى الام والانحطاط الذي تلا ذلك في المركز الاجتماعي لجنسهن •

وعلى ذلك يبدو ان ارسطو حين اعلن ، سواء كان عالما بذلك ام لم يكن . بأن وظيفة التراجيديا «ان تحدث عن طريق الرحمة والخوف تطهير هذه الانفعالات» ، انما كان يصف وصفا صائبا الوظيفة الاساسيـــة للطقوس الدايانايسية التي كانت قد تطورت منها التراجيديــا • وان استخدامه كلمة «تطهير» او «تنقية» ، التي تشير تشير الى طرد المرض المقيم لإحداث جدة الحياة ، يظهر بأن وظيفة التراجيديا كانت في نظره مشابهة من حيث الاساس لوظيفة التلقين ، الذي كانت في الحقيقة قد اشتقت منه •

وأنا أميل الى الاعتقاد بأن ارسطو كان عالما بتلك الوظيفة • ويصف عدة كتاب يونانيين بالتفصيل التأثيرات الانفعاليـــة للتلقين الصوفي ، ويظهر تناسق الاعراض على انها كانت تعتبر طبيعية • وهي تتألف مـن الارتعاد والارتعاش والعرق والتشوش العقلي والتوتر والهلع والفـرح الممزوج بالذعر والتهيج • وهذه هـــي السمات المميزة للهيستيريـــا

الدينية ، مما يمكن الاستشهاد بشكل واسع على أمثلة لها في المصادر عن المسيحية • والآن ينسب الى ارسطو قوله بأن «الملقنين لم يكن مطلوبا منهم ان يتعلموا اي شيء سوى ان يعانوا انفعالات معينة وان يوضعوا في مزاج معين» • ونظرا لما قلناه قبل قليل عن انفعالات التلقين، فان بالامكان الاستنتاج بأن ما قصده ارسطو بقوله هذا هو ان هذه الانفعالات كانت، اذا جاز التعبير ، تفرغ من الجهاز عمليا عن طريق اثارة الخوف والتوتر المصطنعة ، وهكذا كان يعاد تكييف الوضع العقلي مع بيئته •

ونحن نقاد للتساؤل : كيف كان رد فعل الجمهور الاثيني تجاه اداء تراجيدياته ؟ في مسارحنا نحن في لندن ، يحتفظ المشاهدون عادة بردود فعلهم الانفعالية (باستثناء الضحك) لانفسهم • الا ان الجو كان اكثر انفعالا في دور السينما في غرب ايرلندا ، حيث كان المشاهدون (كما أتذكرهم قبل اربعين عاما) فلاحين • ففي اللحظات الحاسمة من الحبكة، كان كل وجه تقريبا يتشح بنظرة مرتعبة ، وقد يسمع نحيب متواصل • ومن هذه الناحية ، لا ريب في ان الاثيني كان سيشعر في غرب ايرلندا بارتياح كما لو كان في بيته اكثر مما يشعر في الطرف الغربي من لندن (*) • وفي احدى محاورات افلاطون يصف منشد للقصائد الهوميرية محترف تأثير تأدياته في نفسه وفي الجمهور :

> عندما أصف شيئا يرثى له ، تمتلىء عيناي بالدموع ، وحين أصف شيئا مخيفا وغريبا يقف شعر رأسي ويخفق قلبي ••• وحيثما نظرت من المنصة الى الجمهور ، رأيتهم

(*) الطرف الذي تتواجد فيه أعداد كبيرة من دور السينما والمسرح •

يبكون ، ونظرة ارتعاب في عيونهم ، وهم غارقون في ذهول من الكلمات التي يسمعون •

كان هذا تلاوة من هومير • ولا بد ان الاثارة في المهرجانات الدرامية كانت اكبر • ولا غرابة ان وجد رعب في المسرح عند الاداء الاول لمسرحية (الارواح المنتقمة) •
وما فعله هذا المنشد في تأدياته العامة ــ محوِّلا نفسه الى حالة جنون مؤقت ومحدثا درجة معينة من نفس الحالة في جمهوره ــ لم يكن مختلفا جدا من الناحية الاساسية عما كان يقوم به الكوريباتتيون في رقصاتهم المتسمة بالانتشاء الروحي • والحقيقة ، ان هذا الشبه يشير اليه سقراط في نفس الحوار :

> ان جميع الشعراء الملحميين الجيدين قادرون على نظم الشعر الجيد ليس عن طريق الفن وانما لانهم ملهمون او مأخوذون إلهياً • وهذا ما ينطبق نفسه على الشعراء الغنائيين • وعندما ينظمون اغانيهم فهم ليسوا اكثر عقلا من الكوريباتتيين حين يرقصون• فهم ما ان يبدأوا الوزن وتوافق الاصوات حتى يصبحوا مسعورين وممسوسين، كالباخوسيين الذين يسحبون في جنونهم الحليب والعسل من السواقي ••••
> ان الشعراء هم مجرد مفسرين للآلهة ، حيث يتملكهم اي إله يتفق ان يكون •

ان لهجة هذا الحوار خفيفة ومتسمة بالدعابة ، الا انها لا تغير حقيقة انسقراط قد شخّص الشاعر تشخيصا صائبا بأنه سليل الكاهن ــ الساحر ، او الطبيب المشعوذ ، او طارد الارواح ، الذي تبدو صرخاته

الهيستيرية وكأنها صوت إله او روح حالّ في الجسم • وفي الوقت الحاضر ، ترك فن الشعر اصله السحري وراءه بعيدا الى درجة انه حين تتحدث عن شاعر بأنه ملهم فليس ذلك الا عبارة فارغة • الا ان اليونانيين القدامى كانت لديهم حفلات قصف دايانايسيس لتذكرهم بأن الفن نما من الطقوس •

لقد كان الممثل ينظر اليه في ذات الضوء • ففي القرن الرابع ، حين كانت المهنة منظمة تنظيما عاليا ، منح الممثلون اعفاء من الخدمة العسكرية وكان اشخاصهم يعاملون باعتبارهم مقدسين • ولا توجد أدلة تتعلق بالقرن الخامس ، ولكن لا مبرر للشك في انهم تمتعوا بذات الاحترام ، لان قدسيتهم كانت تنبع من اصلهم • فهم كانوا وسائل للتعبير عما كان يوما ما صوت احد الآلهة • وكان الممثل الذي يؤدي الدور الذي نظمه له الشاعر منحدرا من الشاعر ــ الممثل • وكان الشاعر ــ الممثل ، الذي كان يلقي الكلمات التي أُلهم بنظمها ، منحدرا ، عن طريق المنشد الاول في القصيدة الحماسية ، من الكاهن في زعامة (اليثويس) او الجمعية ، الذي كان هو الإله لان الاله كان قد دخل في جسده •

يمكن اذن الاستنتاج بأنه انسجاما مع اصلها المشترك فان هذه الطقوس الثلاثة ــ قصف الجمعية الدايانايسية ، والقبول في الاسرار الدينية والتراجيديا ــ كانت تنجز وظيفة مشتركة هي التطهير (كاثارسيس)، الذي كان يجدد حيوية المشاركين فيه بالتخفيف من الضغوط الانفعالية التي كان سببها التناقضات المولدة في مجرى التغير الاجتماعي • وقد انجزت هذه الغاية بالتعبير عن ما كان قد كُبِت • وتفسر الاشكال المختلفة التي اتخذتها هذه الوظيفة بالتعقد المتزايد في التركيب الاجتماعي الذي جعل سلوب التعبير أقل عنفا بشكل متصاعد • وفي الحفل التهتكي الدايانايسي ، كان جميع المشاركين يتعرضون لنوبة

هيستيرية فعلية تنطوي على القيام بأعمال لاإرادية ، وارتعاصات ، وعدم الشعور بالالم • وحين كان هذا الحفل يصبح مسرحية آلام ، كـان الدور الفعال مقصورا على الممثلين ، الذين ربما كانت تبدو عليهم انفسهم أعراض حادة ، كالراقصين في العديد من القبائل الحديثة الذين يغمرهم انتشاء روحي • الا ان هؤلاء الممثلين لم يثيروا في المشاهدين اكثر من مشاعر الخوف وأنهار من الدموع • وفي الطقوس السريـــة ، لا يزال يترتب على الملقنين ان يشاركوا بنشاط في العديد من الطقوس ، الا ان الطقس الرئيسي من هذه الطقوس هو دراما صوفيّة يؤديها لهم آخرون• وفي المهرجانات التراجيدية اصبح دور جميع الحاضرين ، باستثناء جزء منهم ، سلبيا بصورة كلية ، حيث اقتصر على التعبير عن مشاعر الرحمة والخوف التي كانت تثيرها فيهم ذروة الحبكة • وأخيرا ، وبالرغم من ان وطأة الضغوط لم تصبح أقل قسوة ، فقد تناقصت حدة الاعراض باطراد لان تشخّص المجتمع المتزايد ، الناجم عن انقسامات العمل الاكثر تنوعا، قد عمّق وأغنى حياة الناس العاطفية والفكرية الى حد جعل بالامكـان تواجد مستوى من التسامي اعلى نسبيا •

ان مبدأ التطهير يحظى بقبول علماء النفس العصريين • فهو يقدم تخفيفا عن طريق اعطاء مخرج حر للعواطف المكبوتة بسبُل من أمثـال ممارسة الاعتراف او المشاركة في المهرجانات العامة • والمواطن الذي طهر نفسه بهذه الطريقة يصبح بذلك مواطنا اكثر رضا وقناعة • ويجري التخفيف عن الضغوط العاطفية التي خلقها الصراع الطبقي بمشهد يجري فيه تصعيدها بوصفها تناقضا بين الانسان والإله ، او القـــدر ، او الضرورة • وقد حرم افلاطون التراجيديا لانها كانت هدامة للنظـام القائم • ورد ارسطو بأن اي تحليل عميق لها يظهر بأنها محافظة علـى النظام القائم • والسبب هو انه ، على غرار علماء النفس العصريين ، افترض بأنه حيثما وجد سوء توافق بين الفرد والمجتمع فان الفرد هـو

الذي يجب عليه ان يتكيف مع المجتمع ، وليس مع الفرد • ولم يستطع المحللون النفسيون العصريون الحفاظ عى هذا الموقف الا لان اكثرية مرضاهم كانوا ينتسبون الى طبقات ثرية • واذ يطبق هؤلاء علاجهم على المجتمع كلاً ، فان هذا العلاج سيدخلهم في مهمة التحقيق في القوانين التي تحكم البيئة الاجتماعية بقصد تكييفها مع مرضاهم • ومن المحتم ان يصبح المحلل النفسي ثوريا •

ان من آثار المدنية هو ولا ريب زيادة احتمالات الاضطرابات العصبية • واذ يزداد المجتمع تعقدا ، فهو يتكشف عن تناقضات جديدة• ولو كانت هذه هي كل ما في الامر لكان لنا مبرر في ان نلعن بروميثيوس، ولكن الامر ليس كذلك • فالعلاقة بين العمليتين ليست علاقة ميكانيكية، بل جدلية • وذلك ان مظاهر سوء التكيف الداخلية الناجمة عن التطور الاجتماعي تتراكم الى حد تعجل عنده باعادة تنظيم المجتمع نفسه ، وبعد ان تكون قد حُلّت على هذا النحو تظهر مجموعة جديدة من التناقضات العاملة على الصعيد الاعلى • وهذا الضغط المتبادل بين أطراف الكائن الحي وتركيبه بكليته هو القوة المحركة للتطور ، البايولوجي والاجتماعي معا • والانسان يتعلم بالمعاناة • وهذه التناقضات هي التي تجد تعبيرا عنها في الفنون • والفنان قد يحاول اصلاح العالم ، مثل شيللي ، او الهروب منه ، مثل كيتس ، او تبريره ، مثل ميلتن ، او مجرد وصفه ، مثل شكسبير ، الا ان هذا التضارب بين الفرد وبيئته الذي يحسه ، بوصفه فنانا ، بقوة متميزة ، هو الذي يقتضيه ضمنا ان يخلق في الخيال الانسجام الذي حرم منه في عالم متنافر • ولما كانت هذه الاعمال الفنية تجسد الجهد الروحي الذي أدى الى انتاجها ، فهي تمكن أفراد المجتمع الآخرين ، عبر تجربة رؤيتها او سماعها، التي هي جهد أقل درجة ولكنه مماثل نوعيا ، من تحقيق ذات الانسجام ، من حيث الآخرون بحاجة اليه ؛ ولكن بغير قدرة على اقامته لانفسهم • وعلى ذلك فالفنون

محافظة على النظام الاجتماعي . من حيث انها تخفف الضغط على أفراده، ولكنها في ذات الوقت هدامة ، لانها تشجع على تكرار الضغوط التي تنبهها من اجل التخفيف منها . وهي شكل من أشكال تنظيم الطاقة الاجتماعية ، والطوفان الذي تطلقه قد يعكس اتجاهه في اية لحظة وفي الظروف الملائمة . ويقود الفنان مواطنيه الى عالم من الخيال حيث يجدون انعتاقهم ، مؤكدا بذلك رفض الوعي الانساني الاذعان لبيئته ، وبهذه الوسيلة يتجمع مخزون من الطاقة ، يتدفق عائدا الى العالم الواقعي ويحوّل الخيال الى حقيقة . وهذه هي ، اذن ، الصلة بين تلك الروائع من الحضارة الانسانية كالتراجيديا اليونانية والرقص التمثيلي ، الذي يعبر فيه الصيادون المتوحشون عن كل من ضعفهم في وجه الطبيعة وتصميمهم على السيطرة عليها .

مراجع

Fallaize, E., Hastings, J. Encyclopaedia of Ethics and Religion, Vol. 10. Edinburgh, 1908 - 18.

Caudwell, C. Illusion and Reality. London, 1937.

جدول بالأحداث والأعلام

١ ـ الأحداث

ق٠م

تقريبا ٢٨٠٠ بدء العصر البرونزي في منطقة بحر ايجه ٠

تقريبا ١٨٠٠ بدء الهجرة اليونانية ٠

تقريبا ١٤٥٠ سقوط كنوسوس ٠ مجيء الاخيين ٠

تقريبا ١٤٠٠ اعادة احتلال كنوسوس ٠ نهوض ميسينيا ٠

تقريبا ١٢٣٠ ثيسيوس ملك اثينا ٠

تقريبا ١٢١٣ حملة ارجيف على طيبة ٠

تقريبا ١١٨٤ سقوط طروادة ٠

تقريبا ١٠٥٠ بدء عصر الحديد ٠ الغزو الدورياني ٠ الاستعمار الآيوني لآسيا الصغرى ٠

٩٠٠ـ٨٠٠ الالياذة والاوديسا ٠

٧٥٠ـ٦٥٠ الاستعمار اليوناني لايطاليا وصقليا ٠

تقريبا ٧٠٠ ميداس ملك فريجيا ٠

٦٨٧ـ٦٥٢ جيغاز ملك فريجيا •
تقريبا ٦٤٠ كيبسيلوس حاكم كورينث المطلق • ثيجينيس حاكم ميغارا المطلـق •
٦٣٢ كيلون يحاول انقلابا في اثينا •
٦٢١ تشريع دراكون في اثينا •
تقريبا ٦١٠ ثراسيبولوس حاكم ميليتوس المطلق •
تقريبا ٦٠٠ بيتاكوس حاكم ليسبوس المطلق • بيرياندروس حاكـم كورينث المطلق •
٥٩٤ اصلاحات صولون في اثينا •
٥٩٠ كليسثينيس حاكم سيكيون المطلق •
٥٨٦ الثورة المضادة الارستوقراطية في كورينث •
٥٨٥ الثامن والعشرون من ايار ، الكسوف الشمسي ، الـذي تنبأ به ثاليس •
٥٦١ـ٥٦٠ بيسيستراتوس يصبح الحاكم المطلق في اثينا •
٥٥٦ـ٥٥٥ نفي بيسيستراتوس الاول •
٥٥٠ـ٥٤٩ اعادة بيسيستراتوس ونفيه الثاني •
٥٤٨ـ٥٤٧ لحراق معبد ابولو في دلفي •
٥٤٦ سيروس ، ملك فارس ، يستولي على ساردیس •
٥٤٦ـ٥٤٥ الفتح الفارسي لليونان الآسيوية •
٥٤٠ـ٥٣٩ اعادة بيسيستراتوس الثانية •
٥٣٨ سيروس يستولي على بابل •
تقريبا ٥٣٠ بوليكريتيس حاكم ساموس المطلق • فيثاغورس يهاجر الى كروتون •
٥٢٨ـ٥٢٧ وفاة بيسيستراتوس •
٥٢٥ فتح الفرس مصر •

٥٢١ داريوس يصبح ملك فارس •
٥١٤ اغتيال هيبارخوس •
٥١٢ الفتح الفارسي لثريس •
٥١٠ طرد هيبياس •
٥٠٨ـ٥٠٧ بدء اصلاحات كليسثينيس •
٤٩٩ اندلاع الثورة الآيونية •
٤٩٦ ميلتياديس يعود الى اثينا من شبه جزيرة ثريس •
٤٩٤ الفرس يستعيدون ميليتوس •
٤٩٣ـ٤٩٢ ثيميستوكليس أرخوناً في اثينا •
٤٩٠ معركة ماراثون •
٤٨٩ حملة ميلتياديس على باروس •
٤٨٥ زركسيس يصبح ملكا على فارس •
٤٨٠ معركة سالاميس •
٤٧١ هروب ثيميستوكليس •
٤٦٤ ثورة الاقنان الاسبارطيين •
٤٦٣ـ٦١ط اصلاح مجلس الاريوباغوس •
٤٣١ اندلاع الحرب البيلوبونيسية •
٤٢٩ وفاة بيريكليس •
٤١٦ اخضاع ميلوس •
٤١٥ الحملة الاثينية على صقليا •
٤١١ الثورة المضادة الاولى في اثينا •
٤١٠ اعادة الديموقراطية في اثينا •
٤٠٤ الثورة المضادة الثانية في اثينا: الحكام المطلقون الثلاثون •
٤٠٣ الحامية الاسبارطية في اثينا •

٢ ـ الأعلام

١ ـ آخايوس الاريتيري ، مسرحيّ يوناني ، ولد في عام ٤٨٢ تقريبا .
٢ ـ اسخيلوس الاليوسيسي ، مسرحي يوناني ، ٥٢٥ ـ ٤٥٦ .
٣ ـ الكايوس الليسبوسي ، شاعر ارستوقراطي .
٤ ـ آلكمان (من سارديس واسبارطة) ، شاعر كورسي ، برز في عام ٦٣٠ ـ ٦٠٠ .
٥ ـ آناكسيماندير (آناكسيماندروس) الميليتيسي ، عالم ايوني ، ٦١١ ـ ٥٤٧ .
٦ ـ آناكريون التيوسي ، شاعر غنائي ، ٥٥٠ ـ ٤٦٤ .
٧ ـ اتتيغون الرامنوسي ، خطيب اثيني ، ٤٨٠ ـ ٤١١ .
٨ ـ ابولودوروس الاثيني ، اثريّ ، ولد في عام ١٤٠ تقريبا .
٩ ـ ابولونيوس الرودسي ، شاعر ولد في عام ٢٦٠ تقريبا .
١٠ ـ آراتوس السولوييّ ، شاعر ، ولد في عام ٢٧٠ تقريبا .
١١ ـ ارخيلوخوس الباروسي ، شاعر ولد في عام ٧٣٥ تقريبا .

١٢ ــ اريتايوس الكابادوشيي ، طبيب ، ولد في عام ١٨٠ (ب٠م) تقريبا٠
١٣ ــ اريستيديس ، بلاغي ، ولد في عام ١٢٠ (ب٠م) تقريبا ٠
١٤ ــ اريستوفانيس الاثيني ، مسرحي كوميدي ، ٤٤٤ ــ ٣٨٨ ٠
١٥ ــ ارسطو (ارسطوطاليس) الستاجيري ، عالم وفيلسوف ، ٣٨٤ ــ ٣٢٢ ٠
١٦ ــ ارستوسينوز التاراسي ، فيلسوف وتلميذ ارسطو ، برز في عام ٣٣٠ ٠
١٧ ــ باخيليديس الكيوسي ، شاعر كورسي ، برز في عام ٤٥٠ ٠
١٨ ــ ديموكريتوس الايبدرائي ، عالم وفيلسوف ، ٤٦٠ ــ ٣٦٠ ٠
١٩ ــ ديموسثينيس البايانيائي ، خطيب اثيني ، ٣٨٤ ــ ٣٢٢ ٠
٢٠ ــ ديودوروس الصقلي ، مؤرخ ، برز في عام ٤٠ ٠
٢١ ــ ديوجينيس اللايرتي ، مؤرخ فلسفة ، برز في عام ١٥٠ (ب٠م) ٠
٢٢ ــ ديوجينيس السينوبي ، فيلسوف كلبي ، ٤٠٤ ــ ٣٢٣ ٠
٢٣ ــ ديون خريستوموس البراوساوي ، بلاغي ، ولد في عام ٥٠ (ب٠م) تقريبا ٠
٢٤ ــ ايمبيدوكليس الاكراغاسي ، فيلسوف وعالم اورفيوسي ، ولد في عام ٤٩٠ تقريبا ٠
٢٥ ــ ابيقور الغارجيتوسي ، عالم وفيلسوف ، ٣٤٢ ــ ٢٦٨ ٠
٢٦ ــ يوريبيديس السلاميسي ، مسرحي يوناني ، ٤٨٠ ــ ٤٠٥ ٠
٢٧ ــ هيراكليتوس الايفيسوسي ، فيلسوف اثيني ، ٥٣٥ ــ ٤٧٥ تقريبا٠
٢٨ ــ هيرودوتس الهاليكارنيسوسي ، مؤرخ ، توفي في عام ٤٢٤ تقريبا٠
٢٩ ــ هيسيود (هيسيودوس) الاسكرائي ، شاعر ملحمي من بيوتيا ، برز عام ٧٥٠ ٠
٣٠ ــ هيسيخيوس الاسكندراني ، قاموسي ، برز في عام ٣٧٥ (ب٠م) ٠
٣١ ــ هيبوقراط الكوسي ، طبيب وعالم ، ولد في عام ٤٦٠ تقريباً ٠

٣٢ ــ ايامبليخوس السوري ، فيلسوف من المدرسة الافلاطونية الجديدة ، توفي في عام ٣٣٠ (ب٠م) تقريبا ٠

٣٣ ــ كراتينوس الاثيني ، مسرحي كوميدي ، ٥٢٠ ــ ٤٢٣ ٠

٣٤ ــ كريتياس الاثيني ، احد الحكام المطلقين الثلاثين ٠

٣٥ ــ ليسياس الاثيني ، خطيب ، ٤٤٥ ــ ٣٦٨ ٠

٣٦ ــ ميناندير (ميناندروس) الاثيني ، مسرحي كوميدي ، ٣٤٢ ــ ٢٩٠٠

٣٧ ــ نونوس البانو بوليسي شاعر برز في عام ٤٥٠ (ب٠م) ٠

٣٨ ــ بارمينيديس الايليي ، فيلسوف مثالي ، ولد في عام ٥١٠ ٠

٣٩ ــ بوسانياس الليدي ، جغرافي ، برز في عام ١٥٠ (ب٠م) ٠

٤٠ ــ فيليمون السولويي او السيراكوسي ، مسرحي كوميدي اثيني ، ولد في عام ٦٣٢ تقريبا ٠

٤١ ــ فيلولاوس الطيبي ، فيلسوف فيثاغورسي ، برز في عام ٤٥٠ ٠

٤٢ ــ فوتيوس الاستانبولي ، قاموسي ، توفي عام ٨٩١ (ب٠م) ٠

٤٣ ــ بيندار (بينداروس) الطيبي ، شاعر كورسي ، ٥٢٢ ــ ٤٤٢ ٠

٤٤ ــ افلاطون الاثيني ، فيلسوف مثالي ، ٤٢٨ ــ ٣٤٨ ٠

٤٥ ــ بلوتارخ (بلوتارخوس) التشيروناني ، كاتب سير ومقالات ، ولد في عام ٥٠ (ب٠م) تقريبا ٠

٤٦ ــ فورفيري (فورفيريوس) السوري ، فيلسوف من المدرسة الافلاطونية الجديدة ، ٢٣٣ ــ ٣٠٤ (ب٠م) ٠

٤٧ ــ براتيناس الفليبوسي ، مسرحي يوناني ، برز في عام ٥٠٠ ٠

٤٨ ــ سافو الليسبوسية ، شاعرة ، برزت في عام ٦٢٠ ــ ٥٨٠ ٠

٤٩ ــ سايمونيديز الكيوسي ، شاعر ، ٥٥٦ ــ ٤٦٨ ٠

٥٠ ــ سوفوكليس الكولونوسي ، مسرحي يوناني ، ٤٩٥ ــ ٤٠٥ ٠

٥١ ــ ستيتخوروس الهيميراني ، شاعر كورسي ، ولد في عام ٦٣٠ تقريبا ٠

٥٢ ــ سويداس ، قاموسي ، برز في عام ٩٧٠ (ب٠م) ٠
٥٣ ــ ثاليس الميليتوسي ، عالم آيوني ، برز في عام ٥٨٥ ٠
٥٤ ــ ثيوغنيس الميغاري ، شاعر ارستوقراطي ، برز في عام ٥١٠ ٠
٥٥ ــ ثيون السميرني ، عالم رياضيات ، برز في عام ١٣٠ (ب٠م) ٠
٥٦ ــ ثيوسايديديس الاثيني ، مؤرخ ، حوالي ٤٧١ ــ ٣٩٥ ٠
٥٧ ــ ترتايوس الاسبارطي ، شاعر ، برز في عام ٦٣٠ ٠

الفهرست

طقوس التكاثر ـ المحرمات الطوطمية ـ السحر التشبهي ـ التحدر من الطوطم ـ تجـزؤ القبيلة المترحلة البدائيـــة ـ الاستيلاء والانتاج ـ انحطاط الطوطمية ـ تقسيـم العمل ـ اساليب حساب النسب ـ مغزاها الاقتصادي ـ اصل الزواج الاباعدي ـ التعاون القبلي ـ عبـادة الاسلاف الطوطمية ـ الزعامة والألوهية ـ آلهة الطبيعة ـ الطوطمية في اليونان ـ رموز العشيرة ـ ولائم العشيرة ـ التلقين والزواج ـ الزواج المقدس ـ طقوس الملك ـ الإله .

٢ ـ الزواج الاباعدي ٣٣

الحضارة الهندية ـ الاوربية البدائية ـ نظام القرابة التصنيفي ـ نظرية مورغان عن زواج الجماعات ـ النظـــام التصنيفي الهندي ـ الاوربي ـ البطن اليوناني ـ النسب من الام في يونان ما قبل التاريخ ـ زيوس وهيرا ـ التعابير اليونانية لكلمة اخ ـ التعاون والتنافس ـ قانون الإرث اليهودي ـ انهيار الزواج الاباعدي ـ القتل ـ الايرينات .

٣ ـ الملكية ٥١

امتلاك الارض في القصائد الهوميريـة ـ تحصيص الارض في «العهد القديم» ـ تحصيص الارض فـــي يونان ما قبل التاريخ ـ افرادات الاراضي ـ تحصيص وإفـــراد الغنائم والطعام ـ الإفراد مكافأة عن الخدمات العسكرية ـ قانون

القسم الثاني
من القبيلة الى الدولة

القسم الثالث
أصل الدراما

اسخيلوس وأثينا ...

عن هذا الكتاب

ما كتب عن المسرح اليوناني القديم كثير ، وما كتب عن السياسة وجذورها الاجتماعية في اليونان القديمة كثير ايضاً . إلا أن ما كتب عن هذا المسرح منظوراً اليه من تلك السياسة وجذورها قليل ان لم يكن نادراً . والكتاب الذي بين يدي القارىء العربي نمط من هذا الجمع والربط الفريدين بين استيعاب النصوص المسرحية وفهم اصولها السياسية - الاجتماعية . فمؤلفه ، الاستاذ جورج تومسن ، كان استاذ اليونانية في عدد من الجامعات البريطانية وعضو شرف في اتحاد الكتّاب اليونانيين . وقد كتب عدداً من الكتب عن اليونانية وآدابها .

وتكمن اهمية ترجمة هذا الكتاب ليس في مجرد اغناء المكتبة العربية بمثل هذه الدراسة الاصيلة للفكر السياسي اليوناني القديم عبر مسرح اليونان القديمة ، بل في امكان اتخاذها دليلاً يستضاء به في أية دراسة لمادة مماثلة . وقد حظي الكتاب بمكانة مرموقة بين المعنيين بالفكر والمسرح اليونانيين داخل موطن المؤلف وخارجه .

الغلاف : سينا عبد الوهاب

مؤسسة عربية دراسات النشر
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ، ص.ب : ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي : موكيالي ، هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس : LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧